ونجد أن شيخنا رشيد رضا الذي نقل لنا تاريخ الإمام محمد عبده يروى قصة لقاء بينه وبين ذلك المدعو « بهاء » في بيروت ، ويحكي الشيخ رشيد عن الإمام محمد عبده أن هذا البهاء كان يأتي للصلوات الخمس ويصلي الجمعة . وعندما سأله عن تلك المسألة المسماة بالبهائية . أجاب بأنها محاولة للتقريب بين الشيعة وأهل السنة . وعندما أمرت الدولة العثمانية بمحاكمة ذلك البهاء توسط قنصل روسيا فاكتفوا بنفيه إلى بغداد . وعاش فترة فيها ثم مات وقام الأمر من بعده لابنه عباس المسمى عبدالبهاء .

لقد كانت البداية برجل سمى نفسه الباب صاحب كتاب البيان وقال فيه : « ملعون مطرود من يدعى أنه جاء بشريعة بعد شريعتي إلا بعد مرور ألف سنة » . وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمى نفسه البهاء ، وأعلن أنه جاء بشريعة جديدة ، ويعقد الوصية لابنه المسمى « عبدالبهاء » . ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه المسمى « شوقى أفندى » وكان يقيم بعكا . هكذا انفضحت أكاذيبهم . ورئيس البهائية الحالى هو يهودى إسمه بترسون .

إذن فالردة عن الإسلام لم تكن نابعة من نفوس المسلمين ولكن مدفوع إليها من خصوم الإسلام الذين يأخذون أى رجل ملحد فيه بعض من الذكاء وينفخون فيه بدعاياتهم حتى يشوهوا دعوة الإسلام . وأقاموا مراكز لمثل هذه الانحرافات فى بلجيكا وأمريكا وانجلترا . وحاولوا النفاذ إلى البلاد الإسلامية لينشروا فيها دعوتهم ومبادئهم . وكانوا يأخذون المرأة كنقطة هجوم على الإسلام . ويتهمون الإسلام بأنه يضع المرأة فى الحريم ، ويحبسها فى خيمة وإلى آخر تلك الدعايات التى تشوه تكريم الإسلام للمرأة .

ومن العجيب أنى سمعت بأذنى من واحدة هى بنت لتلك الحضارة الغربية . تقول : كنت أتمنى أن أكون مسلمة وأمًا لشاب مسلم .

فعلينا نحن المسلمين ألا ننخدع بتلك الدعايات وتلك المذاهب التى تتسلل من باب تخفيف المنهج والمراد بها قتل قيم الإسلام التى تحمى الإنسان وتحترم مشاعره ؛ لذلك يجب أن ننتبه إلى دعوات المتسللين إلى مجتمعاتنا بنية هدم ديننا . وعلى

الحكومات أن تضرب على أيدى العابثين بدين الله لا أن تترك مسائل الدين لهبّات الأفراد . وكل منا مطالب بأن يرد عن دين الله كل دخيل عليه وكل محاولة لوضع أمور ليست من الدين فى شىء . وجزى الله قضاة مصر خيراً حينما تصدوا لمثل هذه الدعوات ووقفوا دفاعاً عن الإسلام لتبيين وإيضاح كل أمر دخيل عليه ، فدستور الدولة ينص على أن مصر بلد مسلم ، وإن كانت بعض التقنينات فى دور التشريع . وجزى الله قضاة مصر عنا خيراً ، فقد وضحوا تلك المسائل وبينوها . وعرفنا بسلوكهم أن خميرة الإيمان هى التى تحكم سلوك المسلم الحق ، وإن تخلت عنه بعض القوانين التى عليه أن يحكم بها .

وكلما حدث حادث من تلك الحوادث لنا أن نتذكر القول الصادق من الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكل هذه الحركات المناوئة للإسلام تنتهى ويبقى الإسلام قوياً بأبنائه الذين يحبهم الله ويحبونه . هؤلاء الذين وصفهم الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ويذيل الحق سبحانه هذا القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعم إنه فضل من الله ، لأنهم ما داموا يحبهم الله ويحبون الله وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين فقد جعلهم سبحانه حملة لواء منهجه لتكون كلمة الله هى العليا . وذلك تفضل من الله . ولنعلم أن الخير لا يعود منا على الله ، لأنه سبحانه هو واهب كل خير ، ولم يأت لنا الخير من بعد خلقنا ، ولكن نحن الذين طرأنا على الخير ، نحن طرأنا على الأرض ، وعلى السماء بما فيهما من كل كنوز الخير ،

ففي الأرض العناصر والمعادن والقوت ، وفي السماء الشمس والقمر والنجوم ، وكل تلك فضل الخالق على المخلوق .

إن فضل الله يؤتيه سبحانه وتعالى من يشاء وتتسع قدرته لكل مطلوب ، ولذلك لا يمن المؤمن على الله بإيمانه ، فليس عند الله أزمة في الذين يؤمنون به ، وهو قادر على أن يأتي بقوم يحملون دعوته ، فإذا ما ارتفعت رأس الباطل فهذا دليل على أن نطاقها قد حان ؛ لأن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض .

فكأن الله حين ينتدب للمؤمنين لمهمة إيمانية فلا يقال : إن المؤمنين إنما يفعلون ذلك لمصلحة ربهم . لا ، ولكن ذلك فضل من الله على المؤمنين حين يختارهم لمهمة حمل البلاغ عن الله ، ويعود الخير إلى المؤمنين لمرة مضاعفة . إذن فحين يكون اختيار الله للمؤمن لمهمة إيمانية فهذا فضل من الله على المؤمن . ونعرف أن الفضل هو الأمر الزائد عن العدل فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وكل تكليف من الحق للخلق هو فضل من الله ؛ لأنك إن نظرت إلى كل تكليف من الحق للخلق لوجدت أن التكليف إنما يعود لصالح الخلق وما دامت الفائدة من التكليف تعود إلى الخلق فليس من المطلوب إذن أن يطلب الحق المؤمنون المكلفون ، لكن الله يأبى أن يكلف خلقه بتكاليف ويذهبون إلى هذه التكاليف بطاعة ورغبة دون أن يجازيهم على ذلك بحسن الثواب . ولهذا نجد الحق يقول :

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

المنة إذن لله حين تفضل على الخلق الذين أطاعوه بحسن جزائهم في إطار تكاليفه الإيمانية ، وفوق ذلك هناك الثواب ، وهذا هو عين الفضل من الحق على الخلق المؤمنين :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وساعة نسمع « بفضل الله » فلنعلم أن فضل الله لا حدود له . ولقد نجد من يقول : ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : لنفترض أن إنساناً مات ، ونجد الأمر من الخالق سبحانه وتعالى بأن نصلى عليه ؛ لندعو له بالرحمة . ودعاؤنا للميت بالرحمة يأتى له بخير أكثر مما عمل هو فى حياته ، ولولا أن صلاتنا على الميت تنهب الميت وتنيبنا فى آن واحد لولا ذلك ما أمرنا الحق بأداء هذه الصلاة .

وقد يقول قائل : هذا الخير الذى يأتى إلى الميت من دعاء المصلين عليه ليس من سعى الميت .

ونقول : إن « اللام » فى قوله الحق :

﴿ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النجم)

هذه اللام تفيد الاستحقاق والملكية . وهو قول كريم يحدد العدل ولا يحدد الفضل . ونضرب مثلاً من حياتنا نحن البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد السيد يقول للخادم عنده : إن لك أجراً عندى يساوى مائة جنيه . ثم يجىء السيد فى آخر الشهر ويقول للخادم : خذ مائة وخمسين جنيهاً . العدل إذن هو أن يأخذ الخادم أجره وهو مائة جنيه ، ولكن الخمسين جنيهاً الزائدة هى الفضل الزائد عن الأجر .

إننا حين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بأن نصلى على الميت فهذا تفضل من الله على الميت وعلينا أيضاً . هذا لون من تفضل الله على خلقه . وسبحانه يجازى كل إنسان بما عمل ويمنحه فوق ذلك ، ومن قصّر فى شىء من العمل . ويصلى عليه الناس ويدعون له بالرحمة فتفيض رحمة الله على العبد وعلى غيره من العباد . وهذا هو مناط قول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾

(سورة يونس)

وعندما نحقق في هذا الموقف وحده نجد أن الجزاء يكون أفضل من العمل . وما الذي يجعل المؤمن يصلى على ميت مؤمن ؟ . إنه إيمان هذا الذي مات وإيمان من مات ملك له ، وعلى ذلك فملكية المؤمن لإيمانه تمتد بعد أن يموت لتشمل صلوات ودعاء من صلوا عليه .

وذلك يدخل في فضل الله :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وما دامت المسألة فضلاً من الله يشمل كل مؤمن فلا بد أن الحق عنده من السعة ما يعطى الكل . وسبحانه واسع عليم . والحديث القدسي يقول : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

إذن فخزائن الله ملأى لا تنفد . وسعة الحق مطلقة .

ولهذا نحن أيضاً نجد أن الحب في الله يزداد دائماً ، فساعة نشاهد اثنين يتحابان في الله ، فحبهما يزداد كل يوم ؛ لأنه الحب في الله . أما إن كان الحب لأمر محدود فذلك الحب ينتهى ويترك كل منهما الآخر بانتهاء السبب لذلك الحب .

ولنأخذ قضية واضحة أمامنا : من كان يحب في الله فالحب لغير المحدود لا حدود له . ومن كان يحب في غير الله ، فالحب هنا لمحدود ويرتبط طرداً وعكساً بمدى الإثراء من هذا المحدود . ومن يحب لغرض من أغراض الدنيا يقيس ما يعطيه لمن يحب ، فإن زاد ما يعطيه على ما يأخذه يحس بالخسارة . وعندما نتبادل الحب في الله فلا شيء ينقص عند الله أبداً ؛ لأنه سبحانه يعطى الاثنين معاً اللذين يتحابان فيه ، وسبحانه العليم أزلاً ، وصاحب القدرة الذى يعطى كلّ إنسان المناط الذى يستحقه .

---

(١) رواه مسلم في باب تحريم الظلم ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وحين نهانا الحق عن أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء فعلينا أن نأخذ بالقياس أن النهى إنما يشمل كل خصوم ديننا ، فلا نتخذ أيًّا من أعداء الدين وليًّا لنا ، لأنه سبحانه وتعالى لم يتركنا بغير ولاية ، وهو وليُّنا وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا .

إذا أردنا المقارنة بين ولاية الله وولاية أعداء الله فلنعرف أن كل عدو لله له قدرة محدودة لأنه من البشر . أما ولاية الله لنا فلها مطلق القدرة . وأى عدو له قد يتظاهر لنا بالولاية نفاقاً . أما ولاية الله لنا فلا نفاق فيها لأنه لا قوة أعلى منه . وإن كان الحق قد منعنا أن نتخذ من أعدائه أولياء فذلك ليحررنا من الولاية المحدودة ليعطينا الولاية التى لا تتغير وهى ولايته سبحانه وتعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهكذا يكون التعويض فى الولاية أكبر من كل تصور . وساعة نرى « إنما » فلنعرف أن هناك ما نسميه « القصر » أو « الحصر » .

مثال ذلك نقول : « إنما الكريم زيد » : كأن القائل قد استقرأ آراء الناس ولم يجد كريماً إلا زيداً ، وكأنه يقول : « زيد كريم وغير زيد ليس بكريم » واختصر الجملتين فى جملة واحدة بقوله : « إنما الكريم زيد » وأثبت بهذا القول الكرم لزيد ونفاه عن غيره . أما إن قال القائل : « زيد كريم » فهذا القول لا يمنع أن يكون غيره من الكرماء .

إن الحق سبحانه يحصر الولاية فى قوله : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهو قد نهانا من قبل عن ولاية أهل الكتاب ، وعن ولاية كل من لا توجد عنده مودة أو محبة تعين المؤمن على مهمته الإيمانية . فلو كان عند أحد من أهل الكتاب أو الملاحدة محبّة ومودّة تعين المؤمن على أداء مهمته لما بقى هذا الإنسان على منهجه

المحرّف أو على إلحاده ، بل إن ذلك سيجعله يذهب إلى الإيمان برسالة الإسلام .

إننا نجد بقاء الكافر على كفره أو إلحاده أو عدم إيمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم دليلا على أنه لم يستطع الوصول إلى الهداية أو أنه - إن كان من أهل الكتاب - لم يستطع أن يكون مأموناً على الكتاب الذى نزل إلى نبيّه وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف - إذن - يعين إنسان مثل هذا إنساناً مسلماً ؟ . إنه لا يستطيع أن يعين ولا أن يوالى ولا أن يكون على هداية ؛ لأنه لم يستطع أن يهدى نفسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

لأن الذى لا يستطيع أن يهدى نفسه لن يستطيع هداية غيره .

وحين نهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن سؤال أهل الكتاب كان يعلم أنهم فى ريب من أنفسهم ، وفى ضلال وخلط ، فهم إما يخلطون الحق بالباطل ، وإما فى غيظ من الذين آمنوا ؛ لذلك نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسألهم ، وهذا هو الاحتياط للدين ، فقد يسألهم المؤمن سؤالاً ، فيجيبون بصدق ، فيكذبهم المسلم ، وقد يجيبون بكذب فيصدقهم المسلم ؛ لذلك لا يصح ولا يستقيم أن يسألهم المسلم أبداً عن شىء ؛ لأنه عرضة لأمر من اثنين : إما أن يصدق بباطل ، وإما أن يكذب بحق . وأهل الكتاب أنفسهم قد تضاربوا ، ألم يقل الحق على ألسنتهم :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وكذلك قالت النصارى :

﴿ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فأى الموقفين نصدق ؟ أنصدق رأى اليهود فى النصارى ؟ أم نصدق رأى النصارى فى اليهود ؟ ولا نستطيع أن نكذب رأى اليهود فى النصارى ، ولا نستطيع

أن نكذب رأى النصارى فى اليهود ، إذن نحن يقول الحق سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فعلينا أن نفهم أنه سبحانه وتعالى ما دام قد نهاكم عن أن تتخذوا أولياء من دون الله فلن يترككم أيها المؤمنون دون ولى . بل منعكم فقط من ولاية من لا يمكن أن يكون صادقاً فى معونتكم ولا فى نصرتكم .

لقد أراد سبحانه أن يكون هو بطلاقة قدرته وليكم ، ورسول الله أيضاً وليكم ، وكذلك الذين آمنوا . ونجد من يقول : الحق هنا قد عدد الولاية فهو سبحانه وتعالى ولى الرسول صلى الله عليه وسلم ولى المؤمنين ، لماذا لم يقل - إذن - : أولياؤكم هم الله والرسول والذين آمنوا ؟

ونقول : هل كانت للرسول ولاية منفصلة عن ولاية الله والمؤمنين ؟ وهل كانت للمؤمنين ولاية منفصلة عن ولاية الله والرسول ؟ لا ؛ لأن الولاية كلها منصبة لله ، فلم يعزل الحق الرسول عن ربه ، ولا عزل المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقسم الولاية إلى أجزاء ، بل كلها ولاية واحدة وأمر واحد . ونلحظ أن الخطاب فى « كاف الخطاب » هو للجمع : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، و« كاف » الخطاب هنا تضم المؤمنين ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى ولى الرسول وولى المؤمنين ، والرسول ولى المؤمنين . وجاء فى المؤمنين قول الحق :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة التوبة)

كم درجة من الولاية هنا إذن ؟ الله ولى الرسول وولى المؤمنين . ذلك أنه سبحانه شاء بفضله ألا يعزل الولاية أو يقسمها بل جعلها ولاية واحدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ولى المؤمنين ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ؛ لذلك نجد أن كل مؤمن مطلوب منه معونة ونصرة أخيه المؤمن .

إن الإنسان - كما نعلم - ابن أغيار ، وما دام الإنسان ابناً للأغيار فعلينا أن نعرف أن المؤمنين لن يظلوا كلهم فى حالة توجيه النصيحة . ولن يظلوا جميعهم فى حالة تلقى للنصيحة . وكل واحد منهم يكون مرة ناصحاً ومرة يكون منصوحاً ، فساعة يصيب

الضعف مؤمناً فى جزء من المنهج يجد أخاه المؤمن قد هبّ لنصحه ليعتدل . وساعة يصيب الضعف الناصح فى جزء من منهجه فالمنصوح السابق يهب لنصح أخيه ليعتدل . والذى خلق الخلق وهو أعلم بهم ، ويعلم كيف تستوعب الأغيار الخلق ، وكيف أن كل إنسان له خواطره وله ظنونه وله مواقف ضعف وله مواقف قوة . إنه - سبحانه - لم يطلب من الناس أن يوصوا بالخير فحسب ولكنه قال :

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

لماذا إذن التواصى بالحق ؟، لأن سبيل الحق شاقة ، ولأن أصحاب الحق يلاقون المتاعب من أصحاب الباطل ، لذلك لابد أن يؤازر أصحاب الحق بعضهم بعضاً فيقول الإنسان من أهل الحق لأخيه ما يساعده على التمسك بما هو أعز من الراحة والصحة والمال . ولا بد أن نجعل الحق واضحاً فى حياتنا وسلوكنا ، وأن يتذاكر أهل الحق بما حدث لغيرهم وكيف صبروا ، هكذا يكون التواصى بين المؤمنين .

وتلك هى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

إذن فقوله الحق : « إنما وليكم الله » هو ما يسمونه فى اللغة « أسلوب الحصر » ، أى لاولى لكم غير الله . وحين يُرَدّ الإنسان من الولاية المحدودة القدرة ويجعل العوض له فى غير محدود القدرة فذلك كسب كبير للعبد ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومَن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »[1] .

كيف تكون أنت أيها العبد فى عون أخيك ؟ يتحقق لك ذلك عن طريق أن تقدم لأخيك المؤمن المعونة والنصرة والمؤازرة والتواصى . وتقدم لأخيك من وقتك وطاقتك وقدرتك ومالك ما يعينه . وإياك أن تحسب المسألة بأنك كنت تستطيع أن تفعل كذا وكذا فى الوقت الذى أعطيته لأخيك المؤمن ، بل يجب أن تحسبها بأن الله هو الذى

(١) رواه الترمذى فى الحدود ، وأبو داود فى الأدب ، وابن ماجه فى المقدمة وأحمد ٢/٢٥٢ ، ٥١٤ .

أعطاك الوقت والمال والجهد وأنت لا تفعل شيئاً بقدرتك أنت ، وأن قدرتك المحدودة عندما تعطى بعضاً منها لأخيك فأنت تصل قوتك المحدودة بصاحب القوة غير المحدودة وهو الله . وبذلك يكون الله فى عونك وتكون أنت الأكثر كسباً . فمن يرد الله بجانبه فلا بد أن يكون مع الخلق دائماً بالمعونة ، وبهذا السلوك يرتقى المؤمن إلى أعلى درجات الذكاء .

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وسبحانه يريد أن يبين لنا مميزات أصحاب الإيمان ؛ لأننا حين نتعرف على شعب الإيمان وصفاته الجميلة إنما نميز بهذه الصفات المؤمنين من غيرهم . وإقامة الصلاة هى الصفة الغالبة فى وصف الذين يؤمنون بالله ؛ لأن الصلاة هى الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات فى كل يوم . والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

« بُنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت »[1] .

وهذه الأركان الخمسة هى الدعائم والأسس التى تقام عليها عمارة الإسلام . وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها ، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل والمطلوبات غير الأسس ، وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر ، ومن بعد ذلك يقيم الصلاة . ثم يؤدى الزكاة ، لكن إن كان فقيراً فهو معفى من أداء الزكاة . وحتى الذى يؤدى الزكاة فهو يؤديها فى وقت واحد فى السنة . ومن بعد ذلك يصوم رمضان . لكن المريض أو المسافر أو الذى له عذر فهو يفطر ويقضى الصوم ؛ ويفدى عن الصيام المريض الذى لا يرجى شفاؤه والعجوز الذى تصيبه بالصوم مشقة شديدة . ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة فى العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

هذه هى أركان الإسلام ، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم . اللهم إلا الصلاة فهى أساس يتكرر ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة »[2] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى الإيمان وأحمد ٢/٢٦ ، ٩٣ والحميدى والطبرانى .

(٢) رواه الترمذى فى الإيمان ورواه أحمد .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »[1] .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »[2] .

لذلك لا تسقط أبداً ، فنحن نصلي ونحن قيام ، ونصلي ونحن قعود ، ونصلي ونحن على جنوبنا . ونصلي ونحن غير قادرين على أية حركة ، نصلي بالإيماء . ومن لا يقدر على هز رأسه بحركات الصلاة في أثناء المرض الشديد فهو يصلي بعينيه . ومن أصابه ـ والعياذ بالله ـ شلل جعله لا يقدر على تحريك جفنيه بحركات الصلاة فهو يصلي بالخواطر وبالوعي أي يجري أركان الصلاة على قلبه. أما من ذهب عنه الوعي فقد سقطت عنه الصلاة .

ولذلك يقول الحق : « والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة » ويقول بعد ذلك : « ويؤتون الزكاة » ، لأن إيتاء الزكاة معناه تقوية أثر حركتك لغيرك وتعدية أثر هذه الحركة للضعيف عنك ، وحينما تزكي إنما تعطي مالاً ، والمال هو ناتج من أثر حركتك في الوجود ، وعطاؤك من مالك بالزكاة يدل أيضاً على الإيمان . ثم يذيل الحق الآية بقوله : « وهم راكعون » . وهل الركوع هنا بمعنى الركوع في الصلاة ؟ أو بمعنى الخضوع لكل تكاليف منهج الله ؟ أو أنها نزلت هنا في مناسبة خاصة لحالة خاصة ؟

هناك رواية تقول : إن عبدالله بن سلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قوماً من قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل . وشكا عبدالله مما يلقاه من اليهود ، فنزلت تلك الآية :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ

---

(1) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن جابر

(2) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة المائدة)

فقال بن سلام : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . وتزيد الرواية فى موقع آخر : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أنى جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطانى أحد شيئاً ، وسمعه على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه وكان يصلى ـ فمد على يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فأجاب الرجل نعم خاتما ، وأشار إلى على بن أبى طالب . وهنا نزلت الآية بتمامها :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وإياً كانت المناسبة التى نزلت فيها الآية ، فالركوع معناه الخضوع ، والخضوع يكون لكل تكاليف منهج الله . فإذا كنا نقول : فلان ركع لفلان فهذا معناه أن فلاناً قد خضع لفلان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق أوضح فى الآية السابقة : إن الله هو الولى ، وهنا تكون أنت أيها العبد المؤمن من الذين يتولاهم الله ، تماماً مثل قوله : (يحبهم ويحبونه) .

وحين يكون الله في معونتك فهو يعطيك من قدرته غير المحدودة فكيف تتولى أنت الله ؟ ويكون القول الحاسم في هذا الأمر هو قول الحق :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

والحق في الآية التي نحن بصددها جاء بالمقابل لما جاء في الآية السابقة عليها فهو القائل من قبل : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) .

وفي هذه الآية يأتي بالمقابل فيقول سبحانه :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذه المقابلة توضح لنا كيف ينصر الله العبد ، وكيف ينتصر العبد لله . ولم يقل سبحانه في وصف من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا : إنهم الغالبون فقط ، ولكنه أورد هذه الغلبة في معنى عام فقال : « فإن حزب الله هم الغالبون » .

وكلمة « حزب » معناها : جماعة التف بعضهم مع بعض على منهج يرون فيه الخير . ولا يمكن أن يجتمع قوم بقوة كل فرد فيهم بفكر كل فرد منهم إلا إذا كان هذا الأمر هو خيراً اجتمعوا عليه ، إذن فحزب الله في أي وضع وفي أي تكوين ولأية غاية هو الحزب الغالب . وعلى المستوى الفردي نجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة »[1] .

فما معنى حَزَبه هنا ؟ معناه أمر أتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيراً . وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله . فنهزم الأمر الذي يحزبنا ولا نقدر عليه بأن نقيم مع الله حزباً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزبُه أمر يتعلق بدنياه وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالدين ؛ لذلك

---

(١) رواه أحمد وأبوداود عن حذيفة .

يذهب رسول الله إلى من يعطيه ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة . إنه يذهب إلى الصلاة . ويعلن أن أسبابه قد انتهت ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حَزَبَهُ ، ولأن الله لا يغلبه شيء ؛ لذلك فسبحانه يرفع الهمّ عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويغلب كل أمر صعب . وإن حَزَبَنا هذا الأمر في نفوسنا فسنجد العجب .

إذن فحين تعز الأسباب على المؤمن في أمر ما ويكون قد أعطى كل جهده ومازال هذا الأمر يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، وييسر الحق هذا الأمر للمؤمن بالخير . والمؤمن عندما يحزبه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبب وهو الله ، لكن على المسلم ألا يذهب إلى الله إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب ، فالأسباب إنما هي يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله ويطلب ذات الله ، فإن انتهى الأخذ بالأسباب فليذهب إلى المسبب :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

وسبحانه الذى يجيب المضطر وهو الذى يكشف السوء وهو الذى جعل البشر خلفاء في الأرض ، وسبحانه لا شريك له في ملكه ، وهو القائل :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة النمل)

وإذا قال قائل : ولكنى أدعو الله ولا يستجيب لى . ونقول : أنت لم تدع دعوة المضطر ؛ لأنك لم تستنفد الأسباب . وعليك أن تستنفد الأسباب كلها . فإن استنفدت الأسباب فالحق يجيبك مادمت مضطراً .

إذن فحزب الله عندما يَغْلِب إنما يعطينا قضية مكررة من « إن المؤكِّدة واسمها وخبرها » وهذه قضية قرآنية وهى تختلف عن القضية الكونية التى تصف واقع الحياة . ويقول الحق :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

وسبحانه يعلم ما يكون في كونه ، ولن تختلف قضية القرآن عن قضية واقع الكون . وساعة تجد قوماً تجمعوا وفي صورتهم الرسمية الشكلية أنهم رجال الله ، ولا يَغْلِبُون فعلينا أن نعرف أنهم خدعوا أنفسهم وخدعوا الناس بأنهم حزب الله وواقع الحال أنهم ليسوا كذلك ، لأنه سبحانه قال :

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وهذه قضية قرآنية . ونأخذ الأمر دائماً بسؤال : هل غلبت أم لم تغلب؟ فإن كنت قد غلبت فإن جنديتك لله صادقة . وإن لم تكن فأنت تخدع نفسك بأنها جنديّة لله وهي ليست كذلك . ولنا المثل الواضح من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين صحابته في موقعة أُحُد وأمر الرُّماة أن يقفوا موقفاً خاصاً ، فلما وجد الرّماة استهلال نصر المؤمنين على الكافرين ، وأن الذين يحاربون أسفلهم يأخذون الغنائم ، ذهبوا هم أيضاً إلى الغنائم وخالفوا أمر الرسول حينما قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »[1] .

فلما خالفوا أمر رسول الله أكانوا جُنوداً لله بحق ؟ لا ، بل اختلت جُنديتهم لله . ولم يمنع وجود رسول الله فيهم سُنّة الله الإيمانية في كونه ألا تقع ، ولو ظلوا منتصرين على الرغم من أنهم خالفوا الرسول فهان أمر رسول الله في نظرهم ؛ لذلك أراد الحق أن يُوقع بهم ألم الهزيمة المؤقتة من أجل أن يتأدبوا ، وحتى يَعَضوا على أمر سيدهم وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنّواجذ . وقد أورد الحق ذلك الأمر ورسول الله فيهم من أجل مصلحة الإسلام ، فلو نصرهم على الرغم من مخالفتهم لرسول الله لجرأهم ذلك على أن يخالفوا .

(١) رواه ابن إسحق في السيرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

والهُزُوُ هو السخرية والتبكيت . وهُزْء أهل الكتاب من أهل الحق لون من الانفعال العكسي . فساعة يرى بعض من أهل الباطل واحداً ملتزماً يُصلّى ،لا يُحملق في النساء قد يصفونه بصفات غير لائقة ، لأنهم لا يستقبلونَ التزامه إلا بلونٍ من السخرية ، وحتى لا يفهم أنه خيرٌ منهم ، وقد يضلونه فيتبعهم .

ولنفرض أن ثلاثة من الشباب جمعت بينهم الصداقة ثم انحرف منهم اثنان والتزم واحد منهم . وكان لأحد المنحرفين أخت فيطلب زميله المنحرف يد هذه الأخت ، ويأتي له الصاحب الذى لم ينحرف ليطلب الأخت نفسها ، هنا نجد الأخ لا يوافق على زواج أخته بالمنحرف ، بل يوافق على زواجها من الذى لم ينحرف ؛ لأنه لن يخدع نفسه . وعندما يعاتبه المنحرف فهو يرد عليه : وهل أستأمنك على أختى ؟ أنا أعرفك حق المعرفة .

وهكذا نرى أن التيم هي القيم . وعندما يكون هناك إنسان على حق ويلتقى بالناس على باطل نجدهم لا يتركونه وشأنه ، ولأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مثله فلا أقل من أن يهزأوا منه حتى يحتفظوا لأنفسهم بفسادهم . وعندما ننظر إلى العادات الضّارة التى تنتشر ، مثل شمّ الهيروين أو تدخين المخدرات نجد أن الذى وقع فى مصيدة هذه المصائب يريد أن يجر غيره إلى مثل هذا المستنقع . ونجد فى القرآن ما يقوله لنا خالق الطباع والعليم بها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المطففين)

مثل قول أهل الباطل للمؤمن : احملنا إلى الجنة على جناحك . أو : أتريد أن تكون ولياً .

﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويرجع الواحد منهم إلى أهله ليحكي بسرور : لقد قابلنا إنساناً غارقاً في الإيمان وسخرنا منه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

بل قد نجد أن أهل الاضلال يتهمون المؤمن بأنه على ضلال ، فماذا يكون العقاب يوم الحشر ؟

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وكأن الحق يسأل المؤمنين : ألم آخذ لكم حقكم ؟ إذن فالذين يتخذون الدين هزواً ولعباً . وادعوا الإيمان نفاقاً . إياكم أن تأنسوا لهم .

ولقد حذرنا الحق بداية :

﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين مادة للهزء أولياء ، وعلى المؤمنين اليقظة

والمنبر ؛ لأن الحق يقول : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان ، عليكم ألا توالوا اليهود والنصارى وكذلك من يتمسح فى الإيمان نفاقاً ويريد الانتفاع بمزايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين .وتقوى الله تبدأ من أن يحفظ المؤمن المنهج ، ويحاول أن يستبقى للمنهج مناعة اقتداره أمام خصومه بألا يُدخل المؤمنُ فى حماية المنهج من لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

والنداء هو دعوة بجهر . ومقابل النداء المناجاة . وتثبت هذه الآية أن الأذان مشروع بالقرآن ، وفى ذلك رد على الذين يقولون : إن الأذان قد شرع بالسنة . أو أن القرآن بهذه الآية قد أقر تشريع الأذان .

« وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » ذلك أنهم كانوا يقولون عن الأذان : لقد صاحوا صياح الحمير . ووصفهم الحق بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والعقل - كما نعلم - هو الأداة التى تؤدى مهمة الاختيار ما بين البدائل ؛ أى أن يختار الصالح من الأمور فيدرس مزايا كل أمر ومضاره ويختار الأمر الربح .

إن الهوى هو الذى يدفع العقل إلى أن يختار أمراً خاطئاً . فيجنح بالعقل إلى الضلال . وآفة الرأى الهوى . ولا يميل الإنسان عن جادة الصواب إلا إذا أراد أن يخدم هواه . ولذلك لا بد أن يكبح المؤمن جماح هواه بعقله ، والعقل مأخوذ من عقال البعير ، فصاحب الجمل يقيد ساقه بقطعة من الحبل حتى لا يجمح ويحتاج الإنسان إلى العقل ليكبح جماح الهوى ، وليفتقذ الإنسان من الضلال لا أن يبعد

الهوى . والذين يريدون العقل تحرراً من الفكر نقول لهم : أنتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . فقد جاءت كلمة العقل لتمنع الهوى لا ليجترىء الإنسان بهواه على رأيه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للهوى .

فلو كانوا يعقلون لقلنا لهم : إن الأعمال التى تتاجرون بها عمر نفعها مظنون وقد تنفعكم فى دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحدده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هى عمره فيها . وقد ستر الله سبب الموت وكيفيته عن الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظنون وقد ينتهى قبل أن تطرف عينه . ولو كانوا يعقلون لما باعوا آخرتهم بدنياهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل فى رءوسهم ولعلموا أنهم بموقفهم هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يقفون موقفاً خاسراً ليس فى مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

و « قُلْ » هى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمته صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن أيضاً :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة المائدة)

و « نَقَمَ يَنْقِم » أى كره منى أن أفعل هذا ، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب ؟ هل الإيمان مما يكره ؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه ، فنحن آمنا بالله وبرسله وبما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يُكره فى هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله ؟

مثال ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان مشبوه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فتقول له : أتكره في سلوكي أن أكون مستقيماً ؟ ونعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذى يستحق النقمة والكراهية هو الفعل الضار ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يُعلم الإنسان الأدب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم الإنسان ألا يعتدى على أموال ودماء الناس ولا يغتاب الناس ، ولا يرتشى ، وأن يخلص في العمل ولا يكذب في ميعاد ، فأى شيء في هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتى من يقول لك : ليس في فلان من عيوب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب في فلان إلا أنه شهم ؛ لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القائل قد أعمل ذهنه حتى يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائعة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الأداء الأدبي عند العرب وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فيقول قائل : لا عيب في فلان إلا كذا . وساعة يسمع السامع هذا يظن أن العيب الذى سيورده هو صفة قبيحة فيفاجأ بأنها خصلة جميلة . وبذلك يؤكد القائل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف يشذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ؛ لأن لكم سابقة في الإيمان ، فقد آمنتم بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، والمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم فكيف يكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟ لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة فى أذهانكم ولو كانت واضحة فى أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة فى وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ، لأنكم لم تؤمنوا بالله صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب بدليل أنكم حرفتموها . ولم تؤمنوا بالرسل لأنكم وقفتم من عيسى عليه السلام هذه المواقف . إذن فأنتم تنقمون منا وتكرهون أموراً لا تكره عند الطبع السليم ، وهذا دليل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان فماذا تملكون لمن تكرهون ؟ لا قوة لكم لتفعلوا لنا أى شىء . ولكن حين يكرهكم الله فماذا يفعل بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذى يكرهكم هو الله وعنده القدرة المقتدرة لينتقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجاريكم ، والمجاراة لون من جدال الخصوم فماذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أنى بخيل فعلاً فماذا يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجاراة الخصوم ؛ لذلك نقول لأهل الكتاب : هب أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إيذاءنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، وسنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شيء . وعلى فرض أن إيذاءكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما يكرهكم يقدر أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفقة ـ صفقة كراهيتكم لنا ـ خاسرة من ناحيتكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فإن سلمنا جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيصيبنا بشر . على الرغم من أنكم لا تملكون أن تجاوزونا بشيء . وها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله بالأكثر شراً من هذا ، وهي العقوبة التي يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم وهي الأكثر ضرراً . وهذا لون ـ كما قلنا ـ من مجاراة الخصم . ويعلمنا الله ذلك على لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله يسلم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التي يدعو إليها الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هي الهدى وأنهم على ضلال . ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال . ووسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله في المسألة ، وبذلك يرى مَن الذي على هدى ومَن الذي على ضلال . فأنت لا تناقش الخصم في أصل الدعوى ، ولكن سلم

للخصم جدلاً . والتمييز النهائي هو الفيصل . وسيجد المميز حجة ضلال الخصم واضحة وضوح حجة هدى المسلمين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فإن كنتم تعيبون علينا أو تكرهوننا أو تلتمسون إيماننا سُبَّة فهذا أمر لا يكرَه الإنسان من أجله ، لأنكم تدعون أنكم مؤمنون بالله . وكذلك لا يمكن أن يُسَب الإنسان من أجل الإيمان بما أنزله الله في كتاب ، لأنكم أيضاً تقولون إنكم مؤمنون بالتوراة . وتقولون إنكم مؤمنون بالأنبياء السابقين على موسى . والخلاف أن عيسى عليه السلام جاء بعد نبيكم فكفرتم به ، لكننا آمنا به فنحن منطقيون مع أنفسنا ومع ربنا .

والحق يبلغنا : « وأن أكثركم فاسقون » . ونعرف أن صيانة الاحتمال تقتضي ألا يحكم الحق عليهم جميعاً بأنهم فاسقون ، لأن فيهم بعضاً من الناس تراودهم نفوسهم بالإيمان بالله وبالإسلام ؛ لذلك لم يكن الحق أبداً ليعمم الحكم على كل أهل الكتاب بالفسق ؛ ليعطي الفرصة لمن يفكر أن يعلن إيمانه .

ومن بعد ذلك يأتي الخبر على لسان الرسول يخاطبهم : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » إذن فهناك أمر أكثر ضرراً لكم لأنه ما كان يصح أن تكرهوا إيماننا ، والأكثر ضرراً من هذا هو لعنة الله « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » ويأتي سبحانه بالأوصاف التي فيهم ، من لعنة الله لهم وغضبه عليهم وجَعْله بعضًا منهم قردة وخنازير . وكيف يأتي الله بمثل هذه الأوصاف كمثوبة ؟ إن هذا لون من فتح باب الرجاء والأمل ثم يصدمهم من بعد ذلك تماما مثل قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

والعذاب الأليم يُنذر به ، وكذلك اللعنة لا يمكن أن تكون ثواباً ، لكن الأسلوب القرآني يعطي النص المعالجة لوناً من الانبساط ، ثم يعطيها اللون المناقض له من الانقباض ، ليكون ذلك أبلغ في الانقباض وأكثر إيلامًا .

ومثال ذلك - كما قلنا من قبل - المسجون الذي يطلب كوب ماء فيأتي له الحارس بكوب الماء ويقربه من فمه ثم يسكب كوب الماء على الأرض ، هذه العملية زرعت في نفس السجين الأمل في الارتواء أولاً ، ثم يكون سكب الماء على الأرض سبباً في التعذيب والإمعان فيه ، لكن لو رفض الحارس أولاً تقديم الماء لعاش السجين في اليأس وهو إحدى الراحتين .

ونرى ذلك أيضاً فيمن ينتظر حكماً قد يكون إعداماً وقد يكون براءة ، وتكون فترة الانتظار هي المليئة بالقلق . وعندما يضعون المنتظر في الميزان يجدون وزنه في انخفاض . وبعد الحكم بإعدامه يبدأ وزنه في الزيادة ؛ لأن اليأس إحدى الراحتين . إذن فانبساط النفس ومجيء القبض بعدها هو الأمر الأنكى والأشد قسوة على النفس ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

هذه البشارة تأتي بالانبساط للنفس ويتلوها الانقباض ، ومثل قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

أي أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعي الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تنفرج أساريرهم وتسكن وتطمئن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم : « بماء كالمهل يشوي الوجوه » ، إذن فكلمة « مثوبة » تأتي لهم بشيء من الانبساط يتلوه العذاب .

هذا وإن أفعل التفضيل يأتي على صورة « أفعل » ، « أكرم » ، « أجود » ، « أشجع » فهذا لون من زيادة الصفة في طرف عنها في الطرف الآخر . اللهم إلا كلمات قليلة جاءت في اللغة على غير صيغة التفضيل منها كلمة « خير » وكلمة « شر » فلم تأت معها كلمة « أخير » بمعنى أكثر خيراً . ولا كلمة أشر بمعنى أكثر شرا ، ومرة تأتي كلمة « خير » ويقابلها الخير الأقل . والذي يميز المعنى هو وجود كلمة

« من » كقولنا : « فلان خير من فلان » . أما إن قيل : فلان خير » فمقابله هو « شر » لأنه لا توجد كلمة « أخير » .

وهكذا نجد كلمة « خير » تأتى للوصف مرة وتأتى للمبالغة فى الوصف مرة أخرى ، والفاصل للتمييز بين الاثنين هو وجود « من » . فيقال : فلان خير من فلان ومثلها فى ذلك كلمة شر.وقد ورد استعمال كلمة خير للتفضيل ولغير التفضيل فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ ﴾

(سورة الأنفال)

والحديث النبوى يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خير »[1] .

إن فى كل مؤمن خيراً . ولكن فى المؤمن القوى خير أكثر مما فى المؤمن الضعيف . والمقابل على أن كلمة « خير » . تقابل كلمة « شر » ، هو قول الحق :

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

و« خير » هنا ليست أفعل التفضيل ولكنها للوصف المادى ، وإذا جاءت « من » تعرف أنها للتفضيل ، وعدم الإتيان بلفظة « من » يدلنا على أنها للوصف المادى ومقابله كلمة « شر » . وهنا يقول الحق : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك » . وجاءت كلمة « بشر » هنا للتفضيل ولا يعنى ذلك أن المؤمنين فى « شر » ولكنها مجاراة للخصم . واعتبار أن ما يقوله الخصم مقبول جدلاً . وهناك الأكثر شراً فى الواقع وعند الله وهو المراد من قوله تعالى :

﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة المائدة)

---

(١) رواه أحمد ٢ / ٣٧٠ ومسلم فى القدر والنسائى فى السنن الكبرى ، وابن ماجه فى الزهد ومالك فى الموطأ (التمهيد لابن عبدالبر ٩/ ٢٨٧) .

لماذا إذن يكون مصير هؤلاء إلى شر ؟ لأنهم كرهوا سلوك المؤمنين ولم يستطيعوا أن ينفسوا عن الغل الذى فى صدورهم بعقوبة المؤمنين . ولكن الله يكرههم ويملك لهم العقوبة ويكون مصيرهم هو المصير الذى يوضحه الحق فى قوله : « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » واللعنة هى الطرد من الرحمة . والطرد من الرحمة يعنى حرمانهم من الخير .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - عندما يكون هناك خادم فى خدمة إنسان ما وهو يسكن ويأكل ويلبس على حساب السيد ، فإذا لم يؤد هذا الخادم حقوق الخدمة على وجهها المطلوب ، لا يرضى عنه سيده ، ويطرده من الخدمة ، وحين يطرد الإنسان خادمه فهو يُعلن للناس أن هذا الخادم لم يؤد حق الخدمة ، فلا يستخدمه أحد بعد ذلك . وهذا هو الغضب . وبهذا نعرف الفرق بين أن يُطرد من الرحمة فقط ولا يعقب ذلك شىء ، أو أن يستمر الغضب بالإعلان عن السبب فى الإخراج من الرحمة ، فهذا معناه أن الله بعد أن طردهم يلاحقهم بغضبه وسخطه وأن لعنه لهم لا ينفك عنهم .

والله سبحانه وتعالى يعلن لأهل الكتاب : إن طردى لكم من رحمتى وتواصل غضبى عليكم هو شر عظيم . وغضب الله - كما نعلم - يترتب عليه أشياء فى كل حركة من حركات حياتهم ، إنه يمنع الهُدى أن ينفذ إلى قلوبهم ، بأن يختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر . أو أن يجعل منهم القردة والخنازير . وإن تساءلنا : كيف يكون نسلهم ؟ نعرف أن الذى يمسخ لا يتناسل ، إنه يُمسخ إلى أن يُرى ممسوخاً ثم يؤخذ إلى الموت .

وهل هم الذين اعتدوا فى السبت أو الذين عبدوا العجل أو الذين كفروا بعد نزول مائدة عيسى ؟ إنهم كل هؤلاء . أو أنهم قردة ، أى فى خصال القردة ، كالطيش وخفة الحركة وانكشاف العورة ، أو طباعهم وخصالهم كالخنزير ، فهؤلاء لهم خبث ونتن وزخم كزخم الخنزير . وأهم ميزة فى الخنزير أنه لا يغار على أنثاه . وهذه موجودة فيهم . وتفشت فيهم عادة تشغيل بناتهم فى الدعارة وغير ذلك من أعمال الباطل .

وهكذا نفهم قوله الحق : « وجعل منهم القردة والخنازير » إما على أساس أنه المسخ الحقيقى . والمسخ الحقيقى لا يظل متناسلاً ممسوخاً وإنما يكون المسخ لزمن محدود يراه الناس ممسوخاً ثم يموت وينتهى ، وإما أن نفهمها على أن سلوكهم كسلوك القردة والخنازير .

ويتابع الحق : « وعبد الطاغوت » والعبادة إنما هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر به وفيما نهى عنه . والطواغيت هم الذين يزينون لهم الشر والقلق وأكل السحت والإثم . ويكون مصيرهم هو قوله الحق : « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل » وهذا هو الواقع الذى يعيشون فيه وهو شر كله ، وهم لا يفكرون فى السير فى الطريق السليم .

وعندما نقرأ قول الحق كاملاً فى هذه الآية :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نعرف أنهم فى حالة غفلة عن مسار الهدى الموصل للحق ، لأن « سواء السبيل » هو الأمر المستوى الموصل للغاية . وكانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير فى وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هار من الرمال فيقع بهم أو أن تقع عليهم صخرة من جبل .

ولذلك قال الحق :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه فى وسط الجحيم . ويقول الحق بعد ذلك عن الذين غضب عليهم :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

وهؤلاء هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً وسخرية . وهم ساعة يدخلون على المؤمنين يدخلون ومعهم الكفر . وعندما جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا أيضاً بالكفر . أى أن الكفر قد لازمهم داخلين وخارجين . وكأن جلوسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزدهم أى شىء . وكان من الممكن أن يدخل إنسان على مجلسه صلى الله عليه وسلم ، وهو كافر ، وبعد ذلك تمسّه عناية الهداية فيخرج مؤمناً .

ومثال ذلك : فضالة بن عمير الليثى الذى جاء ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح . وعندما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضالة قال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ فقال : لا شىء ، كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أستغفر الله لك . ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلى منه [1] .

لقد مسته العناية ، فقد دخل ـ أولاً ـ بكفره وخرج ـ ثانياً ـ بعميق الإيمان . لكن هؤلاء دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر ، كأن الدخول كان نفاقاً ، بدليل قوله الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » وهذا القول دليل نفاقهم ، فقد أعلنوا الإيمان لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر . وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو محض نفاق . وهذه خاصية لمن قالوا آمنا ، ولكن كان دخولهم إلى الإسلام نفاقاً ؛ لأن كفرهم أمر مستقر فى قلوبهم لا يتزحزح ، وكان يكفى فى الأسلوب أن يقول الحق :

(١) رواه ابن عبدالبر فى الدرر وابن حجر فى الإصابة .

وقد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولكنه قال : « وهم » وذلك تحديداً لهويتهم الكافرة ، فكأن عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هي عملية مسبقة ؛ لذلك يكشفهم الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

وجاء سبحانه بأفعل التفضيل « أعلم » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من إشراقات الله عليه وتنويره له كان يعلم أيضاً أنهم منافقون . ولكن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم الحق سبحانه وتعالى فعلم الله ذاتي وعلم رسوله فيض منه ـ سبحانه ـ .

إذن فقوله الحق : « والله أعلم » لم يمنع أن هناك أناساً قد علموا أنهم منافقون . وقد استقر في ذهن النبي أنهم منافقون وأن الله أعلم بما كانوا يكتمون . والكتم هو حبس الإحساس النفسي أن يخرج وأن يظهر واضحاً ، ومحاولة الكتم عملية غير طبيعية لأنها قسرية . ويكاد كفرهم أن يظهر ويخرج فيحاولون أن يكتموه لأنهم يحرصون ألا ينكشفوا ، ولكن علم الله لا تخفى عليه خافية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والمسارعة في الإثم تعني أنهم من بداية الأمر في الإثم ، ويسارعون فيه ، أي أنهم كانوا على أولية الإثم ويجرون إلى آخرية الإثم ، فضلالهم واضح من البداية ، وكأن خلقهم الكفر يفضحهم ، برغم محاولتهم كتمان ذلك . ويعدون أنفسهم مسارعين إلى فعل الإثم ، أي أن عملهم يترع إلى الكفر ، ويجعلهم الحق يغفلون عن الكتمان ، فتبدو منهم أشياء هي أكثر فضيحة من القول ، ذلك أن الإثم مراحل : مرحلة قول ، ومرحلة فعل . والفعل أكثر فضحاً من القول .

« وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان » ويقول الحق : « كثيراً منهم »

صيغة لا احتمال أن يوجد الإيمان في قلب القليل منهم ، وذلك لتبرئة أي إنسان يفكر في الإيمان . وهم أيضاً يسارعون في العدوان ، فإذا كان الإثم هو الجُرم على أي لون كان ، فالعدوان هو إثم يأخذ به إنسان حقاً لغيره ، مثال ذلك الإنسان الذي يحقد ، إثمه لنفسه ولذلك يعاني من تضارب الملكات حتى يبدو وكأنه يأكل بعضه بعضاً .

إن الحقد - كما نعلم - جريمة نفسية لم تعد الحد . ويقال عن الحقد : إنه الجريمة التي تسبقها عقوبتها ، عكس أي جريمة أخرى ، فأي جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحقد والحسد ، فتنال عقوبة الحقد صاحبها من قبل أن يحقد ، لأن الحاقد لا يحقد إلا لأن قلبه ومشاعره تتمزق عندما يرى المحقود عليه في خير . ولذلك يقال في الأثر : «حسبك من الحاسد أنه يغتمّ وقت سرورك» .

إذن فمن يرتكب إثماً في نفسه لا يتعدى أثر إثمه إلى غيره ، أما الذي يرتكب العدوان فهو ينقل حق إنسان إلى غيره . وهو قسمان ؛ هناك من يعتدي ليعطي حقاً لغير ذي حق . وهناك من يعتدي بالسكوت على الظالم ، فالظالم تتملكه شهوة الظلم ، لكن من يرى الظالم ويسكت ولا ينهاه فهذا عدوان أيضاً ؛ لأن الظالم عنده وفي نفسه ما يدفعه إلى أن يظلم ، أما الشاهد الذي يصمت فليس عنده في نفسه ما يدفعه إلى أن يُسكته . فمن - إذن - الأكثر شراً ؟ إنه الذي يصمت عن تنبيه الظالم إلى أنه يظلم .

«وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان» نلحظ أن كلمة «يسارع» مثلها مثل كلمة «نافس» تدل على أن هناك أناساً في سباق ، كأنهم يتسابقون على الإثم والعدوان ، كأن الإثم والعدوان غاية منصوبة في أذهانهم ، ومتفقة مع قلوبهم .

«وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون» والسحت هو كل مال مصدره حرام ، سواء أكان رشوة أم ربا أم سرقة أم اختلاساً أم خطفاً أم اغتصاباً ، كل تلك الألوان وما ماثلها من السحت إنما أخذ لحق الغير . وأخذ حق الغير له صور متعددة ، فإن أخذه أحد خفية فذلك هي السرقة . وإن سارع إنسان لخطف شيء من بضاعة إنسان آخر فهذا هو الخطف . وإذا لحق به صاحب البضاعة وتجاذبا وتشاقّا فهذه المجاذبة تخرج بالخطف إلى دائرة الغصب . وإن كان الإنسان أميناً على شيء وأخذه فهذا هو

الاختلاس ، وكل ذلك أكل مال بالسحت . وبئس هذا اللون من العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والربانيون هم الذين يُنسبون إلى الرب في كل تصرفاتهم ، وكذلك الأحبار الذين يعرفون الدين ، ولا هؤلاء ولا أولئك ينهون هؤلاء الناس من أهل الكتاب عن ارتكابهم الإثم وأكلهم السحت . فكيف يُنَصِّبُ هؤلاء الربانيون والأحبار أنفسهم قادة للضمير الديني دون أن يقوموا بواجبهم بوعظ الناس ؟ وفي هذا تأكيد على أن الربانيين والأحبار إنما يريدون فقط سلطة الهيمنة على الناس

والربانيون هم رؤساء النصارى،والأحبار هم رؤساء اليهود . وكان من بين اليهود والنصارى .. تمتلكه شهوات أكل السحت والظلم وقول الإثم ، فلماذا لم يتحرك المنسوبون إلى الله للنهي عن ذلك وهم الذين أخلوا حظهم في الدنيا من أنهم منسوبون إلى حماية منهج الله من انحرافات البشر ؟. ألم يكن من واجبهم نهي الظالمين والآثمين عن الظلم والإثم ؟

إن الذي يظلم له شهوة في أن ينتفع من الظلم ، أما أنتم أيها الربانيون والأحبار فلماذا لا تتحركون لوقف ذلك ؟ لاشك أنهم قد امتلأوا سروراً من هذا الإثم وذلك العدوان وأكل السحت ، ومبعث سرورهم أن الواحد من هؤلاء لو كان سليماً في تصرفاته ولحكامه لغار على المنهج ، لكنه يقبل الانحراف ؛ لأن من مصلحته أن ينحرف غيره حتى لا يلومه أحد . وجاء الحق بـ « لولا » في أول هذه الآية تحضيضية أي يقصد بها الحث على الفعل .. أي كان يجب أن ينهاهم الربانيون والأحبار عن

أكل السحت وقول الإثم والعدوان . ثم تتجلى دقة الأداء القرآني - كما هو دائماً - في قول الحق : « لبئس ما كانوا يصنعون » .

ونذكر أن تذييل الآية السابقة قال فيه الحق عن سلوك العامة من أهل الكتاب : « لبئس ما كانوا يعملون » ، إذن فالحق يفرق بين بئس عن صناعة وبئس عن عمل . وبئس الربانيون والأحبار هو بئس الصناعة . ونعلم أن كل جارحة من جوارح الإنسان لها حدث خاص بها : فالعين حدثها أن ترى ، والأذن حدثها السمع ، واليد اللمس ومناولة الفعل ، والرِّجل تسعى ، واللسان مجال عمله الكلام . والجوارح تنقسم إلى قسمين : اللسان وحدثه القول ، وبقية الجوارح أحداثها أفعال ، بدليل أن الله يقول :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل . والقول عمل ، والفعل عمل . ومادام هناك قول وفعل من عامة أهل الكتاب في ذلك المجال لذلك يقول الحق : « لبئس ما كانوا يعملون » .

وقال عن الربانيين والأحبار : « لبئس ما كانوا يصنعون » لإيضاح الفرق بين من يعمل ومن يصنع ، فمن فُتق ثوبه وجاء بإبرة وخيط ليصلحه ، فهو خائط ، ولكن الذي يحترف ذلك هو « الخيَّاط » ؛ فصاحب الحرفة هو من يأخذ وصفها لأنه يجيدها ، أما الذي يمارسها لمرة واحدة فلا يأخذ من الصنعة إلا بقدر ما يدل على أنه لم يتقنها .

وكان الربانيون والأحبار قد اتخذوا أمر الدين والكهنوت صناعة بتجويد كبير . وذلك هو الذي جعل السلطة التشريعية في العالم كله تنتقل من منهج السماء إلى منهج الأرض . وحينما نرجع إلى تاريخ القانون نجد أن الأصل في التقنين كان من الكهنة الذين كانوا منسوبين إلى الله وخبر السماء ، وهم الذين كانوا يحكمون بين الناس ، لكنهم افسدوا ، ورأى المجتمع أنهم يحكمون في قضية بحكم ، ثم في قضية مشابهة يحكمون بنقيض الحكم السابق ، وأنهم ارتشوا في سبيل ذلك ، وميزوا بين الناس ، وعرف الناس أن الكهنة غير مأمونين على العدالة ؛ لذلك تركوا الكهنة وبدأوا يضعون

قوانين خاصة بهم بعيدة عن حكم الكهنة . وهكذا انتقلت المسألة من تقنينات وحكم الكهنة إلى المجتمع الذى لم يعد يتمسك بالدين بسبب انحرافات أحكام الكهنة عن العدل وأنهم باعوا الأحكام لصالح من يدفع أكثر ، أو يحكمون لصاحب النفوذ . وهكذا صارت المسألة صناعة لهم . وبئست تلك الصناعة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ونعرف أن اليد جارحة حرة الحركة تفعل يميناً وتفعل شمالاً وتفعل إلى أسفل وإلى أعلى ، ولها من الأصابع ما جعل الله لكل أصبع مع زميله مهمة . وليلاحظ كل منا أصابعه فى أثناء أى عمل ، سيجدها تتباعد وتتقارب بحركة إرادية منسجمة لتؤدى المهمة . وخلقة الأصابع بالمفاصل والأُنمل وحجم كل عقلة يختلف عن الأخرى ، لتؤدى المهمة بانسجام . وساعة تعوق هذه الجارحة عن أداء مهمتها فأنت بذلك تكون قد غللتها ، أى ربطتها عن التصرف المطلوب منها .

ومعنى قوله : « يد الله مغلولة » أى أن يد الله - والعياذ بالله - مشلولة الحركة .

وقد قالوا ذلك قبل ظهور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل زحف الإسلام عليهم لينقض باطلهم . وحدث أن تفرغوا لصناعة آلات الحرب وبناء الحصون والزراعة ، وانشغلوا عن الزراعة فخابت محاصيلهم وجاء وقت الحصاد فلم يجدوا ، فقال « فنحاص » وهو واحد من اليهود : لماذا قبض الله يده هنا ؟ إن يد الله مغلولة . ونلحظ أن الذي قال ذلك هو شخص واحد ، ولكن الحق يقول هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » . ومعنى ذلك أن « فنحاص » عندما قال ذلك سمعوه وسرّهم ما قال ، ووافقوه عليها .

أو أنهم حينما شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكانت تمر على المسلمين الليالي دون طعام فراحوا اليهود يتندرون على تلك الحال ويقولون : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

أو أنهم قالوا : إن يد الله مغلولة في الآخرة عن عقابنا ؛ لأنه سيعاقبنا أياماً معدودة . والذي يبيح لنفسه أن يجعل الله مقعلاً لأحداث عقله إنما يكفر بالله ؛ لأنه يُنزلُ الله من مكانته . فإذا كانت يد الله مغلولة ، فهذا الرباط والغُل والمنع يكون من خَلْق الله . وكيف يقدر خلقٌ من خلق الله أن يربط يد الله ؟ . لقد اجترأوا على مقام الألوهية وهذا من سوء الأدب ، تماماً كما قالوا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وحينما قالوا : « يد الله مغلولة » ورَدّ الحق عليهم : « بل يداه مبسوطتان » وقال قبلها : « غلت أيديهم » فهل يدعو الحق عليهم ؟ طبعاً لا ؛ لأنه هو المصدر الذي يتجه إليه الخلق بالدعاء وهو القادر على كل الخلق . ولكن الحق حين روى ما قالوه إنما يتجه الذهن الإيماني الذي يستقبل كلامه أنه ساعة يجد وصفاً لا يناسب الله فعليه أن يدفع هذا الكلام حتى قبل أن يرى الرد عليهم .

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » وهذا يعلمنا أننا إذا سمعنا وصفاً لا يليق فلا بد أن ندحضه ؛ لأن الحق لا يدعو على عبيده ؛ لأن الدعاء هو أن يرفع عاجز طلبه إلى قادر لينفذ المطلوب له .

إذن فإن قالها الحق فهي إما أن تكون خبراً ، وإما تعليماً لنا ، فإذا كانت خبراً نلحظ أن الله كتب عليهم البخل ساعة قالوا هذا ومنذ لحظة هذا القول ، وإن كان القصد هو تعليمنا ، فنحن نتعلم الأدب الإيماني ، ونرد أي وصف لا يليق بجلال الله .

وهذه المسألة لها نظير ، فعندما علم الحق سبحانه وتعالى تشوّق رسوله والمؤمنين أن يذهبوا إلى المسجد الحرام ، قال لرسوله :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الفتح)

وهل هذا إخبار من الله ، أو هو تعليم لنا ؟ . إنه تعليم لنا أن نفعل ذلك عندما نشتاق إلى فعل . وكذلك هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » لذلك يعلمنا سبحانه أن نقول : « غلت أيديهم » مثلما علمنا أن نقول : « إن شاء الله » حتى ننسب كل قدر لله . وقد حاول الفلاسفة أن ينسونا تقدير المشيئة ، فقالوا : إن الله خلق النواميس والأكوان وجعل لها قوانين تعمل في الكون . وهل زاول الحق سلطانه ساعة خلق النواميس ثم ترك الأمور لذاتها ؟ لا ، لذلك جاء سبحانه بمعجزات تخرق النواميس ليدلنا على أن النواميس لم تأخذ هي الكلمة للتصرف بل إن يد الله مازالت في كونه ، فالنار ـ على سبيل المثال ـ التي تحرق يأتيها الأمر :

﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأنبياء)

والماء الذي يُغرق يأتيه الأمر :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال :

﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧٧ ، ٧٨ سورة طه)

والعصا التي خلقت من غصن شجر جاف ، تتحول إلى أفعى ، أي تتلها كلها

إلى جنس آخر ، من نباتية إلى حيوانية . هذا هو خرق النواميس .

ويقول الحق عن هؤلاء الذين ادعوا أن يد الله مغلولة . « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » أى أنهم طردوا من رحمة الله ، لأنهم هم الذين بشروا على أنفسهم وقالوا إن يد الله مغلولة ، وسبحانه قادر أن يمنع عطاءه عنهم .

ويتابع سبحانه : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، وهو يعطى من يريد ، وكلمة « اليد » فى اللغة تطلق على الجارحة وتطلق على النعمة ، فيقول الرجل : إن فلان علىّ يداً لا أنساها ؛ أى أنه قدم جميلاً لا يُنسى . واستعملت اليد بهذا المعنى لأن جميع التناولات تكون باليد . وتطلق اليد ويراد بها الملكية فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

أى الذى يملك أن يُنكح المرأة ، هو الذى يعفو . وفى القتال نجد القول الحكيم :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

أو تطلق اليد على من له ولاية فى عمل من الأعمال ، لذلك نجد الحق قد قال :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

وآدم هو الخلق الأول وكلنا من بعده مخلوقون بالتناسل من الزوجية . وقد كرّم الله الإنسان بأنه خلقه بيديه ، وخلق كل شيء بـ « كن » . إذن : كلمة « اليد » تطلق على معانٍ متعددة . والرسول يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »[1] .

أى عندما تجتمع الأيدى تكون هى اليد القادرة . وعندما نقرأ كلمة « يد الله » فهل نحصرها فى نعمته أو ملكه ؟

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى فى السنن الكبرى والحاكم فى المستدرك والمتقى الهندى فى كنز العمال وابن كثير فى التفسير .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾

(سورة الملك)

والله سبحانه وتعالى أعلم بذاته فلنقف عند الوصف ، نعم له يد ، وله يدان ، وإياك أن تتصور أن كل ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك ؛ لأن الأصل أن لك وجوداً الآن ، ولله وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك . حتى لا نشبه ونقول : إن له يداً مثل أيدينا ، فلنقل إن المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقي هو تنزيه الحق . وهناك من يقول . إن لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كل ما يأتي وصفاً لله على أنه «ليس كمثله شيء» والتأويل ممكن . مثلما بيَّن الحق : أنه قد صنع موسى على عينه .

وتأخذ أي مسألة تتعلق بوصف الله إما كما جاءت ، بأن له يداً ولكن ليست كالأيدي ، وله وجود لا كالوجود البشري ، وله عين ليست كالأعين ، ولكن كل وصف لله نأخذه في إطار «ليس كمثله شيء» . وإما أن نأخذ الوصف بالتأويل ، ويراد بها النعمة ويراد بها القدرة . ويقول الحق : «بل يداه مبسوطتان» والمراد هنا هو «النعمة» . ولم يكتف سبحانه بأن يرد بأن له يداً واحدة تعطي . لا ، بل يرد بما هو أقوى مما يمكن ، فهو يعطي بيديه الاثنتين ، وهو القائل :

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

(من الآية ٢٠ سورة لقمان)

إنه يُعطي الظاهر ويُعطي الباطن . وإياك أن تقول تلك اليد اليمنى وتلك اليد اليسرى ؛ لأن كلتا يدي الله يمين . «بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» أي أنه سبحانه لا يمكن أن يكون بخيلاً ، حتى وإن منع الحق فذلك منع وعطاء وإنفاق ؛ لأن الذي يعطي بنعمة ، قد يذهب به الطغيان إلى بلاء وسوء مصير ؛ لذلك يقبض سبحانه عنه النعمة ليعطيه الأمن من أن ينحرف بالنعمة . ولذلك نجد القول الحق في سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ⑮ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ⑯ ﴾

(سورة الفجر)

ورد الحق بعد ذلك بقوله : (كلا)

فلا الإعطاء هنا للإكرام ، ولا المنع للإهانة . فكيف يكون الإعطاء دليل الإكرام وقد يعطيك الله ولا تؤدي حق النعمة ؟ وكيف يكون المنع دليل الإهانة وهو قد منعك من وسيلة انحراف ؟ إذن فهو قد أعطاك بالمنع ـ في بعض الأحيان ـ إنه قد أعطاك الأبقى وهو الهداية . إذن فمنعه أيضاً عطاء .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » والناس تنظر دائماً إلى عطاء الله بعطاء الإيجاب ، ولا تنظر عطاء السلب أي المنع ، وهو أن يصرف عنك الحق مصرف سوء . وسبق أن ضربت المثل بالرجل الذي تحرى الحلال في مصدر ماله ويتقي الله في عمله ويأخذ دخله ويدير حركة حياته في إطار هذا الدخل ، وبعد يعود هذا الرجل إلى منزله فيجد حرارة الابن مرتفعة قليلاً ، ولأن ماله حلال وذرات جسمه تعرف أن ماله حلال ؛ لذلك يستقبل الأمر بهدوء ويعرض الابن على طبيب في مستوصف خيري بقروش قليلة . فيصف الطبيب دواء بقروش قليلة ويتم شفاء الابن .

هذا الرجل يختلف حاله عن حال رجل آخر أتى بماله من السحت ، وساعة يرى حرارة ابنه قد ارتفعت تجد باله يدور بين ألف خاطر سوء ، ويدور الرجل بابنه على الأطباء ولا يصدق طبيباً واحداً .

الرجل الأول رزقه الله الاطمئنان بمنع هواجس الخوف من قلبه وخواطره ، أما الرجل الثاني فهو ينفق أضعاف ما أكله من سحت . إذن « بل يداه مبسوطتان » أي أن هناك عطاء السلب . والعطاء الذي يحبه الإنسان هو عطاء المال وهو عطاء يذهب إلى الفانية . أما المنع فهو يمنع الإنسان من ارتكاب آثام . وبعد ذلك يأخذ الإنسان نعيمه في الآخرة . ونحن نجد كثيراً من الناس تدعو ، ولكنهم لا يعلمون أن الله قد أعطى بالمنع .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لذلك يعطي الحق أحياناً أشياء يكون العبد قد ألح عليها ، وبعد ذلك يتبين الإنسان أنها شر ، كأن الحق ساعة منع الإنسان لفترة كان ذلك صيانة له .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » إذن فكله إنفاق . وسبحانه ينفق كيف يشاء ، فلا يبخل أبداً حتى وإن منع ، فالمنع في موضعه لصحيح هو عين الإنفاق ، وهكذا يكون عطاء الله عطاء النعمة ظاهرة كانت أو باطنة وإن أردت بـ « اليد » القدرة فيدا الله مبسوطتان بالثواب لقوم وبالعقاب لقوم آخرين ، وهو سبحانه وتعالى يعطي لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم المناعة الإيمانية ضد كل متمرد عليه ، أو ضد كل متأبٍ ومستكبر من الكافرين أو من أهل الكتاب

فكأنه سبحانه وتعالى يوضح : وطِّنْ نفسك يا محمد ولتوطن أمتك نفسها على أن هؤلاء الكفرة لن يكتفوا بالقدر اليسير والقليل من الكراهية لك ، بل كلما جاءت لك نعمة بزيادة الهدى من الله سيحسدونك ، وسيبغضونك ، وسيزداد تمردهم وحقدهم عليك ، فوطن نفسك على ذلك وفي هذا ما يعطي مناعة إيمانية ، يسد كل منافذ وسوسة النفس ويجعل النفس على استعداد لاستقبال ما يحدث حتى ولو كان من المكاره

ولنقرب هذا الأمر من الذهن . لا تشبيهاً ولكن لمجرد تقريب الأمر من الذهن ـ ولله المثل الأعلى ـ لننظر إلى ما حدث في أوروبا في أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت انجلترا تخوض الحرب ضد النازية ، وكانت الأهوال تتساقط من الطائرات على المدن الإنجليزية وجاء تشرشل ليقود الحرب فقال للإنجليز . إن الهول والمصاعب هي التي تنتظركم فوطنوا أنفسكم على مواجهة الشدائد .

وإذا كان هذا قد حدث في حرب بين شعبين . فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وهو يعلم ضرورة التحصين للأمة التي تحمل راية المنهج الكامل للهداية كان لا بد إذن من أن يوطن نفس رسوله ونفوس المؤمنين معه على مواجهة الحسد والبغض والحقد والمكر والتبييت

ويقول الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » . ولا يأتي قول الحق : « بينهم » إلا إذا كان هناك طائفتان ، والمقصود إما الطوائف اليهودية فيما بينها ، وإما طوائف النصرانية فيما بينها ، أو بين اليهودية والنصرانية ، خصوصاً أن هذه الآيات مستهلة بقوله الحق : « يا أهل الكتاب » . فإذا كانت لليهود فالعداوة والبغضاء قائمة بين طوائفهم بعضها مع بعضها الآخر . وإذا كانت للنصارى فالعداوة والبغضاء حاصلان فيما بين طوائفهم ، وإن كانت بين اليهود كقسم وبين النصارى كقسم فهي مسألة محكمة . وهذه العداوة والبغضاء لا تنتهي أبداً بل هي قائمة بينهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » ، وهذا خبر عما وقع في حضن الإسلام ، ومثال ذلك خروج « بني قينقاع » على العهد بعد أن جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق بني قينقاع وقال لهم :

« يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً »[1] .

فرفضوا وقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا . فنزل فيهم قول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكان « بنو قينقاع » أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين موقعتي بدر وأحد .

وكان سبب ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ـ بضاعة ـ لتبيعها في سوق « بني قينقاع » ، فجلست إلى صائغ يهودي بالسوق ، وحاول اليهود إجبارها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وهي

(١) رواه ابن إسحاق وابن كثير في التفسير

لا تشعر به ، فلما قمت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت المرأة . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وحدثت بذلك الفتنة ، لكن الله أطفأ الفتنة وأجلى « بني قينقاع » ، ثم « بني النضير » وكان لهم ـ قبل ذلك ـ التجمع القوى في المدينة بالثراء والعلم . وقاتل المسلمون « بني قريظة » وأجلوا أهل خيبر ، وبذلك واستولى المسلمون على وادى القرى . حدث هذا في حضن الإسلام فماذا حدث في غير حضن الإسلام ؟

لقد رأيناهم أيام المجوس وقد أهلكهم بختنصر ، وكذلك تيتوس الرومانى . ورأيناهم مقطعين في الأرض في كل زمان ومكان . وقد يقول قائل . إذا كان الحق قد قال : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » فلماذا لا تنطفىء الحرب الحالية بيننا وبينهم ؟ ونقول . إن الذي يطفىء نيران الحرب لا بد أن يكون من جنود الله وعندما نصبح جنوداً لله فسوف تنطفىء هذه الحرب .

والمثال القريب منا هو انتصارنا في العاشر من رمضان . لقد كان انتصارنا بالعمل تحت راية « الله أكبر » وقد جزى الله بالخير الضباط والجنود الذين كانوا يعلمون أن العتاد في جانب العدو كان أكبر من عتادنا ، لكن النتيجة كانت في صالحنا لأننا دخلناها تحت ظل « الله أكبر » .

أما الذين ادعوا أنه انتصار حضارى فنقول . عن أى حضارة تتحدثون ؟ والإسلام هو نبع الحضارة المتوازنة ، وليس الادعاء بالحضارة هو الخروج عن منهج الله . إننا إن ثبتنا على مبدأ « الله أكبر » لا كشعار ولكن كتطبيق لأطفأ الله نيران أى حرب .

ويترك سبحانه في كونه السنن التى تعطى التجارب الواقعية لمن يتشكك في الإيمان . ومثال ذلك ما حدث من مخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض المقاتلين في غزوة أحد فكادت الهزيمة تلحق بهم . وفى غزوة حنين قالوا . لن نغلب اليوم من قلة ولذلك يقول سبحانه .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وقد ترك الله هذه السنن الكونية ليلفت أى غافل من المتدين أن الخصم ينال منه ؛ فالغفلة تؤدى إلى الانحراف ، والانحراف لا يمكن أن يؤدى إلى النصر . هكذا يحذر الحق معسكر الإيمان . أما معسكر الكفر فالحق يريد له الذلة ، فيعطيه فى بعض اللحظات نصراً على المؤمنين فى أوقات غفلتهم ، وما أن يُفيق المؤمنون من الغفلة حتى تأتى ضربتهم لمعسكر الكفر . وتأتى الضربة وقت أن يكون معسكر الكفر فى علو وغلو . ولنا فى المثل الريفى الإيضاح .

يقول المثل : لا يقع مؤمن من على حصيرة ، والمقصود أن التواضع يحمى الإنسان من وهم العلو والكبر ؛ لأن الذى يقع هو الذى يتخيل أنه علا فى الأرض ولذلك يحميه الله عن الحرص ، ويأتى قوله :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

أى أن يتم العصف بكل شىء . وأهل السياسة عندما يريدون أن ينزلوا بخصومهم العقاب يرفعون خصومهم ويمدون لهم فى حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيرا ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس . ولذلك نجد القرآن صريحاً مطلق الصراحة فى هذا المجال :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فسبحانه يمد ويكل لهم ليأخذوا وليبنوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء . وأمثلة ذلك فى الحياة كثيرة .

لقد رأينا الدول القوية تساعد خصومنا ، واتفق المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى لسنوات على مساعدة الخصم ، وقلنا لهم : أنتم الآن فى مقام : (فلما نسوا ما ذكروا

به) . وأنتم أيها الخصوم قد تنتقلون إلى مقام : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) . وسوف تنتقلون من بعد ذلك إلى مقام : (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) .

وقد حدث أن سقط الاتحاد السوفيتي بأكمله ، وأخذهم الله بغتة بأيدي أناس منهم ، وكثيراً ما تحدث الكوارث لمن يضطهد أهل الإيمان . إذن : فلا داعي لأن يغتر أحد بما وصل إليه .

ويقول الحق :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وهم مكبوتون دائماً . فالحق لا يمكنهم من كل أغراضهم . لذلك يسعون في الأرض فساداً بأساليب الاختفاء . ومن يقرأ « بروتوكولات صهيون » يجد اعترافاتهم بأنهم أصحاب النظريات التي تقود إلى الأفكار الخاطئة كالماركسية والوجودية والداروينية وهي أمور مرتبة من قبل ليظهر أثرها الضار في الشعوب غير اليهودية . أما اليهود فقد حصنوهم ضد هذه المبادىء الفاسدة ، هكذا أرادوا التبييت ضد العالم ، وهكذا يكون سعيهم بالفساد بين الناس . وإذا نظرنا إلى الانحراف الخالي في الكون فإننا نجدهم وراءه .

فالرأسمالية الشرسة من اليهود . والشيوعية الشرسة من اليهود . وهؤلاء الذين يدعون أنهم أنبياء من بعد رسول الله إنما يحدث لهم ذلك بفعل اليهود ، وكذلك الجمعيات التي تختفي وراء أسماء « الماسونية والروتاري والليونز » ، كلها من اليهود . ومع ذلك تلتفت إلى قوم يقولون إنهم متحضرون ويفخرون بأنهم أعضاء في الروتاري ، وتسألهم : ماذا تفعلون في تلك الأندية ؟. يقولون : نقوم بالأعمال الخيرية والخدمات . ونقول لهم : لماذا لا تفعلون أعمال الخير باسم الإسلام ؟. وهل تظنون أن هناك خيراً يأتي من خارج الإسلام ؟!

ويكتشف الكون كل فترة من الزمن أن الفساد الذي فيه إنما هو بسبب هؤلاء الناس وبسبب مكائدهم ؛ لذلك يصيبهم الحق بالكوارث كل فترة من الزمن ؛ لأنهم يسعون في الأرض فساداً . وهذا السعي في الأرض بالفساد إنما يأخذ صوراً متعددة ، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية ، ومرة يأخذ شكل التطرف في الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة ، وكل ذلك تخريب لحياة الناس . والناس حين تجرب نظاماً فهي تقيس نجاحه أو فشله بمقدار ما يعود عليها من خير أو من شر .

لقد كانت روسيا - على سبيل المثال - تمد العالم بالقمح من سيبريا . ولكنها الآن تشكو قلة الزراعة وتنتظر من يبيع لها القمح . وعلى الجانب الآخر نجد الرأسمالية الشرسة تطحن أبناء تلك البلدان في الحياة غير المسئولية باسم الحرية . وقد شهدت ألمانيا - مثلاً - قسمة عاصمتها القديمة « برلين » إلى قسمين ، ولكل قسم حياة ، وشهدت إعادة التوحيد لأرض ألمانيا بما يصاحبه من مشكلات جمة .

وقد تذهب بعض المجتمعات إلى أيدي أناس لهم شراسة أشد كالحزب الحاكم في كل دولة لا تضم منهاجاً متوازناً ، ونجد رجال هذا الحزب كهيئة تأخذ الدعوة وتقبض الدعوة حتى لا يتمرد عليهم أحد . فمزارع العامل في أيديهم ومصنع الرأسمالي في أيديهم وهم يعيشون حياة الأمراء ولا يجرؤ أحد على أن يسألهم .

ومثال ذلك أيضاً نظرية الوجودية التي تدعو كل إنسان ليثبت وجوده ، وصاحبتها موجة من الانحلال اللا مسئول ، ذلك أنهم لم يفهموا إثبات الوجود على أساس أنه مسئولية العمل الصالح في الكون ، ولكن فهموا الأمر على أنه انطلاق غرائز على الرغم من أن المفترض في كل إنسان إذا أراد أن يمد يده ، فعلى يده أن تتوقف حيث يوجد أنف إنسان آخر . لكن هؤلاء الناس عاملوا الناس كأطفال ، تماماً كما يأتي الأب لابنه بلعبة يلعب بها وشكل آلة تليفون ، يقدمها الأب لابنه ليستهلك طاقته قبل أن يكون مكلفاً ، ولكن الأب لا يسمح للابن أن يلعب بآلة التليفون الحقيقية . وهؤلاء الناس يأخذون الكبار إلى اللعب واللهو حتى لا يتدخل الكبير في أمور الجد .

ومثال ذلك لعبة كرة القدم ، إنهم يفتحون فيها بالبطولة وينقلون قوانين الحد إلى اللعب . وقبل المباراة بثلاث ساعات نجد قوات الأمن قد سدّت الطرق إلى الملعب

الذي يشهد المباراة . ولو أخطأ الحكم خطأ تافهاً فإن الجمهور يثور ويهيج . لكن عندما يخطىء الحكام والحكومات ألف خطأ فلا أحد يتكلم ، لماذا ؟ . لأنكم نقلتم قوانين الجد إلى اللعب واللهو وتركتم الجد بلا قوانين

مثال آخر : نجد كل فاكهة أو محصول أو صناعة في الوجود يقيمون لها الاحتفالات ويتوجون عليها ملكة ، ملكة الكروم ، ملكة القمح ، ملكة الأزياء ، وكل ذلك من أجل إبراز مفاتن النساء ، ولا يوجد تكريم للعقول التي تنتج وعلى سبيل المثال نجد ملابس الشباب الرياضية تغطي جسد الشباب من الذكور ، لكنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة للإناث ، لماذا لا يغطون أجساد البنات أيضاً أثناء ممارسة الرياضة ؟ والغرض ـ بطبيعة الحال ـ هو دغدغة أعصاب الناس ، وكل ذلك إفساد في الأرض

« ويسعون في الأرض فساداً » ومن العجيب أن سعيهم للفساد يلبسونه ثوب الحق وثوب الارتقاء وثوب الحضارة . ويأتي أناس من المسلمين ويشجعون مثل هذا الفساد ، وينسون الحقيقة الدينية وهي : « والله لا يحب المفسدين » فسبحانه وتعالى قد خلق الكون على هيئة الصلاح ، فإذا ستقبلت خير الله بصلاح الوجود الذي طرأت أنت عليه فأنت تحسن حياتك وعملك ، أما إن لم ترد صلاح الكون فحسبك ألا تأتي بفساد

والحق خلق الكون على نظام دقيق ، ونرى ذلك في الأشياء التي لا دخل للإنسان فيها ، ونجدها في مستوى الدقة والاستقامة ، الشمس والكواكب والفصول والرياح ، لكن الفساد يأتي عندما تدخلت يد البشر بغير منهج الله . إذن فالفساد هو الذي يصرف الناس عن منهج الله . ونجد بعضاً من الناس يركبون رءوسهم ويظنون أن ما يفعلونه هو الصلاح ، فينطبق عليهم قول الحق

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا هو حكم الحق فيهم .. إنهم يدَّعون الصلاح ، ولكن يجب عليهم أن يرتدعوا فلا يفسدوا . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

هذا القول يدل على أن أهل الكتاب جميعاً فى غير حظيرة الإيمان ، والحق يوضح لهم : إن فسادكم كان سابقاً على ظهور الإسلام ، ولهذا جاء الإسلام ليخرج الناس من فسادكم أنتم . لقد كان لكم منهج من الله ولكنكم حرّفتموه ، وإن لكم رسلا أرسلهم الله إليكم ولكنكم أسأتم إليهم ، وطقوساً دينية ابتدعتموها . وجاء الإسلام لا ليهدى الملاحدة فقط ، ولكن ليهدى أيضاً الذين أضلهم أرباب أهل الكتاب . وكانوا من بعد الإسلام يحاربون الإسلام بالاستشراق ، وكانوا يؤلفون الكتب ليطعنوا الإسلام . لكنهم وجدوا أن الناس تنصرف عنهم ، لذلك جاءوا بمن يمدح الإسلام ويدس فى أثناء المديح ما يفسد به عقيدة المسلمين .

إننا نجد بعضاً من المؤلفات تتحدث عن عظمة الإسلام تأتى من الغرب ، ولكنهم يحاولون الطعن من باب خفى كأن يقولوا : إن محمداً عبقرى نادر فى تاريخ البشرية ويبنون كل القول على أساس أن ما جاء به محمد هو من باب العبقرية البشرية ، لا من باب الرسالة والنبوة . ولنجد مثالاً على ذلك رجلاً أوروبياً يؤلف كتاباً عن مائة عظيم فى العالم ويضع محمداً صلى الله عليه وسلم على رأسهم جميعاً . ونقول له : شكراً . ولكن لماذا لم تؤمن أنت برسالة محمد بن عبدالله ؟

إن شهادتهم لنا لا تهمنا فى كثير أو فى قليل . لقد هاجمونا من قبل بشكل علنى . ويحاولون الآن الهجوم علينا بشكل مستتر . وهم أخذوا بعضاً من أبناء البلاد الإسلامية ليربوهم فى مدارس الغرب وجامعاته من أجل أن يجعلوا من هؤلاء الشباب

دعاة لقضاياهم في إفساد المسلمين ، ولم ينجحوا إلا مع القليل ؛ لذلك نقول لشبابنا : احذروا أن تكونوا المفسدين وتدعوا أنكم المصلحون ، فلا تأخذوا المسألة بالطلاء الخارجي ولكن انظروا إلى عمق القضايا ، وتذكروا قول الحق :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

علينا أن نرقب كل فساد في الكون ، وسنجد أن لأصابع أعداء الإسلام أثراً واضحاً . لقد كان من اجتراء الصهيونية إلى حد الوقاحة أن تقول : ليطمئن شعب الله المختار ، فإننا في المائة من وسائل الإعلام في العالم خاضعة لإرادتنا ولا يمكن أن يُعلم فيها إلا ما نحب أن يُعلَم . والحق سبحانه وتعالى عندما يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فسبحانه وتعالى بهذه الآية يقدم الفرصة لهؤلاء الناس حتى يدخلوا إلى حظيرة الإيمان ويستغفروا الله عن خطاياهم الماضية وليبدأوا حياة جيدة على نقاء وصفاء بدلاً من التحريف والتضليل . وليعرفوا معرفة حقة قوله تعالى في رسوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هذا القول يجب أن يتهافت إليه غير المسلمين مع المسلمين ليأخذوا من ينبوع الرحمة ، وفي ذلك تصفية عقدية شاملة تتيح لكل إنسان أن يبدأ طريق إصلاح نفسه .

وقوله الحق : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا » إنما يدعوهم إلى الإيمان ، والتقوى . والإيمان محله القلب ، أي أن يستقر في القلب الاعتقادُ بوجود إله أعلى ، وأن تؤمن بالبلاغ عن الإله الأعلى بواسطة الرسل ، وأن تؤمن بالرسل وبالمناهج التي جاءوا بها ، وأن تتبع هذه المناهج ، وأن تؤمن بأن المرجع إلى الله . هذا الإيمان

ينعكس على الحركة الإيمانية في الأرض ، ويحقق الإيمانُ مع التقوى اتجاهَ الإنسان إلى الصالح من العمل . وأن يبتعد عن غير الصالح من العمل اتباعاً لقول الحق :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ③ ﴾

(سورة العصر)

ولذلك نجد قولاً لأحد العلماء الصالحين من العرب هو : إن الإيمان كالعُمُد والأعمال كالأطناب . ونعرف أن كل بيت له أساس من الأعمدة ، وله أوتاد تثبته . والخيمة العربية هي بيت من القماش السميك على عمود من الخشب وتشد الخيمة إلى الأرتاد بحبال ، وهذه الحبال هي الأطناب ولا تقوم الخيمة إلا إذا ربطت بالحبال وشدت إلى أوتاد . وكان العربي يفك هذه الخيمة ، ويحملها على ظهر بعيره لينصبها في أي مكان . وكان العربي يختار القماش الذي إن نزل عليه المطر ، يمتص الماء ويمنع سقوطه داخل الخيمة .

إذن فالإيمان عمود ، والأعمال أطناب . وهكذا تكون دعوة الحق لأهل الكتاب حتى يؤمنوا ويتقوا الله حتى يكفر عنهم سيئاتهم ، والكفر ـ كما نعرف ـ هو الستر والتغطية والعفو هو محو الأثر ، كأن الحق سيغطي على سيئاتهم ثم يمحو أثرها وذلك بأن يعفو عنها ؛ لأن الإسلام إنما جاء رحمة يجب أن تستغل ليكفر الحق عن سيئاتهم التي ضللوا بها شعوبهم .

لقد كان من الواجب عليهم أن يعرفوا أن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فرصة للتراجع عن الكفر والبهتان . وقد جاء صلى الله عليه وسلم ليقيم تصفية عقدية في الكون ، فالملحد يجب عليه أن يتعرف على خالق الوجود ويؤمن به ، والمبدل لمنهج الله ينبغي أن يعود إلى منهج الله . وتلك هي التصفية العقدية الشاملة . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم

مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ
مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

أى أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف ، وآمنوا بالقرآن لكان خيراً لهم . والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم ، والمراد لهم الحق بالإيمان بما جاء في التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل - من قبل تحريفهما - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزله الله إليه واليهود - كما عرفنا - هم الذين توعدوا العرب بمجيء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد كانوا - أهل كتاب - يملكون المدخل الطبيعي للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح ؛ لأن فيهما نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سيدنا عبدالله بن سلام وكان من أحبار اليهود يقول : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد » . وحينما يعد الحق أهل الكتاب إن آمنوا واتقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم ، فسبحانه لن يكفر عنهم سيئاتهم ويقيهم من عذاب النار فحسب ، ولكن سيمحو هذه السيئات ويدخلهم الجنة . وسبحانه هو الأعلم بهم ، ويعلم أن منهم الذين المرتبطين بالدنيا لذلك جاء لهم بخير الإيمان في الدنيا فقال :

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » فسبحانه يمد لهم أيضاً يد الأسباب في الدنيا ، والمؤمن هو من يرتقي في الأخذ بالأسباب فيأخذ نعيم الدنيا والآخرة ، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن يشكر الخالق عليها .

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعي للإيمان بالقرآن ، فهذا هو السبيل إلى تكفير السيئات بألا يدخلوا النار بل ويدخلون الجنة في الآخرة . وهم بالإيمان لا يأخذون خير الآخرة فقط بل يأخذون خير الدنيا أيضاً ؛ لأن الحق لا يضن على مجتهد في الأسباب ، وهو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

(سورة الشورى)

فمن بقى منهم على الكفر يأخذ من أسباب الدنيا ولكنه لا يأخذ أبداً من عطاء الآخرة :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾

(سورة الفرقان)

وبذلك يوضح الحق مصير أهل الكفر في الآخرة أولاً ، ويوضح من بعد ذلك مصيرهم في عاجل الدنيا ، فإن أخذوا بالأسباب عطاهم الله نتائج الأسباب ، وهو سبحانه الذي يحفظ بطلاقة القدرة ، فقد يعطل الأسباب ويسلب الأشياء خواصها ، فالزارع قد يأخذ بكل الأسباب من حرث للأرض وتسميد لها وانتقاء لسلالة البذور ، ولكنّ إعصاراً قد يهب فيقتلع كل شيء أو فيضاناً يغرق الزرع ، أو حشرة فتاكة كدودة القطن تأكل المحصول . إذن ، فالأسباب وراءها مُسَبِّبٌ له طلاقة القدرة ، وسبحانه هو الذي وضع القوانين الكونية ، وهو - أيضاً - الذي يسلبها خواصها .

فأنت أيها الإنسان سيد الكون بإرادة الله ومقهور في كثير من الأقضية لقهرية الجبار . صحيح أن لك بعض الاختيارات في بعض الأشياء ، ولكن هناك قهريات في أمور لا دخل لك فيها ، فالمرض قد يقتل ، والحدث المفاجىء قد يقتل ، وتلك أشياء من قهريات الله التي تخرج الإنسان عن الأسباب .

إن الحق سبحانه يرينا أن بلاداً كانت دائمة المطر ثم أصابها الجفاف ، لماذا ؟ لأن

الناس تفتن من رتابة النعمة ، ولذلك يمسك الحق الكون بيده ، وهو سبحانه لا يسلمه لأحد أبداً . لذلك يأتي في بعض الأحايين ويقبض أسبابه حتى لا يفتن الإنسان بالأسباب ورتابتها .

وأمثلة ذلك في حياتنا كثيرة ، نرى المزارع الذي يملك عشرات الأفدنة فتهاجمها الدودة فتأتي على الأخضر واليابس ، بينما جاره الذي لا يملك إلا قطعة يسيرة وقليلة من الأرض تطرح الخير كله لصاحبها ؛ لأنه دفع ما يسميه أهل الريف « خفرة الأرض » أي زكاتها . والدودة في هذه الحالة تكون هي من جنود الحق فتأكل المال الباطل ولا تلمس المال الحلال .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ولذلك يهدم الحق أسبابه لمن يعصى فيها ، ويزيد للمؤمن . ويقول : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » والرزق - كما علمنا - قسمان : قسم مباشر وقسم يأتي بالرزق المباشر ، والرزق المباشر هو ما ننتفع به على الفور ، كطعام نأكله أو ماء نشربه ، أما الرزق الآخر فهو المال الذي قد نشتري به الرزق المباشر . وجاء سبحانه بأمور الحياة الواقعية حتى نفهم أن المنهج إنما نزل لينظم حركة الإنسان في هذه الحياة ، والآخرة هي الجزاء على حسن العمل في الدنيا .

وبعد أن وعدهم - سبحانه - بالجنة جزاءً للإيمان بعد هم الأسباب في الدنيا رخاءً وسعةً وثراءً وسعادة ، ونجد من يسأل : وكيف يأكلون من فوقهم ؟ ونقول . إن الأكل هو المظهر الأساسي لحياة الإنسان ؛ لأن كل حركة يصنعها الإنسان هي فرع من وجود حياته . ووجود حياة الإنسان يتوقف على ثلاثة عناصر مهمة هي الأكل والشرب والتنفس . فإذا ما أردنا استبقاء الحياة والتناسل فلا بد من توفير هذه المصادر الثلاثة .

إننا عندما ننظر إلى ترتيب الثلاثة في الأهمية نجد أن الإنسان قد يصبر على الطعام

شهراً . وقد يصبر على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام ، أما التنفس فلا يطيق الإنسان ألا يجد الهواء لمدة دقائق .

ومن رأفة الحق بالخلق أن جعل الحيازة لهذه الأنواع المقومة لاستبقاء الحياة تترتب حسب أهميتها . لذلك ترى من يملك على إنسان آخر طعامه ويتحكم فيه ، لكن الحق يجعل في جسد الإنسان ما قد يقيته شهراً . ويرى أن الحيازة في الماء أقل من الحيازة في الطعام ؛ لذلك لم يُمَلِّكْهُ الحق إلا نادراً ؛ ذلك أن الإنسان لا يطيق الصبر على العطش إلا لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام . وأما الهواء فلم يجعله الحق ملكاً لأحد على الإطلاق ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستغني عنه إلا بمقدار الشهيق والزفير ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخره في حجم رئته ؛ لذلك لم يأمن الحق أحداً من الخلق على ملكية الهواء .

وقول الحق: « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » مقصود به أن الاستقامة في تطبيق منهج الله تُخْضِعُ الأسباب الكونية لهم ، أما إذا ما تمرد الإنسان على منهج الله فقد يعطيه الله زهرة الحياة الدنيا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فالنواميس الكونية لم تنعزل عن يد الحق .

لذلك يخاطب - سبحانه - الخلق خطاباً ، فإن انفعلوا للخطاب ، يسَّر لهم كل ما سخره لهم في الكون . وإن لم ينفعلوا فهو ممسك الأسباب ويمكنه أن يخرق قوانينها ، فلا الأرض ولا الهواء ولا أي شيء خرج عن طاعة الله ، فإذا ما تمردت جماعة على نعم الله أو على الله سبحانه يجعلهم نكالاً لغيرهم ويقبض عنهم الأسباب .

والإنسان سيد هذه الكائنات في هذا الكون ، وهو منفعل - أيضاً - بقدرة ربه وقد يمرض، وقد يموت ، وقد ينكسر ، وقد يغرق ، فإذا كان الإنسان وهو المنفعل بـ « كن » من ربه فكيف حال الأشياء الأدنى منه ؟ إنها أيضاً منصاعة لـ « كن » . والحق قادر أن يقول للأرض : كوني جدباً ، وهو القادر على أن يوقف المطر لأنه هو سبحانه الذي يجعل الأشياء تسير سيراً رتيباً . ألم يقل الحق سبحانه وتعالى في خطابه لكل خلقه عن الأرض . ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ فإذا كان الحق قد أوحى للأرض

لتبرز الكنوز أو تحدث الزلازل . فما بالنا بكل شيء آخر ؟. إذ كل شيء إنما يسير بأمر الله ، ذلك أن كل شيء يسبح بحمد الله ، ولكن الإنسان لا يفقه لغات غيره من الكائنات : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وخطاب الله لكل خلقه يفهمه المنفعل له من أي جنس من أجناس الوجود ، ولو علمك الله هذا الانفعال ، لسمعت لغة الكائنات الأخرى مثال ذلك سيدنا سليمان عليه السلام الذي سمع قول نملة لبقية النمل :

﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

وماذا قال سليمان من بعد ذلك ؟.

قال سليمان :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة النمل)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

والهدهد قال في القرآن :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فكل كائن في الوجود يعرف قضية الإيمان وقضية التوحيد وكل من في الوجود ينفعل لربه . وهكذا كل الأشياء التي تحفظ للإنسان حياته أو ترعه فماذا عن حال من يتمرد على الله ؟. إنه سبحانه قد يقول للأسباب انقبضي عنه ونرى ذلك في حال بعض البلاد على ألوان مختلفة . فالبلاد التي تقع في منطقة يعرف عنها أنها دائمة المطر ، يخرق الله طبيعة البيئة فتصير إلى جفاف ، وغيرها التي تستطيع أن تصل إلى الفضاء الخارجي لا تقدر على مواجهة إعصار ، وذلك ليتأكد لنا أن يد المكوّن ـ سبحانه ـ فوق أسباب الكون

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » أي أن يأتي الخير من كل

ناحية . فإذا كان يراد بالأكل الأكل المباشر ، فالمطر هو الذى ينزل من أعلى يروى الأرض فيخرج الزرع ، وكذلك النحل يعلونا ويأتينا بالثمر ، وكذلك أشجار الفاكهة من برتقال وتفاح وغير ذلك . أما ما تحت الأقدام فهى الخضراوات ، والفواكه التى تنمو دون أن يكون لأى منها ساق على الأرض كالبطيخ والشمام وغير ذلك .

ولنا فى سقوط الفاكهة من على أشجارها العالية بعد تمام النضج الحكمة البالغة ، فالرزق الذى طاب وإن لم تسع إليه يأت إليك تحت قدمك .

وإن توسعنا فى فهم قوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ». فلله أسرار فوق الأسرار ، وله فيما تحت الأرض أسرار . ألا نأخذ كل شىء يعيننا على الحياة من طبيعة الأرض سواء أكان حديداً أم نحاساً أم بترولاً ؟ . وهكذا نجد أن كل شىء فى الوجود يخدم بقاء نوع الإنسان أو استبقاء حياته هو من عطاء الله .

إذن فلو أن أهل الكتاب أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن وساروا على المنهج لوهبهم الله كل خير . ويؤكد الحق هذا المعنى فى آية أخرى فيقول (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

ونرى أن الحق قد أعطى بعض الناس من النعمة الشىء الواسع والكثير ومن بعد ذلك يطغى أهلها بالنعمة فيمهلهم ربنا إلى أن يعلو أمرهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وحياتنا المعاصرة خير شاهد على ذلك ؛ فكل بلد أخذت نعمة الله تتحاج بها الله وتكون ضد منهج الله نجدها تبوء بالفساد . ويأتى بأس أهلها فيما بينهم شديداً ويخربون بيوتهم بأيديهم . وكم من بلاد كانت متعة الناس أن يذهبوا إليها للترف أو الانتقالات ثم يأتى بأس أهلها بينهم وتخرب بأيدى أبنائها . وفى واقع الكون ما يزيد صدق ذلك ، وكأن الحق يقول لنا : اعتبروا يا أولى الأبصار .

ويقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ (من الآية ١١٢ سورة النحل)

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التي نتعارف عليها اليوم ، لأن القرية في عرف العربي القديم هي المكان الذي يقابل العاصمة . وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدي » أي أنهم يقيمون في البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا متوطنين في مكان واحد . وكانت عاصمة البدو هي القرية التي تتكون من عدد صغير من البيوت . ولذلك يسمى القرآن الكريم « مكة » بأم القرى . ويضرب الله مثلا بالقرية الآمنة المطمئنة التي يأتيها رزقها واسعا من كل مكان ، أي أن خيرها ليس ذاتياً ولا نابعاً منها ولكن يأتيها من كل مكان . وفي العصر الذي نعيشه نجد أن خير الدنيا يصب في قلب بعض القرى ، وما إن يكفر أهل القرية بأنعم الله ما الذي يحدث ؟

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذا واقع نراه في كثير من البلاد التي أخذت نعمة الله وبدلتها كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . ويرينا سبحانه القرى التي يلبسها الحق لباس الجوع والخوف . وعندما ننظر إلى قول الحق . « لباس » نرى أن الجوع له لذعة ، واللباس له شمول ويلفهم الجوع كما يلفهم الثوب ، وكذلك الخوف فتصير كل جارحة فيهم خائفة . أي أن الحق سلط عليهم الجوع فلا يجدون مواد الأقتيات . وكذلك الخوف يأتيهم فإما أن يكون الخوف بسبب بأسهم فيما بينهم لأن عداوة بعضهم بعضا شديدة ، وإما أن يكون الخوف من عدو خارج عنهم . وهذا واقع معاصر

وكيف يكون الكفر بنعم الله ؟ الكفر بنعم الله إما أن يكون بمعنى ستر النعمة . واستعمالها في معاصي الله ، ومثله مثل الكفر بالله أي ستر وجود الله ، وقد يكون الكفر بنعمة الله بالتكاسل عن استنباط النعمة من معادنها . وفساد العالم الآن يأتي من أناس كسالى عن استنباط نعم الله المطمورة في كونه ، وأناس يجدّون في استنباط نعم الله ويحجبونها لأنفسهم ولا يعطون منها الضعاف ، ويستخدمون النعمة في المعاصي . ومن هنا نفهم قول الحق :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقول الحق : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . هو حكم عام ؛ فهل وُجِدَ من يؤديه ؟ . نعم ؛ هناك أناس منهم عرفوا ذلك وساروا إلى السبيل المستقيم ، وعن هؤلاء يقول سبحانه : « منهم أمة مقتصدة » والمقتصد هو الذي يسير في السبيل القاصد ، وهو السبيل المستقيم إلى الغرض فلا ينحرف هنا أو هناك .

إذن قول الحق : « منهم أمة مقتصدة » . أي منهم أمة تسير إلى أغراضها وإلى غاياتها على الطريق المستقيم . وهذه إشارة إلى أن بعضاً من أهل الكتاب يفعل ذلك ، والبعض الآخر لا يفعل ، وهذا القول أشار أيضاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يُخلي وجوده وكونه من خلية خير فيه ، وقد تكون خلية الخير هذه من أضعف الناس الذين لا شوكة لهم في الدنيا ولا جاه ولا قوة . ولولا هؤلاء الناس لهدَّ الله الأرض ومن عليها . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله : « لولا عبادٌ لله رُكَّع ، وصبية رضع ، وبهائم رُتَّع لصُبَّ عليكم العذاب صبا ثم رُضَّ رَضًّا »(١) .

كأننا مكرمون في هذا العالم من أجل الضعاف فينا . وكأن الحق لا يحجب الخير عن كونه ، بل يجعل في الكون ذرات استبقاء للخير . ولذلك تجد من يقول : إذا بالغ الناس في الإلحاد زاد الله في المد . وقد تجد بلداً كلها من الملاحدة ، وتجد فيها عبدا واحداً متبتلا لربه ، ويكون هذا الرجل هو الذي يستبقي الله من أجله هواء تلك البلدة وماءها . ولذلك قال سبحانه : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في السنن الكبرى.

﴿ ... وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تبدأ الآية بخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عظمة رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلو مكانته عند من اصطفاه خاتماً لرسالاته فى الأرض أن الله ذكر الرسل فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط كقوله الحق :

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة البقرة)

أو قوله الحق :

﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

أو قوله الحق :

﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

أو قوله الحق :

﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

فسبحانه ينادى كل رسول له بالاسم المشخص للذات بصرف النظر عن أى صفة ، لكن رسول الله لم يُنَاد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف : « يا أيها الرسول » . أو قوله الحق : « يا أيها النبى » .

فكأنك يا رسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذى سينتهى العالم عنده ولا يكون بعد ذلك لله فى الأرض رسالة إلا فهم يؤتيه الله لأحد فى كتاب الله .

ومن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أقسم بحياته ، على الرغم من أن الحق لا يقسم بحياة أحد من البشر إلا رسوله ، فقد أقسم بحياته . وهو سبحانه

يقسم بما يشاء على ما يشاء ، أقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، لكنه ما حلف بحياة بشر أبداً إلا حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ . (سورة الحجر)

أي وحياتك يا محمد هم في سكرتهم يعمهون أي يترددون حيارى . ويقول الحق هنا مخاطباً الرسول: « يا أيها الرسول » . ومادام محمد هو الرسول الخاتم الذي جاء مصدقاً لما بين أيديهم من الكتب ، فمعنى هذا أن كل خير في أي كتاب سبق القرآن موجود في القرآن وفيه أيضاً زيادة عما تتطلبه مصالح الحياة المستجدة . وما دام الخطاب للرسول فهذا يعني أنه رسول مرسل من قبل الله بمنهج خالقه ليبلغه لهم : « بلغ ما أنزل إليك من ربك » . وكيف يقول الحق لرسوله : « بلّغ » وهو يعلم أن مهمة الرسول هي البلاغ ؟

لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ التزاماً بأمر الله ، فهو لا يأتي من عنده ، ذلك أن الرسول عليه البلاغ ، فإن أبلغ أحداً ما يكرهه فليس له مصلحة في ذلك . ويورد سبحانه ذلك حتى إذا بلّغ الرسول حكماً من الأحكام فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر ، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشيء قد يكرهونه ، فهو بلاغ من الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . أي أنه إن لم يفعل ولو في جزئية يسيرة من المنهج فهذا معناه أن البلاغ نقص والله يريد أن يكون البلاغ كاملاً بالدين المتكامل.

إن التركيبة الإيمانية تقتضي أن يأتي القول بهذه الطريقة حتى ينسجم البلاغ بشكل كامل ؛ فقد نزل المنهج بكليته ، ويجب أن يُطبق بكليته من أجل أن يتصلح الكون وحتى لا تفسد حركة الإنسان في الكون ، فقد أنزل سبحانه المنهج ولحكمه ليسير العالم على حسب تصحيحه له دون أن يختل . ولذلك يقول الحق : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » وبذلك يعطي الحق رسوله المناعة الكاملة . فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا خير الناس.

لقد سبق أنّ خلق الله آدم وأعطاه المنهج . وكان على آدم أن يبلغ المنهج إلى الذرية وقد حصل ، لكنّ بعضاً من أجيال بني آدم غفلت عن المنهج ، فيبعث الحق الرسل لتذكر بالمنهج . ولا يأتي رسول إلا بعد أن يكون الفساد قد فشا وانتشر بين الناس . وقد جعل الله في النفس الإنسانية نفساً لوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة .

إن مهمة النفس اللوامة هي أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . لكن إن لم تلم النفس اللوامة ، فالنفس الأمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع . أما النفس المطمئنة فهي النفس التي تطمئن إلى منهج الله . ومثال ذلك الإنسان الذي تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها ، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه ، ويتوب عن المعصية . هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً . لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع .

وماذا إذا ساد الفساد بين عموم الناس ؟ وماذا لو لم يتناهوا عن المنكر الذي يفعلونه ؟ هنا لا بد أن يرسل الحق رسولاً بمعجزة جديدة ليأخذ العالم إلى منطق الرشاد ومنهج الحق .

ولا يختار الحق الرسول إلا إذا علم الرسول أنه مبلغ عن الله . وسبحانه في الآية التي نحن بصددها يعطي رسوله المعذرة إن بلغ قومه شيئاً يسوؤهم ، فما على الرسول إلا البلاغ في قوله . « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ونعرف أن الرسالة تقتضي : المرسِل وهو الله ، والمرسَل إليهم وهم الخلق ، ومرسَلاً وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمرسل به وهو ما نزل على الرسول ليبلغه . وفي كل أمر مثل هذا نجد أن كلمة « أرسل » يتعدى إلى مفعولين ؛ المرسَل : مثال ذلك أرسلت فلاناً إلى فلان ، والمرسل إليه وهو فلان . إذن فهنا مفعولان اثنان ، أولهما تعدى الفعل إليه بذاته والآخر تعدى إليه الفعل بحرف الجر .

وحرف الجر هنا هو : « إلى » . وبطبيعة الحال يعرف الرسول أنه مرسَل إلى الناس من الله رعاية لمصالحهم ، فليس في أمر الرسالة شيء لصالح الله . وإن رأيت تعدياً بـ « إلى » فهو لتحديد الغاية المرسل إليها ، مثل قوله الحق :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

وهذا يوضح أن عيسى - عليه السلام - جاء مبعوثاً بمنهج إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل ومثلما يقول الحق : وأرسلناك للناس رسولا » أى لصالح الناس . و« اللام » هنا تفيد المعنيين : المعية والغاية .

« بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » أى أنه صلى الله عليه وسلم إن لم يبلغ الرسالة كاملة فمعنى ذلك أن البلاغ يكون ناقصاً ومعاذ الله أن يكون بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنقص شيئاً ، فمنهج الله كل متكامل

وقد يقول قائل : ولكن الناس قد لا تؤدى فروض الله فى مواعيدها ، والمثال على ذلك هو الصلاة ونقول : إن هذا عجز فى إدارة الناس لحياتهم حسب منهج الله . ومن واجب المجتمعات أن تنظم حركة الناس اليومية من بعد صلاة الفجر إلى الظهر وفى ذلك قدر هائل من الحيوية والنشاط ، وينتهى العمل عند الظهر ، فلا تتصادم حركة الناس مع منهج الله ، ولا توجد عرقلة ولا نشز فى حركتهم

ثم يقول الحق : « والله يعصمك من الناس » وكان لا بد أن يأتى هذا القول الحكيم ؛ لأننا نعرف أن الرسول لا يجىء إلا بعد أن يعم الشر ويسود الفساد ، ذلك أنه لو لم يسد الفساد ، ولم يعم الشر لاكتفى الله بالمجتمع ليردع بعضه بعضاً ، أو يكتفى الحق بأن تردع النفسُ اللوّامة النفس الأمارة بالسوء لتستوى النفس المطمئنة على عرش السلوك البشرى

لكن عندما يعم الفساد الكون فالسماء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال البشرية وبطبيعة الحال لن يترك المجتمع الشريرُ الرسول لحاله بل يقاومه ؛ لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كفة الكون غير متوازنة ؛ لأن هناك منتفعين بالفساد والشر ، وهم المدافعون عن الفساد ، وإن جاء من ينصف الضعفاء والمظلومين فلا بد أن يتعرض للمتاعب التى تأتيه من قبل الأقوياء المفسدين .

إن هذه المتاعب تبدأ أول ما تبدأ في النفس ، ولأن الرسول مخاطب من الله فيمكنه أن يتحملها لأن الحق قد أعده لهذه المهمة ، ومثل تلك المتاعب تأتي أيضاً للأتباع ، لذلك يمدهم الله بالمدد الذي يجعلهم يتحملونها . والحق يحفظ للرسول ذاته على الرغم من كل ما يحدث « والله يعصمك من الناس » .

فكأن الحق يقول لرسوله : اطمئن يا محمد ؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلي بينك وبين الناس ولن يجرؤ أحد أن ينهي حياتك . ولكني سأمكنك من الحياة إلى أن تكمل رسالتك وإياك أن يدخل في رُوعك أن الناس يقدرون عليك ، صحيح أنك قد تتألم ، وقد تعاني من أعراض التعب في أثناء الدعوة ، ولكن هناك حماية إلهية لك. ونحن نعلم قدر المتاعب التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم تكسر رباعيته[1] صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد؟ ألم يشج وجهه؟ ألم تدم أصبعه فيقول : « إن أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت »[2]

لكن قول الحق سبحانه لرسوله: « والله يعصمك من الناس » لم يكن المقصود هو منع الجهاد في سبيل الله والمعاناة في سبيل نشر الدعوة ولكن الحق يبين لرسوله: إن أحداً غير قادر على أن يأخذ حياتك

ولم يمنع سبحانه المتاعب عن رسوله الكريم حتى لا يكون هناك أحد الداعين إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمل رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولننظر ونستمع جيداً إلى ما ترويه عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حول هذه الآية إنها قالت :

«سهر رسول الله ذات ليلة وأنا إلى جنبه، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال: (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة)، قالت: وبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت سلاح فقال صلى الله عليه وسلم من هذا ؟ فقالوا سعد وحذيفة جئنا نحرسك فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه

---

(١) الرباعية : السن بين الثنية والناب

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة

الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبَّة أدم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله »(١)

وهناك باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلى هذه النقطة ، فتوقفت عندها لتقول : لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته ، ولو لم يكن واثقاً من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته في خالقه . وأضافت الباحثة البلجيكية . ولذلك أنا أقول بملء اليقين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لقد أسلمت المرأة لمجرد وقوفها عند لمحة واحدة من لمحات حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويقول الحق من بعد ذلك : «إن الله لا يهدي القوم الكافرين » ونعرف أن الهداية تعني الدلالة الموصلة إلى الغاية ، وهي أيضا المعونة التي توصل طالب الهداية إلى الغاية وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم في المكر والتفكير والتبييت ، فيقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل سبيل ، وينصره عليهم ، ويأتي التطبيق العملي لنصر الله للمؤمنين في بدر .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهة لم يقدروا على محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يستطيعوا إيذاءه ، برغم المكر والتبييت ؛ لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإيذاء محمد ، ولن توجد وسيلة من وسائل اللؤم والخبث قادرة على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تمثل ذلك يوم خرج رسول الله مهاجراً وعطى الله أبصار فتيان القبائل الذين حملوا سيوفهم ليقتلوا محمداً وليفرق دمه بين القبائل فلم يبصروه لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة

إذن فكلما فكروا في طريقة سد الله عليهم منافذ تنفيذ فكرتهم وكأنه يقول لهم : لن تستطيعوا مصادمة محمد في منهجه لا بالعلن ولا بالدس ولا بالخفية ، بل أنتم

---

(١) رواه الترمذي . وروى مسلم قالت : أي السيدة عائشة . فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح (أي صوته) فقال : من هذا ؟ قال سعد بن أبي وقاص فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ فقال وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام

ـ أيها الكفار ـ تخدمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد في بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد عود الدعوة بكفر أهل قريش . وعندما أردتم قتل محمد وأن يتفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم . وفي الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفار وهو عبدالله بن أريقط . كان ذلك لنعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبدالله بن أريقط وهو كافر لا تغريه المكافأة أن يشي ويسعى بالرسول لدى مشركي مكة . ولكنهم لم يتحذروا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغنم تعفي الأثر ، والأرض تشد قوائم فرس سراقة لتغوص وتسوخ فيها .

إذن فكل جنود الله في صف محمد بن عبدالله وهكذا رأينا كيف لم يهد الحق القوم الكافرين إلى الغاية التي أرادوها وهي التمكن من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا يهديهم الله إلى الإيمان . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

و « قل » ـ كما نعرف ـ هي خطاب له صلى الله عليه وسلم ، ومن بلى ذلك بلاغ من الله لأهل الكتاب إنهم بلا منهج لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل بل حرفوهما ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، وهو المنهج الكامل المنزل على محمد بن عبدالله

وحين يقول الحق : « لستم على شيء » فكلمة « شيء » تقال لأدنى فرد من أي جنس ، فالقشة شيء ، وورقة الشجرة شيء ، وما يطلق عليه شيء - إذن - هو الأقل .

وقوله الحق : « لستم على شيء » أي إياكم أن تظنوا أنكم حين تقومون بتنفيذ جزء من تعاليم التوراة والإنجيل وتخفون الباقي وتهملونه تكونون قد أخذتم شيئاً من الهداية ، لا ، فأنتم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وتؤمنوا بالكتاب الذي أنزل على محمد . والمنهج ليس عرضة لأن تأخذوا منه ما يعجبكم وأن تتركوا ما لا يعجبكم .

وعندما يقال : « لستم على شيء » . ونعرف أن الشيء هو أقل مرتبة في الوجود ، ولذلك نقول : « شيء خير من لا شيء » ويقال بالعامية : « هاش خير من لاش » و « هاش » هو الهالك من ثياب المنزل الممزقة ، أي أن الذي يملك ملابس ممزقة أفضل ممن لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وقوله الحق : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » هو إيضاح لهم أنهم في المرتبة الأدنى من الكائنات لأنهم بلا منهج ويضيف : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أي أنهم لن يظلوا على درجة واحدة ثابتة من الطغيان والكفر ، بل كلما أنزل الحق إليك آية يا محمد ، وكلما نصرك الله في أمر ازدادوا هم طغياناً وكفراً . وكان من المفروض أن زيادة نزول الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون إضعافاً تشددهم وترقيقاً لقلوبهم ، لكنه سبحانه أراد أن تشتد شراستهم وحقدهم في أمر الاعتراف بالإسلام .

وقد حدث من خالد بن الوليد وكان فارس الجاهلية ضد الإسلام أن قال لعمرو ابن العاص : لقد استقر الأمر لمحمد . واتجه الاثنان إلى الإسلام على الرغم من أن كلا منهما يعرف قوته ومكانته بين قومه . وبعد أن رأى خالد وعمرو أن الحيلة هي نصيب الواقف ضد محمد مهما علا شأنه ، ذهبا إلى الإسلام . وهذا هو موقف المتدبر للأمر دون حقد ولدد . أما الذي يزدحم بطمانانة حقداً ولدداً فتزيده آيات الله لنصرة

منهجه حقداً ولدداً وطغياناً ، لأن الله شاء ألا يهديهم . ولذلك تصير كل آية في صف الإيمان والمؤمنين مصدرَ إثارةٍ وغيظ ومرارة في نفوس أهل الكفر. وهكذا يوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره تجاه هؤلاء الكفار.

إنك يا رسول الله لا تواجه طاقة محدودة ولكنك تواجه طاقة من الشر النامي . وكل آية إنما تهدي الذي في أعماقه بذرة من خير . أما الذي ينتفي الخير من داخله فالمسألة تزيده شراسة في قلبه. إن الشرير يُصعِّد الشر ويزداد جُرمه وإثمه، أما الخير فينزل من قِمّة الجرم إلى أقل درجة . وهنا المثل في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالحق يقول على لسان إخوة يوسف :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

ومن بعد ذلك قالوا لأبيهم : « مالك لا تأمنا على يوسف » . ثم أخذوا في التبييت والتدبير وقالوا : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » . وكان أول تدبير لهم هو ما قاله الحق حكاية عنهم : « اقتلوا يوسف »

ومعنى القتل هو إزهاق الروح ، وهذه أعلى درجات الشر ، لكنهم يتراجعون عنه فيقولون : « أو اطرحوه أرضا » ، فهم لم يرغبوا في قتله ، واكتفوا بأن يتركوه في مكان بعيد ، وتصوروا أن بعض السيارة قد يلتقطه فيبعدون يوسف عن أبيه . إذن هم بدأوا التدبير قتلاً ، ثم انتهوا بالتحكم لنجاة يوسف .

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

والمرحلة الثالثة قولهم : « ألقوه في غيابة الجب » والجب فيه مياه ، وهناك أناس كثيرون يذهبون إلى مصادر المياه . هكذا يورد الحق لنا كيفية نمو الخير من بطن الكيد.

إذن فقوله الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أي أن الكثير منهم سيواصل رحلة التصعيد في الشر ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك .

ويلاحظ أن الحق قد وضع صيانة لاحتمال أن تفكر قلة منهم في الإيمان ، لذلك لم يشملهم كلهم بالحكم ، ولكن الحكم شمل الكثرة من هؤلاء الكافرين . ولذلك يقول الحق لرسوله : « فلا تأس على القوم الكفرين » أى لا تحزن عليهم يا رسول الله . فعلى الرغم من عداوة وشراسة من صادموا دعوته صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم كل تلك المحاولات ، كان لا يكف عن الدعاء لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] وكان لا يكف عن القول . « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله »[2] وقد تم ذلك بالفعل .

وكان الصحابة بعد الغزوات الأولى يقول كل منهم للآخر : أنا حزين لأن عمرًا أفلت منى ولم أقتله . ويقول الآخر : وأنا حزين لأن عكرمة أفلت منى . ويقول الثالث : وأنا لا أدرى كيف أفلت منا خالد بن الوليد . ولم يمكن الحق الصحابة الأوائل من هؤلاء المقاتلين الأشاوس لأنه يدخرهم للإسلام ، فكان عدم تمكين المسلمين من هؤلاء تمكيناً للإسلام ليحملوا السيف للإسلام مدافعين وناشرين لدعوته . وها هو ذا عكرمة بن أبي جهل يتلقى الطعنة الأخيرة في حياته فيضع رأسه على فخذ خالد بن الوليد ويسأله : أهذه ميتة ترضى عنى رسول الله ؟ إذن فقد أراد الله من عدم تمكين المسلمين منهم في أوائل الغزوات أن يكونوا جنداً للإسلام بقدراتهم القتالية فاستبقاهم أحياء ليخدموا الدعوة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ، والسيوطي في الدر المنثور

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في الجهاد

هم - إذن - أربعة ألوان من الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله . وهذه الآية وردت في صورتها العامة ثلاث مرات ، مرة في سورة البقرة ، ومرة هنا في سورة المائدة ، ومرة في سورة الحج .

ففي سورة البقرة يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئين » في هذه الآية منصوبة .

وفي سورة المائدة نجد قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئون » هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة « النصارى » .

وفي آية سورة الحج يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

هنا إخبار عن أربعة ، وزاد الحق عليهم اثنين في آية الحج ، ونجد أن الإخبار يختلف ، وكذلك يختلف الأسلوب ، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين ، ومرة تتقدم الصابئون على النصارى . ومرة تكون الصابئون مرفوعة ، ومرة تكون منصوبة بالياء .

وأما اختلاف الإخبار ، فهو سبحانه يخبرنا في سورة البقرة فيقول :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة البقرة)

والخبر فى سورة المائدة هو :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

والخبر فى سورة الحج هو :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحج)

والآيات الثلاث فى مجموعها تتعرض لمعنى واحد ، ولكن الأساليب مختلفة وكذلك الغايات فيها مختلفة .

ونلحظ هنا أن الحق قال : « آمنوا » والإيمان هنا هو الإيمان السطحى أى بالفم وليس بالقلب ، والمتصفون بذلك هم المنافقون والذين هادوا ، هم أتباع موسى ، والنصارى هم أتباع عيسى ، والصابئون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صبأوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب ، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة . والمجوس وهم عبدة النار . إذن فالحق يريد أن يجرى تصفية إيمانية فى الكون ، فمن يبادر ويدخل فى هذه التصفية ، يسلم من شر ما فعله قبل مجيء الإسلام ، ذلك أنهم أضلوا أناساً أو حكموا بالظلم .

والحق فى سورة البقرة يقول : (فلهم أجرهم عند ربهم) أى أنه - سبحانه - غفر لهم ما فعلوا من سوء وجزاهم على عملهم الصالح الذى لم يحبطوه ويذهبوه بعمل السيئات والآثام . هذا ما يتعلق بالآيتين : آية سورة البقرة ، وآية سورة المائدة ، ونلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله : (فلهم أجرهم عند ربهم) ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها فى سورة البقرة ، وذلك له نظير فى القرآن الكريم . كحمل المطلق على المقيد ونحو ذلك .

أما آية سورة الحج فهي التي يأتي فيها الحكم : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » كأنهم لن يؤمنوا ولن يعملوا الصالح ، فتكون هذه هي التصفية العقدية في الكون .

وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصفي المسألة الإيمانية في الأرض ويقول عن المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون : « إن الذين آمنوا » وهو ابتداء الخبر ، وتكون فيه « الذين آمنوا » في محل نصب لأنه اسم « إن » كما يقول النحاة ، وهو سبحانه قال هنا : « والصابئون » وهي معطوفة على منصوب . وهذا كسر للإعراب . إنّ الإعراب يقتضي أن تكون الكلمة منصوبة فتكون « الصابئين » لماذا إذن عدل الحق عن إنزال الكلمة حسب سياقها من الإعراب وأنزلها بكسر الإعراب مع أنه في آية أخرى قال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ﴾ .

لقد جاءت هنا في مكانها ودون كسر للإعراب ، وهي قد جاءت مرة قبل كلمة « النصارى » وجاءت مرة أخرى بعد كلمة « النصارى » . وهنا لا بد أن نتعرف على زمنية الصابئين ، فقد كانوا قوماً متقدمين قبل مجيء النصرانية ، فإن أردنا أن نعرف زمانهم نجد القول الحق يقدمهم على النصارى ، وإن أردنا أن نعرف منزلتهم فإننا نقرؤها في موضع آخر في القرآن ونجدهم يأتون بعد « النصارى » . إذن فعندما أرّخ الحق لزمانهم جاء بهم متقدمين ، وعندما أرّخ لكمّهم وعددهم ومقدارهم يؤخرهم عن النصارى ، لأنهم أقل عدداً فهم لا يمثلون جمهرة كثيرة كالنصارى

وجاء بها الحق مرة منصوبة ومرة مرفوعة ، لتعرف ويلتفت إليهم . وكسر الإعراب كان لمقتضى لفت الانتباه . وكان الصابئة قوماً يعبدون الكواكب والملائكة ، وهذا لون من الضلال .

إذن فهناك اليهود الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء موسى عليه السلام مبلغاً عنه ، وهناك النصارى الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ مبلغاً عنه ، وهناك المنافقون الذين أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولكن لم يلمس الإيمان قلوبهم .

وأراد الحق أن يلفتنا إلى أن الصابئين هم قوم خرجوا عن دائرة التسليم بوجود إله خالق غيب ، ويحدثنا الحق أنه يغفر لهم إن آمنوا وعملوا صالحاً . فالإيمان بالله شرط أساسي لقبول العمل الصالح والإثابة عليه . وجاء بهم متقدمين عن النصارى احتراسا وترقيا من مظنة أنه لا يعفو عنهم إن آمنوا وعملوا العمل الصالح .

ويلحظ أنها جاءت أيضاً في معرض جمع الله فيه بينهم وبين من يميلون أغياراً من دون الله ؛ لأن من يلصق ألوهية بغير الله يكون كمن عبد الكواكب وخرج عن التوحيد .

إنه سبحانه وتعالى يتيح لكل إنسان أن يدخل حظيرة الإيمان ويقيم تصفية عقدية يدخل فيها الكل إلى رحاب الإيمان ويقطعون صلة لهم بالشرك . فلو آمن المنافقون واليهود والنصارى والصابئون وعملوا الصالحات فلهم الأجر والمثوبة من الله ولا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وجاء العمل الصالح بعد الإيمان ؛ لأن الإيمان إذا لم يقترن بعمل صالح يكون عرضة للسلب والعياذ بالله ولا فائدة فيه ، وسبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعمل الصالح فيأمر كل مؤمن بصالح العمل حتى يكون لهم الأجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

أما الذين يصرّون على موقفهم الكفرى ، فإن الله يفصل بينهم يوم القيامة لأنه على كل شيء شهيد . وكلمة « يفصل » تدلنا على أنه سبحانه وتعالى سيصدر الحكم الذى يبين صاحب الحق من غيره . ونعرف أن الذى يحكم إنما يحكم ببينة . والبينة هي الإقرار ، والإقرار - بلغة القانون - سيد الأدلة . أو الحكم بشهود ، أو الحكم باليمين ، وهو سبحانه يفصل بين المواقف المختلفة والفصل هو القضاء بحكم . وعندما يكون الذى يحكم هو الذى شهد ، فهو العادل . لذلك قال الحق : « إن الله على كل شيء شهيد » .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والميثاق هو العهد المؤكد الموثق ، الذى يقتضى الوفاء الشديد . ولا نُوثق العهود إلا مظنة المخالفة . والمواثيق فى الإيمان بالله كثيرة . فهناك الميثاق الأول عندما كنا جميعاً فى ظهور الآباء

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

أو الميثاق الذى أخذه الله لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أو الميثاق الخاص الذى أخذ على كل أمة . وفى كل جزئية من جزئيات الدين يؤخذ ميثاق ، فنحن فى الإسلام مأخوذ علينا الكثير من المواثيق . وكذلك رأينا النبى وقد أخذ لنفسه الميثاق فى العقبة ، رأى الرسول أن ما يربطه بالأوس والخزرج الكثير ، كما يربطه بكل قوم يصبون إلى الوحدة تحت راية إيمان واحد ، وكان اليهود

يعتبرون عرب الأوس والخزرج مجرد همج وخدم يعملون لهم ، وارتأوا السيادة لأنفسهم . وكلما اختلفوا معهم هددوهم بمجيء رسول قادم سيؤمنون به وسيقتلونهم تقتيلاً .

وكان كل من الأوس والخزرج يحاول أن يستميل اليهود إليه ، فالأوس حالفت بني قريظة وحالف الخزرج بني قينقاع وبني النضير . وتلقى الاثنان الوعيد من اليهود بعد ظهور النبي القادم ، وذلك ما جعل كلاً من الأوس والخزرج يُسرع إلى التعرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء في موسم الحج نفر من ستة رجال ودعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فآمنوا به صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فستقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجاءوا في العام الذي يلي ذلك إلى موسم الحج وزادوا حتى صاروا اثني عشر رجلاً . وكانت المعاهدة ألا يشرك منهم أحد بالله وألا يسرق وألا يزني وألا يقتل أولاده وألا يأتي ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه . ولا يعصي رسول الله في معروف وعادوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن وفي العام الثالث جاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عديّ ، وكانت مبايعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواد من ذلك إرباك قريش . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم

(أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فأخذ البراء بن معرور يده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله بنو الحرب وأهل الحلقة (السلاح) وتكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . وبسط يده صلى الله عليه وسلم فبايعوه وكانت بيعة العقبة ميثاقاً يضمن لأهل البيعة الجنة إن أوفوا به وقد أوفوا وهذا

لون من العهود والمواثيق. وحين يخبرنا الحق هنا أنه أخذ من بني إسرائيل الميثاق، فمعنى ذلك أن هناك عهداً موثقاً مؤكداً.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾

(سورة المائدة)

وقد أخذ الحق الميثاق وأرسل رسلاً بالمنهج، لكنهم كلما جاء إليهم رسول يبحثون. هل المنهج الذي جاء به على هواهم أو لا؟ فإن لم يكن المنهج على هواهم قتلوا الرسول أو كذبوه على الرغم من أن الميثاق عهد مؤكد باتباع الرسول إن جاء بمعجزة ومنهج بلاغاً عن الله وتنفيذاً له في حركة الحياة.

لكنّ بني إسرائيل كانوا يتمردون على مناهج الرسل لأنها لا تأتي على هوى أنفسهم، وأول التمرد التكذيب، وهو أول خطوة في طريق الإخلال بالميثاق. ولم يكتفوا بالتكذيب، إنما حاولوا حصار الرسول حتى لا يصل المنهج إلى آذان تهتدي به، ولذلك لا يكتفون بالتكذيب بل قد يقتلون الرسول لأنه جاء بما لا تهوى أنفسهم.

ما هو الهوى أولاً؟. هو من مادة «الهاء والواو والألف المقصورة التي ترسم ياء»، ونجدها منطوقة مرة «هوى» ومرة «هواء»، ومرة «هُوِيّ» بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء، وكلها تدل على التعلق والانحدار. والهوى هو تعلق الشيء في النفس والميل إليه، فالشيء تستلطفه في نفسك فتنزع إليه بروحك، وقد يكون غير مستحب أو غير مقبول ولا مشروع.

وهل كل الهوى كذلك؟ لا، لأن هناك هوى الإيمان الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1].

إذن فمن الممكن أن يتجه الهوى إلى الخير. وهو الهوى الذي يحمل النفس على أن يسير الإنسان تبعاً للحق. أما الهواء فهو الذي يتنفسه الإنسان ويستخلص منه

(1) رواه البغوي في شرح السنة، والتبريزي في مشكاة المصابيح والمتقي الهندي في كنز العمال.

الأوكسجين ليغذي به الجسم وتسير به الحياة . ولذلك يقول الأثر : وأقبلت كالنفس المرتد .

إنه الإقبال الرقيق ، فنحن نعرف أنا إن أكلنا شيئاً نحبه فإننا نشعر بطعمه ، وعندما نشرب شيئاً نحبه فنحن نتذوق طعمه ، أما التنفس فهو أمر لا إرادي ، فعندما نتنفس شيئاً نحبه يكون إحساساً لطيفاً .

وهناك نطق ثالث ويعبر عن السقوط ، وهو هُوِيّ من هَوى يهوى - بالكسر للواو- ولذلك يقال : هُوِيّ الدلو ، أي نزول الدلو إلى المياه التي في البئر . فأي نوع من الهوى تقصده الآية ؟

يقول الحق : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فالهوى الذي يُتَحَدث عنه هنا هو هوى النفس المجردة عن المنهج ، وهو الذي يتحكم في حركة هذه النفس ويقودها إلى غير طاعة الله . وهل ترك الحق النفس الإنسانية دون عاصم لها ؟ لا ، لأنه أنزل الرسل تحمل منهجاً ملخصه « افعل » و« لا تفعل » . وهكذا يمكن أن يصير المنهج قيّماً على خواطر النفس .

لكن مادام الحق قد أراد أن يكون المنهج قيّماً على خواطر النفس ، فلماذا أوجد النفس ؟ . لقد أوجد سبحانه النفس لأن وجودها يبقى عليه أن يَهْوَى إنسان الحق والحلال لاستبقاء النوع وتجويد العمل لحلال الرزق . إذن فالغريزة تكون موجودة وقد خلقها الله لمهمة ، ولكنه يعصمها بالمنهج من الخروج عن مهمتها .

ويقول قائل : مادام الله قد خلق غريزة الجنس .. فلماذا لا نتركها لتعبر عن نفسها ؟ ونقول له : اتق الله واعلم أن الغريزة الجنسية إنما جعلت لبقاء النوع ، واستخدامها فيما يغضب الله فناء للنوع وانحراف يعاقب عليه المنهج .

وكذلك أوجد الحق غريزة حب الطعام ليقيم الإنسان حياته ولم يوجدها للقضاء على الحياة بالنهم والتخمة والشره . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ليست موجودة للتجسس على الناس ، ولكن هي لاستكشاف أسرار الكون واستنباط الجديد في

ينفع الناس . إذن فكل غريزة إنما توجد من أجل مهمة ، فإن خرجت عن مهمتها ، فالشرع يتحكم ويقول . لا . إن هناك إطاراً يمكن أن تستخدم فيه الغرائز ، والشرع إنما يأتي لا ليمحو الغرائز ، ولكن ليعليَ من الغرائز ليستعملها الإنسان فيما ينفع لا فيما يضر

ويقال في المثل العربي : « آفة الرأي الهوى » فإذا ما وقف اثنان أمام القاضي وأحدهما مظلوم والآخر ظالم فالقاضي العادل هو الذي يرفع الظلم عن المظلوم حتى وإن كان له هوى مع الظالم . ولذلك نجد الحق قد عصم رسوله فقال :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(من الآية ٣ سورة النجم)

والسطحيون هم الذين لا يلتفتون إلى عظمة هذا الأداء البياني ويتساءلون : مادام الحق يصوب لمحمد فكيف إذن لا ينطق عن الهوى ؟ ونقول : أنتم لا تحسنون الفهم عن الله ولا عن رسول الله ، فعندما صوّب الله لرسوله لم يكن الرسول قد خرج عن حكم أراده الله ، ولم يعدل حكماً لله حسب هواه الشخصي ، وإنما هو ببشريته صلى الله عليه وسلم كان يصل إلى حكمٍ ما ويراه ثم ترى السماء تعديلاً له ، فينطق محمد بالتعديل كما أنزله الله . ولم يخالف صلى الله عليه وسلم ربه في أي أمر . وجاء كل تصويب لله في أشياء لم يسبق فيها لله حكم ، وكان كل تصويب قد جاء لاجتهاد بشري من رسول الله ، ولم يكن في ذلك أي هوى .

وحين قال الحق : (وما ينطق عن الهوى) إنما يبلغنا أنه لم يكن عند محمد حكم من الله فخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً لهوى ، فمعنى الهوى أن يكون هناك منهج ثم يعدل عنه ، وكل التصويبات التي صوّبها الله جاءت في أمور لم يكن فيها حكم . وهذا نجد تصويب الحق لرسوله يتسم باللطف ، فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا العفو لم يكن نتيجة لمخالفة حكم من أحكام السماء ، ولكن هو عفو سببه : لأن رسول الله أخذ بالاجتهاد البشري في الأمور التي لم يكن فيها حكم لله ، وهو قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم أموراً على نفسه ، ولم يحرمها على الناس ، ومنا يوضح له الحق : لا تحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن هذا أمر لمصلحة الرسول . وعندما جاء زيد بن حارثة ليختير بين أن يكون مع رسول الله كعبد له ، وأن يكون مع أهله ، آثر زيدٌ رسول الله ، فكافأه صلى الله عليه وسلم بأن جعله في مقام الابن ، وكان التبني معروفا عند العرب ، ونادى الناس زيدا بزيد بن محمد ، فلما أراد الله أن يبطل التبني قال : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله)

وكلمة « أقسط » تعني أعدل ، ومعناها أن القسط أيضاً في دائرة العدل . وعندما يقال : فلان له القسط ، أي له العدل . إذن فالقسط أولاً لرسول الله ، والأكثر قسطاً هو حكم الله ، فكأنك يا محمد قمت بالقسط عند البشر ، ولكن الله يريد لك الأقسط .

إذن فقوله الحق سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) هو قول لا يستدرك عليه من خالف لمنهج الإسلام ، فإذا ما قال مخالف منهج الإسلام : إن الله يصوب لمحمد ، فكيف لا ينطق محمد عن الهوى ؟ . نقول : وهل تعرف معنى الهوى ؟ إن الحكم بالهوى يعني أنه وجد حكماً لله فيعدل الحكم لهواه ، ولم يحدث ذلك من سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن تصويب من الله لم يأت على لسان رجل آخر ، إنما جاء على لسان رسول الله نفسه . وهذه هي منتهى الأمانة في البلاغ عن الله .

والحق يقول عن بني إسرائيل : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فهم فريقان : منهم من لا يقبل على الإيمان بالمنهج لهوى في نفسه فيكذب ، ومنهم من تمتلىء نفسه باللدد وشدة الخصومة على الرسول . ويخشى أن يحيا الرسول لإبلاغ قوم آخرين ، فيحاول أن يقتل الرسول

والتكذيب هو أول نقطة في اللدد ، ثم هناك من يترقى في اللدد ويخشى أن يصل البلاغ إلى قوم آخرين فيحاول أن يقتل الرسول . والتكذيب هو إنكار لقول أو فعل . أما القتل فهو إزالة لأصل الحياة . والذي يقتل هو الأكثر لدداً .

وتتجلى دقة القرآن حين يأتي الحق بصيغة الماضي ، لفئة وصيغة المضارع لفئة أخرى : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » لأن التكذيب هو ثابت من المكذِّب ، أما القتل فهو ثابت على وجود الرسول من الذين يكذبون والأبشع هو القتل ، لأنه إزالة لكل أثر من آثار وجود المقتول وجاء التكذيب في صيغة الماضي وجاء في المسألة البشعة بصيغة المضارع

فالحدث حين يكون بشعاً فهو يبرد بعد مرور فترة من الزمن . وهذا ما يجعل المجتمع يثور عندما تحدث جريمة بشعة ، ولكن ما إن تمر عليها عشر سنوات ويصدر الحكم بقتل المجرم لا يتفعل الناس ، بل منهم من يتعاطف مع المجرم ولذلك يحذر الحق أن تمسح من الأذهان صورة قتلهم للرسل ، بل يجب أن نستحضر بشاعته دائماً فلا نعطف على الذين قتلوا الرسل ، وقد قال علماء العربية إن التعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل .

وساعة يأمر القاضي العادل بالقصاص من إنسان قتل إنساناً آخر ، فهو لا يجعل القتل حدثاً منسياً لأنه ماض ، بل يستحضره في ذهنه وكأن دمه مازال ينزف ومكان الطعنة واضحاً ، لأنه لا يأخذ شيئاً مستوراً بالماضي ، بل يأخذ شيئاً واقعاً في الحال وكأن الحق يأمرنا باستحضار صورة ما حدث أمامنا ومثال آخر لاستحضار الصورة : نجد الحق يقول لك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

إنه أنزل الماء ، لكنه يتبع ذلك :

﴿ فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

هو سبحانه يستخدم الفعل المضارع لتظل الصورة فى أذهاننا مستحضرة فى الحال وفى الاستقبال . والحق يقول : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » وكيف يقول الحق : إنهم يقتلون الرسل ، والرسل لا تقتل ،وأنه سبحانه يريد أن يجعل لهم من العمر ما يمكنهم من تمام البلاغ عنه ، إن الأنبياء فقط هم الذين يجوز عليهم القتل ؟ ونقول : إن الأنبياء رسل أيضاً بدليل أن الحق قال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إن كليهما مرسل ، والفرق أن الرسول يصحب ويرسل معه منهجه ، والنبى مرسل كنموذج هداية بمنهج قد سبق . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

« وحسب » إن كانت بفتح الحاء وكسر السين فمعناها الظن ، وإن كانت بفتح الحاء وفتح السين فبمعنى « عد » ، والحسبان هو أن تظن وترجح وجود الشىء والذين أخذ عليهم الله الميثاق وهم ـ بنو إسرائيل ـ ظنوا أن تكذيب الرسل وقتلهم لا يكون فتنة . ويعنى أنهم لم يعلموا علم اليقين ، وقد رجحوا ألا تكون فتنة والأصل فى الفتنة ـ كما قلنا ـ عرض الذهب على النار ليتم تنقيته من الشوائب والفتنة ـ كما نعرف ـ هى الاختبار ، إما أن ينجح فيه الإنسان وإما ألا ينجح فكيف جاءهم الظن أن هذا ليس اختباراً ؟ لقد جاءهم هذا الظن من الخطأ الذى وقعوا فيه عندما قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

والخطأ الذي تمادوا فيه عندما قالوا:

﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أي شيء آخر. وكان هذا ظناً خاطئاً؛ إن المنهج لم يأت ليمحو أناساً بذواتهم مهما تعلو، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل. ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطئ ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق في العد والحساب، فالحساب هو الذي يضمن صحة أمر أو يكذبه. ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول: لك كذا وعليك كذا. لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب.

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك وقال عنهم الحق: «وحسبوا ألا تكون فتنة» أي ظنوا أن ذلك الأمر لا اختبار فيه وأنهم غير محاسبين عليه. ونعرف أن «أن» تنصب الفعل، وقال لي صاحب: لقد سمعت قارئ القرآن في المذياع ينطقها «وحسبوا ألا تكونُ فتنة».

وقلت له: إن هناك ثلاثة من أكابر القراء في صدر الإسلام هم «أبو عمرو» و«حمزة» و«الكسائي»، وكان لكل منهم أسلوب متميز. وعندما نعلم أن «أنْ» تنصب الفعل لا بد أن يكون الفعل الذي يليها لا يدل على العلم واليقين والتبين، «فأن» بعد العلم لا تنصب، كقول الحق:

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

وألفية ابن مالك تقول: (وبلن انصبه وكي كذا بأنْ لا بعد علم). أما «أن» التي من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يُرفع الفعل بعدها، فالذي رجح وجود الفعل وأدركه إدراكاً راجحاً يرفع، والذي لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب، والرفع هو قراءة الكسائي وأبي عمرو وحمزة. فقد سووا الأمر على أن الرجحان يقرب من اليقين. ومادام قد حدث ذلك تكون «أنْ» هنا هي «أن» المؤكدة، لا «أن» الناصبة ويسمونها أن المخففة من الثقيلة فأصلها أنّ. «وحسبوا

ألا تكون فتنة » ، وتأتي « فتنة » بالرفع لأنها اسم تكون . و « تكون » من « كان ».

و « كان » لها اسم مرفوع وخبر منصوب . وهي هنا ليس لها خبر ، لأنها من « كان التامة » . فهناك « كان الناقصة » وهناك « كان التامة ». ونقول ذلك حتى نتقن فهم القرآن ، مثلما نقرأ قوله الحق .

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ.. ﴾ (من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

و «كان » فعل ماض ، و« ذو عسرة » اسم كان التامة ، لذلك لا خبر لها ؛ لأن المقصود هو القول : وإن وُجِد ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . ولابد لنا أن نعرف ما معنى « تام » وما معنى « ناقص » ؟ نعلم أن كل لفظ ننطق به يدور حول أمرين اثنين ، إما لفظ مهمل وغير مستعمل وإمّا لفظ مستعمل . والمستعمل هو الذي له معنى يصل إلى الذهن ساعة نطقه ويستقل به الفهم ، فإن كان لا دخل للزمن فيه فهو الاسم ككلمة « أرض » و « شمس » و« قمر » . وهناك لفظ لا يستقل بالفهم كحرف الجر « في » مثلاً . صحيح أنه يدل على شيء في شيء ، ولكنه لا يستقل بالفهم ؛ لذلك لا بد أن ينضم لشيء ، كقولنا : الماء في الكوب أو قولنا : التلميذ في الفصل . فإن كان للفظ معنى ومستقل بالفهم ، والزمن له دخل فيه فهو الفعل .

مثال ذلك قولنا : السماء . إن السماء كانت في الماضي وهي في الحاضر وهي في المستقبل . إذن فالزمن لا دخل له بها ، وكلمة « كلُوا » نجدها تأتي من الأكل ، وهي معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه . ولفظ « في » يدل على معنى غير مستقل بالفهم فلابد من أن ينضم لشيء آخر .

إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى قد يكون مستقلا بالفهم أو غير مستقل ، فإن كان مستقلاً بالفهم فإننا نسأل : هل الزمن جزء منه؟ وفي هذه الحالة يكون « فعلاً » وإن لم يكن الزمن جزء منه فهو الاسم . وإن كان غير مستقل بالفهم ويريد شيئاً آخر ليستقيم المعنى فهو « حرف » .

وهكذا تعرف الألفاظ . والفعل هو « معنى زائد عليه زمن » كقولنا : أكل ؛ فهي تعني تناول إنسان طعامًا في زمن ماضٍ ، وهكذا نفهم قولنا : « كان » . فإن قلنا « كان » بمعنى حدوث شيء في الماضي ، كقولنا . « كان زيد مسافرًا » فهي ناقصة وفي ضوء هذا نفهم قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

فإن أردت الوجود فقط من غير شيء جديد طارىء عليه ، فالفعل يكون تامًا لا يحتاج إلى خبر . وإن أردت الوجود مع أي شيء آخر فهو الفعل الناقص الذي تكمله بخبر . مثل قوله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أي ألا توجد فتنة ، فهي لا تحتاج إلى خبر .

وكان مثل بني إسرائيل كمثل التلميذ الذي يذهب إلى المدرسة ولا يعلم أن فيها اختبارًا آخر العام فيمضي الوقت في غير تحصيل ولا جد ولا اجتهاد بل في لهو ولعب . وكان هذا حسبانًا خاطئًا ؛ لأن المنهج لم يأت اعتباطًا ، ولكنه جاء كنظام حركة للحياة ليعمله المؤمن . وكان المفروض أن يستقبلوا المنهج على حسب تعاليم المنهج . ومن العجيب أنهم نسوا ولم يحسبوا بالحساب على الرغم من أنهم أهل علم بالحساب ، فهم حسبوا - بكسر السين - وما حسبوا - بفتح السين - وكان المفروض أن يقوموا بالحساب ، فالحساب هو الذي يضمن صحة المسائل .

وكل شيء عند الله يكون بحساب ، حساب للعبد وحساب عن العبد « وحسبوا ألا تكون فتنة » أي ظنوا أنها ليست اختبارًا . وظنوا أن الرسالات والمناهج هي مسألة لا اختبار لهم فيها . فلما عرفوا تعاموا عن ذلك وصموا آذانهم عنه ونعلم أن وسائل الإدراك في النفس البشرية هي السمع والأبصار والأفئدة

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسائل الإدراك : سمع ، وبصر ، وفؤاد . وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه . أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غير له . وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين . والسمع هو وسيلة الإدراك التي توجد أولاً في الإنسان حين يولد . ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شيء من عينيه ؛ لأنه لا يرى بدقة وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ومن بعد ذلك يبدأ في الرؤية . لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، كأن حاسة السمع هي التي توجد أولاً ، ولذلك يأتي لنا الحق بذكر السمع أولاً ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأفئدة .

« فعموا وصموا » وهو سبحانه يسألهم أولاً من التجربة الشخصية فيهم ، ولم يسألهم عن الذي سمعوه عن غيرهم فقط ، « فعموا » أي لم يروا حتى الأمور المتعلقة بهم ، ولم ينظروا في آيات الكون ولم يسمعوا البشير ولا النذير ولا المنهج من الله ولا اتفقوا على تنفيذه . وسبحانه يعاتبهم أولاً على ما يتعلق برؤياهم هم ، فالأذن تسمع من الغير ؛ لذلك أخذ عليهم أولاً أنهم لم يستعملوا عيونهم . وحتى لو افترضنا أنهم لم يروا آيات الكون بأنفسهم فما بالهم لا ينظرون وقد جاءهم الرسول ودعاهم لينظروا في كون الله وأن يعتبروا .

فإذا كانوا أولاً في غفلة فلم يروا ، فلماذا لم يتنبهوا ويسمعوا سماع إذعان وانقياد عندما جاءهم البشير والنذير لينبههم ؛ لذلك « فعموا وصموا » منطقية جداً هنا .

وبعد ذلك قبل الله منهم ، وأنجاهم من فرعون وفلق لهم البحر ، وعبروا ، ولكنهم بمجرد خروجهم من البحر ، ومروا على قوم يعكفون ويلزمون ويقبلون على أصنام لهم يعبدونها . قالوا لموسى : نريد إلهاً كما لهم آلهة . وأمرهم موسى أن يتوبوا وقبل الله توبتهم . مع كثرة ما ارتكبوا من ذنوب . ومن بعد ذلك يتوب الله عليهم . « ثم تاب الله عليهم » .

والتوبة هي فتح مجال للنفس السوية لتنطلق في الخير من جديد ، فلو لم يتب الله على من أذنب فماذا يكون موقف المذنب بلا توبة ؟ إنه يتمادى ويحس أنه ذاهب في طريق الشر بلا عودة . وحين يقبل الحق توبة المذنب ، فذلك معناه أنه سبحانه يريد أن يحمي المجتمع من شره . والتوبة مراحل . الأولى : حين يشرع الله التوبة ، والثانية : أن يتوب العبد . والثالثة : هي قبول الله للتوبة . وهذا ما جاء به الحق .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ماذا تعني توبة الله عليهم ؟ سبحانه لن يتوب عليهم توبة القبول إلا بعد أن يتوبوا . إذن فتوبة الله عليهم الأولى هي التشريع لهم بالتوبة ، ثم توبتهم ، ثم قبول الحق للتوبة . لكن هؤلاء عموا وصموا ، وعلى الرغم من ذلك لطف الله بهم . فماذا حدث منهم بعد ذلك ؟ عموا وصموا مرة أخرى « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » .

و« عموا » مأخوذة من الفعل « عمى » ، ومثلها مثل « أكلوا » و« شربوا » و« حضروا » ، فأين الفاعل ؟ الفاعل هو « واو الجماعة » . وابن مالك تصدّى لهذه المسألة ، فساعة تسند الفعل إلى اثنين أو إلى جماعة ، فلا بد أن تجرد الفعل من علامة التثنية أو الجمع ، فلا تقول : « قاما زيد وعمرو » ولكن تقول : « قام زيد وعمرو » ، ولا تقول : « قاموا التلاميذ » بل تقول . « قام التلاميذ » ، لأن مدلول « الواو » هو مدلول « التلاميذ » ، قال ابن مالك :

وجرد الفعل إذا ما أسندا ... لاثنين أو جمع كـ« فاز الشهدا »

أي أن الفعل إذا أسند لمثنى أو مجموع وجب تجريده من العلامة التي تدل على التثنية أو على الجمع . أما كلمة كثير فتعرب إما على أنها البدل من واو الجماعة ، وإما على إضمار مبتدأ أي العُمْىُ والصُّم كثير منهم ، وإما على أنها فاعل ويكون ذلك قد جاء على لغة طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب ، وهؤلاء قد يأتون بعلامة تدل على التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل إلى اسم ظاهر مثنى أو مجموع مثل . قاموا الرجال وسافرا محمد وعلي .

وحمل بعضهم قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا ، وكان قول الحق : « كثير منهم » صيانة للاحتمال بأن قلة منهم تدير أمر الإيمان في قلوبهم ، وكلمة « كثير » جاءت حتى ننتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهمل أبداً القلة التي تدير أمر الإيمان في خواطرهم . ليؤكد ويعاضد ما جاء في قوله تعالى . « وأن أكثركم فاسقون » . « ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » و« بصير » مثلها مثل « عليم » ، أي شاهد وليس مع العين أين . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾

وهناك ثلاث آيات تتعرض لهذه المسألة « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » والآية الثانية :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ (من الآية ٧٣ سورة المائدة)

والآية الثالثة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ (١١٦) ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إذن فالخلاف في المسألة جاء على ثلاث صور:

طائفة تقول : المسيح هو الله . وطائفة تقول : إن المسيح هو إله مع اثنين آخرين . وطائفة تقول : إن المسيح هو وأمه إلهان . ولكل طائفة رد . والرد يأتي من أبسط شيء نشاهده في الوجود للكائن الحي ، فالإنسان ـ كما نعرف ـ سيد الكون والأدنى منه يخدمه . فالإنسان يحتاج إلى الحيوان من أجل منافعه ، وكذلك يحتاج إلى النبات والجماد ، هذا السيد ـ الإنسان ـ يحتاج إلى الأدنى منه . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على تأليه سيدنا عيسى وسيدتنا مريم ، فقال :

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (من الآية ٧٥ سورة المائدة)

وهذا استدلال من أوضح الأدلة . لا للفيلسوف فحسب،ولكن لكل المستويات ، فمادما يأكلان الطعام فقد احتاجا إلى الأدنى منهما . والذى يحتاج إلى الأدنى منه لا يكون الأعلى ولا هو الواحد الأحد . والمتبعون لهذه الفرق الثلاثة مختلفون .

والحق سبحانه وتعالى يقول « ولا تقولوا ثلاثة » وكلمة « ثالث ثلاثة » تستعمل فى أنه واحد من ثلاثة لكنه غير معين . فكل ثلاثة يجتمعون معاً ، يقال لكل واحد منهم إنه « ثالث ثلاثة » وليس هذا القول ممنوعاً إلا فى حالة واحدة ، أن تقول ثالث ثلاثة آلهة ، لأن الإله لا يتعدد ويصح أن تقول كلمة « ثالث اثنين » لأن الله يقول :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة المجادلة)

إذن فمن الممكن أن نقول . هو رابع ثلاثة . أو خامس أربعة أو سادس خمسة وهو الذى يصير الثلاثة به أربعة أو يصير الأربعة به خمسة أو يصير الخمسة به ستة إننا إن أوردنا عدداً هو اسم فاعل وبعد ذلك أضفناه لما دونه ، فهذا تعيين بأنه الأخير . وإن قال قائل : الله رابع ثلاثة جالسين،فهذا قول صحيح لكن لو قلنا إنهم آلهة فهذا هو المحرم،والممنوع ، لأن الإله لا يتعدد

ويلاحظ أن الحق لم يقل : ما يكون من نجوى اثنين إلا هو ثالثهم ؛ لأن النجوى لا تكون إلا من ثلاثة ، فإن جلس اثنان معاً فهما قد يتكلمان معاً دون نجوى ؛ لأن النجوى تتطلب ألا يسمعهم أحد . والنجوى مُسَارَّة ، وأول التنجوى ثلاثة ، ولذلك بدأها الحق بأول عدد تنطبق عليه . فإن قلت « ثالث ثلاثة » فهذا قول صحيح إن لم يكونوا ثلاثة آلهة .

والحق أراد أن يدفع هذا القول بالبطلان حين قال : « كانا يأكلان الطعام » والطعام مقوم للحياة ومعطٍ للطاقة فى حركة الحياة ؛ لأن الإنسان يريد أن يستبقى الحياة ويريد طاقة ، والطعام أدنى من الإنسان لأنه فى خدمته ، فإذا ما كانا يأكلان الطعام فهما فى حاجة للأدنى وإن لم يأكلا فلا بد من الجوع والهزال

ولذلك فهما ليسا آلهة . بعضهم يقول : « كانا يأكلان الطعام » هى كناية عن شىء آخر هو إخراج الخبث . ونقول : ليس إخراج الخبث ضرورياً لأن الله سيطعمنا فى الجنة ولا يخرج منا خبث. فهذا ليس بدليل . ويرتقى الحق مع الناس فى الجدل، فاليهود قالوا فى المسيح ـ عليه السلام ـ ما لا يليق بمكانته كنبى مرسل وقالوا فى مريم عليها السلام ما لا يليق باصطفائها من الحق .

واليهود إذن خصوم المسيح . وأنصار المسيح هم الحواريون ؟ فإذا كان لم يستطع أن يصنع من خصومه ما يقسرهم ولا مع حوارييه ما ينفعهم فكيف يكون إلهاً؟ والنص القرآنى يقول عن مريم :

﴿ يَـٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاشعاً عابداً . والذى يعبد إنما يعبد من هو أعلى منه ؛ فالإله لا يعبد ذاته . وإذا كان هذا قول من ينتسبون إلى السماء إيماناً بإله وإيماناً بمنهج ، فماذا عن قول الذين لا ينتسبون إلى السماء من الملاحدة الذين ينكرون الألوهية ؟

إذن كان من الواجب أن يؤمن المنسوبون إلى السماء بواسطة مناهج وبواسطة أنبياء وأن يصفوا هذه المسائل فيما بينهم . وعلى سبيل المثال كان العالم موجوداً ومدبراً قبل المسيح فمن إذن كان يدبر العالم من قبل ميلاده؟ ولذلك أراد الحق سبحانه جل جلاله أن يحسم الموقف . والقرآن يعلمنا .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أيمكن أن يكون المتناقضان محقين ؟ لا ، لأن أحدهما لابد أن يكون على هدى ولابد أن يكون الآخر على ضلال . ولذلك نقول . كلامكم لا يلزمنا وكلامنا لا يلزمكم . ونعرض الأمر إلى الإله الذى نؤمن به . وحتى نصفى هذه المسألة نذكر قول الحق :

﴿ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة آل عمران)

ويقول: اجعل لعنتك على الكاذبين. حتى نخرج من هذا الخلاف ولا نجعل واحداً منا يسيطر على الآخر، فأنت صاحب الشأن. فهيا نحضر أولادنا وأنفسنا ونساءنا وأولادنا ندعو دعاء واحداً: اجعل لعنة الله على الكاذبين منا. وما تلاعن قوم وابتهلوا إلا وأظهر الله المسألة في وقتها. ولم يقبل أحد من أهل الكتاب هذه المباهلة، والحق يقول:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾

إذن فالذين لا يقبلون التوبة عن ذلك يظلون في الكفر ويخلدون. ثم يقول الحق:

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) ﴾

فكأن هذا القول يقتضي التوبة واستغفار الحق

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

و« أفك » يعني انصرف أو صُرِف ، أي يصرفهم غيرهم . وهذا يعني أن هذا إيحاء من الشيطان ؛ لأن المسيح عليه السلام ما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل وأمه (صدِّيقة) مصدِّقة بما جاء به ، والدليل على بشريتهما أنهما يحتاجان كسائر البشر لما يُقَوِّم حياتهما من طعام وشراب وكساء ، والألوهية المدَّعاة منهم تتنافى مع هذا الاعتقاد وهذا هو الإفك بعينه الذي يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

والعقل يستنكر أن نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أن يصنع الضر للخصوم ، ولا النفع بنفسه أو لأشياعه وأنصاره بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوه ومن صلب عيسى عليه السلام لو الحواريون أن ينصروهم ولا استطاعوا أن يفعلوا شيئاً يمنعون به أنفسهم .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله هو السميع العليم » . وكلمة « السميع » تدل على قول ، وكلمة « العليم » تدل على شيء يدور في الخواطر ، والشيء الذي يدور في الخواطر أهو حراسة سلطة زمنية جعلتهم يقولون هذا الكلام ؟ إنه سبحانه العليم

بذاته . وإن كان قد حصل كلام فهو قد سمعه ، وإن كانت قد دارت خواطر في النفس فهو يعلمها ؛ لأن العاقل قبل أن يتكلم لا بد أن يدير الكلام في النفس . وكل كلام لا بد له من نزوع . وهو سبحانه السميع العليم أزلا وأبدًا .

ويقول الحق :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٧٧ ﴾

حتى يوجد شيء مشترك بين النصارى واليهود يحدثهم الله بقوله : «يا أهل الكتاب» أما الشيء الخاص فهو يتحدث به لكل فئة بمفردها . والغلو هو أن يتطرف إنسان في حكم ما إيجاباً أو سلباً . وهو إما الإفراط في المنزلة العالية وإما التفريط في المنزلة الدنيا . ولذلك نجد المتناقضات دائماً في الغلو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسيدنا عليّ - كرم الله وجهه - : «يا عليّ ، يهلك فيك رجلان . . محب غال ومبغض غال» ويقول : «يا عليّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[1] .

ويقول : (يا علي ستقاتلك الفئة الباغية)[2]

إن هناك من أحب سيدنا عليًّا إلى درجة أنهم اعتبروه نبياً وقالوا . إن الوحي أخطأ عليًّا وجاء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أو اعتبروا عليًّا إلهاً !! وكل ذلك غلو ، فقد أخذوه إلى منزلة فيها غلو وإفراط .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ، والخوارزمي في جامع المسانيد

أما الخوارج فقد قالوا عن سيدنا علي : إنه كافر . جاء الغلو - إذن - من ناحية المحب فجعلوه نبياً أو فوق ذلك ، يدخلهم في الشرك ، أو من المبغضين القائلين بتكفيره وإخراجه من دائرة الدين ، ولذلك يجب ألا نغلو في الدين فلا نحب إنساناً ونرفعه فوق مستوى البشر ، ولا نبغض إنساناً ونميل به إلى الحضيض . بل يجب أن نعطي كل واحد قدره ومقداره الذي وضعه الله فيه ؛ لأن وضع الله له هو تكريمه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاء مثل هذا القول في آية أخرى :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وحتى نفهم أن مسألة الغلو إنما جاءت في ادعاءات ألوهية البشر ؛ قال الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

فلا داعي للغلو بنسب الألوهية له أو أنه ثالث ثلاثة . وإن كنتم متشككين ووصلتم إلى هذا الشك بسبب عدم عنصر الذكورة في مجيء عيسى ، فافهموا أن كل الأشياء جاءت بـ « كن » ؛ لأنه وإن وُجدت مقدمات للإنسان ، فرقِّ هذه المسألة إلى واحد لم يأت من إنسان ، وستصل إلى آدم وآدم من تراب ؛ إذن كل الكون كلمة . وإن وجدت أسباباً فما طمره الله في الكلمة الأولى ، فحين يجيء إنسان أُنشيء بكلمة فلا تقولن : إن هذا شيء عجيب ؛ لأن الكون كله إنما نشأ بكلمة :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وإن كانت الفتنة قد نشأت في ظاهر الأمر من أن المسيح ليس له أب في عالم الإرسال وقانون التناسل ، فما كان يجب أن تكون الشبهة في هذا ؛ لأنه مخلوق من أم ، وآدم مخلوق بلا أب ولا أم . وكان يجب أن تكون الفتنة في آدم أكبر . والكلمة من الله تنشيء حياة . والحياة إدخال روح في مادة لتهبها الحركة والحس ومقومات

الحياة . إذن فالكلمة تقال من الله فتأتى الروح لتدخل فى المادة : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ . « وروح منه » مثلها مثلما قال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فآدم كلمة ، وآدم روح منه ، وكذلك المسيح ، فلا شبهة هنا ولا شبهة هناك . ويطلب الحق من المنسوبين إلى السماء . ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ . فإذا كنتم منسوبين إلى السماء فلا تذبذبوا أفكار الناس بمثل هذه المسائل ، وكان يجب أن تقفوا بعيسى عندما أراد الله له من تكريم ؛ لأن التكريم هو أن يكون أسوة حسنة ، فلو كان من جنس آخر غير البشر لامتنعت الأسوة فيه ؛ لأن الأسوة إنما تكون من جنس من يتبعها ، فلو رآه الناس خاشعاً متعبداً لما استطاعوا أن يفعلوا مثله لو كان من مادة أخرى غير مادة البشر .

وقلت مرة : لو أن إنساناً رأى أسداً يفترس فى الغابة ويصول ويجول على الحيوانات ، أيفكر واحد من الرائين أن يجعل نفسه أسداً ؟ . لا . لكن لو رأى فارساً مثله شجاعاً فى حرب يصول ويجول فى الأعداء فهو يقلده ويحاول أن يكون مثله . إذن فالأسوة لا تكون إلا مع وحدة الجنس ، فلو أنه لم يكن من جنس البشر لما صلح أن يكون رسولاً .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » لقد جاء الحق هنا بالحديث شاملاً لكل أهل الكتاب ؛ لأن كلا منهما جاء بطرف الأمور . . فاليهود اتهموا سيدتنا البتول المصطفاة مريم بما ليس فيها ، وأولئك جاءوا بالمغالاة فى الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرهما الحق بعدم المغالاة ؛ لأن الحق لا يتعاند ؛ فهو شيء ثابت لا يتغير أبداً ولا يتعارض . والإنسان إن رأى حدثاً من الأحداث بعينيه ثم طُلب منه أن يحكي فهو يحكيه الآن ويحكيه غداً ويحكيه بعد عام وتظل روايته واقعاً لأنه شهده وهذا هو الواقع المشهود يفرض نفسه عليه ، لكن الكذب لا يذكر ذلك ، وقد يقول قضية ويكون فيها كاذباً فلا بد أن يغير من الحقيقة عندما يحكيها لمرة ثانية . ولذلك يقال « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » .

إن الذي يحكم الحق هو واقعة ؛ لأن المتكلم به يستقريه واقعاً . لكن الكاذب لا يستقريه واقعا فلا يعلم ماذا كذب في المرة الأولى . ونتذكر الكاذب الذي جلس يقول : مرة كنا سائرين وخرجنا من القرية ذاهبين إلى المدينة لنأتي بحاجات عيد الفطر . وكانت الدنيا قمراً كالظهر وقوله : « قمراً كالظهر » هي التي تكشف كذبه ، فكيف يكون في ليلة العيد قمرٌ ، وأول ليلة في عيد الفطر هي أول ليلة في شوّال ، وليس فيها أي قمر ، الهلال يكاد يكون خفياً

إذن فالذي يستوحي واقعاً لا يتغير كلامه لأنه حق والذي يستوحي غير الواقع لا يذكر ماذا قال فيخلط لذلك لا يقولن إنسان غير الحق لأن قوله سيتضارب وإذا تضارب هذا القول في مسألة الألوهية فإن الناس قد تشك في منهج السماء الذي يتبعونه وإذا شك الناس في منهج السماء فسيكون عليكم وزر إضلال الناس ؛ لأن الذي يتعرض هذه القضية يجب ألا يجرب الناس عليه أي شيء من المخالفة . ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٥ سورة الممتحنة)

لماذا قال سيدنا إبراهيم هذا الدعاء ؟ ؛ لأنه إن قال شيئاً ثم عمل بما يناقضه فقد يتصور من يراه أنه ــ والعياذ بالله ــ كذاب

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » وما دام أنهم ضلوا فقط في ذواتهم بل هم يحاولون إضلال غيرهم . لذلك قال سبحانه .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه يوضح لهم : لا تفعلوا ذلك حتى لا تضلوا ؛ لأن وزرك أن تضل ، وهناك وزر آخر هو أن تضل غيرك ولذلك يقول الحق :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

فقال الحق ذلك مع أنه قال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ . وحتى نفهم الأمر علينا أن نعرف أن الوزر الأول هو وزر الضلال ، والثانى هو وزر الإضلال .

« ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا » أى لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى . والهوى هو تلطف موقع الشىء وقربه إلى النفس فيصممه الإنسان على طريقة لا تتبغى . ولذلك كل كلمة « هوى » فى القرآن جاءت فى مجال الخسران والضلال . وعندما نقرأ قوله الحق : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ .

وهو القائل سبحانه : ﴿ واتبع هواه فتردى ﴾ .

وقد جاء الهوى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ﴾[1] .

أى ان المطلوب أن يطوّع الإنسان هواه لمطلوب الله . ومادام قد طوّع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع . « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » إنّ هذا هو النهى عن اتباع الهوى الذى يضل ويكون سبباً فى الإضلال عن سواء السبيل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح ، والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الحق سبحانه وتعالى يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة تصبره على ما يلاقيه من خصومه من أهل الكتاب ، وكأنه يقول له : إن هذا الأمر ليس بدعاً وليس عجيباً ، لأن تاريخ أهل الكتاب الطويل يؤيد هذا ، فها هوذا موقفهم من نبى الله داود ، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا يجعل لك أسوة بهؤلاء الرسل الذين نالهم من أذى هؤلاء . فالمسألة ليست خاصة بك وحدك ، وإنما هى طبيعة فيهم ، ويبسط سبحانه فى التسرية عن رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يجعل موقفه موقف الصلابة الإيمانية التى لا تخاف ولا تهتز ، فينسب هذه الأشياء لنفسه فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فمرة قالوا عن الرسول : إنه مجنون ، ومرة أخرى قالوا : « ساحر » وثالثة قالوا : « كذاب » ، وهم يعرفون كذبهم ، فهم على الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر إلا أنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الأمين دائماً ، وكان لهم أن يتعجبوا من موقفهم هذا ، ومن صدهم عن دين الله بالكفر ، وعلى الرغم من ذلك فعندما يكون هناك شيء ثمين ونفيس فلا يُؤمَن عليه إلا محمد بن عبدالله .

ما هذا الأمر العجيب إذن !!

لقد عرفوا صدق النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته ـ ما فى ذلك ريب ـ ولكن لأن لهم أهواء أصرّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية ، هم يعرفون أن محمداً هو الأمين . ولذلك نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع علياً ـ كرم الله وجهه ـ ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

إذن (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك) ، أى أنك يا رسول الله عندهم الصادق . أنت عندهم يا رسول الله الأمين ، أنت عندهم يا رسول الله

فى منتهى السمو الخلقى . ولو لم تقل إنك رسول من الله لكانوا قد رفعوك إلى أعلى المنازل . ولكنك ببلاغك عن الله زلزلت سلطتهم الزمنية .

ولقد حاولوا أن يثنوك عن الرسالة ، فعرضوا عليك الملك ، وعرضوا عليك الثراء ، ولو كنت تقصد شيئاً من ذلك لحققوا لك ما تريد . ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله .

لقد عرضوا عليك الملك طواعية . وعرضوا عليك الثروة . وزينوا لك أمر السيادة فيهم شريطة أن تتخلى عن الرسالة . لكنك تختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه على الرغم مما فيه من متاعب ، تختار السبيل الذى يكلفك أمنك وأمن من يتبعك . إنك تتبع ما أنزل إليك من ربك .

ومن بعد ذلك جاءوا ليحاصروك فى الشِّعب ليمارسوا معك الحصار الاقتصادى بتجويعك وتجويع من معك ، ومع هذا كله ما تنازلت عن البلاغ . وكان يجب أن يفطنوا إلى أنك لا تطلب لنفسك شيئاً . لا المال ولا الجاه بل أنت رسول من الله لا تأكل من صدقة أحد ، لا أنت ولا أهلك . وكان يجب أن يتساءلوا : لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحروب الضارية ، فلا أنت طالب جاه ولا أنت طالب مال ، ولا أنت طالب لمتعة من تلك المتع . وكان يجب أن يأخذوا العبرة ، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء ، وهو يرفضها ، لأنه خاتم الأنبياء ، لذلك يتمثل فيه خير كل من سبقه من الأنبياء . يتمثل فيه على سبيل المثال ما قاله سليمان لوفد بلقيس ملكة سبأ .

﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

لقد كان يجب على الناس أن يفطنوا إلى أن النبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناس إلى السماء وإلى منهجها ولتنظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين يشقون بمخالفتهم منهج الله .

وليجرد كل إنسان نفسه من كل شىء ولينظر إلى المنهج ولسوف يجد أنه فى صالحه . فها هو ذا سليمان الذى دانت له الدنيا وأُعطِىَ ملكاً لم يعطه الله لأحد من

بعده فسخر الله له الريح وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء . وكان سليمان يعطى الدقيق النقى للعبيد ليستمتعوا بالطيبات ، ويأكل هو ما تبقى من نخالة الدقيق ، وكان ذلك دليلاً من الله أن هذه المناهج ليست لصالح نبى ، ولكن كل نبى إنما يريد بالمنهج صالح مَن أُرسل إليهم .

وكانت مقاومة أهل الكتاب لنبى الله داود ، وكيف أنهم اعتدوا فى يوم السبت فدعا عليهم داود عليه السلام فمسخهم الحق قردة ، ولعنهم فى الزبور ، وكذلك قالوا الإفك فى مريم البتول ولعنهم الله فى الإنجيل . ولم يكن اللعن إلا بناء على ما فعلوا ، لذلك يذيل الحق الآية بالقول : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

والعصيان ـ كما نعلم ـ هو العصيان فى ذات الإنسان وفى أموره الخاصة التى لا تتعدى إلى الغير ، أما الاعتداء فهو أيضاً معصية ولكنها متعدية إلى الغير . مثال ذلك : الحاقد إنما يعاقب نفسه ، أما السارق أو المرتشى فهو يضر بغيره . إذن فهناك معصية وهناك عدوان ، فالمعصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير ، أما العدوان فهو أخذ حق من الغير للنفس ، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثره إلى الغير .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ونعلم أن حراسة منهج الله تعطى الإنسان السلامة فى حركة الحياة على الأرض . وقد جعل الحق سبحانه فى النفس البشرية مناعة ذاتية ، فساعة توجد فى الإنسان شهوة على أى لون سواء فى الجنس أو فى المال أو فى الجاه ، فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق ، ولا يمنعه من ذلك إلا الضمير الذى يفرض عليه أن يسير فى الطريق الصحيح . هذا الضمير هو خميرة الإيمان ، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على

معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين .

ولنا أن ندقق في هذا القول القرآني لأنه يحمل الوصف الدقيق لنفس البشرية في حالتها المتقلبة ، فها هو ذا قابيل يتحدث عنه القرآن .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

ومن بعد ذلك ، قتل قابيل هابيل ، ثم هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد ، وانتقل قابيل إلى ما يقول عنه القرآن .

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

بعد أن عوقب غضبه إلى أن قتل أخاه وسلبه الحياة يبعث الله له غرابا ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ؛ لأنه لم يكن يعرف كيف يوارى جثمان أخيه . وانتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرع حق أخيه في الحياة فأراد أن يرعى حق مماته ، إذن فالنفس البشرية وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالا مزاجيا يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية . ولذلك نجد كثيراً من الناس تعانى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصى ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأى إنسان وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر .

لكن لماذا يريد الإنسان أن يعترف لآخر بمعاصيه ؟ . إنه اعتراف للتنفيس ؛ لأن كل حركة في النفس البشرية ينتج عنها تأثير في النزوع ، فعندما يغضبك أحد فأنت تنزع إلى الانتقام ، ولهذا يأمرك الشرع حين يغضبك أحد أن تغير من وضعك وقل « حسبنا الله ونعم الوكيل » حتى تصرف الطاقة السعارية عندك ، فإن أغضبك أحد وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعدا فاضطجع ، وإن كنت ثابتاً في مكان فلتسر بضع خطوات . والشرع حين يطلب منك أن تتحرك لحظة الغضب فذلك ليزيل من جسدك بعض الطاقة الفائضة الزائدة التي تسبب لك الغليان فتقل حدة الغضب

ولذلك فالشاعر العربي ينصح كل مستمع للشكوى ألا يرد السماع بل يصغى لصاحب الشكوى ، لذلك يقول :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يـواسيك أو يسليك أو يتوجع

وحينما تظهر المشاركة لصاحب الشكوى فأنت تريحه ، وتهديه إلى الاطمئنان . وينصح الشاعر صاحب الشكوى أن يضعها عند ذي المروءة ، لأن ذا المروءة إنما يعطيك أذنه ومشاعره وهو جدير أن تستأمنه على السرّ ، وكأن الأسرار في خزانة لن يعرف أحد ما بداخلها ، ومثل هذا الاعتراف يريح الإنسان نفسه ، ويصرف انفعاله إلى شيء آخر . وعندما تكرر النفس البشرية فعل السوء ، ولا تجد من ينهيها أو ينهاها ، فالسوء يعم وينتشر ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول .

ويوضح الحق أن السبب في إرسال رسول لهؤلاء الناس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، والتناهي عن المنكر إنما يكون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، ولا يظن المؤمن أنه بمنجاة من خاطر السوء في نفسه لأن كلاً منا بشر وعرضة للأغيار ، ومن لطف الله لحظة أن يهب خاطر السوء على مؤمن أن يجد أخاً خالياً من خواطر السوء فيواصيه بالحق ويواصيه بالصبر ، لأن الفرد إن جاءه سعار الشهوة في اللحظة التي يجرى فيه السعار نفسه عند صديق له فقد يتفقان على المنكر ، أما إن جاء سعار الشهوة لإنسان وكان صديقه مؤمناً خاليا من خواطر السوء ، فهو ينهاه ويوصيه بالحق والصبر وهكذا . يتبادل المؤمنون التناهي بالتواصي ؛ فمرة يكون الإنسان ناهياً ، ومرة أخرى يكون الإنسان منهياً .

وكذلك أعطى الله هذه المسألة كلمة التوصي :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

ولم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، لا ، بل كل واحد منا عرضة أن يكون ناهيا إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة أيضا لأن يكون منهياً إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك تتبادل الناس

والتناهي ، ويسمون ذلك « المفاعلة » مثلما نقول : « شارك زيد عمرا » ، ولا يشارك الإنسان نفسه إنما يشارك غيره ، ومعنى هذا أن هناك شخصا قد كان فاعلا مرة ، ومرة أخرى يكون مفعولاً ، وكيف تكون صيغة التفاعل هذه ؟ . إنها مثل « تشارك » و« تضارب » أي أن يأتي الفعل من اثنين . ومن السهل إذن أن ينهى إنسان صديقاً له أو ينهاه صديق له ، وقد فسرها على أن المجموع ينهى نفسه بفعل القوة الخفية الفطرية التي توجد في كل نفس ، أي أن كل نفس تنهى نفسها . إذن فالتفاعل إما أن يكون في النفس وإما أن يكون في المجتمع .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولننتبه هنا إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل ، فكيف يكون التناهي عن المنكر ؟ . يمكن أن نفهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله ، أي أن الإنسان منهم كان يرى زميلاً له يتهيأ لارتكاب منكر فلا ينهاه . ومثلها في ذلك قوله الحق :

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وهذا القول لا يعني أبداً أن يتوضأ الإنسان بعد أن يدخل في الصلاة . إنما يعني أن تبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة ، يعني إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأداءها .

وقوله الحق : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » يجعلنا في حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة . ويلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أي اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أي مكان موبوء أو فعل غير مستقيم وكذلك يتنبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أي منكر فلا نقع أبداً في دائرة هذا الحكم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فكأننا جميعاً علينا أن نحيا في يقظة إيمانية ، وأن نقول : لا ، لكل بادرة ولأي حركة من حركات المنكر .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وساعة نسمع « لبئس » فلنعرف أن اللام إذا سبقت فهي للقسم ، وحين يقسم الله فهذا تأكيد

للمعصية ، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر ؟ . لا . فليس أحد منا كالله ، ونحن في حياتنا نعرف الأدلة على الحق ، إما إقرار ، وإما شهادة ، وإما قسم .

والقاضي لا يحكم إلا بإقرار المتهم أو بشهادة الشهود ، أو باليمين ، وحين يأتي الحق بالحكم فهو يأتي به على معرفة بالخلق . وعدم التناهي عن المنكر هو فعل وقول معا . وربما أن الحق لم يقل : لبئس ما كانوا يقولون ، ذلك أن القول مقابل للعمل ، وكلاهما أيضاً عمل ، فالقول عمل جارحة اللسان ، والعمل هو عمل الجوارح كلها ، ويجمع القول والعمل وصف « الفعل » . ونلحظ أن المسألة لا تقتصر على القول ، إنما هي عمل قد نتج عن فعل .

ولنر الحديث النبوي القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1] .

وقوله الحق : « لبئس ما كانوا يفعلون » دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر والقبيح قولاً وعملاً .

ويتابع الحق من بعد ذلك فيقول :

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) ﴾

ونلحظ الفارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمور حدثت من قبل مثل قوله الحق

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة المائدة)

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي والترمذي ، وابن ماجه عن أبي سعيد

وبين الواقع الذي يجري في زمن رسول الله ؛ فالخبر الأول هو خبر عن أمر صدر منهم مع من سبق من الرسل ، لكن هناك أشياء يا رسول الله أنت تراها بنفسك ، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت ، لا ، بل كفرهم أصبح ملكة فيهم انطبعت عليها نفوسهم ، كيف ؟ نعلم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتى ، وهذه المعسكرات كانت تفسد حركة الإنسان في الحياة ، والحق سبحانه وتعالى خلق الكون مسخراً للإنسان ويريد أن يظل الإنسان حارساً لصلاح الكون أو أن يزيد صلاح الكون وألا يسمح بتسرب الفاسد إلى الصالح .

إن هذا هو مراد الحق من وجود منهج للإنسان . وهدف المنهج أن يحمي حركة الحياة كلها من الفساد وأن يزيد صلاحية الكون ، فعملنا في الكون دائماً لصالحنا ؛ ولا يوجد عمل يفعله مخلوق يأتي للحق سبحانه وتعالى بصفة زائدة على كمالاته ـ سبحانه ـ ؛ لأن الحق له كمال الصفات ، وهو الذي خلقنا وأوجدنا وأمدنا ، وتكليفنا منه لم يزده سبحانه شيئاً ، فهو ـ سبحانه ـ مستغن بذاته عن جميع خلقه .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ ليحارب معسكرات هي معسكر أهل الشرك في مكة ، ومعسكر أهل الكتاب ، وكان المفترض في أهل الكتاب أن لهم صلة بالسماء وهم ألف بمناهج الرسل . وبمعجزات الرسل وعندهم البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم ، ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام ، فأعلنوا الدخول في الإسلام وهم لم يؤمنوا بل أضمروا الكفر .

وعندما نتوقف عند معسكر أهل الكتاب ، كان من الطبيعي أن ينتظر منهم رسول الله أن يؤمنوا لأنه جاء بالمنهج الذي يقوي من صلة السماء بالأرض ، لو كانوا صادقين وحريصين على تلك الصلة . وخصوصاً أنهم كثيراً ما تباهوا بمقدم النبي قبل أن تأتي الرسالة . وكانوا يقولون للأوس والخزرج :

لقد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا ، يأتي سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفي ذلك جاء قول الحق .

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

وقالت لهم كتبهم : إن النبي إنما يأتي في أرض ذات نخيل ، وهذا ينطبق على مكان مبعثه صلى الله عليه وسلم . إذن فقد عرفوا المكان ، وعرفوا الصفات ، وعرفوا الجبهات التي سيحارب فيها لأنه سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها . وعندما جاء محمد رسولاً من عند الله اهتزت سلطتهم الزمنية ، وأرادوا أن يستبقوها بتحريفهم منهج السماء . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الرباني ليعيد حركة الكون إلى الإيمان . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج الملك ينصبونه .

هكذا أوقف رسول الله سلطتهم الزمنية ولم يعد لهم المجد ، ووحّد الأوس والخزرج ، وكان اليهود يعيشون على الشقاق بينهما ، ببيع الأسلحة والإقراض بالربا . ومع مجيء محمد صلى الله عليه وسلم تهدم بنيان سلطتهم ؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله وهو مازال في مكة ليهزموا الدين الجديد حتى لا يزحف الدين إلى المدينة ويهدر سلطانهم

وفي ذلك جاء القول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والثمن القليل هو الأبهة والرئاسة وسدة الحكم . وها هوذا كعب بن الأشرف كبير يهود وله ثروة ولسان ، يخرج إلى قريش ليناقشهم في ضرورة وأد الدين الجديد والقضاء عليه . فقالت له قريش : إنك من أهل الكتاب ولك صلة بالسماء .

فيقول لهم : إنكم أهدى من محمد سبيلا !! كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلا ؟.

وهكذا نرى قوله الحق : « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا » . لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذى كان بينهم وبينه خصومة حتى لا تتسرب السلطة من أيديهم وتعاونوا مع الذين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد .

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويتولونهم أى ينصرونهم ويحبونهم ويدعون أنهم على حق ، وكأن الدين الجديد على باطل . ويقسم الحق هنا أنه بئس ما زينت لهم النفس الأمارة بالسوء ، لأنهم افتقدوا النفس اللوامة ، وغلبت عليهم النفس الأمارة بالسوء .

وتتابع الآية : « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » ويأتى عن السخط الابتعاد عن طريق الهداية . والبعد عن طريق الهداية يقود إلى العذاب الخالد . كأن الحق يوضح لهم : على فرض أنكم أخذتم متاعاً قليلاً فى الحياة ، ولكنكم أتيتم لأنفسكم بمتاعب أزلية تنتظركم فى الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فلو كان عندهم إيمان بالله حقيقة وبالمنهج المنزل من الله ، ما اتخذوا أهل الشرك أولياء ، ولكن كثرة هؤلاء أهل فسق . ونلحظ أن الكثير فاسق ، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقسم لرسوله صلى الله عليه وسلم أن واقع الحياة مع فرقتين كاليهود والنصارى سيتجلى واضحاً على الرغم من أن كل جانب منهما مخالف لرسول الله في ناحية ، فمواجيد هؤلاء الناس وأهواؤهم مختلفة ولكنهم اتفقوا جميعاً في الهدف .

فاليهود أشد عداوة لأنهم أخذوا سلطة زمنية جعلتهم السادة في المنطقة ، أما النصارى فلم تكن لهم سيادة ولا سلطة زمنية وكانوا عاكفين في صوامعهم وبيعهم يعبدون الله . والجانب الذي ليس له سلطة زمنية لا يعادي من جاء ليسحب من أهل الجور سلطتهم الزمنية ويقيم العدل بين الناس . فما العلة في ذلك ؟

يقول الحق : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » . و« القسيسون » جمع قَس وهو المتفرغ للعلم الرباني و« الرهبان » هم الذين تفرغوا للعبادة . فكأن القسيس مهمته أن يعلم العلم ، والراهب مهمته أن ينفذ مطلوب العلم ويترهب .

إننا نجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى قد امتن بشيئين وبذلك جعلهم أقرب مودة للذين آمنوا ، امتن سبحانه بأن منهم قسيسين يحافظون على علم الكتاب ، وامتن بأن منهم رهباناً ينفذون مدلول المطلوب من العلم ، وبذلك صاروا أقرب مودة للذين آمنوا إن ظلوا على هذا الوضع ؛ لأن العلّة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً .
ومادام قد عللها ـ سبحانه ـ بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون فذلك لأنهم لا يتطاولون إلى رئاسة وليس لهم تكبر أو ترفع ؛ لأن طبيعة دينهم تعطيهم طاقة روحية كبرى حتى إنهم يقولون : « من ضربك على خدّك الأيمن أدر له خدّك الأيسر » . وهذا يعطيهم شحنة إيمانية نرها واضحة عليهم .

« ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » وقد جاء واقع الكون مؤيداً هذا ، فمواقف اليهود من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة حتى إنهم نزلت بهم الخسّة ولكن منهم الحقد ودفعهم الغدر أن أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ليقتلوه وحاولوا دسّ السّم له .

وحين تجد إنساناً لا يجد طريقاً إلى الخلاص من خصمه إلا بأن يقتله ، فيمكنك أن تواجهه قائلاً : أنت لا تملك شجاعة تواجهه بها في حياته ، ولو كنت تملك تلك الشجاعة ما فكرت في أن تقتله . وهذا دليل على أنه أضعف منه وليس أشجع منه ، فلو كان قوياً لكان عليه أن يواجه هذا الخصم مواجهة في حركة حياته ولا يفكر في قتله ، لأن الضعيف هو من يرى أن حياة الخصم ترهقه .

لقد كان اليهود أهلاً لهذا الضعف في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ونعلم أنه صلى الله عليه وسلم حين جهر بدعوته اتبعه بعض من الناس ، ولكن هؤلاء المؤمنين الأوائل عانوا من اضطهاد أهلهم وقومهم ، حتى إن البيت الواحد انقسم ، مثال ذلك نجد أن أم حبيبة السيدة رملة وهي بنت أبي سفيان تؤمن بينما والدها هو شيخ الكفرة آنذاك ، وتذهب أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة ويحرص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الخلايا الإيمانية لأنه يعلم أنها ستفرخ الإيمان من بعد ذلك . وبتلك الهجرة إلى الحبشة أراد صلى الله عليه وسلم أن يحمي بذور الإيمان لتكون هي مركز انتشار الإيمان من بعد ذلك ؛ لأنهم سوف يؤدون مهمة إيمانية ، والشجاعة ـ كما تعلم ـ تقتضي الحرص ، وشاعرنا أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ

قال فى إحدى مقطوعاته النثرية التى سماها « أسواق الذهب » : ربما تقتضيك الشجاعة ، أن تجبن ساعة ؟

وهذه الشجاعة لا تكون على العدو فقط ولكنها تكون شجاعة فى مواجهة النفس ، مثال ذلك : لو أن جماعة من الأقوياء كانوا جالسين معاً فى جلسة سمر ، ثم دخل عليهم صعلوك يحمل مسدساً ، وقام بتوجيه السباب لكل منهم ، هنا يتحايل عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه .

إذن فالشجاعة تقتضى أن يجبن الإنسان لحظة إلى أن يتمكن من الخصم وهذه هى الكياسة والحيلة ، فالإيمان ليس انتحاراً ، بل يقتضى الإيمان ألا يدخل المؤمن معركة إلا وعنده حسبان فى الكسب وها هوذا حضرة النبى صلى الله عليه وسلم يسمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » فى معركة لم ينتصر فيها خالد ، ولكنه انتصر انتصاراً سلبياً بأن عرف كيف يسحب الجيش ، فالأمر بسحب الجيش يحتاج إلى قوة أكثر مما يحتاج إليه النصر . فالمنتصر تكون الريح معه أما المهزوم فتكون الريح ضده .

ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالمناورة والكيد من المهارة القتالية لأنها تتيح من بعد ذلك القدرة على مواجهة العدو .

ونثير النور الإلهى بصيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستعرض الأرض كلها حتى يختار مكاناً آمناً يذهب إليه هؤلاء المؤمنون ، فيختار الحبشة لم يشأ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالذهاب إلى أى قبيلة من القبائل ؛ لأنه يعلم أن كل قبائل الجزيرة تخشى قريشاً ، فموسم الحج جامع للقبائل تحت سيادة قريش . ومن يقف

ضد إرادة قريش فسيتعرض للمتاعب . وعلى ذلك لن يأمن رسول الله على ضحايا الإيمان أن يذهبوا إلى أي قبيلة . واستقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض كلها ، واختار الحبشة ، لماذا ؟.

ها هي ذي كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم باقية إلى زماننا : « إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد فاقيموا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه »[1] .

وفي حديث الزهري : لما كثر المسلمون ، وظهر تعذيب الكفار ـ قال عليه الصلاة والسلام : « تفرقوا في أرض الله فإن الله سيجمعكم ، قالوا : إلى أين نذهب ؟ قال : إلى ها هنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة »[2] .

وتسللوا في جنح الليل إلى الطريق متجهين إلى الحبشة . وعندما علمت قريش بالخبر حاولت أن تقطع عليهم الطريق لتعيدهم إلى مكة لتواصل الحملة عليهم والتنكيل بهم لتصدهم عن الإسلام . ولكن الحق أراد أمراً مختلفاً وكان الطريق سهلاً ، ووصلوا إلى الحبشة ، وأنجاهم الله من كيد الكافرين

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك ـ بما علمه له ربه ـ الخبرة الكاملة بالرقعة الأرضية ويعرف من يظلم من الحكام ومن لا يظلم . وصدق رسول الله في فراسته الإيمانية ، فحينما ذهب المؤمنون المهاجرون إلى الحبشة وجدوا أنهم دخلوا دار أمن ، أمنوا فيها على دينهم . وجن جنون قريش وأرادوا استرداد هؤلاء القوم من النجاشي ملك الحبشة فأرسلوا مندوبيهم ومعهم الهدايا والتحف لملك الحبشة .

سافر عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعه ، وعمارة بن الوليد بن المغيرة . وطلب وفد قريش من النجاشي أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة ، وحاولوا الدس للمهاجرين عند النجاشي ، فاتهموا المسلمين المهاجرين أنهم قوم تركوا دين الآباء واعتنقوا ديناً جديداً يعادي الأديان كلها ويقولون في عيسى بن مريم قولاً

---

(١) رواه ابن إسحاق

(٢) رواه عبدالرزاق .

لا يليق به أو بأمه . ورفض النجاشي أن يصدق حرفاً واحداً ، وطلب أن يسمع من هؤلاء المهاجرين . فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال :

« أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا عليه من الخبائث ، فلما قهرونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، وآثرناك على من سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك » .

وثبت للنجاشي أن المسيح بشهادة القرآن بريء نقي طاهر العرض وهكذا لم يستمع إلى وشاية وفد قريش . وامتلأ قلب النجاشي بالإيمان ولم يستكبر مع أنه ملك ووقف أمام محاولات قريش للنيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما سمع ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة مريم قال إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة

وعرف رسول الله أن الإيمان قد خامر قلب النجاشي ، بدليل أن أم حبيبة بنت أبي سفيان عندما هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وتنصر الزوج لكنها بقيت على دينها على الرغم من أنها كانت تحبه مخلص الحب ، وهنا انفصلت أم حبيبة عن زوجها وذلك حتى يثبت الحق أن هجرتها كانت لله

وأراد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكرمها وأن يكرم النجاشي على موقفه من عدم تسليم المؤمنين إلى وفد قريش وموقفه من أنه شهد للإسلام بأنه يخرج

من نفس المشكاة التي خرج منها إنجيل عيسى عليه السلام ، لذلك يجعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ولي نكاحه لأم حبيبة ؛ لأنه مأمون على ما عَرف من الإنجيل ، ومأمون على ما سمع من القرآن في مريم ، ومأمون على أنه لم يسلم المهاجرين ؛ لذلك اختاره وكيلا عنه في زواجه من أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها .
وتلك حادثة واحدة أضاءت أكثر من موقف . موقف أم حبيبة التي أثبتت أنها لم تذهب إلى الهجرة تبعاً لزوجها ، فلو تبعت زوجها لتنصّرت كما تنصر . وأضاءت أن رسول الله كان لا ينطق عن الهوى حين قال مسبقاً عن النجاشي : إنه لا يظلم عنده أحد . وعندما يبلغ الرسول نبأ وفاة النجاشي فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي عليه صلاة الغائب .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا امتنان من الله بأن جعل منهم القسيسين الذين يعلمون وهذا تكريم للعلم والرهبان الذين يعلمون مطلوبات العلم . إذن فلنعلم أننا يجب أن نفرق بين العالم الذي قد يكتفي بأخذ العلم عنه إلا لم يكن يعمل به ، وأن نحترم الذين يعبدون الله تطبيقاً للعلم بالله ونترك هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم لينالوا جزاءهم ، ولكن علينا أن نأخذ بعلمهم ونحتفل به .

فخذ بعلمي ولا تركن إلى عملي
واجنِ الثمار وخلِّ العود للنار

ونجد أن قوله الحق : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً » حيثية تجعلهم أقرب مودّة للمسلمين . فهل الرهبانية ممدوحة عند الله ؟ . وإذا كانت ممدوحة عند الله فلماذا قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الحديد)

هو سبحانه يحدثنا عن موكب الرسل إلى أن وصل إلى عيسى عليه السلام وما جاء به من الإنجيل وكيف أودع في قلوب الذين اتبعوه شفقة شديدة ورقة وعطفاً وابتدعوا الرهبانية زيادة منهم في العبادة ولم يفرضها الله عليهم ، لكنهم التزموها ابتغاء رضوان الله ؛ لكن منهم من حافظ عليها والكثير منهم فسق عنها وسبحانه حين يفرض أمراً تعبدياً فعلى المؤمن أن يؤديه . ويريد ثواب المؤمن إن ترقى في التعبديات . لكن إن ترقى الإنسان في التعبد فعليه أن يعطي هذا الترقي حقه لأنه ألزم به نفسه أمام الله . إذن فالمأخوذ عليهم ليس ابتداع الرهبانية ، ولكن عدم رعاية بعضهم لها حق الرعاية .

« ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » إذن فمنهم من يرصد حياته للعلم ، ومنهم النموذج التطبيقي العملي وهم الرهبان . وليس فيهم الاستكبار أو العلو ، ومادام فيهم ذلك فهذا يعني أنهم لا يطلبون السلطة الزمنية . وسيظلون أقرب إلينا مودة مادامت فيهم هذه الحيثية . فإن تخلوا عن واحدة منها وأصابوا سلطة زمنية فهذا يعني أنهم تخلوا عن الصفة التي حكم الله لهم بسببها بأنهم أقرب مودة . وإن تمسكوا بها على العين والرأس .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا

﴿ آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٨٣﴾

هذه دقة الأداء القرآني الذي جاء من قبل أن يجهد المفكرون أنفسهم في دراسة ظواهر وأحوال النفس البشرية في مجال علم النفس بالبحث والاستقراء والتجارب، وأثر ذلك في وظائف الأعضاء. لقد قال العلم: إن لكل آلة وظيفة، فالعين ترى، والأذن تسمع، واللسان يتذوق ويتكلم، والأنف يشم، واليد تلمس، وقال العلماء في البداية: إن هذه هي الحواس الخمس الظاهرة، وكلمة «الظاهرة» هذه إنما جاءت للاحتياط، لأن هناك أموراً يشعر بها الإنسان ولكن لا يدرك كيفية ولا مصدر شعوره بها مثل الجوع أو العطش، أو في أثناء المقارنة بين شيئين أيهما أكثر ثقلاً.

لقد حاول العلماء إدراك كيفية تمييز الإنسان بين ثقل وثقل آخر، فقالوا: إن هناك حاسة اسمها حاسة العضل، فعندما يحمل الإنسان شيئاً ما فإنه يجهد العضلات لدرجة تمكنه من التمييز بين درجات الجهد. وعرفوا أيضاً أن هناك حاسة اسمها حاسة البين، وهي الحاسة التي يميز بها الإنسان درجة نعومة أو سمك أي نوع من القماش حتى ولو كان السمك يبلغ الواحد من العشرة من المليمتر.

إذن فهناك حواس كثيرة يمكن للإنسان الإدراك بها، وهناك حواس تترك بعضاً من الأثر في النفس البشرية كآثار الحب والميل أو البغض والنفرة، ومقرها الوجدان كإدراك حلاوة طعم شيء أو كراهة شيء آخر، فإذا استطاب الإنسان شيئاً أخذ منه مرة ثانية، وهذا العمل هو نزوع يتبع الوجدان الذي يتبع الإدراك

إذن فهناك إدراك يدرك. وهناك وجدان يجد، وهناك نزوع ينزع. مثال ذلك إدراك وردة جميلة المنظر واللون في بستان.هذا الإدراك قد يصحب من القلب عشقاً وحباً، أي وجداناً، وأنت حر في أن تدرك ما شئت، وأن تجد ما شئت، لكن ليس لك أن تمد يدك لتقطف الوردة، لأن الشرع يحرم ذلك وحارس البستان أيضاً يمنعك من ذلك. هذا على الرغم من أن أحداً لا يمنعك من أن تنظر إلى الوردة وتستمتع بجمالها. فالإدراك - إذن - مباح، والوجدان أمر مباح.

أما النزوع فهذا هو الأمر الذي تتدخل فيه الشريعة . ولنا أن نكرر أن الإدراك مباح والوجدان مباح إلا في إدراك جمال الأنوثة ، فالشرع يتدخل من البداية . فأنت قد تدرك جمال المرأة فتجد في نفسك حباً وميلاً ، فإذا نزعت فكيف يمكنك أن تضبط نفسك ؟ فأنت بعد الإدراك والوجدان إما أن تنزع وإما أن تكبت . وإن نزعت انتهكت أعراض الناس ، وإن كبت ، أصابك القهر والألم ؛ لذلك يتدخل الشرع في هذه المسألة من بدايتها فيمنعك تحريماً من أن تدرك ، وذلك بأمر واضح هو غض البصر ؛ لأن المسألة الجنسية من الصعب أن تفصلها عن بعضها ؛ فالإدراك يمكن فصله عن الوجدان ، والنزوع يمكن فصله عن الوجدان والإدراك في أمر الوردة . أما في المسألة الجنسية فهي مسعار . إما أن يقابله الإنسان بأن يعف وإما أن يلغ . فإن عف الإنسان فهو يكبت ويتوتر ، وإن ولغ الإنسان في أعراض الناس فهذا أمر يسبب هتك أعراض الناس . ولذلك يمنع الشرع من البداية مسألة الإدراك .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة قبل أن يأتي علماء النفس ليفسروا أمور الإدراك والوجدان والنزوع ، فهاهوذا الحق يقول « وإذا سمعوا » وهذا إدراك بحاسة الأذن . وما المسموع ؟ يجيب القرآن : « ما أنزل إلى الرسول » . وهذا هو سبب الوجدان الذي يأتي في قوله « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فكيف يكون نزوعهم بعد هذا الوجدان ؟ إنهم . « يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، هذه هي العملية النزوعية . والقرآن الذي نزل من أربعة عشر قرناً ، جاء بترتيب الإدراك والوجدان والنزوع قبل أن يأتي به العلم . فساعة سمعوا بالأذن ، حدث شيء في الوجدان ، والتغير الذي في الوجدان له علامات ظهرت في عيونهم التي فاضت بالدمع .

وهنا نميز بين أمرين : الأول هو اغروراق العين بالدمع ، أي أن تمتلىء العين بالدمع لكن لم تصل درجة التأثر إلى أن تسقط الدموع من العين ، ويقال : « اغرورقت عين فلان » أي امتلأت عينه بالدموع ولكنها لم تسقط . والثاني وهو فيض الدموع من العين ، والفيض لا يكون إلا نتيجة امتلاء الظرف بالمظروف ، فكأن الدمع قد ملأها امتلاء ، تماماً مثلما نملأ إناء أو كوباً إلى النهاية فيزيد ويفيض

إذن كان سبب كل ذلك أنهم عرفوا أن القرآن من الحق . ونلحظ أن « مِنْ » تتكرر في الأداء هنا : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق » . فـ « مِنْ » تسبق الدمع . و « من » مدغومة في « ما » فصارا معا « مِمَّا » ، و « من » تسبق الحق .

« وتفيض من الدمع » فـ « من » هنا هي « من » الابتدائية . و « مما عرفوا » هنا « من » السببية أي بسبب أنهم عرفوا أن هذا القرآن منزل من الحق سبحانه . و « من الحق » للتبعيض ، أي عرفوا بعضاً من الحق ؛ لأنهم لم يسمعوا كل القرآن .

إذن جاءت « مِنْ » ثلاث مرات ، وكل مرة لها عمل لتؤدي إلى المجموع البياني الذي يصف المظاهر الثلاثة للإدراك والوجدان والنزوع . وهذه المراتب هي مظاهر الشعور التي انتهى إليها العلم التجريبي حين أراد أن يتعرف إلى وظائف الأعضاء ومدى تفاعلها إدراكاً ووجداناً ونزوعاً .

والنزوع هو الذي يهمنا هنا ، لقد قالوا : « فاكتبنا مع الشاهدين » والإيمان أمر يعود إليهم . أما الكتابة مع الشاهدين فهي أمر يعود على الآخرين . فكأن المؤمن ينال حظاً عالياً ، إنه يؤمن لذاته ، ثم من بعد ذلك يكون وعاءً ولساناً يبلغ منهج الإيمان إلى غيره لأنه لا يكون شاهداً إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة الرسول . وهذا مصداق لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾

(سورة آل عمران)

أي إنكم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجت للناس لا حسباً ولا نسباً ولكن اتباعاً لمنهج ، ومن يتبع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » فهو الذي يحقق عملية الإيمان بالله . ومن أهل الكتاب من يؤمن بالله فيصير مسلماً ، ولكن الكثير منهم يخرج عن حدود الإيمان . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ـ وهو منهج الاعتدال ـ هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتطبقه ، لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويصححه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المهيمن على كل من سبقه من الرسل ، وحياته وما جاء فيها من سلوك هو سنة إيمانية تهدى المؤمنين إلى الطريق المستقيم . وجاءت فى هذه الآية مسألة تحويل القبلة لتعلم المسلمين أن الأمر الأول بالاتجاه إلى بيت المقدس كان اختباراً ينجح فيه من يذعن لصاحب كل أمر وهو الله ، وكان ذلك من الأمور الشاقة إلا على من وعده الله إلى الهداية ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة وهى أول بيت وضعه الله للناس .

إذن فمادمنا شهداء ، ومادام الرسول شهيداً علينا ، فالرسول إنما يشهد أننا بلغنا ونال منزلتين : منزلة تلقى البلاغ عن الرسول ، ومنزلة الإبلاغ من بعد ذلك إلى غيرنا من الناس . والمؤمن لا يكون شهيداً إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الشهادة التى جاء بها الحق فى وصف أمة المؤمنين :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فأنتم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجها الله للناس بشرط أن تتبعوا المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » . تأمرون بالطاعات وتنهون عن كل ما نهى عنه الدين ، وبذلك تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صدق إيمانكم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً . ولو

صدق أهل الكتاب مثلكم في إيمانكم ، لكان خيراً لهم مما هم عليه . لكنّ بعضَ منهم يدير أمر الإيمان في قلبه ، والكثير منهم يخرج ويفسق عن مقتضى الإيمان .

إذن فهم عندما قالوا : « آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، فذلك إقرار بأن الإيمان كان إيمان ذات وإيمان بلاغ إلى الغير . وهم بذلك قد دخلوا الإسلام وصاروا من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهاهوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

وهاهوذا الحق يحدد لنا قيمة الكلمة الطيبة المبلغة عن الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إن الكلمة الطيبة هي شجرة لها من الثمار ما ينفع الناس وتظلل بظلها الحنون سامعيها ، ولها أصل ضارب الجذور في الأرض ، ولها فروع تعلو إلى اتجاه السماء . وتعطي الثمار في كل زمن بإرادة خالقها . وهذا المعنى المحسوس مادياً يضربه الله كمثل للناس حتى يعرفوا قيمة المعاني السامية . إذن سيظل صاحب قولة الحق في بلاغ منهج الإيمان إلى الناس يقطف ثمار هذه الكلمة ما بقي إنسان مؤمن إلى أن يلقى الله .

« فاكتبنا مع الشاهدين » والشاهد هو المبلغ . وعندما يطلب مؤمن من الله أن يكتبه مع الشاهدين فهو يطلب لنفسه المكانة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . فالشهيد ليس هو من قتل فقط ، إنما الشهيد هو من يعطي شهادته والشهيد في معركة إيمانية تفقده حياته هو إنسان أعطى شهادة على أن ما ذهب إليه أنفس من حياته كلها . وهو في ذلك يعطي شهادة عملية . ومن بعد ذلك يقول الحق :

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

عندما يأتي التعجب هنا فهذا معناه أن الإنسان يجب أن يعلم أن إيمانه بالله مسألة تعطينا الخير لأنفسنا . فحين نؤمن بالله يقابلنا الحق بفيض الكرم من اطمئنان وخير وعطاء . فإياكم أيها الناس أن تعتقدوا أن الإيمان جاء ليحجب حرياتكم أو أنه يمنع عنكم اشتهاء الأشياء ، ولكن الإيمان جاء ليعلي الحرية ، ويعلي الشهوة فلا يأخذها الإنسان عابرة تنتهي بانتهاء الدنيا ولكن ليأخذها الإنسان خالدة ما بقيت السموات والأرض .

إذن فالتدين إنما جاء بالنفعية العاقلة ؛ لأن العاقل إنما يأخذ على مقدار عمره من نفع يسير لا يضر أحداً ، وإن كان يضر النفس أو الغير فالدين يأمر بترك هذا النفع ، ذلك أن النفع إما أن يفوت الإنسان أو يفوته الإنسان . والذكي هو من يؤثر نفع غيره على نفع نفسه .

مثال ذلك أن يأتيك سائل يسألك الطعام لأنه لم يأكل منذ يومين ، ولا يكون في جيبك إلا جنيه واحد فتعطيه له ، إنك بذلك تؤثره على نفسك ، فتكون ضمن من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وبمثل هذا السلوك يكون الإنسان قد اقتدى بالأنصار الذين استضافوا المهاجرين وأخلصوا الإيمان فأحبوا أهله ، ولا يجدون حقدًا أو حسدًا فيما خُصّ به المهاجرون

من مال المرء وغيره ، وكان جل همهم أن يسعد المهاجرون وقد سبق أن آثروهم بأشياء كانت لهم وارتضوا لأنفسهم عدم البخل ، فوقاهم الله شر البخل فكانوا من الفائزين . والمتصدق بحقه إنما يأخذ من الله عشرة أمثاله ، وهذه نفعية كبرى وعندما أمرنا الشرع بغض البصر عن محارم الغير ، والمعد لذلك يحفظه الله ويغض الجميع عيونهم عن محارمه ، أليست هذه نفعية ؟ إذن فمن الحمق أن يظن إنسان أن الدين يقيد الحرية ، لأن الدين إنما يحمي الحرية وينميها ، ويسمى الانتفاع عند المؤمن بأن يحول بينه وبين النفعية الحمقاء .

ودائماً أضرب هذا المثل - لنفرض أن رجلاً له ولدان ؛ الأول منهما يستيقظ مبكراً من النوم فيعمل مثلما علمه أبوه . يتوضأ ويصلي ويتجه إلى مدرسته بعد أن يتناول إفطاره ، أما الابن الثاني فلا يستيقظ إلا بصعوبة ويظل يتناوم إلى أن يأتي الضحى ثم يخرج من المنزل إلى المقهى - إن كلاً من الولدين أراد النفع لنفسه ، الأول أراد النفع الآجل ، والثاني أراد النفع العاجل ، وبعد أن تمر عشر سنوات يتخرج الابن الأول ليكون معلماً وناجحاً في الحياة ، ولكن الابن الثاني يظل صعلوكاً فاشلاً ، إذن فكلاهما نظر إلى النفعية ولكن المنظار مختلف .

وإياكم أن تفهموا أن هناك إنساناً لا يحب نفسه ، لا - كلنا نحب أنفسنا . ولكن هناك من يحب نفسه حباً يعطي لها طول البقاء ، فيجد ويجاهد ، وقد يكون شهيداً ، وآخر أحب نفسه بضيق أفق فحافظ على حياته بالجبن وهو قد مات ألف مرة في أثناء هذا الجبن ، وفقد كرامته حرصاً على حياة لن يزيد في مقدارها يوماً واحداً . والمتنبي يقول :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى[1] ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ولذلك فالحق سبحانه في أمر الدين يقول لنصه : « وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق » ، والمؤمن يرى أنه من العجيب ألا يؤمن لأنه يطمع إلى مكانة المؤمن « ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » إذن فالمؤمن يطلب مكانة الإنسان الصالح .

---

١ - التقى : الحذر والخوف

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

إنها كلمة الحق التي تقال في كل مكان وزمان . فالنجاشي ملك الحبشة وله سلطان لأهل الجاه من قريش الذين استبد بهم باطلهم ؛ لذلك كان لهذه الكلمة وزنها ، فعندما سمع ما نزل من القرآن من سورة مريم قال : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . إذن فهي كلمة حق لها وزن ، والله سبحانه وتعالى يجزل العطاء لكل من ساند الحق ولو بكلمة فهو سبحانه (الشكور) الذي يعطي على القليل الكثير ، و(المحسن) الذي يضاعف الجزاء للمحسنين .

ولنا أن نعرف أن للقول أهمية كبرى لأنه يرتبط من بعد ذلك بالسلوك . وكان قول النجاشي عظيماً ، لكن العمر قد قصر به عن استمرار العمل بما قال . فقد قال كلمته وجاءه التوكيل من رسول الله ليعقد للرسول على أم حبيبة بنت أبي سفيان فعقد عليها وكيلا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمهرها من ماله ثم مات ، ولم تكن أحكام الإسلام قد وصلت إليه ليطبقها ؛ لذلك كان يكفيه أنه قال هذا القول ، ولذلك صلى عليه النبي صلاة الغائب .

وهناك قصة « مخيريق » اليهودي . لقد تشرب قلبه الإسلام وامتلأ به وكان في غاية الثراء فقال لليهود : كل مالي لمحمد وسأخرج لأحارب معه . وخرج إلى القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل ومات شهيداً ، وهو لم يكن قد صلى في حياته كلها ركعة واحدة . إذن فمجرد القول هو فتح لمجال الفعل .

« فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار » والحق يريد أن يؤكد لنا أن كل حركة إيمانية حق ولو كانت قولاً إنما تأخذ كمالها من عمرها . ونعلم أن الإيمان في مكة كان هو الإيمان بالقول . ذلك أن الناس آمنت ولم تكن الأحكام قد نزلت ، فغالبية الأحكام نزلت في المدينة . ومع ذلك أثاب الله المؤمنين لمجرد أنهم قالوا كلمة الإيمان ، حدث ذلك ولم يكن قد جاء من الحق الأمر بالبلاغ الشامل وهو قوله الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

(من الآية ٢١٤ سورة الشعراء)

فهؤلاء قد جزاهم الله حسن الثواب وسمّاهم « محسنين » وكذلك فعل النجاشي ، فقد ذهب إلى الإيمان دون أن توجه له دعوة وكان ذلك قبل أن يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة للملوك ليؤمنوا ، وعلى هذا فالنجاشي محسن ؛ لأنه قفز إلى الإيمان قبل أن يطلب منه . وساعة يتكلم الحق عن منزلة من منازل الإيمان فهو أيضاً يتعرض للمقابل ، وذلك لتبلغ العظة مراميها الكاملة . فإذا تحدث عن أهل الجنة فهو يعقبها بحديث عن أهل النار ، وإذا تحدث عن أهل النار فهو يعقبها بحديث عن أهل الجنة ؛ لأن النفس لإصابته تكون مستعدة للشيء ومقابله .

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

ونعرف أن كلمة « صاحب » وكلمة « صحبة » وكلمة « أصحاب » ، هذه الكلمات تدل على الملازمة ، والملازمة في الحياة تكون اختيارية لا قهرية ، فلا أحد يصاحب أحداً بالقهر .

ونفهم من قوله « وأصحاب الجحيم » أن هذا يعني العشق المتبادل بين النار وأهلها ، وليس هذا مرادا ، فهو إما أن يكون على سبيل السخرية والاستهزاء بهم ، وإما أن يكون المراد هو الملازمة التامة والمصاحبة الدائمة التي لا تنفك ولا تنتهي . وبعد أن تكلم الحق عن المشركين وتكلم عن اليهود وتكلم عن النصارى ، فهو يتكلم عن المؤمنين ، به يمحص أذهاننا أولا ليزيل عنها ما علق بها من أمر المخالفين ومناهجهم ، ويأتي لنا من بعد ذلك بالأحكام ، وقد فعل ذلك في هذه السورة التي تبدأ بآية العقود .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

وعقد الإيمان هو ما يرتفع ويسمو على ما يقوله المشركون ويخرج عما يقوله اليهود والنصارى . ومن بعد ذلك نلاحظ أن الحق بعد أن تكلم عن ضرورة الوفاء بالعقود ، فهو يلزم المؤمنين بالمنهج الذي يحمي حركة الحياة . وحركة الحياة يتم استبقاؤها أولاً بالطعام والشراب . لذلك قال :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

ومن بعد استبقاء حركة الحياة بالطعام والشراب ، ها هوذا يقول : « حرمت » . وهنا لنا وقفة ، فعندما يحلل الله شيئاً من أجناس الوجود ، وعندما يحرم شيئاً آخر من أجناس الوجود فللسائل أن يسأل بعقلانية ويقول . مادام الحق قد حرم هذه الأشياء فلماذا أوجدها ؟ ونعلم في حياتنا العادية أن كل صانع إنما يحدد خصائص لصنعته . ومثال ذلك صانع الطائرة يصمم طائرته ويحدد الوقود اللازم لها ، ولا يمكن أن تسير بوقود سيارة ، فإذا كانت الآلات التي من صنع البشر تفسد إن استخدمنا لها ما لا يناسبها . فكيف إذن نقول لصانعنا : لماذا خلقت الأشياء التي لا تناسبنا ؟ لا بد أن لها مهمة في الكون واستخداماً آخر يجعلها تنتج الأشياء المفيدة لنا . مثال ذلك سمّ الحيّة ، إنه يقتل الإنسان ، ولكن الله ألهم الإنسان القدرة على استخراج السّم من الحيّة لقتل بعض الميكروبات .

إذن فالعالم قد خلقه الله بتركيب معين . ومثال ذلك نجد التمساح وهو راقد على الشاطئ ، والطيور تلتقط من فمه بعضاً من غذائها ولا يؤذيها ؛ لأن هذه الطيور هي

التي تنبه التمساح إذا جاء صياد ليقتنصه ، فالطيور تحرص على مصدر قوتها وتحافظ على حياة التمساح . والكهرباء نستخدمها في مجالها ، أما في عكس مجالها فهي تصعق وتدمر .

إذن فليس للإنسان أن يسأل لماذا حرم الله أشياء على الإنسان ؟ ؛ لأن لتلك الأشياء دورة في الحياة . ولا يصح أن ننقل الوسيلة لتكون غاية . والحق أراد بالحلال والحرام أن ينعم الإنسان بالصالح له . ومثال ذلك أن حرم الله أكل لحم الخنزير . والخنزير إنما وُجد ليأكل ميكروبات . إذن فليس للإنسان أن يحوّل الوسيلة إلى غاية . ويعطي الحق كل يوم للإسلام قوة تأييد تأتيه من خصوم الإسلام .

ومثال ذلك : إننا نجد أن الأمراض تنتشر بنسب عالية في الأمم التي تستهلك لحم الخنزير ، وتشرب الخمر ، وهناك مرض اسمه « تشمع الكبد » ينتشر في تلك البلدان ، فهل كنا نؤخر تنفيذ أمر الله إلى أن تنشأ المعامل وتقول لنا نتائج أكل الخنزير ؟ أو كان يكفي أن نحرم على أنفسنا ما حرم الله ؟ إن حسبنا أن ننفذ أوامر الله صيانة لنا :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وكل يوم تظهر لنا آية تؤكد صدق إيماننا بالله ؛ لذلك فلا يقولن أحد : لماذا خلق الله تلك الأشياء المحرمة ؟ لقد خلقها الله وسيلة لا غاية . ومثال ذلك أن خلق الله لنا البترول لنستخرج منه الوقود ، فهل أحد منا يقدر على شرب البترول ؟! إذن فالتحليل والتحريم لصالح الإنسان . وإن خرج الإنسان عن ذلك فلا يلومن إلا نفسه . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

كان الحق يستنكر أن نصنع من حلال ما خلق أشياء محرمة . وأن نحرم أشياء حللها الله ، كترك البحيرة والسائبة والوصيلة ؛ وكلها أرزاق من الله . هو سبحانه خالق كل الأشياء وهو الذي يحدد نفعها وعدم نفعها للإنسان . والبحيرة هي الناقة

التي كانوا يشقون أذنها حتى لا يتعرض لها أحد بعد أن تكون قد نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، وكانوا يطلقونها في المراعي لا تُركب ولا تُحلب ولا يُمنع عنها مرعى أو ماء . وكانوا يقولون إنها للآلهة . وعندما نستكشف آفاق من يستفيد منها ، كنا نجد الكهنة هم الذين يستفيدون منها . وكذلك السائبة وكانوا يتركونها تطوعاً لا يركبها أحد ولا يحلبها أحد وكان المستفيد منها الكهنة أيضاً . وكذلك الوصيلة وهي الأنثى التي جاءت في بطن واحد مع ذكر وقالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وكذلك كانوا يطلقون الفحل الذي نتج من صلبه عشرة أبطن وقالوا قد حمى ظهره فلا يركب ، ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ، والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا لم أحرم هذه الأشياء فلماذا تحرمونها؟

هو سبحانه قد حرم الميتة والدم لأنه هو الذي حدد وبيّن ما هو حلال وما هو حرام . وسبحانه الذي يرزق الرزق فيكون مرة رزقاً مباشراً ومرة يكون رزقاً غير مباشر . ولذلك جاء الحق بالقول الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذن فأمر التحريم موكول إلى خالق الآلة الإنسانية ، وأمر التحليل موكول إلى خالق الآلة الإنسانية . وأنت أيها الإنسان لا تتدخل في ذلك أبداً . لأن تدخل الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحل الله ، وأحياناً يكون تدخل الإنسان بتحليل ما حرم الله .

إياك أيها الإنسان أن تحرم ما أحل الله لك ، وإياك أن تحلل ما حرم الله عليك . ونحن هنا أمام مراحل عدة ، لا تعتقد أن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا تقل إن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا تمتنع عن أمر حلله الله ظناً أنه حرام ، ولا تُفتِ بأمر حلله الله على أنه حرام ، ولا تجعل أمراً حلله الله محرمة على نفسك ، فلا ينذر

أحد ألا يأكل لحم الضأن أو البرتقال ـ على سبيل المثال ـ لأن النذر في ذلك ليس حلالاً ، لأن تحريم الأشياء المحللة بالنذر هو أمر محرم . ولذلك علمنا الحق قائلاً لرسوله :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

لا بد لنا أن نعي ذلك الأمر وأن نعرف مراحله : لا تعتقد ، لا تقل ، لا تمتنع ، لا تُفْتِ ، لا تنذر ، لماذا ؟ لأن في ذلك اعتداء .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وما الاعتداء ؟ إنه تجاوز الحد فيما حرم الله أو فيما حلل الله . أي أن الله يحب من يقف عند الحدود . وهو سبحانه يقول مرة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ومرة يقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ففي المنهيات : لا تقترب . وفي ما أحله الله : لا تتعدَّ ؛ لذلك جاء القول على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مُشْتَبِهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المُشْتَبِهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في المشتبهات وقع في الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمًى ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[1] .

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

إذن فكل كائن له مميزات وله مهمة في الوجود . وأنت أيها الإنسان لا تقلب الوسيلة إلى غاية ، فهناك كثير من المخلوقات هي وسائل ولا تصلح أن تكون غايات ؛ ولذلك أمرنا الحق بأن نأخذ ما ننتفع به مباشرة وأن نترك الأشياء التي حرمها علينا ؛ فلا نقرب - على سبيل المثال - لحم الخنزير ؛ لأن الخنزير مخلوق ليحميك من الميكروبات ، فإن أكلته تكون قد قلبت الوسيلة إلى غاية . وعليك أيها الإنسان أن تحتفظ بالوسيلة كوسيلة وأن تحتفظ بالغاية كغاية . والذي يحدد لك ذلك هو من صنعك .. إنه الله .

ودليل ذلك أن خصوم الإسلام يكتشفون كل يوم المميزات التي جاء بها الإسلام فيتجهون إليها . إن الله بتحريمه وبإيماننا بهذا التحريم متعنا من متاعب التجربة إلى أن تثبت ، والكفار الذين لم يؤمنوا اضطرتهم الظروف إلى تناوله ، وعلى ذلك فكل شيء محلل أو محرم بأوامر الله يظهر لنا فائدته أو ضرره طبقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فلا اعتداء في شيء حلال أنه حرام ولا قول بمثل ذلك ولا امتناع عنه ولا يفتي إنسان بمثل ذلك . ويأتي الأمر : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . ونعرف أن الاعتداء إنما هو أن نتجاوز الحد فيما حرم أو فيما حلل ، والحق سبحانه يحب من يقف عند حدود الله ، فلا يقربها الإنسان حتى لا تحدثه نفسه بمعصية . وعندما يبتعد المسلم عنها فهو يتقي الشبهات .

والحق يبين لنا لقد أحللت لكم كذا وحرمت عليكم كذا وهو الخالق . فيجب أن نأخذ من الخالق مواصفات ما يبقي لنا الحياة ، هذا الإبقاء هو ما نصنعه نحن حينما نخترع آلة توفر علينا الحركة وتعطينا الثمرة بأقل مجهود ؛ نحين يصنع الصانع آلة من الآلات يصنع لها ما يوجد لها الطاقة لتقوم بعملها ، ولا يستطيع المستعمل لهذه الآلة أن يغير وقود هذه الطاقة ، فإن غير نوع الطاقة ، فالآلة لا تؤدي مهمتها . فما بالنا بالذي خلق ؟

إنه حين يوضح أنّ هذه الآلة لا تصلح إلا بما أحللت ، ولا يصح أن تدخل عليها ما حرمت عليك . هنا يجب أن نطيع الخالق ؛ لأنه هو الذي يعلم ما يصلح لنا وما لا يصلح . ولم يدع أحد في الكون أنه خلق نفسه ، فلنرد اقتياتنا وحفظ حياتنا إلى خالقنا ، ولنأخذ ما حلله ونبعد عما حرمه ، فالآلة ـ الإنسان ـ تصلح بأن تفعل الحلال وأن تترك فعل الحرام . إذن هناك أشياء تُفعل ، وهناك أشياء لا تُفعل . وهناك أشياء لم يأت فيها الحل أو الحرمة ، فإن أقبل عليها الإنسان فهي تصلح ، وإن لم يقبل عليها الإنسان فهي تصلح أيضاً . والحق سبحانه وتعالى يوضح : أنكم لم تخلقوا هذه الآلة ـ الإنسان ـ وأنا الذي خلقتها ، فأنا أعلم بما يعطيها مدد الطاقة ومدد البقاء ، فإن صنعتم غير ذلك كنتم معتدين .

ولذلك يخاطب الحق الذين آمنوا بأنه خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ورزقهم لاستبقاء حياتهم ونوعهم ، وعليهم أن يأخذوا من الله هذه الأحكام : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » . وسبحانه يوضح : إن الذي يؤمن بأنى إله فليأخذ منى مواصفات استبقاء حياته . وعندما يقول سبحانه ذلك فلا بد أن يكون هناك سبب داع لهذا القول ولما نزل قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

الحق جاء في هذا القول الكريم بحيثيات مدحهم وحيثيات قربهم من مودتنا ، فمنهم القسيسون والرهبان الذين زهدوا في الحياة . وإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بكوا واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، وفيهم أبو بكر الصديق وعمر وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وأبو ذر الغفاري وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي ومعقل بن مقرن ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك أي الدسم . ويجبوا المذاكير ويسيحوا في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم

فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وأنزل الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وكلمات الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته وللناس منطقية. فإذا كانوا يريدون أن يمتنعوا عن طيبات ما أحل الله حتى يعلوا الزهد مثل السابقين عليهم، ومن يريد الرهبنة ألا يصلي؟ إنه يقيم الصلاة، والصلاة لا بد لها من حركة، والحركة لا بد لها من قوة، والصلاة لا بد لها من ستر العورة، وستر العورة يقتضي اللباس، وهذا اللباس يحتاج إلى تفكير من أين يأتي هذا. القماش يأتي من تاجر أقمشة، وتاجر الأقمشة لا بد أنه يأتي به من المصانع التي نسجته، والمصانع التي نسجته لا بد أن تأتي به من المصانع التي غزلته، والمصانع التي غزلته لا بد أن تأتي به من المحالج التي حلجت، ثم لا بد من الحيوانات التي أخذ منها إن كان صوفاً، وأن تربيتها تحتاج إلى زراعة. إذن فكل هذه الأشياء تتطلب حركة واسعة، أنت لا تشعر بها إلا حين تحتاج إلى الثوب. فإن كنت تريد أن تنقطع للعبادة فإياك أن تنفع بحركة من يقيم أركان الإسلام، ويتحرك في الحياة في ضوء منهج الله ساعياً إلى الرزق، وهذا أمر لا يتأتى.

وأيضاً، ألا يأكل الذي يريد الانقطاع إلى العبادة؟ إنه يأكل ليقوم إلى الصلاة وكلنا يعرف كيف يجيء رغيف الخبز. صحيح أن الإنسان يذهب إلى المخبز ليشتري رغيف الخبز، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن. والمطحن جاءته الغلال من المخازن، والغلال جاءت من الذي زرع. والذي زرع احتاج إلى آلات تحرث وآلات تغرس وإلى آلات تحصد، وبعد ذلك احتاج إلى أشياء أخرى كالسماد وغيره، إن هذا يحتاج إلى طاقة هائلة

---

(١) رواه مسلم ورواه البخاري بلفظ: «فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا».

إذن فالإنسان في حركته في الصلاة محتاج إلى كل هذه الأعمال، وإياك أن أردت أن تعتزل الحياة أن تتمتع بعمل من لم يعتزل الحياة. والعمل الذي لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ولذلك يكون على ولي الأمر إن رأى حرفة يتطلبها الوجود الإنساني والوجود الإيماني ولم يذهب إليها أناس طوع أنفسهم عليه أن يلزم قوماً بأن يعملوها وكل صناعة هي فرض كفاية إن قام بها البعض سقطت عن البعض، وإن لم يقم بها البعض أثم الجميع

إذن فلا بد من حركة الحياة. وحركة الحياة تُسْلِم حلقة إلى حلقة أخرى فلا تأخذ الثمرة وأنت مع ذلك معتزل الحياة. والحق سبحانه وتعالى يقول «لا تحرموا طيبات ما أحل الله». إنكم إن فعلتم ذلك تكونوا قد أخذتم صفة المشرع واعتديتم على حقه في أن يحلل وأن يحرم، وهذا اعتداء

وإذا كان الله قد حرم أشياء وحلل أشياء فهذا بمقتضى صلاحية الأشياء المحللة للإنسان. وعلى الإنسان أن ينظر إلى الأشياء الموجودة المحرمة على أنها رزق غير مباشر لأنها وسيلة إلى رزق مباشر، كما عرفنا أننا نستخلص من سم الثعبان علاجاً، إذن فالثعبان مخلوق لمهمة تخدم الإنسان. والعالم كله حلقات، حيوانات تستفيد من لذى بعضها إلى أن يصل الخير كله إلى المؤمن، فلا يقولن إنسان «لماذا خلق إذا كان قد حرم؟».

فلا تعتد لتحلل ما حرّمه الله وتحرم ما حلله الله، فبترك الاعتداء ينتظم الوجود، وحين ينظر الإنسان إلى الغابة يجد أن لكل حيوان مهمة مع غيره، هذه المهمة تؤدي إلى الصلاح فيما يصلح للإنسان. لقد حرم الحق بعض الأشياء كرزق مباشر، لأنها رزق غير مباشر. والرزق المباشر هو ما يأكله الإنسان مباشرة وما يلبسه، والرزق غير المباشر هو وسيلة إلى الرزق المباشر. وما حرمه الله هي أشياء مخلوقة كوسائل إلى صحة غيرها.

«يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا» أي لا تجعلوا الحرام حلالاً، ولا تجعلوا الحلال حراماً، و«لا تعتدوا» أي كلوا من الطيبات دون

أن تتجاوزوا الحد ، وهذا هو معنى قول الحق :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أولا نسأل : ما هو الرزق ؟ الرزق هو ما انتفع به . فالذى تأكله رزق ، والذى تشربه رزق ، والذى تلبسه رزق ، والذى تتعلمه رزق ، والصفات الخلقية من حلم وشجاعة وغيرها هى رزق ، وكل شىء ينتفع به يُسمى رزقاً .

ولكن حين يقول الحق « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً » فهو ينصرف إلى ما يطعمه الإنسان . وحين يقول سبحانه ذلك فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب . إذن فهناك رزق حرام ، مثال ذلك اللص الذى يسرق شيئاً ينتفع به ، هذا رزق جاء عن طريق حرام ، ولو صبر لجاءته اللقمة تسعى إلى فمه لأنها رزقه . أو الرزق هو ما أحله الله ، وهنا اختلف العلماء وتساءل البعض : هل الرزق هو الحلال فقط والباقى ليس رزقاً ؟ وتساءل البعض الآخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ومنه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً ؟ الحق يقول :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

كلوا ما رزقكم هذا أسلوب ، « ومما رزقكم الله » هذا أسلوب آخر . فـ ما رزقكم الله أى نأكله كله ، وهذه لا تصلح ، لأننا لا نأكله كله طبعا بل إننا سنأكل بعضه ؛ لأن الذى يؤكل ويطعم إما أن يكون صالحاً لإيجاد مثله ، وإما أن

يكون غير صالح لإيجاد مثله، فعندما يحتفظ الإنسان بالدقيق مثلاً فهو لا ينتج سنبلة قمح، إذن يجب علينا أن نأكل بعضاً ونستبقي بعضاً صالحاً لأن ينتج مثله، فعندما نحتفظ بالقمح فهو يصلح أن يأتي بسنابل القمح ؛ لذلك جاء الأمر بأن نأكل بعض ما رزقنا الله حتى نحتفظ ببعض الرزق لا نأكله، وهذا يعني أن نحتفظ بامتداد الرزق، فلو أكل الإنسان كل القمح الذي عنده فكيف يحدث إن أراد أن يزرع ؟ إذن فاستبقاء الرزق يقتضي أن نحتفظ ببعض الرزق لنصنع به امتداداً رزقياً في الحياة .

والرزق الحلال هنا نوعان . ما يصلح لامتداده فيجب احتجاز بعض منه من أجل أن يستخدمه الإنسان في استجلاب رزق آخر وما لا يصلح لامتداده كالدقيق مثلاً . نأكل بعضه ونحتفظ ببعضه لمن لا يقدر على الحركة . ولذلك نجد الحق في سورة يوسف يقول عن رؤيا الملك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾

(سورة يوسف)

هنا قال أهل تفسير الرؤيا :

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ (سورة يوسف)

إنه اضطراب في الجواب ؛ لأن كونها أضغاث أحلام أنها لا معنى لها، وقولهم بعد ذلك : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فمعنى ذلك أن لها تأويلاً وقد كان لها تأويل، ثم من الذي رأى الرؤيا ؟ إنه الملك ويأتي الحق بيوسف مفسراً للرؤيا . إذن فلا ضرورة أن يكون الرائي مؤمناً ولا صالحاً وقد يقول قائل : كيف يعلمه الله على مثل هذه المسائل ؟ ونقول : قد تكون الرؤيا إكراماً للرائي، وقد تكون الرؤيا إكراماً للمعبر الذي يعرف التأويل، وهي هنا إكرام للمعبر وهو سيدنا يوسف وعرف سيدنا يوسف كيف يبث « شفرة » الرؤيا . والعجيب في الرؤيا أن البقر الهزيل يأكل البقر السمين وهنا قال يوسف :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة يوسف)

أى كلوا البعض وليكن قليلا قليلا ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد وهى سنين الجدب لتأكلوا فيها ما جمعتموه فى سنين الخصب ، اتركوا البعض الآخر لاستمرار النوع . وتبين أن أفضل وسيلة لحفظ حبوب القمح فى عصرنا هى أن نتركه فى سنابله وكذلك الذرة نتركها فى غلافها . وكان تعبير الرؤيا دقيقاً لأنه يريد أن يستبقى للناس حياتهم فى زمن الجدب ، ويستبقى هم كذلك الضرع الحيوانى ، فتأكل الناس الحب ، وتأكل الماشية التبن المتبقى ، وكذلك ضمن الحق مقومات الحياة لكل ما يلزم للحياة . ونلحظ أن المأكول فى هذه الآية هو القليل ، أما الباقى فهو الكثير فى سنابله ، هذا فى أيام الرخاء ؛ فماذا عن أيام الجدب ؟

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أن الناس ستأكل فى أعوام الجدب الكثير من الحبوب التى فى المخازن ويجب أن يحتفظوا بقليل مما يحصنون فى هذه المخازن ، وذلك لاستبقاء جزء من القمح للزراعة .

إذن فـ (من) فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ للتبعيض أى كلوا بعض ما رزقكم الله ، فإن كانت الأشياء مما يكون بقاؤها سبباً لامتداد نوعها فالنوع يكون متصلاً . مثال ذلك رجل عنده بذور البطيخ وزرعها ، وبعد أن جاءت الثمار أكلها هو والبذور فمن أين يزرع فى العام القادم ؟ كان يجب أن يحتفظ ببعض منها لتكون بذوراً . وكان يجب أن يحتفظ بجزء من البطيخ ليعطى منه الجار أو المحتاج .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مما رزقكم الله » تصلح لاستبقاء النوع وتصلح لصرف الزائد إلى غير القادر . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » أى أنك حين تتقى من تؤمن به إلهاً فليس فى ذلك غضاضة ؛ لأنك آمنت أنه إله وقوى ، والغضاضة فى أن تأتمر بأمر مُساوٍ لك ، أما الانقياد والائتمار لأمر الأعلى منك ، فهذا لا يكون سبباً فى الغضاضة إنما هو تشريف لك وتكريم

ونجد الحق يشرح لنا ذلك في قصة سيدنا موسى مع السحرة ، فألقى موسى عليه السلام عصاه ، ورآها السحرة حية . والساحر ينظر إلى الشيء الذي تم سحره فيراه على حقيقته وصورته الأصلية، أما المسحورون بالرؤية فهم الذين يرون الشكل المراد لهم رؤيته . ورأى السحرة حبالهم مجرد حبال، وعصا موسى هي التي صارت حية

هنا عرفوا أنها مسألة أخرى فماذا قالوا ؟ :

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

[سورة الشعراء]

لقد عرفوا أن هذا أمر خارج عن نطاق البشرية . إذن فما كان من أمر السحرة تجاه قوم فرعون هو تخييل للنظر :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [من الآية ٦٦ سورة طه]

وقال الحق :

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [من الآية ١١٦ سورة الأعراف]

أما موسى عليه السلام فحين ألقى العصا لأول مرة ووجدها حية خاف لأنه رأى في ذلك قلباً للحقيقة . أما عند السحرة فليست حبالهم حيات حقيقية ولكنها سحر لأعين الناس أي تخييل للناظر . ومثال آخر هو سيدنا سليمان عندما أرسل لبلقيس ملكة سبأ وجاء رسوله يقول لها :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة النمل]

فماذا قالت لحاشيتها من رجال القتال ؟ .

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [من الآية ٣٢ سورة النمل]

وهنا عرفت الحاشية أن المسألة تتطلب رأياً سياسياً ؛ فقالوا :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[سورة النمل]

الرأى إذن هو من حق السياسى الذى يزن الأمور بموازين العقل وموازين الاحتمال الواقعة ، وموازين رد الفعل ، وأدارت بلقيس المعركة سياسياً ، فأرسلت هدية من مقام ملكة ، فإن رافته الهدية فهو طالب دنيا ويريد غيرها ، وعندما وصل رسلها بالهدية ، ماذا قال سليمان ؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[سورة النمل]

وهنا عرفت بلقيس أن الإسلام أمر ضرورى ، وها هى ذى الدقة لنعرف أن الأمر من المساوى هو الذى يعطى عزة فى الآمر وذلة فى المأمور ، أما إذا كان الأمر من غير المساوى ومن الأعلى ـ سبحانه ـ فلا ذلة فيه لأحد. وكان إيمان بلقيس إيماناً ملوكياً . فقالت .

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

[سورة النمل]

إنها لم تقل أسلمت لسليمان وإنما قالت ، «وأسلمت مع سليمان لله» . إذن فلا غضاضة فى إيمانها ، وذلك حتى لا يظن شعبها أنها ذهبت به إلى حضيض الذلة فى أن يحكمهم إنسان آخر . لكن هى وسليمان محكومان لله رب العالمين ، ولا غضاضة فى ذلك . ونعود إلى قوله جل شأنه

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[من الآية ٨٨ سورة المائدة]

أى : اجعلوا للإيمان حيثية ، وما دمت قد آمنت وتأتمر بأمر من تؤمن به . فأنت لا تؤمن إلا بمن تثق فى أنه يستحق الإيمان . وقوله أولاً فى الآية السابقة•

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقوله في تذييل هذه الآية :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

هو تسوير وإحاطة لطاعة بإيمانين ؛ إيمان خوطبوا به ، وإيمان أقروا به . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

عندما ننظر في قول الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » نعرف أن « يؤاخذ » من « آخذ » ويأخذ من أخذ . فإن قلت : « أخذت فلاناً بكذا » فذلك دليل على أنك أنزلت به نكالاً لأنه لم يدخل في تعاقد غيرى معك ، ولكن أن تقول : « آخذته » . كأن المفاعلة حدثت بأن دخل معك في عقد الإيمان ولذلك يأخذ الحق



الكافرين أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يؤاخذ المؤمنين ، لماذا ؟ لأن المؤمنين طرف في التعاقد ، أما الكافرون فليسوا طرفاً في التعاقد ؛ لذلك يأخذهم أخذ عزيز مقتدر

إذن فالمؤاخذة غير الأخذ ، المؤاخذة هي إنزال عقوبة بمن له معك عهد فخالفه بعمل جريمة نُصَّ عليها ؛ فلا يؤاخذه أبداً بجريمة لم ينص عليها ، ولا يتم توقيع عقاب على أحد دون تحذير مسبق . وبذلك فهي القانون المدني يقولون لا عقوبة إلا بجريمة ولا جريمة إلا بنص

إذن لا بد من النص أولاً على العقاب على الجريمة ؛ لأن النص على فعل ما بأنه جريمة يجعل الإنسان يراجع نفسه قبل الإقدام على مثل هذا الفعل أما عدم وجود نص على أن ذلك الفعل جريمة يجعل الإنسان حراً في أن يفعله أو لا يفعله لأنه عمل مباح

وعلينا أن نلحظ التعاقد في قوله الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » وعندما ننظر إلى معنى : « اللغو » نجده الشيء الذي يجري على اللسان بدون قصد قلبي ؛ مثل قول الإنسان في اللغة العامية : لا والله أو والله أن تأتي لتتغدى معنا ، هذا هو اللغو . أي هو الكلام من غير أن يكون للقلب فيه تصميم . وسبحانه وتعالى قد خلقنا وهو الأعلم بنا علم - سبحانه - أن هناك كلمات تجري على ألسنتنا لا نعنيها ودليل ذلك أن الأم التي تحب وحيدها قد تدعو عليه ، لكن ذلك بلسانها ، أما قلبها فيرفض ذلك ولهذا يقول المثل الشعبي أدعي على ابني وأكره من يقول آمين

إذن الحق سبحانه وتعالى علم بشريتنا ، وعلم أن اللسان قد يأتي بألفاظ لم تمر على قلبه فيقول سبحانه : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » واتبع الحق ذلك : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » وساعة نرى كلمة . « ولكن » نعرف أن هناك استدراكاً ، والاستدراك هو إثبات ما يتوهم نفيه أو نفي ما يتوهم ثبوته وساعة نرى كلمة « عقّدتم » فهي دليل على أنها عملية جزم قلبية ، وأن الإنسان قبل أن ينطق بالقسم قد أدار المسألة في ذهنه وخواطره وانتهى إلى هذا الرأي .

إذن فاللغو هو مرور كلمة على اللسان دون أن تمر على القلب ، وضربنا مثلاً على ذلك وهو دعاء الأم على وحيدها . ونحن نرى أن هناك ألفاظاً كثيرة تمر على ألسنة قد تؤدى إلى الكفر ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله يضع لنا صدق النية فيقول (أخطأ من شدة الفرح) قالها رسول الله تعليقاً على رجل قال : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك »[1] .

هذا هو اللغو ومن رحمة الله بنا أنه يغفر بمسيق وواسع رحمته فيقول لنا : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وكلمة «عقدتم» دليل على أن اللسان لم يعقد شيئاً فحسب ولكن عقده بإحكام قوى . فساعة يبالغ فى الحدث فأنت تأتى له باللفظ الذى يدل على المعنى تماماً بتمكين وتثبيت وعلى ذلك فكلمة «عقّد» غير «عَقَدَ» إذن فكلمة «عقّد» أى أن الإنسان قد صنع عقدة محكمة . ومثال على التأكيد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [من الآية ٢٣ سورة يوسف]

قد يقول قائل . ألم يكن يكفى أن يقول الحق سبحانه . «وغلقت الأبواب»؟ ونقول : لا إن الحق قد أتى بالفعل الذى يؤكد إحكام الإغلاق فإغلاق الأبواب يختلف من درجة إلى أخرى ، فهناك غلق للباب بلسان «طبلة» الباب ، وهناك غلق بالمزلاج ، وقوله الحق « وغلّقت الأبواب » أى أن امرأة العزيز بالغت فى غلق الأبواب . وكذلك قول الحق : « عقّدتم الأيمان » أى جالت فى قلوبكم جولة تُثَبِّت صدق نيتكم فى الحلف . وهناك صورة أدائية أخرى تلتقى مع هذه الصورة فى المعنى ، حين قال الحق سبحانه .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ [سورة البقرة]

ونلحظ هنا أن القلوب قد كسبت ، فما الذى تكسبه القلوب فى مثل هذه الحالة؟ نعرف أن الكسب هو وجود حصيلة فوق رأس المال . والكسب الزائد فى القسم ،

(١) من حديث رواه الإمام مسلم .

هو أن يؤكد الإنسان بقلبه هذا القسم ؛ أى أن القسم انعقد باللسان والقلب معاً وسبب نزول آية سورة المائدة (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) أن الصحابة الذين حرموا على أنفسهم طيبات المطاعم والملابس والمناكح وحلفوا على ذلك فلما نزل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

قالوا : كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزلت هذه الآية أى أن تحريم الحلال لغو لا كفارة فيه ، ونعلم أن الإنسان لا يصح له أن يحلف على شيء ليس له دخل فيه ، كقول إنسان ما : والله لن أصلى . إن مثل هذه اليمين لا تنعقد ، ولذلك لا كفارة لها لكن إن قال : والله لأشربن الخمر . هنا نقول له : امتثل إلى ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »[1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » إذن فهناك استدراك يتعلق باليمين المؤكدة وهى تستدعى المؤاخذة . فكيف تكون المؤاخذة وهى عقوبة ، على الرغم من أنه لا عقوبة إلا بنص ؟ إن الحق سبحانه وتعالى ستر العقوبة وسماها بالكفارة : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » والكفارة هى ستر للعقوبة فهل معنى ذلك أن الإنسان تلزمه الكفارة مادام قد عقد الأيمان ؟ لا ، تكون الكفارة فقط حين تحنث فى القسم ولم تبر فيه . فتكون الكفارة فى هذا المجال كالآتى . إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة

والمناسب في الكفارة يختلف في مفهوم المفتين باختلاف الحانث ، ومثال ذلك أن خليفة في الأندلس حلف يميناً وأراد أن يؤدي عن اليمين كفارة ، فجاء إلى القاضي منذر بن سعيد وسأله عن كفارة هذه اليمين ، فقال : لا بد أن تصوم ثلاثة أيام وكان يجلس شخص آخر فأشار للقاضي إشارة فلم يعبأ القاضي منذر بن سعيد بتلك الإشارة . وخرج القاضي ومعه ذلك الشخص ، فسأل القاضي : يا أبا سعيد ، إن في نفسي شيئاً من فتواك ؛ لماذا لم تقل للخليفة إن كفارة اليمين عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟ فقال القاضي منذر بن سعيد . أمثل أمير المؤمنين يزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وهذا يدلنا على أن القاضي منذر بن سعيد قد أجهد نفسه ليختار الكفارة التي تزجر . وهذا يعلمنا أن الكفارة في جانب منها زجر للنفس وفي جانب آخر جبر للذنب . وقد رجح القاضي منذر بن سعيد جانب الزجر على جانب جبر الذنب ؛ لأن الخليفة لن يرهقه إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق أكثر من رقبة[1] .

وفي الإطعام لعشرة مساكين من أوسط ما نطعم به الأهل ، قد يقول قائل . هل الأوسطية هنا للكمية أو الكيفية ؟ ونقول : يراعى فيها الكمية والكيفية . فإن كانت وجبة الإنسان مكونة من رغيف واحد فليعرف أن بين أهله من يأكل في الوجبة الواحدة ثلاثة أرغفة فيكون الأوسط في مثل هذه الحالة رغيفين مع ما يكون من أدم كلحم ودسم . وكذلك الكسوة ، أن يكسو الإنسان الذي يكفر عن يمين عشرة مساكين بما يستر العورة وتصح به الصلاة ؛ كإزار ورداء أو قميص وعمامة ، أو أي ملابس تسترهم وهانحن أولاء نجد أن كفارة تحرير رقبة تأتي في المرتبة قبل الأخيرة ويأتي بعدها قول الحق : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » إذن فالحق لم يرتب الكفارة وإنما علينا أن نختار منها الكفارة الملائمة .

ويأتي الحق من بعد ذلك بالقول : « واحفظوا أيمانكم » والحفظ هو عدم التضييع . أي كيف نحفظ أيماننا ؟ فنقول : إن على الإنسان ألا يجري اليمين على لسانه ، هذه واحدة . والثانية : أن يحاول الإنسان ألا يحنث في اليمين . وهذا

---

(١) الجمهور على أنه لا يكفر بالصيام إلا إذا عدم هذه الثلاثة الأشياء وهي الإطعام والكسوة ، وعتق الرقبة .

يقتضي ألا يحلف الإنسان على شيء يقوله بلسانه ويخضعه لقلبه إلا إذا كان على ثقة من أنه سيجند كل جوارحه للقيام بهذا العمل الذي أقسم أن يقوم به ، وهذا هو معنى قوله الحق : « واحفظوا أيمانكم » .

ويذيل الحق الآية الكريمة : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . والشكر هو الثناء من المُنْعَم عليه على المُنْعِم بالنعمة ، فكأن هذه التشريعات تستحق منا الشكر ؛ لأنها جعلت اللغو غير مؤاخذ عليه ، ولأنها جعلت اليمين الذي عقدته له كفارة ، وفي كل من الأمرين تيسير يستحق الشكر لله .

ويتابع الحق القول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ساعة تسمع كلمة : « إنما » فاعلم أنهم يسمونها في اللغة « أداة قصر » كقولنا : إنما زيد مجتهد ، وهذا يعني أننا قَصَرْنا زيداً على الاجتهاد . لكن إن قلنا : إنما المجتهد زيد ، فنحن في هذه الحالة قَصَرْنا الاجتهاد على زيد وساعة تقصر إنساناً على وصف فذلك يسمونه : « قصر موصوف على صفة » ، وعندما نقول : إنما زيد شاعر . فهذا يعني أن زيداً شاعر فقط وهو ليس بكاتب أو خطيب . أما إن قلت : إنما الشاعر زيد ، فهذا يعني أنه لا يوجد شاعر إلا زيد ؛ فكأنك نفيت عن الآخرين أنهم شعراء ، وأن زيداً فقط هو الشاعر ويحتمل أن يكون كاتباً وخطيباً وعالماً مع كونه شاعراً . إذن فساعة ترى « إنما » فاعرف أنها أداة من أدوات القصر .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ ﴾

(سورة المائدة)

أي إن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها رجس من عمل الشيطان . والرجس هو الشيء الرديء الخبيث القذر . والقذارة والخبث هما من الأمور التي قد تكون حسية مثل الخمر ، وقد تكون معنوية كالأنصاب والأزلام ، وجمع الحق سبحانه في هذه الآية الأمرين معاً . ولم يقل إن الخمر هي عصير العنب أو عصير التفاح ، إنما جاء بالخمر التي تشمل كل ما يخامر العقل ويستره . وتعجب بعض العلماء من أن هذه الآية نزلت في البلاد التي ليس فيها شيء من عصير العنب ، ذلك أنهم ظنوا أن عصير العنب فقط هو الذي يستر العقل ، لكن الحق جاء بالتحريم الشامل لكل ما يستر العقل . لماذا إذن تكون الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً من عمل الشيطان ؟

إنّ الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض وسخر له كل شيء في الوجود وطلب منه أن يعبده وحده وأن يعمر هذه الأرض . وأراد الحق أن يضمن للإنسان سلامة أشياء متعددة ، سلامة نفسه فلا يُعتدى عليها بالقتل أو غير ذلك ، وسلامة عقله فلا يُجنى عليه بما يستر آلة الاختيار بين البدائل ، وسلامة عرضه فلا يَلغ فيه أحد وحتى تأتي الأنسال التي تعمر الكون وهي أنسال طاهرة ، وسلامة ماله حتى يحفظ على الإنسان أثر حركته في الحياة وحتى لا يأخذ غيره أثر حركته ، وذلك حتى لا يزهد العامل في العمل ولا يعود الطاقات أن تأخذ من غير عملها لتكسل وتتواكل ، فالإنسان إذا ما اعتاد أن يأخذ من غير عمل صار العمل صعباً عليه ، وهكذا كانت صيانة المال لا تبدد طاقة ولا تهدر حقا ، ولا تعطي غير ذي حق حقا لغيره ، وهكذا حتى لا يشيع العجز الاصطناعي في الكون . ولذلك قال الحق وهو مانح كل مال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

أى أنه ـ وهو المانع سبحانه وتعالى ـ قد احترم حركة الإنسان فلا يستمرىء أحد البطالة . وعندما تنتشر البطالة فإن الإسلام يعالج الأمر بحكمة بالغة ؛ فهو يطلب من الوالى أن يسبب لهم الأسباب ليعملوا وذلك حتى لا يتعودوا على الأخذ بغير عمل لئلا تكون مصيبة على المجتمع . وأراد سبحانه بالشريعة السمحاء أن يحمى الإنسان من كل ما يبدده ، فحينما حرم الخمر ، أى منع عن الإنسان ستر العقل ، ذلك أن ميزة الإنسان على الحيوان هى العقل

إن الإنسان يختلف عن الحيوان بأنه يحفظ حياته بالعقل ، أما الحيوان فيحفظ حياته بالغريزة . ولذلك فالحيوان لا يملك إلا رداً واحداً إذا ما تم الاعتداء عليه ؛ الكلب يعض المعتدى والقطة تخمش المعتدى . أما الإنسان فعندما يعتدى عليه أحد فهو يختار بين بدائل للرد على العدوان ، إما أن يضرب وإما أن يقتل وإما أن يسامح .

ومثال لذلك نراه فى الريف ، عندما يحاول راكب الحمار أن يجبر الحمار على القفز على قناة صغيرة فيها مياه يرفض الحمار ذلك تماماً ومهما ضربه راكبه فهو يرفض القفز ؛ لأن غريزته تمنعه من ذلك أما الإنسان فقد ينتابه الغرور ويظن أنه قادر على القفز فوق القناة فيقفز لكنه قد يقع فى المياه . وتوجد المجازفة عند الإنسان ، لكنها لا توجد عند الحيوان بمقتضى الغريزة .

ومثال آخر من عالم الحيوان نجد ذكر الجاموس يقترب من الأنثى ليشمها فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، هكذا الحيوان أما الإنسان فلا . والحمار يتناول طعامه من البرسيم مثلا ما يشبعه ولا يزيد أبداً فى الطعام مهما ضربه صاحبه ؛ لأنه محكوم بالغريزة ، أما الإنسان فقد يأكل فوق طاقته .

وهكذا نجد الغريزة هى التى تعصم الحيوان ، والعقل هو الذى يعصم الإنسان . ولذلك لا يملك الحيوان القدرة على الاختيار ، ولكن ميزان غرائزه لا يختل أبداً أما ميزان الغرائز عند الإنسان فقد يختل

لقد ميز الله الإنسان عن الحيوان بالاختيار بين البدائل بالعقل ، ولذلك لا يصح ولا يستقيم من الإنسان أن يطمس هذه القدرة بالخمر . فإن طمس قدرة الاختيار، فإن غرائزه فى هذه الحالة لا تنفعه لأنها غير مؤهلة لحمايته، ولذلك نجد الذى يطمس عقله يصبح نفسه فى مرتبة أقل من الحيوان ؛ لأن الحيوان تحميه الغريزة ، والإنسان يحفظه عقله ، وهو فى هذه الحالة قد طمسه وغطاه ، وقد حرم الله الخمر لأنها تستر العقل . وكل ما يستر العقل خمر حتى ولو كان أصله حلالاً ، وذلك لأن العقل هو مناط التكليف . وكذلك حرم الله الميسر.

ولنر دقة الاسم الذى اختاره الله للقمار ، إنه « الميْسر » ولم يسمه « المعسر» ذلك أن أحداً لا يقبل على الميسر وهو يظن أنه سوف يخسر ، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الكسب ؛ لذلك جاء بالاسم الذى يعبر عن حالة اللاعب للقمار إنه يلعب على وهم الكسب ، وإن كسب فالمكسب يُغْريه بالمزيد من اللعب .

والخسران يغرى باللعب أكثر لعل كسباً يعوض الخسارة التى منى بها . وقد يبيع اللاعب للميسر كل ما يملك كى يعوض خسارته ومع ذلك فالكسب من الميسر هين على النفس تبدده وتنفقه فيما لا ينفع بل قد تنفقه فيما يضر ، فالمكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه . والذين يلعبون الميسر مع بعضهم لا تربطهم صداقة أو محبة . فكل منهم حريص على أن يأخذ ما فى جيب الآخر . وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال ؛ لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة فى الكون . والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهد فى العمل . والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهما سعى فى الأرض فقد لا يستطيع أن يسدد ديونه.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس ألا ينتفع أحد بشىء إلا نتيجة كده وعمله . والحق يريد أن يكون جسد كل إنسان من ناتج عرقه فى عمل مشروع وكذلك أجساد من يعول . وأبلغنا أيضاً أن الأنصاب رجس من عمل الشيطان . والأنصاب ثلاثة قداح كانت توجد عند الكاهن ؛ قدْح مكتوب عليه أمرنى ربى ، والقدح الثانى مكتوب عليه نهانى ربى ، والقدح الثالث غُفْل من الكتابة أى خالٍ منها فلا علامة فيه . فإن كان فى نية إنسان السفر أو الزواج أو التجارة فهو يذهب إلى الكاهن ليضرب له هذه القداح . فإن خرج القدح المكتوب عليه أمرنى ربى فعل

وإن خرج «نهانى ربى» لم يفعل . أما إن خرج القدح المغفل فهو يعيد ضرب القداح حتى يخرج أحد القدحين : إما الذى يحمل الأمر ، وإما الذى يحمل النهى . ولم يتساءل أحد لماذا عندما يخرج القدح المغفل لا يعتبر أن هذا أمر خارج عن نطاق التحريم ، ويؤخذ على أنه إباحة واختيار يفعل أو لا يفعل . لقد انساهم الحق ذلك حتى يدلنا على أن ذلك أمر كاذب جاء به الكهنة من عندهم . وإن سألهم سائل : من الإله الذى أمر ونهى ؟ هنا يقول القائل منهم : الله هو الذى أمر وهو الذى نهى . ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حين ينهانا عن تلك الأمور فهو يريد للإنسان أن ينمى ملكة الاختيار بين البدائل . وعلى الإنسان أن يستنبط وأن يحلل وأن يعرف المقدمات فيدرسها ويحلل الخطوات ليصل إلى النتائج ، لا أن يعطل القوة المدركة التى تختار بين البديلات ؛ فالخمر تستر العقل ، وكذلك الميسر يضع الإنسان بين مكر الوهم ، وكذلك الأنصاب تعطل القدرة على السعى والرضوخ للكهنة . وعندما تسأل شارب الخمر : لماذا تشربها ؟ يجيب : إنى أريد أن أستر همومى . وستر الهموم لا يعنى إنهاءها ، ولكن مواجهة الهموم هى التى تنهى الهموم بالأسباب المتاحة للإنسان . فإن لم تقو أسبابك فالجأ إلى المسبب فى إطار قول الحق :

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وعندما تستنفد أسبابك وتلجأ إلى الله فهو يعينك على الأمر الشاق المسبب للهموم . ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة ؛ فقد كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى « حزبه » أى خرج عن نطاق أسبابه . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى رب الأسباب . وقد نجد من يقول : إنى أدعو الله كثيراً ولكنه لا يستجيب لى .

ونقول له : إما لأنك قد دعوت فى غير اضطرار ، وإما لأنك لم تلتفت إلى الأسباب ، وأنت حين تتجنب الأسباب فأنت ترفض يد الله الممدودة لك بالأسباب . وأنا أتحدى أن يوجد مضطر أنهى الأسباب ، ولا يأتى له الفرج . وأنت حين تدعو بحاجة وتتأخر عليك ، نقول لك : إنك دعوت بغير اضطرار .

وكثيراً ما أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى المنزه دائماً - وأقول: هب أن تاجراً من تجار الجملة الكبار يجلس أمام المخازن التي يملكها وجاءت السيارات الشاحنة بصناديق بضائعه . والعمال يحملون البضائع ليضعوها في المخازن . وفجأة رأى عاملاً من عماله يكاد يقع بالصندوق الذي يحمله ، هنا نجد التاجر يهب بلا شعور لنجدة العامل فما بالنا بالحق الذي خلق لنا الأسباب ؟ إنك إن استنفدت الأسباب فإن الله يجيبك مصداقاً لقوله :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

إذن فالخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . والأزلام هي نوع من الميسر ، فقد كانوا يحضرون الناقة أو الجزور ويذبحونها ويقسمونها إلى ثمانية وعشرين قسماً ويخصصون لإنسان نصيباً وللثاني نصيبين وللثالث ثلاثة أنصبة ، وللرابع أربعة أنصبة وللخامس خمسة أنصبة ، وللسادس ستة أنصبة ، والسابع له سبعة أنصبة . وكانوا يأتون بالقداح السبعة . قدح اسمه « الفذ » ويأخذ الفائز به نصيباً ، والقدح الثاني : « التوأم » ويأخذ نصيبين ، والقدح الثالث اسمه « الرقيب » يأخذ ثلاثة . والقدح الرابع اسمه « الحِلْس » يأخذ أربعة . والخامس هو « النافر » ويأخذ خمسة . والسادس اسمه « المُسْبِل » ويأخذ ستة . والسابع اسمه « المُعَلّى » ويأخذ سبعة أنصبة . وهناك ثلاثة قداح هي المنيح والسفيح والوغد ، وهؤلاء الثلاثة لا يأخذون شيئاً بل يدفعون ثمن الذبيحة . وذلك رجس من عمل الشيطان

إن النفس العاقلة لا تقبل على مثل هذه الأعمال ، بل لا بد أن يحرك أحد تلك الأطماع ، ذلك أن المخالفات إنما تنشأ من أمرين : إما أن تكون من النفس ، وإما أن تكون من الشيطان . والمخالفة التي تكون من النفس هي التي تحقق شهوة من نوع خاص بحيث إذا زحزحت النفس عنها ميهي تريدها . والمخالفة التي من نزغ الشيطان تختلف ، فقد يوعز الشيطان لإنسان بالسرقة ، فيرفض ، فيعرف الشيطان أن لهذا الإنسان مناعة ضد هذه المعصية ، فيوعز بمعصية أخرى ، فإذا وجد مناعة انتقل إلى معصية ثالثة ؛ لأن وسوسة الشيطان تطلب الإنسان عاصياً على أي لون من الألوان .

فإذا وقعت عند معصية بذاتها فاعلم أن ذلك من عمل نفسك ، وإن انتقلت بالوسوسة من معصية عزت على الشيطان إلى معصية أخرى فاعلم أنها من عمل الشيطان ولا دخل للنفس بها . والعاقل الذى يتمعن فى كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هى أمور لا تستطيبها النفس غير المنزوعة من الشيطان ، فكان قول الحق : « رجس من عمل الشيطان » يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء .

ويذيل الحق الآية . « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ويأمرنا سبحانه باجتناب الرجس الذى جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والاجتناب هو أن يعطى الإنسان الشىء المجتنب جانبه ، أى المنع للذرائع والأسباب والسد لها ؛ لأنك إن لم تجتنبها فمن الجائز أن تريك منها يغريك بارتكابها . وبعض الناس يظنون أن الخمر لم يأت لها تحريم وإنما جاء الأمر فيها بالاجتناب .

ونقول لهم : إن التحريم هو النص بعدم احتسائها ، وأما الاجتناب فهو أقوى من التحريم لأنه أمر بعدم الوجود فى مكانها . فإذا كان الحق قد قال فى قمة العقائد

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾

[من الآية ٣٠ سورة الحج]

فقد قال هنا اجتنبوا الرجس الذى يجمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. والحق سبحانه وتعالى واجه العادات التى شاعت قبل الإسلام ليخلع الفاسد منها ولم يحاربها دفعة واحدة وذلك لتمكين النفس منها والإلف لها . وإنما كان التحريم لها بالتدريج لقد حزم الإسلام الأمر أولاً فى مسائل العقائد ، أما الأمور التى تترتب على إلف العادة فكان تحريمها على مراحل

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى عن شىء إنه : «رجس» ، فذلك حكم الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونحن نقبل هذا الحكم حتى ولو لم نفهم نحن معنى الرجس، أو لم نتأكد مادياً من أن الشىء المحرم هو من الرجس، ذلك أنه يكفى فى ذلك حكم الله الذى يرضخ له العبد المؤمن الذى قبل التكليف من

ربه ، لأن ربه مؤتمن على كل مصالحه . ومادام الحق قد قال عن شيء إنه رجس ، فهو رجس ولا جدال في ذلك

أقول ذلك لأن بعضًا يظل متصيداً لأي ثغرة مفتعلة متسائلا . كيف يكون ذلك العمل أو ذلك الشيء من الرجس ؟ ونقول : إننا نرضخ لحكم الله تعالى وننفذ ما أمر به ، فهو إله مأمون على كل الخلق ، وتثبت لنا الأيام دائماً صدق قول الحق في أن الأشياء التي قال عنها سبحانه إنها رجس ، هي من الرجس فعلا ، فحين يقول سبحانه لخلقه : افعلوا كذا ، لا نسأله : وما علة ذلك التكليف ، ولكننا ننفذ أمر الحق ، ونكتشف في أعماقنا فائدة ذلك التكليف .

أما عندما يكلفنا عبد مساوٍ لنا بشيء فلا بد أن نسأل : لماذا ؟ والعبد المساوي لنا عليه أن يقدم لنا العلة لأي فعل يطلب منا القيام به ، ولكننا لا نسأل الله عن علة التكليف لنا ، لأننا نؤمن بأنه إله حكيم ، والأيام تثبت لنا أن قول الله حق . ومثال على ذلك نجد أن الذي لا يشرب الخمر امتثالاً لنهي الله عن ذلك الفعل ، هو إنسان مستقيم السلوك ، طاهر القصد ، ولا يأتي منه شرار في الكون . أما الذي يشرب الخمر فهو معوج السلوك ، غير طاهر القصد ، ويأتي منه شرار في الكون . وقد أثبتت التجربة أن شارب الخمر إنما يصاب بأمراض في الكبد ويعاني من ارتباك في إدارة حياته وكيانه . نحن نقرأ قول الله سبحانه

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والتقوى ـ كما علمنا ـ أن نجعل بيننا وبين غضب الله وقاية ، ولذلك نفعل ما أمرنا به . وحين نفعل أوامر الإله الحق عاما نتعلم حكم الله في الفعل . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنكبوت)

ونحن نعرف كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، لأننا نسلم وجوهنا وقلوبنا لله فننفذ ما أمر به . وكذلك نجد في الزكاة نماء . ونجد الحج يصفي النفس من أي

كبر ويغسل الذنوب . وكل فعل أمر به الحق نجد له الأثر فى نفوسنا بعد أن نقوم به .
أما إن فعلت الحكم للعلة فذلك يبعد بك عن مرتبة الإيمان .

ونجد أن الطبيب يأتى لشارب الخمر بصورة ملتقطة للكبد بواسطة الموجات الصوتية أو الأشعة فيجد شارب الخمر صورة كبده وقد امتلأت بالتهرؤ وصارت عرضة لأمراض كثيرة ثقيلة وربما تعطلت وظائف الكبد فى بعض الأحيان ، وهنا يأمر الطبيب شارب الخمر أن يمتنع عن شرب الخمر . فهل امتناع شارب الخمر فى مثل هذه الحالة هو امتناع بسبب الإيمان أو بسبب الأمر الطبى ؟ إنه امتناع بسبب الأمر الطبى ، ويستوى فى ذلك المسلم العاصى والكافر . ولكن المؤمن الذى يمتنع عن شرب الخمر ابتداءً ، فهو قد امتنع لا لعلة الأمر ولكن لأن الأمر من الله، وهو يسمع أوامر الحق دون سؤال عن العلة . والمؤمن يأخذ الحكم من الله دون طلب تعليل منه ليشرح به أسباب المنع فى سلوكه .

والحق سبحانه قال : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ والعداوة المسبقة بين الشيطان وأبينا آدم عليه السلام بينها - سبحانه - بقوله للملائكة

﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ [من الآية ٣٤ سورة البقرة]

وكان الشيطان موجوداً مع الملائكة، وكان الأولى أن يسجد هو ؛ لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة، فيجب أن ينسحب على الأدنى. لكنه عصى وقال

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [من الآية ٦١ سورة الإسراء]

إذن فالعداوة مسبقة بين آدم والشيطان، فكيف إذن نقبل نحن أبناء آدم وسوسته ؟ وكيف نقبل نزغه ؟ وكيف نقبل إغراءه ؟ لا بد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس ومن عمل الشيطان ، حتى ننجو من كل سوء ، ويأتى لنا كل فلاح

ويقول الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

لم يأت الحق هنا بالأنصاب أو الأزلام ؛ لأن المؤمنين لا يعتقدون فيها وانتهوا منها ، والخطاب هنا موجه للمؤمنين .

إذن لماذا قرن الحق التكليف بالنهي عن الخمر والميسر - من قبل - بالأنصاب والأزلام ؟ قال سبحانه ذلك ليبشع لنا الأمر ، فوضع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام ، ولنفهم أن الحكم بالنهي عن الخمر والميسر جاء ليقرنهما بالأنصاب والأزلام ، وماداموا مؤمنين فلا بد أنهم قد انتهوا عن الأنصاب والأزلام .

ويقول سبحانه : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » . والإرادة هي تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وتتعلق الإرادة بمريد ، فهل يقدر على إنفاذ ما يريد أم لا يقدر ؟ إن كان يقدر على إنفاذ ما يريد ، فالقدرة تكون من بعد الإرادة .

وحينما يريد سبحانه وتعالى ، فالقدرة تبرز المراد ، فقدرته لا تتخلف ولا مراده يتخلف ؛ لأن كل شيء منفعل له سبحانه وتعالى ، وتختلف المسألة عند الإنسان والشيطان . فالإنسان يريد ، ولكن أله القدرة على إنفاذ ذلك ؟ أحيانا تكون له بعض من القدرة على إنفاذ ما يريد ، وأحياناً لا .

والشيطان يريد ، لكن أيقدر على إنفاذ ما يريد ؟ إنه يقدر في حالة إطاعة الإنسان له . وهكذا تكون إرادة الشيطان ، وهو يحب أن تحدث المعصية من الإنسان ،

ويتمنى الشيطان ذلك ، ويخطط لذلك . لكن الفعل لا يأتي إلى الوجود إلا إذا وافق الإنسان على طاعة الشيطان .

إذن فالإرادة إن كانت ممن يقدر على الإرغام والإبرار فهي تظهر العمل فوراً ، والقادر المطلق هو الله ، وهو يحكم ما يريد ، ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

لكن خلقه حين يريدون فالأشياء لا تنفعل لهم انفعالها لخالقها ؛ لأن إرادة المخلوقات تقتضي أن ينفذ الإنسان على قدر طاقته ، وهي مهما زادت محدودة . وإرادة الشيطان تحتال على الإنسان حتى يفعل ما يتمناه ، ولا يستطيع الشيطان أن يكره الإنسان قهراً على فعل ما ، ولكنه يزين له الفعل . فليس للشيطان سلطة الإكراه ليقهر الإنسان على فعل ، وليس للشيطان قدرة على الإقناع أو الإتيان بأدلة تجعل الإنسان يفعل مراد الشيطان وهو راضٍ عن عمله . ولذلك يقول الشيطان في الآخرة للمذنبين : إن الذنب ذنبهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

هكذا يعلن الشيطان أنه غير قادر على الشر ، لا بالقهر ولا بالحجة ، إنه فقط زين لهم الأمر ، فمن كانت له شهوة فالشيطان يزينها له فيرتكب الذنب . ويعلن الشيطان :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ويعترف الشيطان أنه مهما صرخ مستغيثاً - يوم القيامة - فلن يجد من يغيثه ، وكذلك أصحاب الذنوب الذين اتبعوه سيصرخون ولن يجدوا من الشيطان عوناً يجيبهم من العذاب . و « أصرخ فلان فلاناً » أي ذهب ليزيل صراخه ويجده .

إذن فقول الحق : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » يشرح لنا أن إرادة الشيطان هي إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع . وإذا

سمعت كلمة « يوقع » ، فافهم أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك من يريد أن يجعل بينهما شيئاً يفصل هذا الالتحام . ولذلك يقال : « فلان مشى بالوقيعة » أي أنه أراد أن يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام .

وكلمة « بينكم » تفيد الانفصال . وهذا الانفصال هو الذي توضع فيه الوقيعة . لماذا ؟ لأن المؤمنين إخوة ، ولأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والشيطان يسعى بالخمر والميسر بأن يمشي بالوقيعة بين المؤمنين . ونجد مجالس الخمر فيها هذا ؛ فالشاربون معاً كثيراً ما تقوم بينهم المعارك ويدور بينهم السباب . ولاعبو الميسر يأخذ بعضهم مال بعض ، وهكذا يتحولون من وحدة كالبنيان إلى فرقة وتحدث بينهما العداوة والبغضاء .

وما الفرق بين العداوة والبغضاء ؟ العداوة هي انفصال متلاحمين حدثت بينهما عداوة وبغضاء . والبغضاء هي انفعال القلب بشيء مكروه .

كأن البغضاء توجد في الصدور بعد حصول العدوان ، فكأن العداوة تكون هي المنطقة الوسط التي باعدت بين هذين الشخصين بعد أن استغلها نزغ الشيطان . وهذان الاثنان كان يجمعهما من قبل الصفاء والمودة والحب والأخوة الإيمانية .

والعداوة في هذه الحالة تأخذ من مشاعر كل طرف ؛ لأن العداوة إن كانت من طرف واحد فعمرها قصير ، ولكنها تطول إن كانت بين طرفين . ولذلك تكون المعركة حامية بين عدوين يستشعر كل منهما العداوة للآخر . وهي تكون عداوة مؤججة وملتهبة إن لم يتدخل طرف ثالث ليحسم بالحق بين الاثنين ، فيخزي الذي على الباطل ويأخذ الحق منه ويعطيه لصاحبه ، وهنا يحس صاحب الحق أن هناك من ينصره . وبهذا تحسم العداوة وتنقضي . لكن إن لم يجد الطرفان رادًّا ولا رادعاً ، تظل العداوة متوهجة . ولذلك حينما عرض الحق أمر موسى عليه السلام وأمر فرعون ، قال عن موسى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

والتقطوا موسى لماذا ؟

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

فهل عرفوا هم من البداية أنه عدو؟ لا ، لقد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الله أفسد مرادهم . فاللام في قوله : « ليكون » هي لام العاقبة والعاقبة وليست لام العلة الفاعلة ، وقد أثبت سبحانه بذلك أن فرعون ليس إلهاً ، وأن أتباعه كانوا قوماً مغفلين لا عقلية لهم . فلو كان فرعون إلهاً لعرف أن هذا الوليد الذى سيربيه سيكون عدواً له .

والعداوة هنا هل هي من ناحية موسى فقط تجاه فرعون ؟ لا ، إنها عداوة بين الله وموسى كطرف ، وفرعون كطرف . لذلك قال :

﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

ولم تنته هذه العداوة إلا بغرق فرعون . والحق يبهتا : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ﴾ و« في » هنا هي للسببية كقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت »[1] .

ونقول في حياتنا اليومية : أخذ فلان إلى الحبس لمدة أعوام في قطعة عشرات . أى أنه أوقع نفسه في المكروه بسبب شيء ما . وقوله الحق : « في الخمر والميسر » دلت على أن العداوة والبغضاء مظروفة في الخمر والميسر . ويقول بعد ذلك : « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

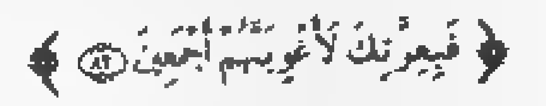
إن ذكر أى أمر يعني أن يكون هذا الأمر في بؤرة الشعور دائماً ، فكل معلومة يذكرها الإنسان تكون في بؤرة شعوره ، ومن بعد ذلك تتحرك لتحل محلها معلومة أخرى . وعندما يكون بال الإنسان مشغولا بشيء فهذا الشيء لا يتزحزح من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلا بعد أن يأتي أمر آخر يشغل البال .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة

ولذلك نقول . إياكم أن تعتقدوا أن الذهن يفهم أى أمر من مرة واحدة أو من مرتين أو من ثلاث مرات . لا ، بل يفهم الذهن من مرة واحدة كآلة التصوير ، والمهم أن يكون ساعة التقاط المعلومة خالياً من غيرها ؛ ولذلك كنا نعرف أن إخواننا المكفوفين الدارسين معنا أقدر على الاستيعاب الحفظى منا نحن المبصرين ؛ لأن المبصر عندما يكون بصدد مسألة قد تنشغل عيناه بشيء ، فتكون بؤرة شعوره مشتتة . أما الأعمى فبؤرة شعوره تذكر فقط ما يسمعه .

وهكذا نعرف ما هو « الذكر » . والخمر تطمس العقل وتستره فكيف يذكر الله إذن ؟ وكذلك الصلاة ، وهى خير الذكر ، تسترها الخمر عنا . وكذلك الميسر الذى يلوح فيه الوهم بالكسب كالسراب ، فيلهث اللاعب خلف اللعب لعله يكسب ، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة

ولأن العداوة سبقة بين الإنسان والشيطان ، نجد الشيطان قد قال فى يحكيه الحق عنه :



(من الآية ٨٢ سورة ص)

قد عرف الشيطان كيف يقسم ؟ أقسم بعزة الله أن يغوى خلقه ، فلو أن الله أراد عباده لما أخذهم الشيطان . ويذيل الحق أمر الخمر والميسر بقوله : « فهل أنتم منتهون » . هذا استفهام ، وهو طلب فهم الشيء ، هذا ما نعرفه عندما يكون الاستفهام من البشر ، ولكن عندما يصدر هذا الاستفهام من الله لنا ، فهذا أمر الآمر سبحانه وتعالى . كيف ؟ إن هناك أمراً من الآمر هو حكم لازم . وهناك أمر يريده الله من المأمور ليأمر به نفسه .

وهى ثقة من الآمر الأعلى فى الإنسان المؤمن الذى يتلقى مثل هذا الأمر . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لأحد أبنائه : إن إهمالك لدروسك سيجعلك تنال غضبى واحتقار زملائك لك وتتأخر عن غيرك ، فهل ستنتهى من اللعب واللهو أو لا ؟ ولم يقل : انته عن اللعب ، لأن الأب أراد أن يأتى بالحيثيات حتى يحكم الابن بنفسه ، وحتى يدير المسألة بمقابلها ، ولا يجد إلا أن يقول : لقد انتهيت عن اللعب .

وهنا جاءت المسألة أيضا على هذا الشكل ، فبدلاً من أن تكون حكماً من الله أصبحت حكماً من العبد المأمور . وهذا أبلغ أنواع الحكم ؛ لأن المتكلم يلقى بالأمر في صيغة سؤال ، ليدير المسئول كل جواب فلا يجد إلا الجواب الذي يريده السائل . ومثال ذلك عندما فتر الوحي عن حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقال أهل قريش : إن رب محمد قد قلاه وأبغضه وكرهه ، ثم نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

وتتابع الوحي .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

وعندما يستقرىء النبي صلى الله عليه هذه المسألة يجيب نعم يارب أنت وجدتني يتيماً فآويتني وهذا يسمونه مشاركة المأمور في علة الأمر وهذه أبلغ أنواع الأمر .

وعندما يقول الحق : « فهل أنتم منتهون » يعلم المخاطبون ماذا يريده الله ، فيقولون : نعم انتهينا يا ربنا وبالغوا كثيراً في هذا الانتهاء ، فالإمام علىّ - كرم الله وجهه - يقول : لو وقعت قطرة منها في بحر ثم جف البحر ، ونبت فيه الكلأ واندلع لسانى من الجوع ما قربته . ولم يكن هذا أمرا مفروضاً ، ولكنها المبالغة في الانتهاء على أقصى صورة .

وهاهو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : لو وقعت قطرة منها على يدى لحرمتها على نفسى . وهكذا كان رد فعل قول الحق : « فهل أنتم منتهون » وبذلك تم حسم مسألة الخمر ونعرف أن التكليف في تحريم الخمر جاء متدرجاً ، والتكاليف الإيمانية إنما تأتى على لسان رسول ، والرسول لا يأتى إلا إذا عم الفساد في المجتمع ، وفى ذوات البشر في آن واحد . فلا تجد من يلوم نفسه ، أو يتدخل ليرد آخر عن فساده ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول . ولا تصب السماء كل أحكامها في أول الأمر ، ولكنها تدعو من خلال الرسول بالإيمان بالله الواحد حتى

يتلقوا منه الحكم . فالإيمان بوحدانية الله هو قمة العقيدة التي لا هوادة فيها .

لكن في الأمور التي تتعلق بالأحكام ، فالأحكام تُغيّر لوضعاً عرفية وأوضاعاً اجتماعية متداولة بين الناس . فإذا أراد الله أن يغير عدة بحكم فهو يأتي بهذه المسألة تدريجا ؛ لأنه سبحانه وتعالى يتلطف مع خلقه برحمته .

ومثال ذلك . كان الرجل يملك المال فلا يعطى أباه ولا أمه ، إنما يعطى المال لأولاده ، لأنه يعرف أن والده مسنه وسيموت قريبا ، وأن الابن هو الذى يستقبل الحياة ، ولذلك فالابن يأخذ كُلَّ المال . هنا قال الحق . لا ، إنك أنت يا صاحب المال قد تموت قبل أبيك فاترك له شيئاً .

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة البقرة)

لقد أراد أن يخرجهم من عدم العطاء إلى الوصية التي تكون منهم . وبعد أن استقرت الأحكام ، قرر الحق للوالدين نصيباً من الميراث . إذن جاء الأمر أولاً بتلطف في الخروج عن حكم الإلف والعادة والعرف ، حتى لا يخرجهم إخراجاً قسرياً . والحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل المال دُولة بين الأغنياء فحسب أى يتداولونه دون غيرهم ، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس . لذلك جاء الميراث

إننا عندما نحسب ميراث ألف فدان مثلا نجده قد ذاب وتقلص وتناثر خلال ثلاثة أجيال إلى فدانين وخمسة أفدنة . وهذا تدرج أجيالى لا قسرى . حتى يرتب الإنسان حياته وحياة أبنائه ، فيترك المالك لأولاده ميراثاً وخيراً ليديروا العمل فيه . أما الذى لا يملك فهو يعطى لأبنائه حرفة أو صنعة . لذلك يذيب الدينُ المسألة المالية والعقارية أو الإقطاع كما يقولون ، لا بالقسر حتى لا تحدث للمجتمع هزة حقد أو هزة توتر ؛ لأن الذى جمع ماله من عرقه ومن اجتهاده ساعة يرى المال قد خرج منه إلى من لم يعرق ومن لم يجد ، فهو يحقد . والحق يقول :

﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ٣٦ والآية ٣٧ سورة محمد)

وساعة يحدث الصغر في المجتمع فإن كل استقرار ورد ينتهي . وهذا هو منتهى التلطف في رعاية العادات . وكانت الخمر ومجالسها عادة موجودة عند العرب ، وكان من الصعب أن يخرجهم منها مرة واحدة لذلك جاء تحريمها بتدرج وبتلطف والذكى والفطن عندما يسمع الآية التالية يعرف أن الله قد بيت للخمر تبييتاً محكماً للقضاء عليها وذلك بتحريمها ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فسبحانه يقول : « ورزقاً حسناً » ، ولم يصف السكر بأنه حسن . ومعنى هذا أن أخذ الرزق وتخميره واتخاذه سكراً هو إتلاف للحسن وجاء الحق بـ(السكر) أولاً ليخبرنا أنهم كانوا يأخذون من الرزق أولاً النصيب الذي يجعلونه خمراً . ومن بعد ذلك يطرح الحق الأمر كعظة من الواعظ للموعوظ ، والعظة ليست إلزاماً ، إنما هي إبداء رأى حكيم لغيره ، وهذا أول التبييت للدخول إلى تحريمها ، ثم يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وهكذا رجح الحق جانب الإثم على جانب المنفعة . ومن بعد ذلك يأتي للصلاة ، ولم يكن هناك حكم جازم بعدم شرب الخمر قبل الصلاة إلى أن قام واحد للصلاة وهو سكران ، ونعوذ بالله مما قال ، قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون . لقد اضطرته الخمر أن يخطىء في القمة العقدية ، لذلك جاء الأمر .

﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعدم أن المسلم يصلي خمسة فروض في اليوم ، وحتى لا يقرب الإنسان الصلاة وهو سكران فهذا يقتضي أن يمر النهار كله تقريبا دون خمر إلى ما بعد العشاء وبذلك أطال الحق المسافة الزمنية التي يمتنع فيها عن تعاطي الخمر وفي ذلك حبس للنفس عن المعتاد عليه حتى يألف الشخص المعتادُ تركَ ما اعتاده ومن بعد ذلك يطلبون

من الرسول رأياً شافياً فى الخمر فيأتى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾

(سورة المائدة)

لقد كان هذا هو التدرج الذى يخرجهم من الإلف والعادة فى أعمالهم ، فيأتى الأمر بالتحريم وكأنه صادر منهم . ويردف الحق سبحانه وتعالى ذلك الحكم الجزئى فى الخمر والميسر فكأنه يقول : مادامت المسألة كما علمتم مني بأن هذا رجس ومن عمل الشيطان فلا تعينوا الشيطان على نفوسكم وأخلصوا فى عبادة الحق وحده ، ويقول سبحانه - بعد ذلك

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) ﴾

لقد نقل الله الحكم بعدما انتهى من هذه الجزئية إلى حكم عام هو طاعة الله وطاعة الرسول . وأنت ساعة تستقرىء أمر الله بالطاعة فأنت تجدها فى صور متعددة . فمرة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله فى الحكم العام ، وإطاعة الرسول فى تفصيله ، ومرة يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع والمطيع ، هم المخاطبون ، فهو هنا يوحد أمر الطاعة ، والمطاع هنا هو الله ،

والرسول يأتي معطوفا على لفظة الجلالة .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

نحن إذن أمام حالات للطاعة : الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، والثانية : أطيعوا الله والرسول ، والثالثة : أطيعوا الرسول ، ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك « أولى الأمر » فيقول جل وعلا :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وحين قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فهو يكرر الأمر بالطاعة عند الله وعند الرسول ، لكن عند أولى الأمر لم يأت سبحانه بأمر : « أطيعوا » ؛ ذلك أن طاعة أولى الأمر تكون من باطن الطاعتين : طاعة الله ، وطاعة الرسول ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وإذا قال الحق : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » تكون طاعة الله في الحكم العام ، وطاعة الرسول في تفصيل الحكم . والمثال لقوله الحق :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

هنا نطيع الله في الحكم العام ، ونطيع الرسول في تفصيل الحج . لأن التفصيل لم يأت في القرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عني مناسككم » . وعندما يتوحد الأمران : « أطيعوا الله والرسول » فهذا يعني أن هناك أمراً واحداً قد صدر من الله ، وصدور وحصول الفعل من الرسول يكون للقدوة والأسوة وتوكيداً للحكم .

وإذا كان لله أمر بالإجمال وللرسول أمر بالتفصيل فسبحانه يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وإذا كان الأمر للرسول فقط ولم يرد فيه شيء من الله فهو أمر

صدر بتفويض من الله بناء على قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهكذا نجد أنه لا تلتبس طاعة بطاعة ولا تتناقض طاعة مع طاعة . والحق هنا يقول « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » . لماذا هذا التحذير ؟ يأتي هذا التحذير ليعلمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل في مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أن يُلَبِّس علينا الأمر . فعندما يعرف الشيطان ميلاً في نفس إنسان إلى لون من الشهوات ، يدخل إليه من باب المعاصي . وإن كان الإنسان قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلا إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر ، لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتي الشيطان إلى الإنسان لحظة الوضوء وينسيه هل غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟ أو يأتي الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فينسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة

ومعنى قوله سبحانه « واحذروا » أي احترسوا أن يحتال الشيطان عليكم ، لأنه سيحاول أن يدخل لكم من كل مدخل ، يدخل على المسرف على نفسه بالمعصية ، وأشد أعمال الشيطان عن المؤمنين هي أن يدخل عليهم من باب الطاعة . ولذلك قال الحق . « واحذروا » وكثيراً ما نجد الإنسان منا ينسى موضوعاً ما ، وحين يأتي إلى الصلاة فهو يتذكر هذا الموضوع . والشيطان لا يترك الإنسان في مثل هذه الحالة ، فقد أقسم الشيطان فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

وقال الحق سبحانه :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إنه أقسم أن يقعد على الطريق المستقيم لا على الطريق المعوج . ومثال ذلك عندما يتصدق إنسان بصدقة قد يمنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان وهكذا يضيع

منه الأجر . الشيطان يحاول - إذن - أن يدخل علينا من باب لا نفطن إليه وهو باب الطاعة . وأروى لكم هذه القصة حتى تعرفوا مدى تَدَخل الشيطان . وقد حدثت مع الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه . فقد جاء إليه من يسأله الفتوى في أمر غريب ، قال السائل : ضاعت مني نقودي ، فقد دفنتها في مكان من الأرض ، ونزل السيل فطمس مكان النقود وأزال الحجر الذي وضعته علامة على مكانها . فقال الإمام أبو حنيفة . اذهب الليلة بعد صلاة العشاء وقف أمام ربك إلى أن يطلع الفجر ، وقل لي ماذا سوف يحدث . وعندما جاءت صلاة الفجر جاء الرجل متهللاً إلى أبي حنيفة وقال : وجدت مالي .

سأله أبو حنيفة : كيف ؟ قال الرجل : بينما أنا أقف للصلاة تصورت مكان وضع النقود ، ومتى نزل السيل ، وكيف سار ، وهكذا قست المسافة وقدرتها إلى أن عرفت موقع النقود . فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك . هكذا ترى كيف يدخل الشيطان من باب الطاعة . ولذلك قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

أي فإن أعرضتم عما كلفتكم به فاعلموا أنكم بتوليكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كلف إلا أن يقوم بالبلاغ المبين ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم به . إن الحق يعلم أولاً أن بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يرد في القرآن ؛ لذلك جاء بالأمر بطاعة الرسول . وهكذا صارت للرسول طاعة مستقلة ، وأرادها الله حتى يَرُدّ مقدماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل . بينما نجد هذه التفاصيل في السنة النبوية الشريفة . ومثال ذلك عدد ركعات كل صلاة ، إنها لم تَرِدْ في القرآن ، ولكننا عرفناها تفصيلاً من الرسول . وفوّض الحق رسوله في التشريع .

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك من سيدّعى أنه لن يطيع إلا القرآن . ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثي فيقول . بيني وبينكم كتاب الله عزوجل، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه . وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله)[1] .

أى أن الرسول هو المبلغ عن ربه. وأن علينا أن نحذر الشيطان إذا أراد أن يدخل علينا من باب الطاعة . ولكن لماذا قال الحق « وإن توليتم » ؟ ومن أى شيء يكون التولى ؟

قال الحق ذلك ليوضح لنا أن الإنسان له الاختيار فى أن يذهب إلى الطاعة، وله الاختيار فى أن يذهب إلى المعصية ، وإن تولى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية، وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلغ عن الله إلى البقاء فى الكفر، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأداها . فالمطلوب من الرسول أن يبلغ المنهج، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم بلاغاً مبيناً، محيطاً، واضحاً ومستوعباً لكل أقضية الحياة

لقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم مطلوب الله منا أن نؤمن بإله واحد، قادر، حكيم، له كل صفات الكمال، ذلك هو الأمر الأول فى العقيدة . وأبلغنا صلى الله عليه وسلم أن نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب، ومن الأوثان، ومن الأصنام وبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منا إيماناً، وعملاً. والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابى، وعمل سلبى . ويتركز العمل الإيجابى فى « افعل كذا »، إذا لم تكن تفعله، أما العمل السلبى فهو أن تكف عما نهاك عنه الله، ونهاك عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن أول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد فى الإله الواحد، وأن نكف عن عبادة الأوثان والأصنام، والطلب ـ كما نعرف ـ هو أن تنشىء كلاماً تطلب به من مخاطبك أن يفعل شيئاً لم يكن مفعولاً وقت طلبه فإذا أوضح الحق : لا تعبد الأوثان، فهذا

(١) رواه أحمد والدارمى وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

طلب لفعل، وهو أن نكف عن عبادة الأوثان. وحين يأمرنا الحق بالصلاة والصوم والزكاة وحج البيت، فهذا طلب لأعمال. وطلب العمل يقال له «أمر». وطلب الكف عن عمل يقال له «نهي».

وأنت إذا نظرت إلى كل التكاليف في الإسلام، تجدها لم تأت مرة واحدة، وإنما جاءت على مدار ثلاثة وعشرين عاماً. فعندما جاء الإسلام آمن به أناس، ولم يكن قد صدر إليهم تعبد أي من الأحكام التي وردت على مدار سنوات الرسالة، وإنما كان المطلوب منهم بعضاً يسيراً منها، وكانوا يؤدونها، فمنهم من بلغه فقط ضرورة الإيمان بالإله الواحد، وآمن بذلك ثم وافاه الأجل وكانت له الجنة. ومنهم من امتدت حياته، فزادت عليه أحكام جديدة فنفذها، وكان إسلامه بذلك إسلاماً تاماً.

إذن، فالتمام في الإسلام هو تنفيذ كل عمل جاء في الأحكام التي أدركها المسلم. فإن لم يكن المسلم قد أدرك إلا حكماً واحداً ونفذه فله كل ما وعد الحق به. ومثال ذلك «مخيريق اليهودي» الذي أسلم وأوصى بماله للنبي صلى الله عليه وسلم. فلما كان يوم أُحد، وقف في قومه قائلاً: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحقٌّ. ثم بحيرة، فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء. ثم خرج إلى القتال فقاتل حتى استشهد. ولم يكن قد نفذ أي حكم من أحكام الإسلام، لكنه قاتل فنال شرف الشهادة، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مخيريق خير يهود)[1]

ولا بد لنا أن نفرق دائماً بين «أركان الإسلام» والمطلوب من المسلم. ونعلم جميعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[2]

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وابن كثير في البداية والنهاية، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر.

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

هذه هي أركان الإسلام . أما المسلم فقد يختلف المطلوب منه ، فالمطلوب من المسلم أن يشهد مرة واحدة في حياته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومطلوب منه دائماً أن يقيم الصلاة مهما تكن حالته . لكن فرض الزكاة قد يسقط عنه إن كان لا يملك مالاً . وقد يسقط عنه الصوم إن كان مريضاً مرضاً لا يرجى شفاؤه أو كان كبير السن لا يقدر على الصوم وعليه فدية طعام مسكين ، أما المريض الذي يرجى شفاؤه وكذلك المسافر فيقضيان الصوم بعد زوال العذر ومثلهما الحائض والنفساء . وقد يسقط عنه الحج لأنه لا يملك المال الكافي . هكذا تختلف أركان الإسلام من مسلم لآخر . وهكذا نعرف أن من عاش في بدايات الإسلام ونفذ القليل من الأحكام التي نزلت حتى مات أو استشهد ، فقد أدى مطلوب الإسلام منه .

وعندما نزلت مسألة النهي عن الخمر ، والميسر ، ذهب أناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن مصير زملائهم وإخوتهم في الإيمان الذين ماتوا أو استشهدوا قبل أن ينزل تحريم الخمر والميسر . ومجرد السؤال هو دليل اليقظة الإيمانية ، فالإنسان لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وهنا أنزل الحق سبحانه وتعالى القول الكريم :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

لقد أنزل الحق هذه الآية ليُطَمْئِن المؤمنين السائلين عن الحكم في إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا وكانوا يشربون الخمر قبل نزول الحكم بتحريمها . « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » و « طعموا » لا تخص الطعام فقط ولكن تشمل وتضم الشراب أيضاً . فالحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالماء طعام ، بمعنى أن طعمه يكون في الفم . وهكذا عرف المسلمون السائلون عن إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا أن إسلامهم كان مقصوراً على الأحكام التي نزلت في أثناء حياتهم ، فقد نفذوا المطلوب منهم بعدم صلاة الأصنام . وقد يكون منهم من مات قبل أن تفرض الصلاة ، أو مات قبل أن ينزل أحكام الزكاة أو الصوم ، ولذلك لم يعملوها . وعلى ذلك يكون عملهم الصالح هو تنفيذ التعاليم التي نزلت إليهم . لقد اتقوا الله فنفذوا مطلوب الإيمان على قدر ما طلب منهم الحق ، آمنوا بالإله المكلف وجعلوا بينهم وبين الله وقاية بأن نفذوا مطلوبه سبحانه أمراً ونهياً .

والإيمان له قمة هي أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبعد ذلك بالأحكام التي تنزل من السماء . واختلف العلماء فيما بينهم في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فمن العلماء من قال : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . ومن العلماء من قال : إن الإيمان يزيد وينقص . والذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، إنما نظروا إلى الإيمان بالقمة المعتقدة وهي الإيمان بالله . والذين قالوا بأن الإيمان يزيد وينقص إنما نظروا إلى الإيمان بالأحكام التي ينزلها الله ، وأخذوا ذلك من قوله الحق

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فكل آية تنزل بأحكام جديدة فهي تزيد الإيمان . فعندما نزل الحكم بالزكاة آمن به المسلمون وطبقوه . ومنهم من لم يكن يملك المال فلم يطبق الحكم على الرغم من أنه آمن به .

فالمسلم يؤمن بالحكم ، وإن كان مستطيعاً فهو يعمله ، وإن كان غير مستطيع فهو لا يعمله . ولهذا كانوا يستبشرون بالأحكام التي تنزل بها الآيات . وعلى ذلك يكون خلاف العلماء خلافاً على جهة منفكة ، ونلحظ أن الحق يقول :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن ، فهنا ثلاث مراحل : هناك من أدرك حكماً فاتقى الله وآمن وعمل صالحاً ، وبعد ذلك انتقل وأمضى إلى ربه فلا جناح عليه ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً أخرى فآمن بها وعمل بها ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً قد زادت فعمل بها أيضاً . والإيمان الأول ارتبط بالعمل الصالح ، وكذلك الإيمان الثاني الذي جاء في الآية . ثم يأتي الإيمان الثالث مرتبطاً بالإحسان .

والإحسان كما نعلم له وجهان : الأول أن يعبد المؤمن الله كأنه يراه ، وكلما جاء تكليف ، يحسن المؤمن في أدائه ، كأنه يرى الله ، وإن لم يكن يراه فإنه يحس أنه سبحانه يراه . وإذا ما استوعب المسلم كل أحكام الله التي استوعبت بدورها كل أقضية الحياة ، فهو يحسن أداء هذه الأحكام . والوجه الثاني للإحسان أن يزيد المؤمن في أداء هذه التكاليف فوق ما فرض الله ، وهي النوافل . وبذلك لا يكتفي المؤمن بتصديق الأحكام التي نزلت ، بل يزيد من جنسها . والحق يقول :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وجاء الحق بالتعليل وهو :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الذاريات)

ووجه إحسانهم أن الواحد منهم لا يقف عند ما كلفه الله به ، بل يزيد على ما كلفه الله من جنس ما كلفه سبحانه ، فالحق قد فرض على المسلم خمسة فروض ، والمحسن هو من يزيد ويتقرب إلى الله بالنوافل . وفرض سبحانه على المسلم صوم رمضان ، والمحسن هو من يؤدي صيام رمضان بتمامه ويزيد بصوم أيام أخرى من العام . وفرض سبحانه

على المسلم زكاة مال بقدر اثنين ونصف في المائة وهو ربع العشر ، والمحسن قد يزيد الزكاة إلى أكثر من ذلك . وفرض سبحانه على المسلم حج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والمحسن هو الذي يزيد مرات الحج

إذن ، فالمحسن هو من عشق التكليف من الله ، وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلفه دون ما يستحق - سبحانه - مما فزاد من العمل الذي يزيده قرباً من الله . ويضيف الحق في وصف المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يكلفنا سبحانه ألا نهجع إلا قليلاً من الليل . كلفنا فقط بأن نصلي العشاء ، وبعد ذلك قد ننام لنصحو لنصلي الصبح ، أما المحسن الذي عرف حلاوة الخلوة مع الله فهو لا يهجع إلا قليلاً من الليل ويضيف الحق سبحانه في وصف المحسنين .

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يكلف الله المسلم بالاستغفار في السحر ، لكن المحسن يفعل ذلك ويضيف الحق سبحانه

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يقل سبحانه إنه حق معلوم ؛ لأن الحق المعلوم هو الزكاة وهذه المراحل الثلاث هي التي تُدخل المؤمن في مرتبة الإحسان ولذلك نجد الحق في آخر مرحلة في الآية التي نحن بصددها يتحدث عن الإحسان : « ثم اتقوا وأحسنوا » أي أن يزيد الإنسان المؤمنُ من جنس ما فرض الله وقت أن كان التكليف في دور الاستكمال مكل حكم يأتي كان يستقبله المؤمن بإيمان وعمل أما الذين أدركوا كل التكاليف خلال الثلاثة والعشرين عاماً - المدة التي مكثها وعاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى - فقد استوت عندهم التكاليف ، وإذا ما أرادوا الإحسان فلا بد لهم من الزيادة من جنس التكليف .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

وهذا انتقال لحكم جديد ، فبعد أن تكلم الحق فيما أحله لنا وقال سبحانه :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه فيما حرم علينا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكى وذبح وحرم ما ذبح للأصنام وما استقسم بالأزلام وكذلك الخمر والميسر ، أراد أن يعطينا محرمات من نوع خاص ، وحتى نعرف هذه المحرمات لا بد لنا أن نعرف أن هناك أشياء محرمة في كل زمان وكل مكان ، كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من النواهي الثابتة ، سواء أكانت عبادة أصنام أم أزلام أم غير ذلك من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهناك محرمات في أزمنة خاصة ، أو في أمكنة خاصة . والفعل ، أي فعل ، لا بد له من زمن ولا بد له من مكان .

نحن مأمورون بالصلاة في زمانها في أي مكان طاهر وصالح للصلاة فيه ، وكذلك الصوم يتحكم فيه الزمان ، أما الحج فالذي يتحكم فيه هو الزمان والمكان . وأما العمرة فالذي يتحكم فيها هو المكان ، لأن الإنسان يستطيع أن يعتمر في أي زمان - غالبا - ويتكلم سبحانه هنا عن نهي في مكان خاص وفي زمان خاص ، فالصيد ليس محرماً إلا في حالة أن يكون الإنسان مُحْرِماً

ونعلم أن كلمة « حُرُم » هي جمع « حَرَام » ، والحرام إما أن يكون الإنسان في المكان الذي يبدأ فيه بالتحريم . ومثال ذلك منطقة رابغ التي يبدأ عندها الإحرام بالنسبة لسكان مصر ، فإن وصلت إلى هذا المكان وبدأت في عمل من أعمال الحج أو العمرة فأول عمل هو الإحرام . ومن لحظة الإحرام حتى ولو أحرمت من بلدك أو بيتك لا يحل لك الصيد . و« الحرم » أيضاً هو وصف للمكان حتى وإن لم يكن الإنسان حاجاً ، فالصيد محرم في الحرم ، والحرم له حدود بينها الشرع ، فالصيد فيه حرام على المُحْرِم وغير المُحْرِم . ونعلم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الحق لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً .

وعلى ذلك فأي مكان يصلح للصلاة ، ويصلح أن نقرأ فيه العلم ، ويصلح أن نقيم عليه مصنعاً ويصلح أن نزرعه . إذن فأي أرض تصلح أن تكون مسجداً لأنها مكان للسجود . ولكن المسجد بالمعنى الاصطلاحي هو المكان المخصص للصلاة . أما المسجد الحرام فمركزه الكعبة وحولها الطواف وحول ذلك جدران الحرم . ويقع المسجد الحرام في دائرة الحرم ، والتي تبدأ من التنعيم والجعرانة والحديبية والجحفة وغيرها ، هذه حدود الحرم . فالإنسان إذا ما جاء إلى ميقات الحج عند رابغ مثلاً فهو لا يصطاد ؛ لأنه أصبح في دائرة الحرم ، فالصيد محرم عليه حتى ولو لم يكن حاجاً أو معتمراً .

والحج ـ كما نعلم ـ هو رحلة فرضها الله مرة واحدة في العمر يخرج إليها المسلم الذي يحيا في كل مكان مع نعمة المنعم . وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كل النعم التي تصنع له التميز ليستوي مع كل خلق الله . وأول سمة مميزة للإنسان هي الملابس ، لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً يتساوون فيه . وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعِم .

ومن بعد ذلك يريد الحق أن يؤدبنا تأديباً إيمانياً مع الوجود كله ويصفي الله في الحج هذه المسألة كلها ، فالكل سواء في ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْث غُبر ، وكلهم يقولون « لبيك اللهم لبيك » . هكذا تتم تصفية التفاوت في الإنسان بالإحرام

ومن بعد ذلك ننظر إلى الجنس الأدنى وهو الحيوان ، ويعلمنا الحق الأدب مع هذا الجنس فيأتي بتحريم صيده . ويعلمنا الأدب مع الزرع الذى تحت الحيوان فيمنع المسلم من قطع شجر الحرم . وهكذا تصفى كل هذه المسألة ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفيرُ الوزيرَ وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء ، والحق يقول :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالحيوان يأمن وكذلك النبات ، هذا ما أمر به الحق فى دائرة الحرم ؛ لأن ذلك تدريب للإنسان على أن يخرج من النعمة إلى المنعم . ومن بعد ذلك يدخل إلى المسجد ويطوف حول الكعبة . ويجد الإنسان - سيد الوجود - يقف من كل ما يخدمه فى الوجود موقفاً مختلفاً ، فالحيوان يأخذ كرامته وكذلك النبات ، وكذلك الجماد يأخذ أيضاً كرامته ، فمن عند الحجر الأسود يبدأ الطواف سبعة أشواط .

فى الحج ينفض الإنسان أى طغيان عن نفسه ويتساوى مع كل الناس ، ينفض طغيانه أمام الجنس الأدنى وهو الحيوان محرّم عليه صيده - ونعلم أن الحيوان يغذى الإنسان - وينفض أيضا طغيانه مع النبات - والنبت يغذى الإنسان - فحرّم قطعه وينفض الحق كبرياء الإنسان أمام الجماد - وهو أحط الأجناس - فأمر الحق الإنسان أن يستلم الحجر الأسود أو أن يقبله ، وإن لم يستطع من الزحام فعليه الإشارة للحجر ، ومن لم يستطع استلام الحجر أو تقبيله فقد يخيل إليه أن حجه لم يكمل وذلك زيادة منه فى التعلق بالمناسك والاحتياط فى أدائها .

كل ذلك حتى يحقق الله سبحانه وتعالى استطراق العبودية ، ودائماً تجد من يتساءل : وكيف نقبل الحجر على الرغم من أن الله قد نهانا عن الوثنية وعبادة الأصنام ؟ ونقول : إن الحجرية ليست لها قيمة فى هذا المجال ، ولكن رب الإنسان والحيوان والنبات والحجر هو الذى أمرنا بذلك ، بدليل أننا نرجم حجراً آخر هو رمز

إبليس ، والعبد فى أثناء أداء المشاعر - إنما ينتقل من مراد نفسه إلى مراد ربه ، فيقبل ويعظم حجراً ويرجم حجراً آخر . وهكذا صفيت العبودية بالنسبة للناس فاستطرقوا ، وصُفيت العبودية بالنسبة للحيوان والنبات والجماد .

ويلفتنا سيدنا عمر رضى الله عنه فيقول للحجر الأسود : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

كأن سيدنا عمر رضى الله عنه يعلمنا حتى لا يقول أحد : إنها وثنية ، فالوثنية أن تعبد حجراً بمرادك . أما الحجر الأسود فنحن نعظمه بمراد الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما الفرق بين ما تناله الأيدى وما تناله الرماح ؟ . ما تناله الأيدى هو صغار الأفراخ والأشياء السهلة اليسيرة ، أما ما تناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه . وقال الحق : « ولنبلونكم » ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يلح الإنسان على المعصية فيفعلها ، وبين أن يصل إلى مرتبة لا يلح فيها على معصية ، بل قد تقع عليه المعصية ، وإن وقعت عليه المعصية فهو لا يرتكبها .

كأن الحق يبتلينا مادمنا لا نلح على المعصية ، ويريد أن يرى ماذا سيكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نمنعها أو لا ؟ . فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية . ولذلك يبتليكم الله بشيء من الصيد المحرّم عليكم بأن يجعله فى متناول أيديكم .

حدث ذلك فى الحديبية لقد كاد الصيد يضع نفسه بين أيدى المؤمنين ولم يقربوه وكان هذا اختباراً . ونعلم أن الابتلاء غير مذموم فى ذاته ، إنما المذموم فيه العاقبة منه ؛ لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان ، وقد يفشل إنسان آخر . وكأن الحق قد ابتلى المؤمنين بأن جعل الصيد يتكاثر أمامهم حتى يقوى عود الإيمان فى قلب المؤمن فلا يتهافت على المعصية وتتكون لديه المناعة وذلك . « ليعلم الله من يخافه بالغيب »

وسبحانه وتعالى العالم بكل شيء قبل أن يحدث . لكن هناك فرق بين علم وعلم ، إن علم الله أزلي لا يتخلف ، ولكن هذا العلم ليس حجة على الناس ؛ لأن الحجة على الناس هو ما يقع منهم فعلا ، ولذلك كان الابتلاء .

وأسوق هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الوالد قد ينظر إلى أحد أبنائه ويقول : إنه يلعب طول السنة ومن الأفضل ألا ندخله الامتحان ؛ لأنه سوف يرسب . ولا يدخل الابن الامتحان ، ولكن الوقاحة تصل به إلى الحد الذي يقول فيه . لو كنت دخلت الامتحان لكنت من الناجحين.ولو كان والده أدخله الامتحان ورسب ، لكان هذا الرسوب حجة عليه .

إذن فعلم الحق لا يلزمنا الحجة ، إنما العلم الواقعي هو الذي يلزمنا بها .

وقد حدثت هذه الابتلاءات في النبوّات كثيراً . ومثال ذلك ابتلاء الحق لليهود بتحريم الصيد يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتي في هذا اليوم مشرعة وكأنها تلح عليهم أن يصطادوها . وفي الأيام الأخرى لا تأتي الحيتان ، فيحتالون لعصيان الأمر باختراع نوع من الشباك السلكية تدخل فيها الحيتان ، وتظل حية ومحبوسة فيها إلى يوم الأحد فيأخذونها . وتكون حيلتهم هي دليل العبد منهم ؛ لأن الصيد قد تم بالنية والعمل والاستعداد المسبق . وكان الابتلاء في الإسلام بشيء من الصيد . « ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وقد علمنا من قبل قوله الحق :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

فإن كانت المسائل مأمورات فعلينا أن نفعلها . وإن كانت نواهي فيجب ألا نقربها حتى لا نقع فيها فتكون حجة علينا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه)[1] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) ﴾

أى لا تقتلوا الصيد إن كنتم قد أحرمتم بالحج أو بالعمرة أو بهما معا ، وإن لم تحرموا فالصيد محرّم أيضاً فى حدود منطقة الحرم . وسبحانه قد جعل المحرم زمانا والحرم مكاناً وهو فترة يلجأ إليه الناس من غرور عزة قوم على حساب ذلة قوم آخرين وقديماً كان يحارب بعضهم بعضا ، ولذلك جعل الحق أربعة أشهر حرماً فى الزمان ، أى لا قتال فيها ، وذلك حتى يستريح المتعب من الحرب ، ويستريح من يخاف على عزته ، أو يذوق فيها الجميع لذة السلام والأمن ، وقد يستمرون فى ذلك الاستمتاع بالسلام والأمان وكذلك جعل الحق الحرم أيضاً مكاناً آمناً ، لا يتعرض فيه أحد لأحد وكان الإنسان يقابل فى الحرم قاتل أبيه فلا يتعرض له ؛ كل ذلك ليحمى عزة الناس أن تنكسر أمام غيرهم .

ومثال ذلك عرفان كلاهما على خلاف مع الآخر ، وكل منهما يرغب فى الصلح مع الطرف الآخر . وهنا يتدخل أى إنسان من الخارج فينجح ؛ لأن الطرفين مهيآن للصلح . وكل منهما يريد إنهاء الحرب ولكن تأخذه العزة بالإثم وتستولى عليه الحمية ويأنف أن يبدأ خصمه بطلب الصلح .

وقد أراد الحق أن تكون هناك فى الأشهر الحرم فرصة للائتلاف والصلح وذلك بأن يلجأ الناس إلى البيت الحرام حتى تنفض البشرية عن نفسها البغضاء وحتى يرتاح البشر من القتال ، فتصدر الأحكام فى رويّة واتزان وهدوء أعصاب .

ويقول الحق جل وعلا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولا يعتبر الشىء صيداً إلا إذا كان مما يؤكل . أما إذا كان الشىء المصاد لا يؤكل كالسبع وغيره فقد قال بعض العلماء : لا يمتنع ولا يحرم ولكننا نقول : إن الصيد هو كل ما يصاد سواء ليؤكل أو حتى غير مأكول ، وذلك لنعلم أنفسنا وجوارحنا وأعضاءنا الأدب ونحن حرم . ومعنى « حُرُم » هو أن نكون محرمين أو فى الحرم ، والحرم له حدود معروفة . وداخل الحرم ممنوع على الإنسان أن يصطاد أى شىء من لحظة بلوغه ميقات الحج و العمرة

إذن فحيز الصيد محدود بالنسبة لكل من دخل الحرم المكى الشريف سواء أكان محرماً أم لا . وحيز الصيد بالنسبة لمن أراد الحج أو العمرة هو أكثر رقعة واتساعا ، ذلك أن التحريم يبدأ من حين الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما . ولكن ماذا يكون الحكم إن اعتدى إنسان على الحكم واصطاد ؟

« ومن قتله منكم متعمداً » . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق قتل الخطأ بالعمد ، وذلك حتى ينتبه كل مسلم إلى كل فعل وهو محرم ، أو وهو فى البيت الحرام .

هب أنك أردت أن تحك جلد رأسك بأظافرك وأنت محرم ، هنا قد يتساقط بعض

شعرك ، فإن ثبت ذلك فعليك هدى للكعبة أو صوم أو إطعام مساكين ؛ لأن الحق يريد لك حين تحرم أن تنتبه بكل جوارحك إلى أن كل حركة من حركاتك محوطة ومحسوبة عليك ، ولكن في منتهى اليقظة الإيمانية ، وأي خطأ مهما يكن يسيراً يوجب الفدية . لذلك من قتل وجب عليه الجزاء لتعديه على شيء حرمه الله . والجزاء محدد بنص القول الحق : « فجزاء مثل ما قتل من النعم » وعند المثلية وقف العلماء أيضاً : أتكون المثلية بالقيمة ، أو المثلية في الشكل ؟.

والمثلية في القيمة تعني أن تقوّم الشيء المقتول بثمنه ، ونشترى بالثمن شيئاً من الأنعام ونذبحها . والمثلية في الشكل تعني أن نشبه الشيء المقتول بمثيل له مما يذبح ويكون أقرب إلى شكله . ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما قتل مسلم ضبعاً أمر المسلم أن يفدى بكبش . والصحابة رضوان الله عليهم : على ، عمر ، وعثمان وعبدالله بن عمر أمروا رجلاً قتل نعامة أن يفديها ببدنة ناقة أو بعير لأنها تشابه النعامة في العلو . وحينما قتل إنسان ظبياً فداه بشاة ، والظبي أو الغزال هو الذكر ، والغزالة هي الأنثى ، وعندما قتل غزالاً صدر الحكم بالفداء بعنزة . ومن قتل « يربوعاً » ـ وهو من الزواحف وأكبر من الفأر قليلاً ـ صدر الحكم أن تكون الفدية « الجفرة » وهي ولد الماعز بعد أن يستغنى عن لبن أمه ويستطيع الأكل .

إذن ، فالمثلية هنا مثلية الشكل . وقال أبو حنيفة بإباحة أن تكون المثلية بالقيمة إن لم يوجد الشبيه . وعلى ذلك فالذى يصطاد من أحل أن يطعم نفسه يدفع ثمن الخطأ لغيره من المحتاجين . وإن كانت المثلية بالقيمة فالذى يحدد هذه القيمة أناس لهم بصيرة وهما اثنان من ذوى العدل « يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وهم الذين لا يميلون عن الحق ، ويقيمون الميزان .

ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف لنكون من ذوى العدل ، أى أن الإنسان حين يواجه خصمين فهو يعطى نصفه لخصم ونصفه الآخر للخصم الثانى ، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما . ولا يدير الإنسان وجهه إلى خصم أكثر مما يديره للآخر .

وإن سأل أحد : كيف نأتى بذوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما في نفسيهما ولى تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء في

الطعام أو الخصب أو فى أى لون من ألوان السلوك؟ ومن كان مأموناً عن نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أن يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر ، ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى هذه المسائل لأننا نرى أن موجة من التملق للشباب تسود بعض المجتمعات ، فنسمع أصواتاً تقول : إن الشباب يجب أن يتولى القيادة .

ونقول لأصحاب هذه الأصوات : تمهلوا ودققوا النظر فى مثل هذا القول ؛ لأن الشباب عليه أن يزاول عمله الخاص فى فترة الشباب ، وعلينا ملاحظته وهو يؤدى عمله فإن نجح ورأينا فيه أمانة على حركة نفسه ، وعدلاً مع نفسه وعدم إسراف على نفسه فإننا نرشحه من بعد ذلك ليخدم أمته بعد أن يثبت أنه مأمون فى عدالة نفسه ولا يصح أن نجرب فى الأمة مَن لا يَستند إلى رصيد من الخبرة السابقة

إنه لا يصح أن نولى الأمر فى أى قطاع لمن أطلقوا عليهم : الأطفال المعجزة . ومن يريد أن يجرب فليجرب فى نفسه ، وفيما يملك ، لا فى الأمم والشعوب . وعلى الشاب أن يبدأ حياته بنشاط جدى لذاته ، ليستخلص النفعية القريبة منه وألا يغش نفسه ، فإن نجح فى ذلك ، نأخذ منه بعض الوقت أو كل الوقت لخدمة أمته بعد أن يثبت لنا أنه قد وصل إلى النضج العقلى الكافى ، وقد زادت تجاربه وفقد شهية الطموح الشخصى والمتع الصغيرة ، ووصل إلى القدرة على التجرد ليحكم بين الناس .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

نحن ـ إذن ـ مطالبون بأن نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أن نوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيار غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ولنا أن نلحظ فى عملنا دقة المعانى التى جاءت فى القرآن الكريم ، فنحن هنا فى أمر شاة أو حيوان نستصدر الحكم من ذوى العدل « فجزاء مثل ما قتل من النعم

يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، وما يحكم به ذوا العدل إنما يذهب كله للكعبة ، ليأكله الموجودون في البيت الحرام لعبادة الرحمن . وقد أراد الله أن يضمن قوت الذين يسكنون وادياً غير ذي زرع حتى من أغلاط الذين يعتدون على ما حرّم الله صيده من الحيوان .

ولكن ما الحل إذا ما كان المخطىء لا يملك القدرة على أن يقدم هدياً بالغ الكعبة ؟

والحق سبحانه لا يترك مثل هذه الأمور دون بيان أو تفصيل ، فهاهوذا يضع الكفارة بإطعام مساكين ، يحدد عددهم الاثنان من ذوى العدل . ومن لا يستطيع إطعام مساكين فليصم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه . « أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره » والوبال هو الثقل والعاقبة .

ولماذا الوبال ؟ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سيعز عليه ماله ، وأيضاً إن أطعم مساكين فهو سيشترى الطعام بمال يعز عليه ، وكذلك يسبب له الصيام الإرهاق . إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل . وأراد الحق بذلك ألا يجعل الإحساس مجرد أمر شكلى ، أو أن تظل الإساءة أمراً شكلياً . وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضر للإساءة ، حتى تستقيم الأمور في الكون . ولنا في قصة ذي القرنين المثل الواضح على ذلك

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد مكن الحق لذى القرنين في الأرض ، وأعطاه من كل شيء سبب . ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى فلم يتقاعس ولم يكسل ، بل يخبرنا الحق .


﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له فى الأرض، وأخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب ، إنه أخذ طاقة وإحساساً بالمسئولية ليواصل مهمته :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [سورة الكهف]

لقد بلغ مغرب الشمس فى نظر عينيه، لأن الإنسان عندما يقف وقت الغروب فى خلاء فالشمس تغرب أمامه وكأنها تسقط فى آخر الأفق . والحقيقة أن ذلك هو نهاية قدرة البصر . وجاء التفويض لذى القرنين : إما أن يعذب هؤلاء القوم، وإما أن يعاملهم بالحسنى . ويقيس عمل كل إنسان منهم، وليجازِ كل إنسان منهم حسب عمله. وهو لا يفعل ذلك عن هوى، لأنه ممكن فى الأرض من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك قال الحق

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة الكهف]

وكل إنسان - حتى الملحد - حين يرى أن ارتكاب العمل السيئ يأتى له بالمتاعب والخسارة، يرجع عنه ولو لم يكن مؤمناً باليوم الآخر . أما من يؤمن باليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً فماذا تكون نوعية معاملته ؟ ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

[سورة الكهف]

إنه ينال التكريم والتشجيع ، فالتكريم والتشجيع يجب أن ينالهما صاحب الحق فيهما لا المتملق أو المتمسح بالأبواب . هكذا يكون دستور كل متمكن فى الأرض، وهكذا تكون رعاية أوامر الله ونواهيه . وحين أمرنا الحق بتحريم الصيد فى البيت الحرام أو على المحرم ووضع عقوبة لمن أخطأ، فهو سبحانه وتعالى عادل محق ، فلا عقوبة إلا بنص ولا تجريم إلا بعد النص، ولذلك قال سبحانه : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » . فسبحانه يعفو عما سلف، أما من عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق . فلا يقبل منه عدى

ولا إطعام مساكين ولا صوم ؛ لأن في تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله ، وهو العزيز الذي لا يُغلَب .

وبعد أن تكلم الحق عن صيد البر وحكمه ، أراد أن يوضح لنا أن ذلك الحكم لا ينسحب على كل صيد . فسبحانه حرم صيد البر إن كنا حرماً ، أو في دائرة الحرم . ويجيء قول الحق :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا قول دقيق يبين تحليل صيد البحر وطعامه ، وتحريم صيد البر على المحرم كما حرمَّ الصيد في دائرة الحرم على المحرم وغير المحرم ؛ لأن المسألة ليست رتابة جل ، ولا رتابة حُرمة ، إنما هي خروج عن مراد النفس إلى مراد الله . وصيد البحر هو ما نأخذه بالحيل ونأكله طرياً ، وطعام البحر هو ما يعد ليكون طعاماً بأن نملحه ولذلك قال : « متاعاً لكم وللسيارة » . ولهذا جاء الحق بطعام البحر معطوفاً على صيد البحر . والشيء لا يعطف على نفسه ، فإذا ما جاء العطف فهو عطف شيء على شيء آخر ، فالعطف يقتضي المغايرة .

إذن فالمقيم يأكل السمك الطرى والذى فى سيارة ورحلة فليأخذ السمك ويجففه ويملحه طعاماً له ، مثلما فعل سيدنا موسى مع الحوت . ولكنْ هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرّجان والحيوانات التى نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك ، فماذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر وجاء هذا التحليل هنا بأسلوب اللف والنشر ، مثلما قال الحق .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴿٧٣﴾ ﴾
(من الآية ٧٣ سورة القصص)

وكلنا يعرف أن الليل للراحة والنهار للتعب . والليل يسلم للنهار، والنهار يسلم لليل . إذن فالسكن يعود إلى الليل، وابتغاء الفضل بالكد يعود إلى النهار . إذن فقد جاء الحكم على طريق اللف والنشر المرتب، واوضحت من قبل كيف أن الشاعر العربي قد فعل ذلك فقال :

قلبي وجفني واللسان وخالقي   راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

فالقلب راضٍ، والجفن باكٍ، واللسان شاكر، والخالق غفور، ولكن الشاعر جاء بالأحكام منشورة بعد أن لف الكلمات الأربع الأولى . أي أنه طوى المحكوم عليه مع بعضه ثم نشر الأحكام من بعد ذلك . وفي حياتنا - في أثناء السفر - نشتري الهدايا للأبناء ونرتبها حسب ورود الأبناء إلى حياتنا، أي أننا نلف الهدايا ثم ننشرها من بعد ذلك . وبعد أن أحل الحق صيد البحر جاء بتحريم صيد البر إن كنا حُرُماً، وذلك تأكيد جديد على تحريم صيد البر في أثناء الإحرام أو الوجود في الحرم .

ويذيل الحق الآية بقوله « واتقوا الله الذي إليه تحشرون » أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ؛ لأنكم لستم بقادرين على تحمل عذاب النار، فالحق - كما قلنا من قبل - له صفات جمال، وهي التي تأتي بما يسر وينفع كالبسط، والمغفرة والرحمة، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل : الجبار وشديد العقاب وغيرها . وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب . فعندما يذنب الإنسان فالتجلي في صفات الله يكون لصفات الجلال، ومن جنود صفات الجلال النار .

إذن فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من الله، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع في المسافة بين قوسين : قوس الميلاد، وقوس الموت، فلا أحد يتحكم في ميلاده أو وفاته . إياك - إذن - أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور ؛ لأنك مختار فيما بين القوسين . ومحكوم بقهرين، قهر أنه قد خلقك بدءاً، وقهر أنك ستعود إليه - سبحانه وتعالى - نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

« جعل » تعنى بيّن ووضّح ، فقال: إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن فيها . أو « جعل » تعنى إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أى أنه سبحانه خصص جزءا من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءا آخر ليكون أذناً ، وجزءا ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المحسات .

والكعب هو الشيء الناتىء الخارج عن حد المتساوى . ومثال ذلك الكعب فى القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة نطلق عليها « طفلة » وهى دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : « كَعَاب وكاعب » ، أى أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض ، نقيس الطول والعرض ، ونضرب الطول فى العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعنى الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجماً ، وهذا البناء يدل على مساحة حجيم لمساحة من الأرض . إذن فالكعبة هى البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أعد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره وعندما يجب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله .

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمات كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمر ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح فى المادة فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة ، الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، والحياة التى تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية في الدنيا ، وحياة الآخرة .
وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن
البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقام القواعد من البيت ، أما
البيت نفسه فقد أقيم من قبل ذلك . ومادام الحق سبحانه قد قال :

﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة آل عمران)

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس
معناها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البُعْد الثالث
وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

أى أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن
إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء
إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجهاً إلى ربه
بالدعاء

﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذى زرع ، لا ماء فيه ولا نبات .
وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك
يكون إبراهيم عليه السلام قد لبى نداء الله بأن يأتى إلى مكان ليس به أى نعمة تقيم
الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى
الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها فى ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تركتنا ؟ فيقول

لها . إلى الله تقول : رضيت بالله . هنا تركته سيدتنا هاجر ليمشي كما أراد، فالله لن يضيعها لا هي ولا ابنها ؛ لأنها قالت : رضيت بالله .

وقص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا قصتها، والسعي الذي قامت به بين الصفا والمروة، وكيف كانت ثقتها في أن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هي ولا ابنها، بل سيرزقهما، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على موقع للماء، وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها في صحبة المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهي الأنثى رغم تلك السن، وذلك من لهفتها على توفير شربة ماء لطفلها .

السعي ـ كما نعرفه ـ عملية شاقة ولو أن الله أعطاها الماء على الصفا أو على المروة لما أثبت كلمتها : « إن الله لا يضيعنا » ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمي طفلها الرضيع . وبذلك لها يكون سبحانه قد بين وأرشدنا إلى قضيتين : أما الأولى فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده، وأما الثانية فهي أن السعي لا يعطي بمفرده الثمرة، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعي بين الصفا والمروة تعليماً لنا بدرس عملي تطبيقي أن نأخذ بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فتنة الناس تأتي من الغرور بالأسباب .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ (سورة العلق)

إنه لا يصح أبداً أن تمر بك الأسباب عن المسبب، ولا تقل سأبقى مع المسبب إلى أن تأتيني الأسباب، لا ، كن دائماً مع الأسباب، وتذكر دائماً المسبب ولذلك نقول. إن الجوارح تعمل، ولكن القلوب تتوكل وهذا هو المغزى من عطاء الحق سبحانه الماء لهاجر عند قدمي ابنها، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التي دعا بها الله :

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (سورة إبراهيم)

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادى غير ذى زرع . ولذلك جعل الحق أفئدة الناس تهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يُجبى » تدلنا على أن الناس لا تأتى بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام الذى جعله الله قياماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس هم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار فى الطائف وفى غيرها من البلاد ، وعندما يريد إنسان اشتراء من نتاج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة فإن أردت شراءه فاذهب إلى مكة

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم . (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) و« تهوى » ـ بكسر الواو ـ تدل على السقوط من حالق . . أى من مكان مرتفع شاهق . وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقلوفاً إليها . ولذلك نجد المكلف بالحج ـ المحب له والمتعلق به ـ تشتاق روحه إلى الحج .

وعلينا أن نفرق بين « يَهْوَى » . . أى يحب المذهب ، و« يَهوِى » بكسر الواو أى ينجذب بالاندفاع . فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطةٍ ما فى منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه . ولذلك قال الحق

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الهوىٰ ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة والأفئدة بيد الله ـ سبحانه ـ هو الذى جعلها تهوى ، والكعبة هى البيت الحرام ، وهى قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالداخل إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقى بقاتل أبيه فى الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشيء النافع وحجب عن الموجود منهم الضر

وأما السيادة والجاه فقد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدنة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتى إليهم فلا أحد يتعرض بقوافلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتى إليه . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتى نافع كالرزق ، وإما أن يمنع المضار ، وذلك بالأمن الذى يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التى أخذتها قريش على العرب جميعاً وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

ورد سبحانه كيد أصحاب الفيل ، لأنهم لو هدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ ، ٢ سورة قريش)

جعل الحق أصحاب الفيل كعصف مأكول أى كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقته رَوْثا ، فعل - سبحانه - ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج وقال سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

أى أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياما وأمناً ؛ لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يُكفر عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة . والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة ، شهر منها فرد أى غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب ـ ولذلك يسمى رجب الفرد ـ وثلاثة سرد أى متتابعة يلى بعضها بعضاً وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يعمل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى العمل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(سورة الكهف)

فإياك أن تقول : إنى فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تتبعه بقولك : « إن شاء الله » ولا يصح هذا أن نخطط لمستقبلنا . فمادمت قد استعنت بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً ، فلا تتهور وتقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » . وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا في هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الزمان ، المكان هو البيت الحرام ، والزمان هو الشهر الحرام ، والذي يحدث الفعل فيه نسميه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطى للعقل فرصة للتأمل في أسباب الحرب ، ويعطى كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربي في ذلك الزمن يهتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم تربى على الفروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتساح بالدعوة في أرض الله صحب معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا في حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكأن الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهي الثأر بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربي للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت ـ غالباًـ متبدية ، بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً في مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكان الحق قد أعدهم للانسياح بكلمة الله في الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليؤصل الوجود الإسلامي فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التي انساحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحربُ الحرثَ والنسلَ ، وأراد الحق ذلك قياما للناس ، واستبقاء للنوع

وكذلك حرم الله : « الهدي والقلائد » والهدي هو الذي يُهْدَى للحرم فيأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بواد غير ذى زرع . والهدى هو البهيمة التى يتطوع بها أى إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لحاء وقشر الشجر أو غير ذلك . وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه ومضه الجوع ، وفى ذلك قيام للناس

ويتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » ، و« ذلك » تشير إلى الأمور التى تقدمت كلها . و« لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » أى أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم فى كل حال من أغيار الحياة ؛ فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وآمنهم ، وحفظ لهم السياحة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شىء أزلاً ، وأتت الأمور على وَفق ما دبر من خير ومصلحة ، وإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه - أيضاً - بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » لقد رتب حياة الناس فى الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » فسبحانه جعل البيت أمنا وأماناً ، وهذا إخبار شرعى لا إخبار كونى

والفرق بين الإخبار الكونى والإخبار الشرعى أن الإخبار الكونى لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعى فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمنا ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن

وفى زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمنا هو أمر شرعى ينفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعى والكونى قوله الحق :

﴿ وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ (من الآية ٢٦ سورة النور)

إننا نجد في الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق . « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعي بأن نزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يختل التكافؤ في الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا في فتنة . وينبهنا سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

أي تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتي : « غفور رحيم » ؛ لأن كل الناس ليسوا أخياراً ، وكل الناس ليسوا أشراراً ؛ لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلحظ ذلك من مجيء صفة واحدة من صفات الجلال : (شديد العقاب) ويقابلها صفتان من صفات الجمال وهما : (غفور رحيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

الرسول هو المبعوث من المرسِل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو الفاعل الأول ، المطلق الذي لا فاعل يزاحمه ، والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثاني هو نحن . وهناك في النحو المفعول معه ، وهناك أيضا المفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول به ، وأيضا يوجد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة النحل)

وفيه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

و« قومه » هي مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل ليعتذروا عمن عبد العجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوْها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدوه فعليهم العقاب . ولزد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم ؛ فالرسول يبلغ وينفذ أمامنا ما بلغ به حتى نتبعه ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

وهذا ما ينقض ادعاء الألوهية لبشر . فلو كان هناك إله رسول لقال الناس : كيف نتبع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عنا نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقدوة للمرسل إليهم . إنه يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويعمل غير ذلك من الأعمال ، ويأمر من أرسل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلها فإن المرسَل إليهم - وهم البشر - لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ؛ لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتهم ولذلك لا يستطيعون

التأسي والاقتداء به، فالأسوة لا تتأتى إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم .. أي يكون بشراً بكل أغيار البشر .

والحق سبحانه قال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء)

أي أن البشر تساءلوا ـ جهلاً ـ عما يمنع الله ـ سبحانه ـ أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البشر، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنسهم البشري ؟ وهنا يأتي الأمر من الله سبحانه .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (سورة الإسراء)

وبهذا يبلغ الحق رسله ضرورة إبلاغ الناس أن الرسول لهم لابد من أن يكون من جنس البشر ؛ لأن الملائكة لا يمشون مطمئنين في الأرض ، ولو جاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير جنس البشر، ثم إن الملائكة من مخلوق الغيب، فكيف يبعث الله للبشر هذا الغيب ليكون رسولاً ؟ ولو حدث ذلك فلا بد أن يجعله الحق في صورة بشرية .

ففي آية أخرى يقول الحق

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

إنهم طلبوا أن ينزل الله عليهم مَلَكاً، ولو استجاب الله لهم وأرسل رسوله ملكاً لتجسد المَلَك في صورة بشرية، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فمهمة الرسول هي البلاغ ولنا فيه الأسوة .

وتتابع الآية : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ، لأن الأمر الشكلي قد يجوز على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه، ولكن الله ينظر إلينا بقيوميته، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم وفي هذا القول تحدٍّ للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم، فإن كتم الإنسان الكفر في قلبه وأظهر الإيمـان الشكلي، فسوف ينال عقاب الله، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ينهانا عن أن نحكم بكفر إنسـان أعلن الإيمان ولو نفـاقاً. وقد أبلغنـا صلى الله عليه وسلم أنه بشـر، وعرف أن البشرية محدودة القدرة. ولذلك قال : «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مـا أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ليأخذها أو ليتركها »[1]

هكذا يحذرنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن نظن فيـه قدرة فوق قدرة البشر وعندما قـتل صحابي رجـلاً أعلن الإيمان قال له رسـول الله صلى الله عليه وسلم «هلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه »[2] إذن فنحن لنا الظاهر، أما السرائر فأمرها موكول إلى الله . ولذلك يقول الله : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطي للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقـوتة بحياته وزمنه، ولكن الباقي في الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كـفر . والكتمان غيـر الإخفاء فكتم الشيء يعني أن الشيء ظاهر الوضـوح ولكن صاحبـه يكتمه، أمـا الإخفاء فـهو مـا يدور بالخواطر، ويمكن أن يخفـيـه الإنسان، ولـكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك، فالشاعر العربي يقول :

ومهـمـا تـكُنْ عند امـرئ من خليـقـةٍ
وإن خـالـهـا ، تخفـى على الناس تُعْلَمِ

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد

ويقال : يكاد المريب أن يقول خذونى .

ومادام الحق يعلم كُلّ ما يبدى البشر وكل ما يكتمون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها ، ويجازى على السيئة بمثلها ، فماذا علينا أن نفعل؟ يأتينا القول الفصل فى أمر الله لرسوله أن يخبرنا .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

إذن فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان ما إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيب ويبتعد عن الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتى الحق إلى المحسات لنأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوى ولذلك يجلونا أن نغتر بكميات الأشياء ومقدارها ، فإن الطيب القليل هو أربى وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان خيره فى الدنيا ، ومن المؤكد أن خيره فى الآخرة أكثر بكثير مما يتصور أحد ؛ لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عُمر الدنيا فهو محدود

وكثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما ، فكل واحد يرغب فى أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ؛ لأن الإنسان تغريه الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبث فى جميع ما يأخذه الطامع ، فالذى يطمع فى حفنة من قمح - على سبيل المثال - تزيد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا القدر الخبيث . وذلك كخلط الماء الطاهر بماء نجس فتغلب النجاسة على الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكميتها وقدْرها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها ويسرها فى الخير .

والمثال الذي لا أمل من تكراره هو التلميذ الذي يكد لمدة عشرين عاماً فهو يتخرج إنساناً له مكانة لائقة ، أما التلميذ الذي يقضي عشرين عاماً في اللعب واللهو فهو يتعثر وينال مستقبلاً فاشلاً مؤلماً . إذن ، على كل منا أن يقدر النعمة بديمومتها ، ولا يغتر بكثرة الخبيث .

والمثال يتكرر في حياتنا ولا بد أن نضعه أمام أعيننا لترضى الله ولا ننساق كما يساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، فبعض الناس لا يرتضون قسمة الله في مواريثهم ، فيعطي بعضهم للذكور ولا يعطي للإناث ، أو يقلل من نصيب الإناث ، ونقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تصنع . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله في الأشياء لقال لك : «رحني ولا تزدني» ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى أن قسمة الله هي أعدل قسمة ، وإياك أن تطمع ابناً لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ؛ لأن هذا حين الطمع . فإن عاتبك على الموت وهو حي فقل لي أحد : احذر ولا تقل ما هو فوق شرع الله وأخذ ما هو فوق حقك . امض ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذي سيديم الستر لأولادك هو هذه الزيادة التي ليس لك حق فيها ؛ لأنك بهذه الزيادة ستقطع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقمتها على ما شرعه الله لستجد أن الرزق سيفيض عليك من كل جانب مادمت قد راعيت حق الله في إرادته التي حكم بها ليتم الاستطراق الأسري وتظهر العدالة الربانية ؛ لذلك يجب ألا يجترىء أحد على قسمة الله ، لذلك نقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويفكر في الاجتراء على قسمة الله : تُب إلى الله ولا يصح أن تشوه لمستقبلك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كاسب يمكنه أن يحتاط لأبنائه . فكثيراً ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء وصاروا في عوز وفاقة وفقر ، ورأينا أناساً تركهم أهلهم فقراء ، وأفاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه القائل :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)﴾

(سورة النساء)

إذن فعلى المؤمن أن يحذر الكثرة إن كان بها شيء خبيث . ولنا العبرة فى الحكاية التى حدثت مع أبى جعفر المنصور حينما بويع للخلافة ، وذهب الناس يهنئونه بإمارة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أحد الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليعكر علينا صفو يومنا ، سأبدأه قبل أن يبدأنى وقال له : عظنا يا مقاتل . قال مقاتل : أعظك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما تدركه العين ، لكن السمع متعدد ، لأن الإنسان قد يسمع أيضاً تجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : تكلم بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبدالعزيز وقد ترك أحد عشر ولداً ، وخلف ثمانية عشر ديناراً كُفن منها بخمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقى على ورثته . ومات هشام بن عبدالملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الضياع والقصور . كان نصيب الزوجات الأربع هو ثلاثمائة وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثُمن التركة فقط . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت بعينى هاتين فى يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبدالعزيز يحمل على مائة فرس فى سبيل الله ، وولداً من أولاد هشام بن عبدالملك يسأل الناس فى الطريق .

إذن فعلى كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل فى قسمة الله ..

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾

(سورة المائدة)

على المسلم ـ إذن ـ أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

﴿ لعلكم تفلحون ﴾ والفلاح ـ كما تعلم ـ مأخوذ من أمر محس وهو فلح الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . والحق سبحانه يسمى لنا كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت الأرض ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويه من كل العناصر اللازمة للزرع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لماء حبة قمح سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فاتق الله أيها المسلم ولا تتدخل في قسمة الله ، وضع أمامك هذا التوجيه الحكيم الذي ورد في الأثر : شركم من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشر.

وعلى الأبناء الذين ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بسخوة إيمانية ؛ لأن الأب حينما أحب ابناً له وزاد له في الميراث كان أحمق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازي الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطي كل ذي حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذي سيناله نتيجة تدخله لصالحه في قسمة الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١ ﴾

وهذا نهى عن السؤال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »(١) .

ونعرف أن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون فى أمر ذبح البقرة ، وتساءلوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم . ولو أنهم ذبحوا أى بقرة لكانت مقبولة منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليتيم، كان هذا اليتيم ابناً لرجل صالح وكانت له عِجْلة فأتى بها موضعاً كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر وعندما ساوموا اليتيم على ثمنها باعها لهم بملء جلدها ذهباً .

وقد شدد بعض الناس فى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبدالله بن حذافة بن قيس السهمى الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبى ؟

فأجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرضنا أن هذا السائل كان ينسب لغير أبيه ألا يكون فى ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس فى الأمور التى تؤدى بهم إلى المشقة والتعب وتسىء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهرالحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق فى شأنها : « عفا الله عنها والله غفور حليم » .

ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبى صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بألا يتعمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كى لا ينفضح عرضهم . « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها . وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد : إن النبى ليس عنده جواب . أو هى سؤال عن الأشياء التى اقترحوها ادعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة فقد حكى الله عنهم :

---
(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد ظهر من هذا القول سوء النية المبيتة منهم ، فالرسول لن يأتي بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يؤتى به من آيات ، ولكن الحق هو الذي يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يقول الحق :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمة بمن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقد سأل قوم عن ناقة وعقروها فأبادهم الله . وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم وتوعدهم الحق بعدها إن لم يؤمنوا . وكانت سنة الله مع خلقه إن اقترحوا لهم آية ولم يصدقوها فإن الحق يهلكهم أو يعذبهم . ويعطي سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم ضماناً :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن فالأسئلة التي سألوا عنها لم يجبهم عنها لأنه سبحانه قد عفا عنها . والعفو - كما نعلم - مأخوذ من عفى الأثر أي أذهب الأثر ، وعفو الله من مغفرته ورحمته

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣ ﴾

وهذه الآية جاءت في السورة التي أحل الله فيها بهيمة الأنعام ، وحرّم منها ما حرّم . فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يستبقي حياته من قوت ، وما يستبقي نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض فقد أعدّ له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدّ سبحانه لخدمته الأرض والسماء والماء والهواء ، وما فيها من ثمر وحَبٍّ ، وأوجد في الأرض من أقوات لا تنتهي إلى يوم القيامة .

ولنا أن نلتفت إلى فارق مهم بين « الخلق » ، وبين « الجَعْل » . فالخلق شيء ، والجعل شيء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم . والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته في الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعلينا - نحن الخلق - أن نخصص كل شيء لمهمته في حياته التي أرادها الله ، أي أن نترك « الجعل » لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير - على سبيل المثال - ليأكل من القاذورات وليحمي الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعلى الإنسان - إذن - أن يخصص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلاً ؛ لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذي أراده الله سيداً مستخلفاً في الكون

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرّم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضح لما حلله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرّم الله . والخالق سبحانه وتعالى هو الذي « حلق » وهو الذي « جعل » وهو القائل :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة المائدة)

وهو القائل :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً ؛ لأن ذلك عبث . ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد في الأرض تنشأ من تعدى الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما جعله الله له .

والخلق في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هي مخصصة له . ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون ، ثم تجيء بالجبن والصابون إلى المنزل ، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل ، ويطيع الجميع هذه التوجيهات . لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد في صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خطأ في الجعل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

إنّ الدعيّ هو في حقيقة أمره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابنا لك ، ويمكنه من أن يجلس في حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ، لذلك فالتبني إفساد في الجعل .

إن كل فساد ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيته ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل : ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التي خلقها ؟ ونقول . إن الذي خلقها جعلها لمهمة غير التي يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات في الغابة ، يتعجب ، ففضلات حيوان هي غذاء لحيوان آخر وسم الثعبان هو حماية وعلاج ويعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذي خلق كل شيء لم يمنحنا الإذن بذلك . وعلينا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن نوجه شيئاً إلى غير مهمته . وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات في الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار في نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً وعلى الإنسان - إذن - أن ينتبه جيداً فلا يسوى بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والبحيرة هي الناقة التي تُشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد ، لا تُرد عن مرعى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجز صوفها ، لأنهم قالوا : نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . والسائبة : وهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب ، فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام في أي مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائبة » بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هي الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملأ الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعالي ، هكذا يكون استطراق الماء ما لم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمصحات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهي لهم يستبقونها لأنها وعد بإنجاب لنتاج جديد ويكفي فحل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة في بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونها ويقال : « وصلت الأنثى أخاها » فحرمته علينا.

وفي ريفنا المصري نجد الأطفال يتمنون أن يأتي وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كي يرتووا . ذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحته المباشرة ، أما الكبار فهم يتمنون دائما أن يكون وليد البهيمة أنثى ؛ لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

و « الحام » هو الفحل الذي يُحمى ظهره من أن يُركب ، ويتركونه ليطلق كما يريد . وهو الذي لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذي نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط هذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل - ابن ابنه - يمكنه أن يلقح .

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، هي من اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يريده .

ومعنى « يفترى الكذب » أى أنه يختلق كذباً ويدعيه ليطرأ به على صدق ليخفيه فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله الخلق أن هذه الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمنهجه ، وكان من المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه ، لكن طول الزمن والغفلة هما السبب وراء نسيان الناس لبعض الأحكام ؛ لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمنهج ، وليزيلوا الكفر عن وعى الناس ، فالكافرون أناس ستروا منهج الله ، وستروا البلاغ عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَى إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنما يقال له : « هبل » إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَىّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالوصيلة والبحيرة والسائبة والحام . وكان ذلك افتراءً على منهج الله وتغييراً لمنهج الحق . وعلى فرض أنه لا منهج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة التعقل أن ينظروا في أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سليمة . ولكن قد يجهد العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فأنزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ولقائل أن يقول . ماذا إذن وُجد فى العالم أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ؛ إن الحق سبحانه يقرر مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ، لأن أمور الحياة ستتعبهم فى كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هى التى ستخلصهم من مشكلاتهم ، وعوزهم إلى أقضية تتفق مع الإسلام - مع كفرهم بالإسلام - هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه قهراً عنه . ومن لم يأخذه ديناً فسيضطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذيل الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها بقوله عز وجل : « وأكثرهم لا يعقلون » فلأنه سبحانه ينبهنا إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم

ولنا أن نتساءل : أجعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ . فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها مما خلق الله ؛ لأن الله خلقها لنأكل لحمها

وننتفع به . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذى خدمه دون حماية من ذئب ، ودون طعام يمده له ويتركه يلغ فى أرض الغير؟. إن هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذى خدم الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوىّ هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَىّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم يحملها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر فى آيات القرآن يجدها تمثل برنامجاً مطمئناً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حاسب آلى يضبط إيقاع حركة الإنسان فى الأرض بدقة تتفوق بكل المقاييس على دقة أى حاسب آلى من صنع البشر ، ذلك المسمى « كمبيوتر » إن هناك « كمبيوتر » إلهياً يهدى الإنسان من أن يضل أو يُضل ، فالسماء تعدل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائى . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

بل على الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الآباء الذين أصابتهم الغفلة . وقول الإنسان « إنما أتبع ما كان عليه آبائى » ، هو قضية منقوضة ، لأن الذى غيّر أول تغيير لم يقل:(حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضا فمن المحتمل أن الآباء لم يعقلوا ما غيروه من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾

(سورة البقرة)

إن الآية التي نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : (وإذا قيل لهم تعالوا) لم يقل الله فيها اتبعوا ولكن قال . (تعالوا) أي ارتفعوا كأنهم انحطوا وتسفّلوا بقولهم (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) إنهم بذلك يرفضون وينكرون كل ما يأتي إليهم من غير طريق تقليد الآباء ، فقد قصروا الطريق وسدوه على أنفسهم

أما آية سورة البقرة : (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) فيحتمل أن يقولوا · ونتبع كذلك ما جاء به الدين ، فالنكير أشد على من قال : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) .

وعلى هذا فالاستدراك من الله في كل آية من الآيتين جاء مناسبا لحالهم كيف ذلك ؟ لأن الذي لا يعقل يمكن أن يعلم عن طريق شخص آخر استخرج واستنبط واكتشف ، فإنه إن فاته التعقل لم يفته أن يأخذ العلم من غيره ، أما الذي لا يعلم فقد باء ورجع بالجهل ؛ لأنه لم يصل إلى العلم بنفسه ، وكذلك لم يتعلم من غيره .
وجاء - سبحانه وتعالى - بهمزة الإنكار لمسألة اتباع الآباء دون منهج الله . ونلحظ أن الحق جاء بمسألة الهداية كأمر مشترك في الآيتين ، ذلك أن الهداية من السماء ، أما التعقل والعلم فهما عمليتان إنسانيتان

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

والحق سبحانه قد قال من قبل :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة المائدة)

والقولان يدلان على أن هناك فريقين : فريقاً يسير على الضلال ، وفريقاً يسير على الهداية . وهناك معركة بين الفريقين . فهل تقوم هذه المعركة طويلاً ؟ نعم ستظل هذه المعركة طويلاً ؛ لأن أهل الضلال لا يحبون أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، وكذلك فهم يستفيدون من فساد الكون .

والمؤمن يحب الطاعة ويحاول أن يجعل أخاه المؤمن محباً للطاعة ، فإن رآه على منكر فإنه ينهاه عنه ويدفعه إلى المعروف ، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواه ، وقد يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة . وخير المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال وصدق المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال ، ونزاهة المؤمن يستفيد منها المجتمع ، وتضر أهل الضلال . أما إن كان المجتمع فاسداً فالمؤمن يشقى بفساد هذا المجتمع .

إذن فمن مصلحة المؤمن أن يعدى الخير منه إلى سواه ، حتى ينتشر الخير ويعود الخير إلى المؤمن من حركة الخير في المجتمع ، ولذلك قال الحق سبحانه : « عليكم أنفسكم » أي الزموا أنفسكم ، وكأن نفوس المؤمنين وحدة واحدة . وهو تعبير عن ضرورة شيوع الرتابة الإيمانية المتبادلة . ومثل هذا الأمر جاء في التعامل مع أموال السفهاء ، لقد قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لأن السفيه لا حق له في إدارة ماله حتى يرشد ، لأن المال في الواقع هو مال كل المسلمين ، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين ، وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ،

فإن لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حجر ، ذلك لأن أى شر ينتج من سلوك السفيه بماله إنما يعود على المجتمع ، ومن هذا فالمال يظل مال الناس يقومون على إدارته إلى أن يعود السفيه إلى رشده فيعود له حق التصرف فى ماله

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لم يقل الحق إذن « فادفعوا إليهم أموالكم » ذلك أن الرشيد أصبح مأموناً على ماله ؛ لذلك يعود المال إلى السفيه من فور عودته إلى الرشد . وكذلك قول الحق : « عليكم أنفسكم » أى أنكم يا جماعة المؤمنين كل منكم مسئول عن نفسه وعن بقية النفوس المؤمنة ، ومن هداية أن تقوّم الذى على فساد . ولا يقولنّ مؤمن : « وأنا مالى » . وتتابع الآية « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فمادمتم قد حاولتم تقويم الفساد فأنتم قد أديتم ما عليكم فى ضوء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب ؟ أى أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج الله ، فإن قاطع كلُّ المؤمنين أىَّ خارج على منهج الله فلا بد أن يرتدع ، وعلى المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم ، فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطابقاً لما فى القلب ، فيحس فاعل المنكر أنه مستهجن من غيره . وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم من يلاقيهم بمجاملات فى غير محلها ، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مقاطع من جماعة المسلمين وإن لم تغيره على يده ، فلا بد أن يرتدع ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

أى أنت ساعة تعرض عن الذين يخالفون منهج الله ، وساعة يعرض غيرك عنه ، فإن ذلك يؤذيه ، ولا يجعل الناس يستشرون فى الشر ويتفاقم ويعظم ضررهم إلا

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه

احترام المجتمع لهم . والمثال في القرى نجد أن الذي يمتلك بندقية ينال احتراماً ومجاملات تجعله يتجبر بسلاحه ، ولو أن الناس أعرضت عنه لضاعت هيبته ولعاد مرة أخرى يسلك السلوك الملتزم . وما بالقياس في أمر التغيير بالقلب ومعاملة فاعل المنكر بعدم مودة وعجبة ؟

نقول : علينا أن نستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل مرة عن هذه الآية : « عليكم أنفسكم » ، فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك - بخاصة نفسك - ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم »[1] .

وأنت حين لا تُولي منحرفاً عن منهج الله مودة ، ورحمة ، ومعروفاً تكون قد ألزمت نفسك بالإيجابية

وإذا سأل المؤمن : وكيف يقاوم الإنسان ؟ . أجاب العلماء : من فرّ من اثنين ، فقد فرّ . ومن فرّ من ثلاثة لم يفرّ . أي أن الإنسان في القتال إن واجهه شخصان ففراره هَربٌ من المواجهة . ولكن إن فرّ الإنسان وهو يواجه ثلاثة من الأعداء ، فهذه حماية للنفس وليست فراراً . واستنبط العلماء هذا الحكم من وعد الله بنصر المؤمنين إن كان أعداؤهم مثليهم أي كعددهم مرتين وذلك من قول الحق تعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هي إذن نسبة الرجل إلى الرجلين ، فإن فرّ مؤمن من أمام اثنين في أثناء القتال فقد خرج عن موعود الله بالنصر له ويسمى فاراً ويبوء ويرجع بغضب الله ويكون مآله جهنم ؛ لأن الله قد قال . (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) فقد وعد الله المقاتل المؤمن الصابر بالنصر إذا كان يقابل اثنين من الكفار . لكن إن هرب

(١) رواه أبو داود والترمذي .

من مواجهة ثلاثة فقد فعل ما يحمي حياته ؛ لأن الدين لا يدعو إلى الانتحار ؛ لذلك نقول لمن يحبون تغيير المنكرات في الدنيا : لا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة ولا تقاتلوا عدوّاً يهلككم بكثرته . واتبعوا قول النبي الصادق الأمين على استمرار أمته مادامت تتمسك بمنهج الله .

وتغيير المنكر بالقلب يتمثل ـ كما قلنا ـ في مقاطعة المنحرف مصداقاً لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ونلاحظ أن « على » حرف جر ، والكاف للمخاطب ، والميم للجمع ، و« أنفسكم » منصوبة فعليكم هي « اسم فعل » أي هي ليست اسماً على حقيقته وليست حرفاً على حقيقته ، بل هي حرف دخل على ضمير فأدى مؤدى اسم الفعل ، أو هو اسم فعل منقول من الجار والمجرور .

« عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » أي الزموها ، وحافظوا عليها ، ومن الهداية أن نعرف كيف نواجه القضايا بالعقيدة الإيمانية ، فينظر المؤمن إلى الكمية العددية للمهتدين ، والكمية العددية للضالين ؛ فإن كانت الكمية العددية متساوية فلتقبل على المواجهة . وإن كانت الكمية الضالة ضعف الكمية المؤمنة فلتقبل الكمية المؤمنة على المواجهة أيضاً . وإن كانت الكمية الضالة أكثر من الضعف فالمؤمن معذور إن حمى نفسه بعدم المواجهة ، ولكن عليه أن يقاطع كل منكر أو فاعل المنكر .

كلنا نعرف تماماً أن كل فرد يحب أن تكون له مكانة في المجتمع ، فإن رأى الإنسان أن الصيت والمكانة والذكر الحسن للصادق المستقيم فالإنسان يتجه إلى أن يكون صادقاً مستقيماً ، وإن رأى الفرد أن المكانة في المجتمع تكون للكاذب المنحرف فهو يتجه إلى أن يكون كاذباً منحرفاً ؛ لذلك على المؤمنين ألا يكرّموا إلا من يسير على المنهج الصالح . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله ـ عز وجل ـ أن يعمهم بعقابه) .

« لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً » ويطمئن الحق المؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر في حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست هي كل شيء ، بل هناك حياة أخرى نرجع فيها إلى الله ، فمن كان في جانب الله أعطاه الله خلوداً أبدياً في النعيم ، ومن كان ضد منهج الله أعطاه الله عذابَ الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه في كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفي نيته الإخلاص لكنه قد ينحرف ، فيصيبه الضرر على قدر ما انحرف

وعلى الذين يسيرون في ضوء منهج الله دائماً أن يحتفظوا بتلك القضية في بؤرة شعورهم ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان في غزوة أحد ، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين في انتصار ورأوا الأعداء في هزيمة . واتجه الرماة إلى الغنائم من فور أن رأوا انتصار المؤمنين ، فلم ينصرهم الله وهم في مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الدرس : أن يطيعوا الله والرسول في كل خطوة .

ولو أن الله سبحانه لم يقل : « إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » . فماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا نصراً لجند الله ، وهم قد دخلوا المعارك الأولى واستشهدوا ؟ لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيعطيهم حياة أخرى ، وسينبئهم الله بما فعلوا . والإنباء هنا بمعنى الجزاء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك في الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمن بما يضمن له الحياة الآخرة في نعيم الخلد والجنة ، لذلك يقول الحق سبحانه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) ﴾

الحق - سبحانه - كما سلس ودبر حياة المؤمن الدنيوية ، دبر وتولى - جل شأنه - حياته الأخروية ليلفته إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه أن يدبر أمر نفسه في مستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففي لحظة مواجهة الموت عليه ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد . وكذلك إن سافر الإنسان ضرباً في الأرض فعليه أن يوصي حتى لا يضيع على ورثته حقاً لهم ، أو يسدد ما عليه من دين ليبرئ ذمته ، وأن يُشهد على وصيته اثنين من المسلمين . أما إذا كان الإنسان يصاحب في السفر أناساً غير مسلمين فعليه أيضاً أن يُشهدهم على الوصية ، ولم يترك الحق لنا في هذا الأمر أي عذر ، بل لا بد من شهادة اثنين . والشهادة هي الأمر المشهود في الحاضر ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة البقرة)

أي أن الإنسان إذا حضر الشهر وأدركه فليصم . والشهادة تأتي بمعنى الرؤية مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾

(سورة النور)

أي أن يحضر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وتأتي الشهادة أيضاً بمعنى الحكم :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ

وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

(سورة يوسف)

إذن فالشهادة تأتي بمعانٍ متعددة . والأصل فيها المشهد ، أي الشيء الذي تشاهده . والوصية - كما تعلم - هي إيصاء بأمر يهم الموصي بالنسبة للموصي إليه والمؤمن يوصي بالخير . ويسمعه من لا يرث ، أي الذي ليس له شرعاً نصيب في التركة ، لكن قد يكون لغير الوارث سبب من أسباب المتعة مع المورّث . وعلى الرغم من ذلك فالسامع للوصية يبرىء ذمته فيبلغ ما سمع إلى الورثة ، لأن الوصية هي مسألة في نفس الموصي ، وقد لا يكون لها حيثية عند من يسمعها أو يتلقاها ولكنها ذات حيثية في نفس الذي يقولها ؛ لذلك يجعل الله الوصية قبل الدين في قوله الحق :

﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدَّيْن مقدَّم على الوصية ؛ لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ؛ لأن الدين له مُطالِب سيطالب به ، ولكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى تبرعاً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصي غير موثق بصك أو شهادة ؛ لذلك يقدمه الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا نهتم بأمر الوصية . أو يكون الذي وصى بشيء قد عاش في الحياة ويعلم مَنْ مِنَ الناس أثر في حياته علمياً أو أدبياً أو خلقياً أو اجتماعياً ؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يبارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدي المؤمن هذا الحق الأوعى لمن كان له عليه يد في دنياه . وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذي يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى في الوقت الذي يعز فيه التأكيد ، فأمر الإنسان أن يوصي بها إن كان بين أهله وقومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادي اثنين من أهل دينه ويوصيهما . وإن لم يجد أحداً من أهل دينه فليُسْمِع وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

فقد حدث أن رجلا مسلماً اسمه بديل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهمي ، كان على سفر مع غير مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع ـ احتياطياً ـ ونادى على اثنين من غير المسلمين وهما تميم الداري وعدي بن بدّاء ، وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنّ الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه إناءً مفضضاً ومُذهّباً وله قيمة . فأخذاه وباعاه بألف درهم واقتسما المبلغ ، وسلما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خبر الإناء الثمين . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء فأنكرا أي معرفة به ، وأنكرا أيضا أنهما رأيا صاحب الإناء يبيعه . وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع . وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة في أمر الوصية ، فنزل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) ﴾

(سورة المائدة)

إنه أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤديا صلوات دينهما وأن يقسما بالله ، وأن يأتي أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسول الحق من الباطل . وقد أسلم تميم الداري من بعد ذلك وقص القصة وأحضر الخمسمائة درهم التي كانت في ذمته وأتى أحدهما ثمنا لنصف الإناء وأحضر الخمسمائة درهم الأخرى التي عند عدي ليردا ثمن الإناء كله إلى أهل الميت .

ولماذا قال الله : « تحبسونهما من بعد الصلاة » ؟ إنه أمر بأن تحتجزوهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدي الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصفو نفسه بالاستعداد للصدق بعد أن وقف بين يدي الله ، ويكون في هذه الحالة أقل اجتراءً على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا

شهادة بينكم » أي الشهادة التي يختلف فيها الناس وتختلف فيها الأقوال بين طرفين ، ذلك أن كلمة « بين » تعني انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً

إن هذه الشهادة تحتاج إلى الفصل بين وجهتي النظر والذي يقوم بهذا الفصل هو من يستجوب الاثنين اللذين من ذوي العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . فإن صار الأمر الذي شهدا فيه واضحاً ، كان بها . وإن لم يكن قولهما واضح الصدق وفيه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بآيات الله ثمناً حتى لا يكونا من الآثمين

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فإن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أخفيا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، علينا أن نستدعي اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا في الشهادة ، وأن هذا الاتهام بالكذب ليس افتراء ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شهادتهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن نستقصي الصدق ، فإن ظهر لنا بدليل ما كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية ، فنأت بشاهدين

من أولياء الميت بدلا منهما . وكلمة « عثر » تعني الوقوع على شيء على غير قصد وإن عرفنا أن الإثم ظاهر من شهادة هذين الشاهدين ، علينا أن نستقصي الصدق في شهادة اثنين غيرهما من أهل الميت .

وفي الواقعة التي نزلت فيها الآية ، قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهمي فأقسما بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا وأن الشهادة التي يقدمانها هي شهادة الحق لا اعتداء ولا جور فيها على أصحاب الشهادة الأولى . ولماذا كل ذلك ؟ لأن الهدف هو أن تأتي الشهادة على الوجه الصحيح لها ، فيقول الحق .

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن الشهود الأول الذين قدموا الشهادة لأنهم حضروا لحظة الوصية عندما قاما لميت يقدمون شهادتهم بعد أن يؤدوا الصلاة وبعد أن يقسموا أن ما يقولونه هو الحق . ولا بد لهم أن يحرصوا على صدق القول حتى لا يفتضح أمر كذبهم . والشهادة كما نعرف تطلق على أي أمر محضره . والشهادة - كما نعلم - تطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها كلمة « الحضور » كقوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾

(الآية ٢٧ وجزء من الآية ٢٨ سورة الحج)

أي أن نداء الحج يسمعه الناس فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم . وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وشهادة الله هي حكم من الله . والملائكة أيضاً تشهد ، وشهادتهم هي شهادة الإقرار . وكل ذلك دشيء من أمر حاضر يستقرئه الشاهد . ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ، فتسأله النيابة فيقول ما رأى ، ويسأله محامي الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامي الدفاع فيقول ما رأى . ومادام الشاهد صادقاً فلن يخشى محاورة أي طرف يسأله . والأطراف التي تسأل الشاهد تطلب منه أن يأتي بالواقعة على أساليب مختلفة . ومادامت الواقعة صادقة تظل كما هي مهما تنوعت الأسئلة وتغيرت الأساليب ، لأن الشاهد الصادق يستوحي واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلف ويدور ويغير من أقواله . ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث في ذاكرة الشاهد عن أدق الخفايا .

وهكذا نعرف أن الشهادة تطلق على الحضور . أما إذا كان الشاهد هو الذي يملك الحكم فشهادته حكم . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : « شهد الله » . إن الله يشهد أي يحكم .

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام نرى كيف أوقع الحق بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم في الرحلة إلى مصر . وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه . وكيف كان الصراع بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير . فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۝٨١ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٨٢ ﴾

(سورة يوسف)

ونعرف أن إخوة يوسف كذبوا في المرة الأولى عندما نعوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف لكنهم صدقوا في المرة الثانية التي احتجز فيها شقيق يوسف ؛ ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم إما أهل القرية التي كانوا بها وإما رفاقهم في القافلة .

لقد أخبروا أن أخاهم قد استخرج من وعائه بعض من أدوات الملك وهو الصواع الذي كان يكال به ولهذا جاءت شهادتهم هذه المرة مطابقة للواقع ، وهو ما أخبروا به .

إذن فالشهادة هي الفيصل في التنازع . ولذلك يوصي النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشهد الرجل على أمرٍ إلا بعد أن يكون قد رآه رأي العين ، كما يرى الشمس « على مثلها فاشهد أو دَعْ »[1] .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود . وهذا تأتي الشهادة في لوازم متعددة ، فهي مرة تعني الحضور ، وهي مرة تأتي بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى الإقرار . وكلها معانٍ ملتقية .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثاني هو أمانة النقل ، ولذلك جعل الله في بعض الأحكام شهادة اثنين من النساء تعدل شهادة رجل واحد . وقد يقول قائل : كيف يساوي الإسلام بين شهادة رجل جاهل أو أمي وشهادة امرأتين قد تكون كل منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

ونقول : إن المسألة في الشهادة ليست عمل عقل ، ولكنها أمانة نقل ، وأمانة النقل لا شأن لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأة يكون دائماً أمرها مبنياً على الستر وعدم التهجم على الرجال . فقد تقع حادثة وتوجد امرأة بجانب هذه الحادثة ، وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كل التفاصيل ، على العكس من الرجل الذي يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل

(1) رواه العجلوني والعقيلي عن ابن عمر ، قال النجم : أورده الرافعي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الشهادة ؟ فقال للسائل : ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو دع . وقال الحاكم والبيهقي عن ابن عباس - مرفوعاً - : « إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع » .

ما جرى . وحين أراد الحق الشهادة من امرأتين ، لم يطلب ذلك لضعف الثقة في المرأة أو زيادة الثقة في الرجل ، ولكن لأن الشهادة ليست ابتكار عقل ولكنها حضور مشهد وأمانة نقل.

إن البعض يحاول أن يروج لمثل هذه القضايا وكأنها وسيلة للتهجم على بعض من الداعين لله ، ولذلك أقول لهم : يجب أن يفهم الإنسان منكم الفرق بين عداوته مع بعض الداعين إلى الله وأن يتعدى حدوده إلى أن يعاد الله ؛ لأن الإنسان منهم لا يرد الحكم على الداعية ، وإنما يرد الحكم على الله .

وأمر الحق سبحانه في شهادة اثنين من الرجال أن يؤديا الصلاة ، ثم يتم حبسهما لفترة ، وبعد ذلك يتم استدعاؤهما للشهادة ، فإن رد أهل الميت شهادتهما في أمر الوصية فيتم استدعاء اثنين من أولياء الميت لأداء الشهادة في شأن الوصية ، كل ذلك لماذا ؟ من أجل أن تأتي الشهادة على وجهها الصحيح الذي يُظهر كلّ الحقيقة .

ويذيل الحق القول الكريم : « واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين » وذلك بلاغ للمؤمنين كافة وإلى الناس عامة ؛ لأن الله لا يهدى إلا من خلص إلى منهج الله ، أما من يفسق فلن يعينه الله ، ذلك أن الله لا يعين كافراً ولا ظالماً ولا فاسقاً . أما من آمن بالله ، فالحق سبحانه وتعالى يعينه على هذا المنهج ويهديه إلى الصراط المستقيم .

ولماذا أنزل الله هذه الآيات بعد أن أجرى الأحداث التي تتطلبها ؟ نعرف أن الحكم إن نزل في ظرف يتطلبه ، تكون النفس إليه أشوق وبه أعلق ، مثال ذلك : كوب الماء الذي يتناوله العطشان ، إنه يتناوله بشوق ولهفة . عكس الإنسان الذي يتناول كوب الماء وهو غير عطشان ، فقد يضعه في مكان قريب منه دون أن يشربه ، وكذلك الدواء الذي يُؤتى به للمريض لحظة معاناته القصوى من المرض ، إنه يقبل عليه بلهفة مهما كان مر الطعم ، وهكذا جاءت بعض أحكام القرآن مناسبة لأحداث وقعت لتكون اللهفة على التطبيق موجودة في النفوس المؤمنة

. ويقول الحق تعالى من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وينبهنا الحق سبحانه هنا إلى ضرورة أن نستعد لليوم الذي يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب ، أي أننا علينا أن نراعي الالتزام في تكاليف المكلف الأعلى في كل عمل من أعمال الحياة ، لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل في ذلك اليوم . « ماذا أجبتم » ؟ أي كيف استجاب الناس إلى المنهج الذي دعوتم إليه ؟ وفي هذا تقريع لمن خالف الرسل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونعلم - كذلك - أن يوم المشهد الأعظم سيأتي رسولنا - صلى الله عليه وسلم - شهيداً على أمته وعلى كل الرسل السابقين عليه ، ومثال ذلك في حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الأهل ينتظرون الابن على باب لجنة الامتحان ويسألونه : كيف أجبت ؟ .

إن الأهل يطلبون من الابن أن يعطيهم تقدير الموقف إجمالياً . أما إن سألوه بماذا أجبت ؟ فمعنى هذا أنهم يطلبون منه أن يحكي لهم ماذا أجاب تفصيلياً عن كل سؤال . وسؤال الحق لرسله : « ماذا أجبتم » في الظاهر هذا سؤال للرسل ، وفي الحق إنه للمخالفين ، وكأن هذا تقريع لمن لم يؤمنوا برسالات الرسل ، ذلك أن مهمة الرسل هي البلاغ عن الله .

وبماذا يجيب الرسل يومئذ عن الله ؟ هم يجيبون الإجابة الدقيقة المتضمنة لكل أدب الإيمان : « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ويحق من يتساءل . كيف - إذن - يقولون : « لا علم لنا » على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها ؟ ونقول : لأن الآخرة فيها حساب على نوايا القلوب والسرائر ، لقد علم الرسل بالأمور العلنية من أقوال وسلوك ، ولكن الحق يحاسب على حسب النية

والسلوك ، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفى الضمائر ، وأيضا فالأنبياء قد علموا الذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم ، وإجابة الرسل هى قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شىء ، ولذلك جاء قولهم : « إنك أنت علام الغيوب » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتى بعيسى ابن مريم ليسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مخصوصة ؟

أراد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيسأل الرسل سؤالاً يوضح لنا أدب الرسل مع الحق ، ويبين لنا تقريع الحق لمن كفروا بالمنهج . أما سؤاله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم ، فذلك السؤال الخاص عن الحادثة المخصوصة ، فمرد ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه في موضع الألوهية أو بنوّة الألوهية ، وفي ذلك تعدٍ على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم السابقة أن بعضهم كفر بالرسل ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسول الذي جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض فرق اليهود قد قالوا : إن عزيرا هو ابن الله وهذه الفرقة قد انقرضت ولم يبق يهودي يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به قمة الكفر الذي لا غفران له .

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

فكان عيسى عليه السلام سيواجه السؤال ضمن الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن ذكره بعدد من النعم التي أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهي التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، والكلام في المهد بما يبرئ أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات ، وتعليم الحق له

الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرىء الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأبرص لون جسده الطبيعي وبشرته ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه ، وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدى الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذي قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر ، فمجرد كلام عيسى فى المهد هو معجزة ، والمهد - كما نعلم - هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد ؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من مكانه إن كان هناك شيء بارز فى مهده يضايقه ؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلا أن يمد يده ليزيل الحصوة النائتة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئونه له . إنه مجرد روح فى جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدى الأم ، فإن تكلم طفل فى المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التى يمكنه أن ينطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكى . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء .

وقد تكلم عيسى فى المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك ثم جاء الحق بحقيقة هى المقابل للمهد وهى الكلام فى الكهولة . فإن كان قد تكلم فى المهد إعجازاً ليبرىء أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبلغاً عن الله ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو فى المهد إلا بما قاله الحق فى القرآن الكريم

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرىء أمه الصِّدِّيقة ، ذلك لأنهم اتهموها في أعز شيء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدي أي كلام منها . واتفاقاً ما أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول .

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون في الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس في الكلام فيتكلم عيسى في المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : « وإذ علمتك الكتاب » أي علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألهمه الحكمة وهي الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها في الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآني لتمنع أي تصور لتدخل من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعاً للفتنة فقال الحق : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذي خلق الطير ؛ فلأنه الإله فهو الذي يخلق خلقاً عاماً . أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إننا نرى ذلك في التماثيل التي ينحتها المثَّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى ، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الاثنين نسل من الأكواب !

إننا نرى دائماً أن خلق الإنسان لشيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا يتسلسل ولا ينمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما

ومنحك الله من أشياء موجودة مطمورة فى الأرض أو ظاهرة . ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لننتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعيسى صنع من الطين مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بإذن من الله ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله.والفرق بين قدرة الحادث وهو العبد ، وقدرة الباقى القدير وهو الرب أمران . الأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضاً من خلقه على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبداً آخر أن يصنع شيئاً مثل الذى يصنعه .

والمثال على ذلك ، نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسياً فهو لا يقدر ، ويأتى شاب قوى ليحملَ الكرسى للطفل ، هذا الشاب إنما يعدى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعدِّ لَهُ قوته ولم يفقدها به ، ويبقى الطفل ضعيفا كما هو . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقْدِرُ من يريد على ما يريد . فبعظمته سبحانه يعدى من قدرته إلى من لا يقدر ليقْدِر والعظمة إذن فيما فعل المسيح هى أن الحق سبحانه أراد له أن يجيء فنفخ فى الطين فصار طيراً بإذن الله . وقد سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى فى ذلك عندما سأل الله .

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فسأله الله :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فقال إبراهيم : « بلى » أى أنه آمن ، وأضاف :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

والكلام هنا جهته منفكة ، فإبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى زاد إبراهيم يقيناً . ولم يسأل إبراهيم ربه : أتحيى الموتى ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له

بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يأتي بأربعة من الطير ويضمها إليه ليتعرف عليها جيداً . وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويضع كل قطعة على جبل ويناديها ، فتأتي القطع بنداء إبراهيم وقد صارت هي الطير نفسها التي كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيراً . وأراد الله لعيسى أن يبرىء الأكمه أي الذي ولد أعمى . وقد يقول قائل . إن في عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يرى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار ونقول . إن ما يحدث في عصرنا هو سبق وتقدم علم بناه على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان خرق للناموس وأراده الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجرى على عيسى شفاء الأبرص أي الذي أصابه بياض كالرقع في بشرته . وكذلك كف بني إسرائيل عنه عندما أرادو إيذاءه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذب وافتراء عليه ؛ لأنه نبي مرسل بمعجزات واضحة .

وفي هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوى ويزكي رسالته إلى قومه . فكانت نعمه أولاً عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين . قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله . والقسم الأول الذي يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثاني الذي يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التي يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه

فيكون طيراً ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : « بإذنى » أى أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان عن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المؤيدة ممن أرسله . وحتى لا يخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك بإذن من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكل ذلك خرق لناموس المادة ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر فى هذه المسائل التى أذن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية ، هذا الخرق إنما هو لتكريم النبى أو الولى أو الذى تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً ، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شىء جزئى . فالحق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

ولم نر إنساناً علاماً للغيب ولكن يُعْلِمُهُ الله بغيب من بعض غيبه ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام فى كون الله . والناموس الكونى هو الأمور والقوانين التى أطلقها الله فى الكون لتعمل لخدمة المؤمن والكافر والطائع والعاصى . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء ، إننا نجد

كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول في البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط . أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في هذا المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهي فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هي حية تسعى وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جنس إلى جنس في عصر نبغ فيه الناس في السحر ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال .

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقامَ الخشية فأوجز قائلاً

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس ، به وعرف أيضاً مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال : (ولي فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا :

﴿ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾

(من الآية ١٩ سورة طه)

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة .

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

ولذلك كان لا بد أن تُدهش المسألةُ موسى عليه السلام ، لذلك أوجس خيفة . ولكن موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون في يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة

ستبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها . لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون إلى يوم الزينة ، ويعطينا القرآن ملمحات جانبية أن نظام السخرة كان موجوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأعراف)

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقي كل منهم في فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا :

﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التي يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم في إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك مع قوم عيسى عليه السلام في الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفي بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم في الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك . والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله ، والمثال في الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحدث الإسراء في لمح البصر ، ونحن في زماننا نرى التقدم الآلي والتقني قد اخترع الصواريخ التي يمكن أن تختصر الوقت مثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تتم بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضنية . ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه لتصير معجزة في الفور واللحظة . ولنحفظ ذلك جيداً . إن المعجزة خرق اقتدار لا خرق ابتكار أي أنها خرق لنواميس الكون حدثت من اقتدار المقتدر ـ سبحانه ـ ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف .

ويمتن سبحانه على عيسى عليه السلام بذكر هذه البينات ، لكنّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر « فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » ونعلم أن الحق خلق الخلق وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم . ثم تأتي الغفلة فتبهت جزئية من جزئيات الإيمان . وتتلوها غفلة أخرى فتبهت جزئية أخرى ، وتأتي غفلة ثالثة فتصير إلى الران وهو ما يغطي القلب فلا تنفذ إليه الهداية ، وذلك بسبب

ما كسبوا وعملوا من الذنوب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

ولنستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي رواه حذيفة

« حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (أي الأثر اليسير من الشيء) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجْل (أي أثر العمل في الكف) كجمْرٍ دحرجته على رجلك فنفط فتراه مُنتبِراً (أي متورّماً) وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنّه عليّ دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه عليّ ساعيه ، وأمّا اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً »[1]

وها هو ذا الحديث الثاني الذي حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة قال حذيفة :

« كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره قالوا : أجل قال : تلك تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة . ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نُكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل

(١) رواه البخاري في الرقاق والفتن ، ومسلم في الإيمان ، والترمذي في الفتن وابن ماجه في الفتن ، وأحمد

الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والأخر أسود مرْبدٌ كالكوز مُجَخّياً ـ أى مقلوباً ـ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : « أكسْراً لا أبا لك ، فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد »[1] .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده ، لذلك تدخل بالرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد . تحدثه نفسه بفتنة

وعندما كان يتم الفساد فى الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله . ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد ويأثار الفساد . وحين يأتى منهج الهداية فهو يأخذ بأيدى المظلومين ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل والمنهج القادم من الله ؛ لأن هذا المنهج سيقطع عليهم سيل الفساد الذى يدر عليهم عائدا هو فى نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالمساواة بين كل البشر لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بـ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد كلمه تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام . وهكذا نجد أن كل رسول يأتى يبرز له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة فى الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه مسلم

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

والمثال على ذلك هو إرادة الحق في أن يجعل صيحة الإيمان في الجاهلية تأتي أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض بهم، لكن النصر لا يأتي لمحمد وهو في مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو حدث في أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه في مكة لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها ، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستبقاء هذه السيادة وبسطها على غيرهم، ولكنه ـ سبحانه ـ جعل مقام النصر ينبع من المدينة المنورة .

إنّ الصرخة أولاً جاءت في أذن السادة ثم التف حولها المستضعفون في الأرض الذين لايستطيعون حماية أنفسهم، ثم هاجروا وقوّاهم الله من بعد ذلك على الأقوياء

إننا نجد كل داع إلى الله يأتي إنما يريد استبقاء خير النبوات حتى لا يأتي الران على القلوب، وإن استبقاء هذا الخير يغضب منه الجبابرة والمتحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . والداعية إلى الله الذي لا نجد له عدواً يصيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف، والداعية الذي له أعداء له من ميراث النبوة الشيء الكثير

والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام . قالوا : « إنّ هذا إلا سحر مبين » وهذا يعنى أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة . إنه قول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمةً يدعم بها الحق الداعي إليه ؛ لأن ذلك يحفزه ويدفعه إلى الدفاع عن دين الله، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التي يؤمن بها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

وكلمة الحَوارِيّ مأخوذة من المحسات . فالحُوّارى تطلق على الدقيق النقى الخالص . وأطلقت على كل شيء نقى بمعناه خالص ، و« الحوارى » هنا تعنى المخلص والمحب لمنهج الخير . وسبحانه يقول « وإذ أوحيت » والوحى بمعناه العام هو الإعلام بخفاء ؛ أى أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أى أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أمّ موسى أن تلقى ابنها فى اليم ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام . أما وحى الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر بمعنى يلتفت بعده الموحى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك وعندما لا يصادم إلهامُ القلب أمرًا واقعا ولا يجد الإلهام ما يصادمه فى نفس الإنسان ، فهذا نوع من الوحى ، أى هو إعلام بخفاء . كأن يتوقع الرجل مقْدم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله مادام لا يصادم شيئا فى نفس أو فى الواقع ؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداما ليس من الله فالشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . وبمجرد مجيء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلصائه وساعة نرى . « إذ » فسنفهم أن معناها تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون . نحن آمنا بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

كان عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ، لأنكم مادمتم قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى . وعليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به .

وقد توقف العلماء عند قولهم : « هل يستطيع ربك » وتساءل العلماء : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ وقال العلماء أيضاً : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفاظ وسياقات الألفاظ ، وكلمة « يستطيع » بمعنى يطيع كما قالوا : استجاب بمعنى أجاب ، وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء ؟ و« استطاع » تقابل : « استجاب » وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء ، وهو الذى يطيعه كل شىء ، وهو الذى يرضخ لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب ، إنما يأمر مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشىء كن إلا ويعلم أنه يطيع ، ولا يأمره الحق أن يطيع إلا ويكون استعداده الانفعال أنه حين يسمع قول الله : « كن » فلازم أن يكون ، والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط وساعة تسمع الأمر فهي تنفعل ، ومعنى تنفعل أي تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى أو يكون معنى هل يستطيع : هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله ؟ لقد قرأ الكسائي وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربّك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربّك ، فحذف المضاف (سؤال) وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب .وقال الزمخشري ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يأتي مثله من مؤمنين معظمين لربهم

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم .

﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ، لذلك سألوا عن المائدة التي صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاته ، وأن يشهد بالإيمان عند غيره فالذي يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ـ وهو يطلب من قومهم في هذه المائدة ـ قال سبحانه

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وقوله الحق: «مائدة من السماء» إنما يعني أن هناك لله موائد منصوبة في الأرض. والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح.

والإنسان ما عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتي إلى زوجه بمخزون قد يكفيهم كأسرة لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت، فتأخذ الزوجة طوراً فتطبخه وتطهو معه الخبز والخضراوات.

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتي يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله. وكلمة «مائدة» لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام. أما إن كانت بغير طعام فتطلق عليها «خواناً»؛ لأن «المائدة» مأخوذة من مادة «الميم والألف والدال» والمائدة تميد أي تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء. أو هي تعطي مما عليها من أشياء. فالمائد هو المُعْطِي.

وقول عيسى عليه السلام يحمل بكل إطلاق القيمة، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى. إيمان عيسى هو الإيمان القوي الناضج أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة، أما الحواريون فليسوا كذلك، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ

عن الله وتم ذلك بواسطة رسول ، ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه فى سلم الإيمان درجة أعلى . إنه يتلقى عن الله ، ولهذا صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه .

إنه رسول مُصطفى مُجتبى ؛ لذلك يصحح الأمور فى مصابها اللائق فيقول . « اللهم ربنا» و« اللهم » هى فى الأصل « يا الله » ، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضناه بالميم فى آخرها ، فصارت . « اللهم » . وكأن هذا اللفظ . « اللهم » تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله فى تقديس وثقة فى أنه سبحانه يستجيب ، وهو نداء يقوم على عشق العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى حرف من حروف النداء .

إننا نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامه لله بسمة الألوهية : « اللهم » فهو كنبى مرسل يعلم تجليات صفة الله . وهى تجليات عبادة من معبود إلى عابد . أما تجليات كلمة « رب » فهى تجليات تربية من رب إلى مربوب . والفارق بين عطاء الألوهية للخلق ، وعطاء الربوبية ، هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد . والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه . أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب ، والرب هو رب للمؤمن وللكافر ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية فسبحانه يربى الماديات التى تقيم حياته

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الكافرين .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق سبحانه يبلغ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل الكفار عمن خلق السموات والأرض ، ولن يجدوا إجابة عن ذلك إلا قولهم إن الله هو الخالق . وهى إجابة الفطرة الأولى ونرى فى حياتنا أكثر من مثل على ذلك ـ ولله المثل

الأهل ـ عندما يسأل الأطفال عن شيء من الذي أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطي كل شيء هو الله ، فإن سأل الطفل أمه : ماذا سنأكل ؟ وتجيب الأم ـ على سبيل المثال ـ سنأكل بامية مثلاً . ويسأل الطفل : من أين ؟ تجيب الأم : اشتريتها وأحضرتها من بائع الخضر . ويسأل الطفل : ومن أين جاء بائع الخضر ؟ تقول : الأم : من تاجر في السوق . يسأل الطفل : ومن أين جاء التاجر ؟ تجيب الأم : من الفلاح الذي حرث الأرض وبذر فيها بذور البامية . يقول الطفل : من الذي خلق الأرض وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه الله ربنا خالق كل شيء .

لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذي يستوي فيه المؤمن والكافر ، والمؤمن هو الذي يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطي المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذي لا ينفد ، إنه يعطي المؤمن زماناً لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه ، ويأخذ المؤمن بالمنهج يقين الإشراق والإقبال على العمل في ضوء منهج الله .

لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » والتزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية . فيا من أنزلت علينا التكليف ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهي الرزق ، لكن الحواريين قدموا شريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) ، أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخر الطعام عن القيم فقال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

صحيح أن الرزق يمس الأكل ، ولكن الرزق ليس كله أكلاً فالرزق هو كل شيء نحتاج إليه وننتفع به ، فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى

بالكلمة العامة التي يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره . ويجيب الحق على دعاء عيسى ابن مريم :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وساعة يقول الحق : « إني » فهو يستخدم نون الإفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه . إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتي بنون الإفراد فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن مجال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التي تتطلب إيجاد الشيء يأتي بنون التعظيم فيقول .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال . (قال إني منزلها عليكم) ذلك أن المائدة ستنزل من السماء . ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى

ويتبع الحق ذلك بقوله : « فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » . فسبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول إن فلاناً بذاته من الرسل أفضل من فلان ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وعلينا أن نتبع الرسل ، وعندما حاول بعض من أهل

الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما يخبر القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

وقال أهل الجاهلية : لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف؟! قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القول الفصل ، فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مُصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه

وسبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد اللائق لمهمته ، ومقام الرسالة والنبوة هو الأعلى فى الدنيا والآخرة والحق سبحانه ـ وهو المنظم لأمور خلقه ـ قسّم المواهب ـ رحمة منه فيما بين العباد ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم إلى عمل الآخر وحين يرسل سبحانه رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له وللعصر الذى جاء فيه ، وما اقترح قوم آية وجاء بها الله ، ثم لم يؤمن الذين اقترحوا الآية بعد مجيئها إلا أنزل الحق سبحانه بهم العذاب الأليم وحين يطلب أتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التعنّت والتحلل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية ، ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكذلك اقترح قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات غير آيات القرآن ، على الرغم من أن آيات القرآن تقنع كل من له عقل يفكر وقلب يحس ،

وسنة الله مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهي العذاب الشديد ، ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فأذاقهم الله مُر العقاب .

وبعض من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم غالوا في طلب آيات غريبة :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكان محمد صلى الله عليه وسلم رحيماً بآله وعشيرته ، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التي أنزلها الله عليه . وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل المائدة . واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟.

إن هناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : « قال الله إني منزلها » ، وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا في مواصفاتها ، فمنهم من قال . إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وقشور ولا شوك فيها ذلك أنها مائدة من السماء ومعها خمسة أرغفة ، وعلى كل رغيف شيء مما يعرفون : رغيف عليه عسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع عليه جبن ، وخامس عليه قديد من اللحم

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر ، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أى أمر بأى صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شىء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق وهو أزلى قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة : ماضٍ : أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم ، مثل قولى « قابلنى زيد » ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحاضر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه ، أى يحصل الآن مثل قولى : « يقابلنى زيد » وأنت تقصد الحال أى أنه يقابلنى الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين . ومستقبل . أى أن يكون الحادث سوف يقع كقولى: « سيقابلنى زيد » . وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذى سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً . إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشىء ، لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث والذى يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق فى الكلمة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعنى أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل ، لا ، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : « إن شاء الله » ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة مَن يملك كل أمر وهو الله - سبحانه وتعالى - .

•

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق - سبحانه - :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾

(سورة النحل)

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتى به الله على صيغة الماضى ، ثم يقول بعد ذلك « فلا تستعجلوه » ؟ واستعجال الشىء لا يكون إلا إذا لم يكن قد حدث ، فكأن فى الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك:فلا تستعجلوه ؟

ونقول : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه . بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها . وعندما يقول سبحانه : « أتى

أمر الله ، فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألا يكون . وأي فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان ، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النساء)

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها . ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه . ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ، لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ؛ لأنهما به وجدا . والحق يأتي بالماضي لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه في أي كلام عن عيسى بن مريم على أنه « ابن مريم » وهنا يسأل الحق عيسى ـ عليه السلام ـ : « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » ونعرف أن السؤال إنما يأتي دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمس ؟ وإما أن يأتي السؤال لا ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائلُ المسئولَ .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويواخذه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله . وحاول بعض المستشرقين أن يستكثروا في القرآن فقالوا : إن هناك تناقضاً في القرآن ـ والعياذ بالله ـ واستدلوا على ذلك بقول الحق :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أي أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يعمل ويحصد ، ولكنه سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾

(سورة الرحمن)

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب في أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إنما يبلغ ما أُوحى إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى رداً على أى تزيّد من الأتباع « قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وساعة تسمع « سبحانك » فلتعرف أنها إجمال التنزيه لله ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودى كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتى ، ووجودك غير ذاتى وكل ما فيك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتى وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله فى نطاق « سبحانه » « وليس كمثله شيء » .

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها : « إن كنت قلته فقد علمته » لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأعمال « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » والكل يعلم لارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم - كذلك - أن الله يعلم خبايا الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ويقرر أن الحق

لعليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال ، وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية .

الصورة الأولى هي قوله سبحانه وتعالى : « سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » وهذا تنزيه من عيسى لربه،والصورة الثانية هي قول عيسى « إن كنت قلته فقد علمته » ، والصورة الثالثة هي : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » . إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون في النفس ؟ الذي يكون في النفس هو ما أسِرُّ به ولم يظهر ؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التي تضم الروح والجسد معا ، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضا ، ولكنها ذاته المأخوذة في نطاق التنزيه والمثال هو قول الحق :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة « نفس » منسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلنا ، فلله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله نفهمه في نطاق « ليس كمثله شيء » وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ونعلم أن لله أسماء أعطانا بعضها ، وعلم بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر ببعضها لذاته . وهناك بعض من الصفات لله تأتي لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة النساء)

ولا نقول أبداً : إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها في مقابلة يخادعون الله ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يبدر من أعداء الله .

ويختم عيسى ابن مريم قوله : « إنك أنت علاّم الغيوب » و« علاّم » هي مبالغة في ذات الحدث ، ومبالغة في تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه ، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول

ويتابع القرآن على لسان عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتبعه

ويقول :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

لقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام - من خلال قوله لربه تبارك وتعالى - المنهج الذي جاء به على الناس جميعا وبلغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد لله وأنه رسوله ، ومادام الحق علام الغيوب فهو أعلم بكل شيء حتى بما في النفس ، كأنه يثبت أيضاً أن نفسه لم تحدثه بأي خاطر من تلك الخواطر ويعلن أنه لم يبلغ إلا ما أمره به الله .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والشهيد هو الرائي الذي لا عمل له في تحريك المشهود إلى غير ما شهده

ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » وأمر توفية الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، قد ذكرناه من قبل في خواطرنا ولكن أضيف الآن بعضاً من اللمحات ، لأني أرى أن من حق كل قارئ أو متلق لهذه الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التي تغنيه عن الرجوع إلى ما سبق من قول في هذا الأمر ، وذلك حتى تتصل المعاني في ذهن القارئ .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام ضجة ، وكذلك كان لمسألة توفيّ الله له ضجة ولقد شبه الله لقتلة عيسى أنهم قتلوه ، فعندما أرادوا أن يقتلوه دخل خوخة ،

والخوخة هي باب في باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفي سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى « تطيانوس » طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطأ القوم تطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يُلقى شبهي عليه وله الجنة ؟. وكان كل حواري يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام ، فماذا إذن يريد الحواري لنفسه أكثر من الجنة ؟ وتقدم « سرجس » فألقى عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرجس . أو أن الذين ذهبوا بقتل عيسى وعرفوا أنه رفع خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القتلة بشخص وقتلوه . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود وتيقظت في نفسه ملكة التوبة فقدم نفسه بدلاً وفداء للرسول .

ومسألة التوفي - كما نعلم - هي الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل ، ونحن - المسلمين - نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السموات وعاد إلينا مرة أخرى ليكمل رسالته ؛ لذلك نصدق أمر رفع عيسى وأن الله توفاه ، أي استرده كاملاً دون نقض للبنية ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله .

وإن أمر الرفع في الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين في تلك الرحلة

نحن - إذن - نصدق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كأمر وارد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة، فالنصوص في هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة، وقد وردت في السنة النبوية المطهرة، ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا نكفر من يتأبى عليه فهمها، وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتي به الله في أسلوب لا يسبب الفتنة. وإن صدقت أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقص حكماً، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعي، أما مسألة المعراج فلم تأت نصاً في القرآن بل جاءت التزاماً لأن الحق سبحانه قال:

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

وهكذا فالإسراء آية أرضية، والمعراج آية سماوية. والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

لقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التي رآها في طريق العودة، إذن كان الإسراء آية أرضية، أما الآية السماوية وهي المعراج فجاءت التزاماً وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك. ومن يقف عقله نقول له: إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين. وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة « توفيتني » نجد « توفاه » قد تعني أماته، فالحق سبحانه يقول:

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴿١١﴾ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا

﴿ ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

إنه سبحانه يسمى النوم وفاة ، ويسميه ـ أيضاً ـ موتاً وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض ومعنى الموت في بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذي ينام إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم ويقال أيضاً عن الذين توفيت دَيني عند فلان أي أخذت دَيني كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة النساء)

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف في البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : « فلما توفيتني » أي أخذتني كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقض الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذي يُثبت صدق الإيمان .

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه في زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . ويخبرنا الحق من بعد ذلك بما جاء على لسان عيسى ابن مريم في قوله الكريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

ولقائل أن يقول : أليس في ذلك الأمر إشكالٌ واضح ؟ لقد ادّعى بعض أتباع عيسى أنهم أبلغوا من عيسى أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة في هذه الآية

ونقول : إن عيسى لم يقل : « يا رب اغفر لهم » ولكنه قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » أي أن عيسى قد ترك الأمر لطلاقة المشيئة الإلهية ، وهو كرسول من عند الله يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه ، وأن له سبحانه طلاقة القدرة ، فلا قدرة تقيده فطلاقة المشيئة موجودة وهم عباد لله باختيارهم .

إننا نعرف أن كل خلق الله هم عبيد الله . ولكن المطيعين لله والمؤمنين به خاصة هم عباد الله . إذن فالخلق نوعان : عباد الله ذهبوا لله إيماناً ومحبة وطاعة ، والنوع الثاني هم العبيد الذين يُقهرون لقاهرية سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغماً عن الله . بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار في أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادراً على أن يخلق خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يأمرهم به الله . وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة .

لكن قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقهور ولا تثبت صفة المحبة ، فالمحبة تأتي من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان . إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به . إن كل الوجود - ما عدا الإنسان - مقهور ، ولا يقدر على المعصية : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والهواء ، والسحاب وكل ما في الكون مقهور لله .

إذن لو أراد الله خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيما دون الإنسان ، أما في الإنسان فقد خلقه الله مختاراً بين الكفر والإيمان حتى يأتي بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا منهج الله ، وهم يعلمون أن الله لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به . فلا يكلف - سبحانه - أحداً بأن يموت أو يمرض ، ولا يكلف فاقد آلة الاختيار وهي العقل ، ولا يكلف من لم يبلغ رشد العقل ، لأن التكليف للإنسان لا يتم إلا بوجود

ثلاثة شروط : الأول . أن يوجد العقل ، والثانى : أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد ، والثالث : ألا تكون هناك قوة تهدد حياته وتقهره على فعل ما .

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف . وهم: المجنون وغير ناضج العقل لأنه لم يبلغ الرشد ، والمقهور بعمل فاعل . وقد أعطى الحق مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لأحد عندالله حجة ، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد الله . ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شىء فيما عدا التكاليف التى خيروا فيها .

إذن فالعباد هم الذين دخلوا العبادية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر . . أى بين المراد لله وغير المراد لله . فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم على الرغم من علمه بكفرهم : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » ؟ . ونقول : إن معنى « العبد » هو العبيد « الذى شرحناه سابقاً هو وضع الإنسان فى الدنيا وما يكون عليه فيها ، ولكن الحوار الذى نقرؤه فى القرآن بين عيسى عليه السلام والحق سبحانه وتعالى يكون فى الآخرة ، وكلنا فى الآخرة عباد طائعون .

وعندما نستقرىء كلمة « عباد » فى القرآن نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماماً . ومثال ذلك قول الحق سبحانه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الفرقان)

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد . والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين كما يقرر القرآن الكريم :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أما فى الآخرة فكلنا عباد ، وها هو الحق سبحانه يخاطب الذين أضلوا غيرهم بقوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

إن الكل عباد لله يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد الله ، ولا ولاية لأحد على أى شىء من أبعاضه وجوارحه ، فالعين التى كانت مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى الحلال أو يرى الحرام ، هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم ، وكل الأبعاض . وتكون النفس الإنسانية فى الدنيا كقائد لكل الأبعاض والجوارح تنفذ أوامر الإنسان سواء للخير أو للشر ، وسواء للطاعة أو للمعصية . لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على كل ما فعل الإنسان ، فليس لأحد مراد غير مراد الله .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

لقد انتهت مرادات البشر ويبقى مراد الله فصار الكل عباداً لله . وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » . ونعلم أيضاً أن كلمة « عبيد » تشملنا كلنا فيما نحن غير مخيرين فيه مثل إرادة التنفس أو ميعاد الميلاد أو ميعاد الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون من « العبدية » إلى « العبادية » بتنفيذ منهج الله ، أما الكافرون والعصاة فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان مخالفة لمنهج الله وحتى يثبت الحق لنا جميعاً أن الكافرين مجرد عبيد فهو يصيبهم بالمرض والعاقة والآلام النفسية العميقة ولا يجرؤ واحد منهم أن يصادم مراد الله فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم . ولذلك فالمؤمن يشكر الحق باختياره لأن الله حباه بأدوات الاختيار وجوداً ونضجاً وعدم إكراه .

ولنا أن نلحظ أننا كلنا فى يوم القيامة ـ كما قلنا من قبل ـ نصير عباداً لله فلا مراد لأحد فينا على أى شىء ، وكل المراد يكون لله . وقد أورد الحق سبحانه ما جاء على لسان عيسى عليه السلام فقال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وهذا التذييل لكلمات عيسى ابن مريم لم يأت بإعتذار أو طلب احسان من الله على الذين كفروا بالله وأشركوا به ، فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على

أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمي هؤلاء الناس قوة من دون الله ، فهو القادر العزيز، إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته .

وبعض السطحيين الذين يتلمسون الأخطاء في القرآن قالوا . ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؟. ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة في القرآن جاذبة لمعناها ، وكل معنى في القرآن عاشق لكلمته . ولذلك جاء التذييل في هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة في تعذيبهم أو في الغفران لهم ، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه ؛ لأنه - سبحانه - عزيز ، وإن غفر لهم فلا توجد قوة أعلى تسأله : كيف غفرت لهم وقد كانوا كافرين ؟

إذن فسبحانه لا يسأل عما يفعل لأنه عزيز حكيم . وأيضا فقولهم : كان الأنسب أن يقول : فإنك أنت الغفور الرحيم . نقول لهم : هي تناسب قوله ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ ولكنها لا تناسب « إن تعذبهم » فكان لابد أن يأتي تذييل الآية بما يناسب « إن تعذبهم » وبما يناسب قوله تعالى : « وإن تغفر لهم » .

والحق بعد ذلك يقول :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾

نعرف أن هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا وهناك صدق لا ينفع يوم القيمة ومثال ذلك قول إبليس اللعين كما يحكي القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

مثل هذا الصدق لا ينفع أحداً ؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف . لكن الصدق الموصول بصدق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام « إن كنت قلته فقد علمته » . ولذلك يقول الله في الصدق الموصول : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) .

ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة هو صدق موصول بصدقهم في زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه » وإن تساءل إنسان : كيف يرضى العبد عن ربه ؟.

نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم في الآخرة ينتشون بالحبور ويقولون :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الزمر)

هذه الآيه التي تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله : « ذلك الفوز العظيم » كأن هناك فوزاً سطحياً ، وفوزاً عظيماً . والفوز السطحي : هو ما يصنعه الإنسان لنفسه في دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز ، وفي الحقيقة ليس هو الفوز العظيم لأن الندم سيعقبه ، وأي لذة يعقبها الندم ليست فوزاً ؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره ، وهو نعيم مهدد بشيئين : أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم ، أو أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ، ونرى ذلك كثيراً . أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا ينتهى أحد ، ولا يقطعه شىء . ويختم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان . فالأرض وهي الملك الأسفل الذي نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان والسماء وما تحوى وتضم من الملكوت الأعلى ، هما جميعا لله مِلْكا ومُلْكاً فهو ـ سبحانه ـ الذي يملك كل شيء ويملك كذلك المالك للشيء . وقول الحق : « لله ملك السموات والأرض » ينطبق مع قول المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة المائدة)

أي أنه ليس لشيء من خلق الله أن يخرج عن مرادات الله . أما في الدنيا فقد جعل الله أسبابا في أيدى الناس ، رزق إنسان في يد إنسان آخر ، ومَلَّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب ، ولكن ليس كل مالك مَلِكاً ؛ لأن المَلِك هو الذي يملك المالك ، وهذه سنن الكون . وفي الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين . فكأن الحق أنهى هذه السورة بالحديث عن نهاية الحياة ؛ لأنه سبحانه قد بدأها بالحديث عن أحكام الله فقال :

﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

لقد تكلم سبحانه في الأحكام عن الصيد في البر والصيد في البحر وعن الحلال والحرام من الأنعام وعن النكاح ، وعن كل ما يتعلق بمسئوليات الحياة ، ومَلَّك بعضنا أمر بعض ، لكن في اليوم الآخر فالمسألة مختلفة . فبدأ السورة بأمر هو : (أوفوا بالعقود) .

إن كل أمر ورد من الآمر الأعلى ، فالمأمور يعمل أو لا يعمل . فهناك من الناس من يؤمن ومن يعصى ، ومعنى ذلك أن للمأمورين لهم حرية الاختيار ، فلو كان الأمر لا بد أن ينفذ دون اختيار لكان الآمر قد خلق الخلق وهم مفطورون على أن يعملوا فيكون بذلك قد قهرهم ، لكن الآمر الأعلى ترك هذه الأوامر لاختيار البشر ، وهم صالحون للطاعة والوفاء بالعقود ، وهم صالحون للمعصية .

لقد بدأ سبحانه السورة بمنطقة الاختيار في الإنسان التي خلقها الله ينشأ عنها التكليف . وأوضح بعد ذلك أن للاختيار أمداً محدوداً سينتهي ، ويجمع الله الناس يوم ينفع الصادقين صدقهم ويكون الأمر كله لله .

ويختم الحق السورة بقوله سبحانه : « لله ملك السموات والأرض » أي أنه سبحانه يملك الكون كله ، والكون ـ كما نعلم ـ مكون من أجناس متعددة وأول جنس في الكون هو الخادم الذي لا يُخدم هو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أي ليس لها حس وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات . والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجماد خادماً لكل ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان ، النبات يخدم الحيوان والإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان . وكل هذه الأشياء التي تخدم الإنسان لا اختيار لها ولكنها مقهورة لخدمة الإنسان ؛ فالشمس لم تغضب يوماً على البشر فلم تمدهم بحرارتها ولا المطية تأبت عن صاحبها .

والإنسان فيه قسمان : قسم مقهور للحق فلا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه أو يسيطر عليه مثل المرض أو الموت وهو في ذلك يشترك مع الحيوان والنبات والجماد ، وقسم يكون الإنسان فيه مختاراً وهو تطبيق المنهج

إننا إذا نظرنا إلى الجانب الذي قهر فيه الحق الإنسان نجده لمصلحة الإنسان فالإنسان لا يختار أن يتنفس ولا أن يسري الدم في عروقه ولا أن تعمل كليتاه ، إنه مقهور في كل ذلك . ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم مسيّرين ومقهورين في هذه النواحي ، فلم يجعل نفس أحد بيد صاحبه ولا جعل القلب يعمل بإرادة الإنسان والإنسان ـ إذن ـ مخير في مسائل التكليف فقط . وكأن الحق يذكر الإنسان أن منطقة الاختيار هي عقد بين المؤمن وربه ؛ لأن الاختيار سيسلب من العباد يوم القيامة ، ويكون كل العباد مقهورين ويصير الكائن البشري مثل الجماد والنبات والحيوان ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة المائدة)

إنَّ الإنسان يوم القيامة سيصير بلا اختيار لأن الحق استعمل « ما » هنا وهي تدل على الأشياء غير العاقلة أي التي لا اختيار لها . كان العقل له عمل في الدنيا وهو التمييز بين البدائل ، أما في الآخرة فالكل مسَاوٍ أمام خالقه . وعلمنا من قبل الفارق بين « مُلْك » و« ملكوت » . وكلنا يقرأ قول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

كأن الحق ينبهنا إلى أن العالم فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك ، وفيه ما لا يقع تحت الإحساس والإدراك . فالذي يقع تحت الحس والإدراك هو عالم المُلْك . والذي لا يقع تحت الحس والإدراك هو عالم الملكوت . ولا نعرف عن عالم الملكوت إلا ما أخبرنا به الله . وهناك في عالم الملك ما يحجبه الله عنا ، وسبحانه وحده هو القادر على كل شيء . والحق يطلب منا أن نعتبر بما في العالم المشهود من ظواهر . وله سبحانه مطلق العلم بعالم « الملكوت » أي ببواطن هذه الظواهر غير المشهودة و« الملك » و« الملكوت » موجودان في الدنيا والآخرة ، إلا أن المُلْك ظاهر والملكوت خفي .

ويوزع الحق سبحانه وتعالى أسباب الملك في الدنيا بين أيدي خلقه ، ويملك التصرف فيما بين أيدينا وفيما خفي عنا ، ويشاء الحق أن ينهي هذه المسألة من مبررات الخلافة للإنسان على الإنسان في الأرض فيقول : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » فله الملكوت ، ولكم بعض الملك أيها العباد في ظواهر نسبة الأشياء إلى أسبابها وذلك في الدنيا ، أما يوم القيامة فكل شيء ينتهي إلى الله .

ولكن لماذا قال الحق « وما فيهن » على الرغم من أن الحق استخلف الإنسان في الأرض ، والإنسان عاقل وكان من حقه أن يُغلِّب عاقل القول : ومن فيهن ؛ لأن (مَن) للعاقل ، لقد أراد الحق بذلك أن ينبهنا أن الكل أصبح لا اختيار له ، وأصبح مقهوراً على المراد منه فقد تساوى الجميع عاقلهم وغير عاقلهم فيقول لنا « وما فيهن وهو على كل شيء قدير » .

وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهي سورة مدنية ، وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم . وفيها التشريع وفيها التكاليف . وفيها الأحكام وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب

ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام ، وهي مكية . وجاءت المكية بعد المدنية فى الترتيب المصحفي حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن فى آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام . ومن المعلوم أن القرآن له « ترتيب نزولى » و« ترتيب مصحفى » . والترتيب النزولى حسب ما نزلت سور القرآن فى مكة أو المدينة . ورب قائل يقول : إن الحق أنزل هذا القول الكريم فوق عرفات وهو قوله سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

فكيف يقال ذلك ؟.

نقول : لنفهم معاً معنى الاصطلاح القائل : « مدنى » و« مكى » ، هناك آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة نزلت فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض . وجاء الاصطلاح « مكى » على الآيات التى نزلت قبل الهجرة ، وجاء الاصطلاح « المدنى » على الآيات التى نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة .

وأراد الحق أن يكون للقرآن ترتيب نزولى وترتيب مصحفى ، وقد شاء سبحانه أن يعدل بالقرآن ميزان الكون الإنسانى المضطرب ، واضطراب الكون الإنسانى إنما يكون بواسطة أناس لا يؤمنون بإله ، أو بأناس يؤمنون بإله ويشركون معه غيره فيعبدون أوثاناً ، ويقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » أو بأناس يعبدون النار ، أو بأناس تابعين لمنهج سماوى ولكن حرفوا فيه قليلاً أو كثيراً

إننا نجد أن الأقرب إلى الإيمان بالله هم الأجناس الذين آمنوا بالرسالات السابقة على رسول الله ، فقد جاءتهم الرسل ومعهم المعجزات ، ومعهم كتب المنهج ، والمنطق يقتضى أن يكون هؤلاء هم الأقرب للإيمان من غيرهم ، ولذلك كان من المطلوب أن نواجه أولاً الوثنيين ونصفى المعركة مع أهل الكتاب من بعد ذلك ؛ لأن أهل الكتاب لهم إلف بنزول منهج السماء إلى الأرض بواسطة الرسل .

إذن ففي نزول القرآن كانت الأمور المكية التي تتعلق بالعقيدة الأساسية هي الظاهرة . وهي الاعتراف بألوهية واحدة تحكم الكون . أما في المدينة فقد ناقش الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب في كل أمور الدين بعد أن استتب أمر التوحيد .

لقد كان هذا الترتيب منطقياً مع هذه الحقيقة . فقد كان في العالم موجتان اثنتان : موجة إلحاد ، وموجة تغيير في منهج الله السماوي . ولذلك كانت قلوب المسلمين مع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ، لأنهم على الأقل يؤمنون بإله ، وأن الإله يرسل الرسل ومعهم المنهج الإلهي والمعجزات الدالة على صدق رسالاتهم ، وحتى الذين انحرفوا من أهل الكتاب كانوا يتمسحون في هذا الكتاب المنزل إليهم بالرغم من أنهم حرفوه .

لقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بجانب الروم عندما واجهوا فارس . وعندما هزمت الروم حزن المسلمون وفرح الكفار ، لأن الروم كانوا أهل كتاب ، إنهم كانوا نصارى ، وكانت هزيمتهم تعني انهزام منطق السماء أمام منطق الإلحاد ، لذلك حزن المسلمون ، وفرح الكفار . وأراد الله أن يصور لنا الموقف ، وأن يوجه قلوبنا إلى الذين يؤمنون أيضاً بأن هناك إلهاً حتى ولو كانوا قد أخطأوا في تصور هذا الإله وفي البلاغ عنه ، أو أخطأوا في تأويل ما جاءت به الرسل فقال سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة الروم)

إنّ المسلمين يفرحون بنصر الروم على فارس ، لأن الروم لهم علاقة بالسماء ، والرسل ، والمناهج ، والوحي . وجعل الله الأمر واضحاً هكذا لكي يبين مواقفنا ، وليجعلها إعجازاً لكتابه ولرسوله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان موجوداً بمقر الدعوة وهو الجزيرة العربية ، وليس عنده سفارات ولا مخابرات ولا مكتب حربي حتى يأتيه بالأخبار وينبئه عن استعدادات الروم التي تجرى لرد الهزيمة .

هذا الرسول يتنبأ بخبر معركة قادمة بين الفرس والروم ، وينتصر فيها الروم ، معركة تحدث بعد سبع أو تسع سنوات . وعندما راهن سيدنا أبو بكر رضى الله عنه المشركين على ذلك ، وجعل بينه وبينهم خمس سنين أجلاً لغلبة الروم وظهورهم على الفرس ، ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل » ، فكانت مائة بعير إلى تسع سنين .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم كلام الواثقين ، لأنه ينقل الخبر عن الله ، وجعله الله قرآناً يتلى ويصلى به ، ومحفوظاً أبد الدهر ، ولا يمكن أن يكذب هذا القائل إنه ـ سبحانه ـ هو الذى يملك ميزان الكون كله ، وأى إنسان من رجالات الحرب المعاصرين لا يمكنه أن يتنبأ بمصير معركة قادمة ، على الرغم مما قد يجمع لها ويحشد من معلومات عن القوة والعدة والعتاد ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله وهو واثق تمام الوثوق مما يبلغ .

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الخصم الإلحادى ، وكان قلبه مع أهل الكتاب ، ونرى أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يستبشرون بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم يقل بعض أهل الكتاب وهم اليهود في المدينة للأوس والخزرج : قد أظل زمان نبي يبعث وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم . ولكنهم كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك ؛ لأنه سيسلب منهم السيادة ، والسلطة الزمنية .

إذن فنزول القرآن أولاً كان في مكة ، ومن بعد ذلك نزل في المدينة لكن في الترتيب المصحفي ـ كما قلنا ـ جاءت المدنيات أولاً ، وبعد ذلك جاءت المكيات . وذلك حسب ما أراد الله عندما راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن مع جبريل عليه السلام في رمضان الأخير من حياة الرسول الكريم

إنّ أصل الإيمان واحد ، وهو الإيمان بإله ، ووحى ، ورسل ، ومنهج ، وكل ذلك له فائدة إقامة نظام يحكم الحياة . وهو نظام ضرورى لتصلح حال الحياة سواء آمن الناس بإله أو كفر بعضهم . وجاء هذا النظام الذى يحكم الحياة في السور المدنية أولاً ولم يغفله الحق في بعض السور المكية . إنّ الحق شاء لرسوله أن يوحد القلوب

المؤمنة بإله واحد لولا ليواجهوا معسكر الإلحاد ، ولكن هناك من احتلف وتخلف عن مؤازرة موكب الإيمان .

وهكذا تنتهي خواطرنا حول سورة المائدة ، ومع أن سورة المائدة مدنية وسورة الأنعام مكية إلا أن السياق بين تذييل المائدة وافتتاح الأنعام فيه اتساق واضح . فالحق يقول في آخر سورة المائدة :

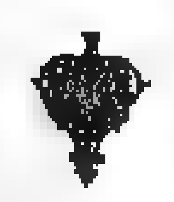
﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ويقول سبحانه في أول سورة الأنعام :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

فسبحانه وتعالى قدير ويملك كل الكون ، ولم يأخذ ذلك الملك افتئاتا أو ادعاء ، ولكنه جل شأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي جعل الظلمات والنور .







ويبدأ سبحانه سورة الأنعام بقوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① ﴾

وساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أن تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر فالحمد أمر فطرى موجود وتوجيهه لله ، فقد أخذ ـ سبحانه ـ بأيدينا ووضح وبين لنا أن الحمد لله حتى لا نختلف فى مجال توجيهه ، لأنه سبحانه هو الذى أمد كل إنسان بشىء من أسبابه .

وحين تسأل أحداً عن شىء فإن مسلسلات ما أمدك به منسوبة لله . إذن فكل حمد يجب أن يتوجه إلى الله .

واضرب هذا المثل : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ما موحش ، لا يوجد به أى شىء من أسباب الحياة ، وأراد أن يأكل ويشرب ويستر حتى ينام ، لكنه لم يجد شيئاً من هذا . وأخذته سنة من النوم ثم استيقظ فجأة فوجد مائدة عليها كل أطايب الطعام والشراب ، وبجانب ذلك وجد خيمة فيها فراش وغطاء وصنبور للغسيل . وساعة يرى كل ذلك فهو لا يبدأ فى استخدام أى شىء قبل أن يتساءل عن مصدره ، لأنه يريد أن يشكر الذى أنعم عليه كل هذه النعم السابقة . فكانت أيها الإنسان حين واجهت الكون ووجدت أشياء تخدمك ولا عمل لك فيها ، ولا للسابقين عليك عمل فيها ؛ لأن أحداً لم يدعها لنفسه ، فوجدت شمساً تشرق ، وهواء يهب ، ومياه يروى ، وأرضاً تزرع ، وغير ذلك من كل ما يخدمك ، وأخبرك

الحق أنه هو الذى منحك كل هذا ألا تشكره إذن ؟

إن البشرية عندما استفادت من المصباح الكهربى قامت الضجة لتكريم اديسون الذى اخترعه ، فما بالنا بخالق الشمس التى تنير الكون كله ؟ إن الاختراعات البشرية تخلد أصحابها وتقوم الضجة لتكريمهم . فما بالنا بخالق الكون كله ؟ ما بالنا نكرم صانع المصباح الذى ينير مساحات ضيقة مهما اتسعت بالقياس إلى الأرض ويغفل بعضنا عن تنزيه خالق الشمس التى تنير الأرض فى النهار وتختفى نصف اليوم حتى يستريح الإنسان ؟ ولكنها تسير سيرا ذاتيا ، فإن غابت عنك فقد أشرقت على غيرك فهى فى فلكها تسبح .

إذن فالحمد لله حينما استقبل الإنسان هذا الوجود ، ووجد كل مقومات الحياة التى لا يمكن أن تخضع لقوة بشر ، ولا لادعاء بشر . إن الحمد أمر واجب الوجود وإن اختلف الناس حول من يوجه له الحمد . إننا نوجهه إلى الله تعالى لأنه هو واهب النعم .

وسور القرآن التى بدأها الحالق بالحمد لله خمس سور هى : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وتتركز حول شيئين : تربية مادية بإقامة البنيان بالقوت أو بقاء النوع بالتزاوج أو بتربيتهم تربية روحية قيمية ، فيمدهم بمنهج السماء . فمرة يقول الحق « الحمد لله رب العالمين » . وكلمة « رب » تعنى أنه تولى تربية خلق إلى غاية ومهمة ، والتربية تحتاج إلى مقومات مادية ومقومات معنوية ، روحية ومنهجية ؛ لذلك يأتى بها الحق شاملة للكون كله كما فى فاتحة الكتاب :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

(سورة الفاتحة)

فهو سيد كل العالمين ومالكهم ومربيهم ، وهو الذى ينشئهم التنشئة التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البنيان وبقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم . ومرة ثانية يأتى الحق بالمنهج وحده ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾

(من الآية ١ سورة الكهف)

ومرة أخرى يأتي الحق بالأشياء المنظورة فقط فيقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ① ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

إنه سبحانه يأتي هنا بأشياء تختص بالمادة المنظورة، كالسموات والأرض، والظلمات والنور، وهي أشياء يمكنك أن تراها بوضوح، ومرة يأتي الحق بأشياء غير منظورة مع الأشياء المنظورة كقوله الحق :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ① ﴾ (من الآية ١ سورة فاطر)

ويأتي بالمجموع كله في فاتحة الكتاب، ويأتي بالمنهج فقط كما في سورة الكهف، ويأتي بالكون المادي كما في سورة الأنعام، ويأتي بالكون المادي والمعنوي كما في سورة فاطر .

إذن فالحمد مُسْتَحَقٌ مستحق، ويُوجه لله حتى ولو كانت أسبابه الظاهرة من غير الله؛ لأن كل أسباب الدنيا والكون تنصرف أخيراً إلى الله . وهنا ـ في سورة الأنعام ـ خص الحق الحمد لله خالق السموات والأرض بما فيهما من كائنات، وأتى من بعد ذلك بالظلمات والنور . والخلق كما نعلم إيجاد من عدم . والجعل يأتي لشيء مخلوق ويوجه إلى الغاية منه . ولذلك قال الحق « وجعل الظلمات والنور » والظلمة أمر عدمي، والنور أمر إيجابي، والنور يبدد الظلمة .

إذن فالأصل هو وجود الظلمة التي تختلف في ألوانها، مثال ذلك : ظلمة الكهف، وظلمة البحر، وظلمة البر، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ⑩ ﴾ (من الآية ٤٠ سورة النور)

إنها يده يعرف اتجاهها ولكنه لا يكاد يراها . إذن فالحق يخصص الحمد هنا لخالق السموات والأرض لأنها ظرف كل الكائنات. وقال العلماء : لا تأخذ الظلمة على

أما الظلمة المادية التي لا ترى فيها الأشياء لا غير ، ولا تأخذ النور على أنه النور الحسي الذي ترى به الأشياء فقط ، ولكن لنأخذ الظلمات والنور على الأمر المعنوي والأمر الحسي كذلك ـ وسبحانه ـ جعل الظلمات في هذه الآية جمعا وجعل النور مفردا ، لأن الظلمات تتعدد أسبابها لكن النور ليس له إلا سبب واحد .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

والسبل هي جمع ، وسبيل الله مفرد لأنه واحد . كأن سبل الشيطان متعددة ، وسبل النفس كذلك متعددة حسب أهوائهم ، لكن سبيل الله واحد ، لذلك يجعل الهداية نوراً والضلال ظلمات

« وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ونقول : ـ ولله المثل الأعلى ـ إنك أيها الإنسان عندما يفيض الله عليك ويجعل من بين يديك ما تعطيه من جميل إلى غيرك فأنت تقول : أنا صنعت لفلان كذا وكذا ثم ينكر من بعد ذلك . كأن « ثم » تأتي هنا للاستبعاد . إن « ثم » تأتي للعطف مثل حرف « الفاء » . ولكن الفاء تكون للتجمع بين شيئين ليست بينهما مسافة زمنية ، مثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومن يحب إنساناً ومات هذا الإنسان فهو يعجل بدفنه ، وذلك حتى لا يرم ويتعفن أمامه . ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد الإقبار

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

كأن فترة زمنية قد تطول حتى تقوم القيامة فينشر الحق خلقه . وقد يكون البعد بُعْدَ رتبة أو منزلة ، ولذلك يأتي الحق بـ « ثم » هنا كفاصلة بين خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وبين الذين كفروا بربهم ، « ثم الذين كفروا

بربهم يعدلون » إنهم الذين يساوون الله بغيره . ونستطيع أن نجعل « يعدلون » من متعلقات كفرهم . . أى أنه بسبب كفرهم يسوون الله بغيره . أو يكون المراد أنهم يعدلون أى يميلون عن الإله الحق إلى غير الإله ، أو يجعلون لله شركاء . وهو قول ينطبق على الملحدين أو المشركين بالله . لقد أوجد سبحانه السموات والأرض من عدم وليس لأحد أن يجترىء ليقول لله : كيف خلقت السموات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وأوجد سبحانه السموات والأرض من عدم ، فالسماء والأرض ظرف للكون وتم خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخلق ، ولم يشهد خلقهم أحد من الخلق ، فلا يصح أن يسأل أحد عن كيفية الخلق ، بل عليه أن يأخذ خبر الخلق من خالقها وهو الله . وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الأرض انفصلت عن الشمس ثم بردت ، وهذا مجرد ظنون لا تثبت ؛ لأن أحداً منهم لم ير خلق السموات والأرض . وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الكهف)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتى هؤلاء . وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجىء هؤلاء المضلين قبل أن يوجدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخلق ، بل طرأوا ـ مثلنا جميعاً ـ على السموات والأرض ، وكان من الواجب ألا يخوضوا فى أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه . وكذلك قولهم عن خلق الإنسان كقرد وهم لم يكونوا مع الله لحظة خلق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له ، ولذلك يعلمنا الحق الأدب معه فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وعلينا أن نأخذ خبر الخلق عن الله القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

هو سبحانه يأتي لنا بأمر الخلق فأوضح أنه خلقنا من طين ، بعد أن تكلم عن أمر خلق السموات والأرض ، وهو - سبحانه - قد أخبرنا من قبل ذلك أنه خلقنا من تراب وحمأ مسنون ومن صلصال كالفخار ، وهي متكاملات لا متقابلات ، وكذلك أوضح الحق أنه خلق كل شيء من ماء ، فاختلط الماء بالتراب فصار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً كالفخار وكلها حلقات متكاملة ونحن لم نشهد الخلق ولكننا نتلقى أمر الخلق عنه - سبحانه - ونعلم أن الطين مادة للزرع والخصوبة .

وعندما قام العلماء بتحليل الطين وجدوه يحتوي على العديد من العناصر ، وأكبر كمية من هذه العناصر هي الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم الفلور ، ثم الكلور ، ثم الصوديوم ، ثم المغنسيوم ، ثم البوتاسيوم ، ثم الحديد ، ثم السيليكون ، ثم المنجنيز وغيرها .

والعناصر في هذا الكون أكثر من مائة ، ولكنها لا تدخل كلها في تركيب الإنسان ، إنما تدخل في تركيب ما يتفع الإنسان من بناء وزينة وغير ذلك مصداقاً لقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

لقد قام أهل الكفر من العلماء بهذا التحليل وذكروا تلك النتائج التي أخبرنا بها الرسول الكريم في الكتاب المعجز الباقي المحفوظ بأمر الله كحجة مؤكدة . وصان الحق لنا هذه الحجة حتى يأتي عالم غير مؤمن ويتوصل إلى بعض من الحقائق الموجودة

فى القرآن .

ولم يحضر أحدٌ منا لحظة الخلق، ولكنا شهد الموت وهو نقض للحياة، ونقض الشيء يكون على عكس بنائه . ونرى من يهدمون بناء يبدأون بهدم آخر ما تم بناؤه وتركيبه، فيخلعون الزجاج أولاً وهو آخر ما تم تركيبه، ثم الأخشاب، ثم الأحجار، كذلك نقض الحياة بالموت . تخرج روح الإنسان أولاً ثم بعد ذلك ييبس ويجف ليصير صلصالاً كالفخار ثم حمأ مسنوناً أى يصيبه النتن والعفن ثم يتبخر منه الماء فيصير تراباً . ولذلك نحن نصدق الذى خلقنا فى أمر خلقنا ونصدقه فى أمر السموات والأرض، وعندما يقول قائل بغير ذلك، نقول له كما أخبر القرآن الكريم :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ (سورة الكهف)

ويخبرنا الحق هنا بقضية الرجل : « ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » ولا أحد منا يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء، والأجل الأول هو الأجل المحدد لكل منا، والأجل المسمى عنده هو زمن البرزخ ومن بعده نبعث من قبورنا، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿١٨٧﴾﴾ (من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وقد يعرف الإنسان مجيء مقدمات نهايته واقتراب موته بواسطة ما كشف الله عنه من أسراره بواسطة تقدم العلماء . فليس هذا من الغيب وفى بعض الحالات يصح هذا المريض ويشفى ويبرأ، ويقولون : قد حدثت معجزة . أما الأجل المسمى فلا نستطيع أن نعرفه، وحدد الحق سبحانه ذلك فى خمس مسائل :

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

وقد تكلم الحق عن المكان ولم يتكلم عن الزمان : « ثم قضى أجلاً » أى قضى أجلاً لكل واحد ، ثم جعل أجلاً لكل شيء مسمى والآجال فى الآحاد تتوارد إلى أن يأتى أجل الكل وهو يوم القيامة ، « ثم أنتم تمترون » والدلائل التى أوردها الحق كفيلة بألا تجعل أحداً يشك ، ولكن هناك من يمارى فى ذلك بعد كل هذه المقدمات

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ ﴾

والله هو علم على واجب الوجود ، وهو الاسم الذى اختاره الله لنفسه شاملاً لكل صفات الكمال ، والصفات الأخرى نحن نسميها الأسماء الحسنى ، مثل القادر ، والسميع ، والبصير ، والحى ، والقيوم ، والقهار ، كلها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهى لله ، ومن الجائز أن تضاف فى نسبتها الحادثة إلى غير الله أما اسم « الله » فلا يطلق إلا على الحق سبحانه وتعالى

ويتحدى الله الكافرين به أن يسمى أحدهم أى شىء غيره ـ « الله » ،

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وسمع الكافرون ذلك ولم يجرؤ أحدهم أن يسمى أى شيء باسم « الله » وهو لون من التحدى باق إلى قيام الساعة ولا يجرؤ أحد أن يقول عكسه أو أن يقبله فيسمى شيئاً أو كائناً غير الله ـ « الله » ،

ولا نعرف شيئاً وجد بذاته أزلا وقبل أن يوجد الكون إلا الله . أما أتفه الأشياء فى حياتنا والتى نعتبرها من غير الأساسيات فهى لا توجد بذاتها بل لا بد من صانع لها . فكوب الماء مثلا لا يؤدى ضرورة قصوى فى الحياة ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يشرب الماء بكفه أو بفمه مباشرة ، هذا الكوب احتاج من الإنسان إلى علم وإمكانات وقدرة وحكمة . وجاء العلم للإنسان بما وهبه الله للإنسان من قدرة بحث عن المادة التى فى الكون ، فنظر الإنسان إلى الرمل واكتشف وسيلة لصهر الرمال ، واكتشف وسيلة لتنقية الزجاج بمواد كيماوية ، واكتشف أسلوباً آلياً لإنتاج هذه الأكواب .

لقد أخذت رحلة صناعة الكوب من الإنسان رحلات علمية وصناعية كبيرة ، وهو غير ضرورى كضرورة قصوى فى الحياة ، إنما هو من الترف ، فما بالنا بالضروريات من شمس ، وقمر وهواء وماء ؟ هذه الأشياء - إذن - لا بد لها من صانع وإذا كان صانع أتفه شىء فى حياة الإنسانية يذهب إلى إدارة لتسجيل اختراعه ، ليستفيد منها ، فما بالنا بالذى صنع كل شىء ، ولم يصنعه ليستفيد منها ولكن ليستفيد خلقه منها .

إن البشرية تعرف من صنع المصباح وتاريخه ، وأين ولد ، وأين عاش ، وأين تعلم فما بالنا بالذى صنع الشمس والنجوم والأرض والإنسان ؟ ورحنا الحق فدل على نفسه وأخبر أنه سبحانه الذى خلق ولم يأت أحد ليعارضه سبحانه ويدعى صناعة الكون ، ومادام لا يوجد شىء له أثر إلا مؤثر ، فلا بد لنا أن نعرف أنه سبحانه مادام قد قال : إنه هو الذى خلق وأبدع ولم تنشأ معارضة له فإن قوله هو الصدق . وإن كان هناك صانع للكون ولم يعلم أن الله قد أخبرنا أنه سبحانه الذى خلق الكون فذلك الصانع نائم التافه عما صنع لا يصلح أن يكون إلهاً . وإن كان قد علم أن الله أخبرنا أنه سبحانه خلق لنا الكون ولم يبرز هذا الصانع على أن يبلغنا بالحقيقة فهذا - الصانع المدعى - ليس له حق فى الألوهية .

أما الحق سبحانه ، فقد أعلمنا وعلمنا بالدليل القطعى أنه الذى خلق الكون ، ومادام الأمر كذلك فيجب أن نستمع له ، والترجمة العملية لسماع الحق هى عبادته وطاعته فيما أمر وفيما نهى ، بل إن عالم الملكوت الذى لا نراه يحمده سبحانه . وكل شىء فى الوجود مؤتمر بأمره ويسبح بحمده .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وتدل السموات السبع والأرض وكل مَن فيهن من مخلوقات على دقة الصنعة وعلى ملكية الله لها وتنزهه سبحانه وتقدسه بأنه لا شريك له، وكل شيء له وسيلة للتسبيح والتنزيه، ولكننا لا نرى ذلك ولا نفهمه ولا نفقهه. ويبلغنا الحق هنا أنه المعبود الموجود في كل الوجود. «وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم»، ومادام معبودا فينبغي أن يكون مطاعًا في الأوامر والنواهي. ولكن بعضنا يطيع، وبعضنا يعصي. ولذلك رتب الحق على الطاعة جزاء. إما نعيماً وإما عقابٌ. وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك الشيء، وإياك أن تخلط بين إدراك الوجود، والوجود، فالذي لا تدرك وجوده إياك أن تقول إنه غير موجود.

ومثال ذلك ما نراه على مر تاريخ البشرية. لقد ترك الخالق لخلقه في الوجود أسرارا يستنبطونها فتبرز لهم بالمنافع وكانت قبل أن يعرفها البشر ويتعرفوا عليها تؤدي مهمتها في الوجود. ومثال ذلك الجاذبية الأرضية؛ لقد كانت موجودة قبل اكتشاف الإنسان لها وتؤدي عملها قبل أن يعرفها الإنسان، وجاء ذكرها في القرآن بشكل لا يثير بلبلة ساعة نزول القرآن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السموات والأرض أعمالها ويحفظها بقدرته من الزوال، وجعل من الجاذبية نظاما بديعاً يحفظ الكون من الاختلال. إذن فالجاذبية كانت موجودة، ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً، وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء.

فإذا قيل لك

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(سورة الأنعام)

فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ؛ فذات الحق لا تبصرها العيون وهو يعلم كل ما هو خفي عنك ولا تدركه عيونك . وفي الكون أشياء قد لا تدركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وجعلت في خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل في خدمتك ، فإن حدثك الحق عن شيء لا تدركه فلا تقل : مادام هذا الشيء غير مدرك فهو غير موجود . وعلى سبيل المثال أنت لا تدرك الكهرباء ، ولا الجاذبية ، ولا قمة أسرار الحياة وهي الروح التي تعطيك سر الحياة ، وتنفعل بها كل جوارحك ، وإن خرجت الروح صرت جثة هامدة ، إن أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ، ولا سمعها أحد أو شمها أو ذاقها أو لمسها . إن الروح موجودة في ذاتك ولا تدركها ، هأنتذا - إذن - لا تستطيع أن تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً فقد قدرت عليه جوارحك ، ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك ، والقادر المطلق لا يصير مقدوراً أبداً ، ومن عظمته أنه لا يُدرك

مثال آخر : الرؤيا التي تراها وتتحرك فيها . هل الرؤيا موجودة في جسمك ؟ أو ماذا ؟ والحلم وهو الصبر على غيرك بأن تتحمله وتعطف عليه وتصفح به ، هذا الحلم يجعلك تنفعل . فهل تدرك أنت هذا الحلم ؟ إنه معنى من بعض المعاني في نفسك التي تحرك جوارحك ولا تدركها . مثله مثل الشجاعة التي تصول بها وتجول ولا يراها غيرك ، ولا تعرف شكلها أو لونها أو طعمها . فالأعلى الذي يدبر هذا الكون غير مدرَك بالأبصار . والذي يُتعب الناس أنهم يحاولون الجمع بين الإدراك والوجود ، ولذلك نقول : ابحث أيها الإنسان في كونك ولسوف تجد فارقاً بين الإدراك والوجود .

ونعلم أن اسم الله نفسه وهو لفظ سمعناه لنفهم ونستدل به على أنه الخالق الأعلى وهو متحدّى به . وأنت أيها الإنسان قد اخترعت - على سبيل المثال - التليفزيون وكان من قبل أن يوجد معدوماً لا اسم له ، وصار له اسم منذ أن أوجده الإنسانُ ، صالحاً لمهمة معينة ، أما اسم الله فهو موجود وعلمه من قبلك وأخبرك به الرسل ، وهو سبحانه وتعالى له اسم في كل لغة من اللغات ، ووجود هذا الاسم في كل

اللغات بنطق مختلف هو دليل على أسبقية وجود الذات وهو الله . وبعد ذلك جاء الكفر ، وعرفنا أن الكفر كان محاولة لستر الوجود الأول ، وبذلك دلت كلمة الكفر على الإيمان . والذي يرهق الإنسان هو محاولته لحصر الموجود الأعلى في شكل طبقاً لإمكانات وحدود البشر . ولا أحد يستطيع أن يحصر وجوده سبحانه في شكل معين ؛ لأن من عظمته أننا لا نقدر على تصوره ، والإيمان به سبحانه يدل عليه وهو يقول عن نفسه ما شاء . وأحب أن تحفظوا هذا المثل وتضربوه لصغاركم .

لنفترض أن إنساناً يجلس مع أسرته في حجرة ، ثم طُرق الباب ، وكل من يجلس في الحجرة يتفق أن طارقاً بالباب ولا يختلف أحد منهم في هذه المسألة . فيقول أحد الأبناء : « الطارق محمد » ويقول الثاني : « إنه محمود » ويقول ثالث : « لا ، إنه إبراهيم » فتقول الزوجة : « إن الطارق امرأة » ، لكن أحد الأبناء يقول : « لا ، إنه رجل » فيقول الأب : « لعله شرطي جاء يسألني عن أمر » ترد الزوجة : « توقع خيراً ، إنك تصنع كل خير ولا بد أن يأتي لك كل طارق بخير » . هنا اختلفت الأسرة لا في تعقل الطارق ، ولكن في تصور الطارق . يقول الأب : « بدلاً من الحيرة لنسأله من أنت ؟ » ، فيجيب الطارق : « أنا فلان » .

وهكذا الكون ، طرأ الإنسان عليه وتساءل من الذي خلقه . ذلك أن الإنسان جاءته الغفلة بعد أن عرف آدم ربه وبعد أن أشهد الحق ذرية آدم أنه ربهم . ثم أرسل الحق الرسل ليبلغوا الخلق منهجه واسمه وصفاته . وأراد سبحانه بذلك ألا يرهق خلقه ، وأبلغ الناس من خلال الرسل أنه الخالق الأكرم .

وآفة الفلاسفة أنهم لم يكتفوا بتعقل الإله ، بل أرادوا أن يتصوروه ، وهذا أمر غير ممكن . لذلك نقول : علينا أن نستمع إلى الحق يقول ما شاء عن نفسه ولا داعي للخلاف . وسبحانه وتعالى يقول : « وهو الله في السموات وفي الأرض » وإياك أيها المسلم أن تفهم أن السماء والأرض لها ظرفية ، لأن الظرفية وعاء وحيز ، وإذا كنت لم تعلم مكان روحك في جسدك ، فكيف تعلم مكان الله ؟ لقد قصد الله بذلك القول أنه معبود في السموات ومعبود في الأرض .

ولنلحظ أن بعض آيات القرآن توقف الذهن عندها كي تظل الأذهان دائماً مشغولة بكلمات الله ، ولو جاء القرآن بكلمات يسهل على الفهم العادي إدراك

معانيها لما تجددت معاني الكتاب العظيم في كل زمان ، وكأن الحق قد قصد ذلك حتى يتثبت الناس في كل العصور من إيمانهم وها هم أولاء بعض من الذين يحاولون الخوض في القرآن تساءلوا عن معنى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

تساءلوا عن معنى التكرير أنه إله في السموات وإله في الأرض . وظن بعض السطحيين أنه قصد القول بأن هناك إلهاً في السموات وإلهاً آخر في الأرض ، ولم يفطنوا إلى أن المعنى المقصود هو . أنه إله يعبد في السماء ويعبد في الأرض ، وهو صاحب الحكمة المطلقة في كل أفعاله وهو المحيط بكل كونه . وأن الحق إنما يريد بهذا القول أن يشحذ الأذهان به

ونقول أيضاً لهؤلاء الذين لم يفهموا المعنى : هناك قاعدة في اللغة تحدد النكرة وتحدد المعرفة ؛ فعندما نقول : « جاءني الرجل » فهذا الرجل يكون معروفاً للقائل والسامع ولكن عندما نقول : « جاءني رجل » فهذا غير معروف للسامع وقد يكون معروفاً للقائل . وإذا قلنا « جاءني رجل وأكرمت رجلاً » فمعنى ذلك أن القائل يتحدث عن رجلين ؛ أحدهما جاء ، والآخر كان موضع التكريم . أما إذا قال القائل : « جاءني رجل فأكرمت الرجل » فالحديث هنا عن رجل واحد إذن فالنكرة إن أعيدت نكرة تكون مختلفة ، والنكرة إن أعيدت معرفة تكون هي بعينها وعندما قال الحق سبحانه

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾

(من الآية ٨٤ سورة الزخرف)

تصور البعض أن « إله » نكرة ، عندما أعيدت صارت غيرها ، ولو كان الأمر كذلك لصدقت الدنيا ولكن القاعدة القائلة من العلماء عرفوا روح النص وقال أهل العلم بالتوحيد لا بد لنا أن نلتفت إلى أنه سبحانه قال « وهو الذي » ، وكلمة « الذي » اسم موصول واحد يدلنا على أن الحق صلته بالسماء وبالأرض واحدة ، ولهذا نقول لمن وقفوا عند هذه الآية لا تبحثوا عن النكرة المكررة بمعزل عن الاسم الموصول ، لأن الاسم الموصول معرفة

« وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » إنه إله واحد يعلم السر والجهر ، ويترتب على هذا أساس الثواب والعقاب . فلا تظن أيها الإنسان أنك تفلت من حساب ربك ، وإن كان سبحانه يعلم السر فمن باب أولى أن يعلم الجهر . ولو قال إنه يعلم السر فقط لظن بعض الناس أنه سبحانه لا يعلم إلا المستور لكونه ـ سبحانه ـ غيبا ، ونقول : لا . هو ـ جل شأنه ـ وإن كان غيبا إلا أنه يعلم الغيب ويعلم المشهد ، أو أنه ـ سبحانه ـ لم ينتظر علمه إلى أن يبرز الشيء جهرا بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سرًا ويعلمه ويحيط به بعد أن برز وظهر ووجد وكأنه ـ سبحانه ـ يؤرخ للعلم فى ذات الإنسان الواحد « يعلم سركم وجهركم » .

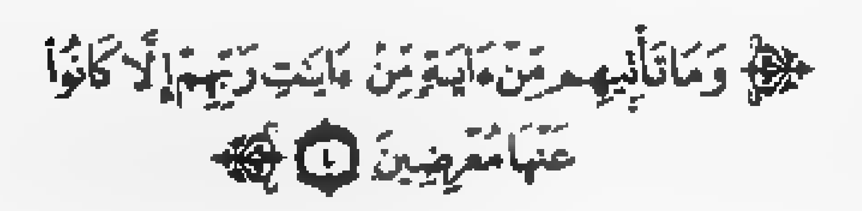
وهو سبحانه يعلمنا أنه لا يقف عند السر فقط :

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾

(سورة طه)

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم السر من قبل أن يكون سراً ، وكل أمر قبل أن يصبح جهراً يكون سراً ، وقبل أن يكون سراً هو أخفى من السر . ويذيل الحق تلك الآية بقوله . « ويعلم ما تكسبون » والكسب إنما ينشأ من عملية تجارة فى رأس مال ما والزائد عليه يكون هو الكسب ، وقد يكون الكسب خيراً أو شراً ، فالذى يكسب شراً هو الذى يأخذ فوق ما أحل الله له .

والكسب كذلك يكون خيراً ، فإن قدّم الإنسان حسنة يكسب عشر حسنات . والمتكلم هو الله الذى له الحمد لأنه خالق السموات والأرض والظلمات والنور . ولكن الكافرين يترصدون لكلمة التوحيد ، ويأتيهم الخبر بأن الحق خلقنا من طين ، ويعلم السر وما هو أخفى من السر ، ويعلم ما نكسب من خير أو شر ، ولا يؤثر ذلك كله فى المنصرفين عن دعوة الحق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يميلهم ويعطفهم إلى الصراط المستقيم ، لذلك يقول سبحانه



كأن الآيات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدق البلاغ عن ربه لا تقنعهم ، بل يعرضون عنها مع أن الواجب كان يقتضي أن يرهفوا الآذان لما يحل لهم لغز الحياة . ومازال الإعراض مستمراً حتى زماننا هذا بالرغم من أننا توصلنا إلى معرفة العمر الافتراضي لبعض الأشياء التي من صنعنا مثل مصباح الكهرباء الذي يتغير بعد كل فترة ، وغيره من الأجهزة ، ولكننا لا نعرف العمر الافتراضي للشمس ولم تحتج إلى صيانة ذات مرة ، ولم نجد من يسأل وكيف يحدث كل هذا الإعجاز ؟ .

وقد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين لنا أن الذي خلق الخلق كله يخبرنا بعظلوته ويفسر لنا الكون ، ولكن الإنسان يعرض عن ذلك .

إن أول « مطب » يقع فيه الإنسان ، أنه تأتيه الآيات التي تدل على لغز هذا الوجود من خالق الوجود ، وكيفية تدبير الكون قبل وجود الإنسان ، وكيفية جعل ما في الكون من قوت يقيم به حياته ويستبقي نوعه ، وبرغم ذلك ينصرف عن سماع كل ذلك إن الكفار لم يعرضوا فقط ، بل انتقلوا إلى المرحلة الثانية وهي التكذيب ، فلم يكتفوا بترك خبر الإيمان والإعراض عنه ولكنهم يزيدون في ذلك ما يوضحه الحق بقوله

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فهذا خروج من الإعراض إلى التكذيب ، فالإعراض أمر سلبي ، والتكذيب هو الوقوف إيجابي في موقف الصد والصد عن سبيل الله ، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثالثة وهي الاستهزاء إننا إذن أمام ثلاث مراحل . إعراض ، تكذيب ، استهزاء وكل ذلك لعلهم يصرفون المتبع عن الاتباع ومثال ذلك ما ضربه الحق لنا في أمر نوح

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة هود)

فقد أوحى سبحانه إلى نوح البلاغ الحق وأمره أن يصنع الفلك تحت عنايته سبحانه وألا يخاطبه في شأن الكافرين الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله . ويشرع نوح في إنشاء الفُلْك ، ولكن الكافرين يستهزئون به لجهلهم ولعدم الوثوق من العرض والهدف . ويسخر نوح من كل من يسخر منه .

ومثال آخر وهو انتصار الإسلام بعد أن كان أهل الكفر قوة ، ولكن المتكبر الطاغي منهم يأتي بعد صلفه وكبريائه صاغراً ، ومنهم من قتل وأسر وذاق مرارة الذل النفسي . وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة ، وهو السيد في قومه ، يأتي فيه قول الحق :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

وكان الوليد صاحب ثراء من المال وسعة وقوة من البنين ، وأعرض عن القرآن وسخر منه . فجعل الحق منه أمثولة للناس ، وطبع على أنفه علامة لازمة افتضح بها ، وكانت سُبَّةً له وعاراً لا يفرقه كلما ذكر .

وقد نزل هذا القول في القرآن وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتي خبر ضربه على أنفه الذي هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية ، ثم تأتي بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهي متحدًى به ومتعبد بتلاوته . وهكذا تصدق كل قضية يأتي بها الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا ما شاهدته قريش في رحلات الشتاء والصيف . رأوا آثار عاد قوم هود وبقايا ثمود قوم صالح . وكانت إمكانات عاد وثمود أكبر من إمكانات قريش . إن قريشاً لا سيادة لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكن لهم في الأرض . ها هي ذي حضارات قد سبقت وأبادها الحق سبحانه وتعالى ، ويوضح القرآن ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إنها حضارات كبيرة لها صيت وخبر في آذان الدنيا مثل حضارة الفراعنة . وكل ذلك الصولجان لا يحميه أحد من أمر الله . وزالت الحضارات وأصبحت أثراً بعد عين ، وصدق عليها قول الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

والحق يجازي كل كافر الجزاء الوافي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر قومه بما حدث لغيرهم من أقوام آخرين « أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن » ، والقرن عادة هو الجيل الذي يحكمه زمن محدود أو حال محدود ، فإن نظرنا إلى الزمن فالقرن مائة سنة كأقصى ما يمكن ، والجيل الذي يعيش هذا القدر يرى حفيده وقد صار رجلاً . ونعلم أن نوحاً عليه السلام عاش تسعمائة وخمسين سنة ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

وحياة نوح على طولها تسمى قرناً . إذن فالقرن هو جيل يجمعه ضابط إما زمني وإما معنوي ، والقرن الزمني مدته مائة سنة ، أما القرن المعنوي فقد يكون عمر رسالة أو مُلْك .

ويخبر الحق أهل الكفر بأنه قد قدر على غيرهم وأبادهم بعد أن مكن لهم في الأرض وذلك بألوان مختلفة من أنواع التمكين : « وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » ، وهذا الخبر يأتي من السماء بما حدث لقوم سابقين مثل قوم سبأ ، فقد قال عنهم الحق في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

ومسكن سبأ باليمن آية دالة على قدرة الله ، حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ؛ ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله . وكان لهم سد مأرب ، ووهبهم الله القدرة لبنائه ، فقطعوا من الجبال التي ليس لهم عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء ، كل شيء إذن عملوه وإنما عملوه لأن الله قد أراده ، وهم أعرضوا عن أمرين : عن الرزق الوفير الذي منحهم الله إياه ، وأرادوا أن يعتمدوا على أنفسهم كما فعل قارون حيث قال : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ ظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم وكذلك لم يشكروا الله . ولذلك أرسل الله عليهم سيل العرم ، أي أنه عقاب من جنس العمل ، وهكذا تكون عاقبة الإعراض والكفر بنعم الله . فقد

سلط الله عليهم حيوانا من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الفأر فنقب السد فأغرق أموالهم وخرب بيوتهم .

ويخبر الحق رسوله بكل هذه الأخبار ليلفت به وينبه إليهم عمن رأوا آثار حضارة عاد وثمود ، والرؤية سيدة الأدلة ، وطالبهم الرسول بها حتى يدركوا عاقبة الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ولم يطلب الحق من رسوله إلا البلاغ فقط ، أما إيمان القوم فليس مكلفاً به صلى الله عليه وسلم ، إن هؤلاء قد خافوا من سيطرة « لا إله إلا الله » فهم الذين صنعوا من أنفسهم آلهة وتسلط بعضهم على بعض . فتخيل القوي أنه إله على الضعيف ، وتخيل الغني أنه إله على الفقير ، وتخيل العالم أنه إله على الجاهل ، أما « لا إله إلا الله » فهي تساوي بين الناس جميعاً ، وهم يرفضون ذلك لأنهم يريدون السيادة .. ومثل ذلك قولهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم لم يجرؤوا على الطعن في القرآن ، إنما طلبوا أن تكون السيادة لغني من أغنياء القريتين مكة أو الطائف . وتناقض هذا القول مع عملهم وسلوكهم مع الرسول ، فقط حفظوا كل نفيس حرصوا عليه عند محمد صلى الله عليه وسلم . ولو كان الواحد منهم يرى شيئاً أو مغمزاً في أمانة رسول الله لما فعلوا ذلك . ولكن الواحد منهم بالرغم من التكذيب بمحمد لم يكن يأتمن إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالإنسان حينما تقع مصلحته أمام تكذيبه فهو يغلب مصلحته على تكذيبه .

ويبين الحق سبحانه أن إعراض هؤلاء ، وتكذيب هؤلاء واستهزاء هؤلاء ، لا يمت إلى حقيقة أمرك يا رسول الله ، ولا إلى حقيقة القرآن في شيء ، وإنما هو العناد ، مثلهم مثل آل فرعون الذين جحدوا آيات الله على الرغم من أن أعماقهم رأت هذه الآيات بيقين لا تكذيب فيه .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فقد أنكر قوم فرعون رسالة موسى عليه السلام مع أنهم تأكدوا من صدقها ، ولكنهم أنكروها بالاستكبار والعلو والظلم ، فكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ، وهذا هو حال المنكرين دائماً لآيات الله

وهاهم أولاء منكرون جدد لرسالة رسول الله . يقول الحق سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٧ ﴾

هذا الكتاب ـ القرآن ـ لو نزل إلى هؤلاء المكذبين مكتوباً في ورق من المحس المشاهد فلمسوه بأيديهم لقالوا ما قاله كل مكذب ، إنه سحر ظاهر . وقد طالب المكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى قال عنها الحق مصوراً جحودهم :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣ ﴾

(سورة الإسراء)

بعد أن وضح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يفجر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينبوعاً في أرض مكة لا ينقطع ماؤه ، أو يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بستان من نخيل وعنب ، تتخلله الأنهار ، أو أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنزل السماء عليهم قطعاً كعذاب شديد ، أو أن يتجسد لهم الله والملائكة ليروهم رأى العين ، أو أن يكون

لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه ينزه ذاته أن يتحكم فيه أحد أو أن يشاركه في قدرته فيعلن لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الإسراء)

لأن الذي يبعث الآيات هو رب العالمين ، ولا أحد يجرؤ أن يعرض على الله آياته . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مُسْتَقْبِل لآيات الله لا مقترح للآيات ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن من يقترح على الله آية ثم تأتي فيكذب بها يصيبه ويناله الهلاك ، هذه سنة الله ، ورسول الله يعلم أنه النبي الخاتم ؛ لذلك لن يطلب أي آية من الله حتى لا ينزل عقاب الله من بعدها إن كذبوا بها . ويبلغ الحق رسوله عتو المتجبرين المنكرين واستكبارهم

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق يعلم أن قلوب بعض المنكرين قد صارت غلفاً لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الباطل - كما أراد هو لهم - فلو نزّل إليهم كتاباً في قرطاس ليكون في مجال رؤية العين ولمسوه بأيديهم فلن يؤمنوا . ويأتي أمر لمس الكتاب بالأيدي ؛ لأن اللمس هو الحاسة التي يشترك فيها الجميع حتى الأعمى منهم ، وبرغم ذلك فسيكذبون قائلين : « إن هذا إلا سحر مبين » ومثل هذا الرد لا ينبع عن عقل أو تدبر أو حكمة . ولا يتناسب مع القوم الذين عُرفوا بالبلاغة والفصاحة ، وبحسن القول وصياغته ؛ لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع ، ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً بالسحر منهم فلماذا لم يسحرهم هو ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السحر ؟ والمسحور ليس له عمل ولا إرادة مع الساحر ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لصنع من السحر ما يجعلهم يؤمنون .

إن من العجيب وهم أبصر الناس بفن القول ، وهم أهل النبوغ في الأداء ،

ويعرفون القول الفصل والرأى الصحيح ويميزون بين فنون القول : خطابةً ، وكتابةً ، ونثراً ، وشعراً ، والقول المسجوع ، والقول المرسل ، من العجيب أنهم يقفون أمام معجزة القرآن مبهوتين لا يعرفون من أمرهم رشداً ، فمرة يقولون : إنه سحر ، ومرة يقولون : إنه كلام كهنة ، وثالثة يقولون إنه كلام مجنون .

والقرآن ليس سحراً ، لأنه يمسك من البيان ما يمكنون وفوق ما يملكون ويحسنون ، ولا يفعل رسول الله معهم ما يفعلهم يزعمون على الزعم منهم ، وليس القرآن كذلك بكلام كهنة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذي لم يتلق علماً من أحد ، فضلاً عن أن كلام الكهان له سمت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك . ويعلمون أنه كلام رجل عاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، وهاهو ذا الحق يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

وقد أعد الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة العقل ، لا بسعة الرأي ، وله في إبلاغ رسالة ربه ثوابٌ لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخلق العظيم والخُلُق العظيم - كي تعلم - هو استقبال لأحداث بملكات متساوية وليست متعارضة ولا يملك ذلك إلا عاقل . وقد شهدوا هم بخُلُق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يأتي هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟ كانت - إذن - كل اتهاماتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم نبع من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع لمسوه ، فكل ما قالوه في رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

وساموا - إصراراً على الكفر - يطلبون آية أخرى .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ ﴾

ما المَلَك ؟ المَلَك جنس جعله الله من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذى آمنا به قال : إن له ملائكة مثلما قال : إن هناك جناً ، والملائكة من جنس الغيب ، والجن مستور عنا . وهؤلاء المنكرون الجاحدون يطلبون نزول مَلَك حتى يؤمنوا . إذن فهم قد عرفوا أن هناك غيباً وأن فطرتهم الأولى تحمل أثراً من منطق السماء لكنهم ينكرون ، وقولهم بالمَلَك دليل على أن فى أعماقهم رواسب من دين إبراهيم ودين إسماعيل ، وبقيت تلك الآثار فى النفوس لأنها مسألة لا تمس السيادة ، ولو أنزل الحق لهم ملكاً لما آمنوا أيضاً ، فهم مكذبون . ولا يريد الحق أن يطبق عليهم سنته بنزول الآية التى يطلبونها حتى لا ينزل بهم عقابه إن كفروا بها . فلو أنزل الحق عليهم ملكاً كما يطلبون ثم كفروا لقضى الأمر وأهلكوا بدون إمهال . إذ لو تجلى الملك لهم وظهر على طبيعته ما تحملته كياناتهم البشرية .

ولقد نزل الملَكُ بآثاره الداهمة وهو حيث أنزله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل فى رسول الله ما فعل ، ولم يظهر من عمله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أثره فحسب . وها هو ذا رسول الله يشرح لنا تلك اللحظة لمجيء الملك أول مرة فى غار حراء .

قال الملك : اقرأ

(فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فؤاده ودخل على زوجه السيدة خديجة بنت خويلد ، فقال : (زملونى زملونى) فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهى تعدد صفات وخلق رسول الله العظيمة : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر »(١) .

---

(١) رواه البخارى

هكذا كان الإيمان الأول من خديجة من فور أن عرفت خبر الوحي ويطمئن الحق رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

(سورة الشرح)

وشرح الله صدر رسوله فصار هذا الصدر مهبط الأسرار والعلم وحط عن ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقال ، وارتبط اسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسم رسول الله مقروناً باسمه - جل شأنه - في الشهادة الأولى للإسلام « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

إذن كان هذا حال رسول الله حين تجلى له الملك لا بالحقيقة الملكية ، ذلك أن هناك فارقاً بين البيان البشري والبيان الملكي . فالبيان البشري يستقبل الأشياء المادية التي تناسب تكوينه ، فإن جاءت له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أن يستقبلها إلا إذا أعد الله الملك وصوّره بصورة تجعله قابلاً للإرسال ، وأعد الله الرسول ليكون قابلاً للاستقبال . ونعلم جميعاً قصة موسى لما جاء لميقات ربه ، ويقول الله في وصف ذلك اللقاء :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ ﴾

(سورة الأعراف)

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله ، فعندما تجلى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً ، أي مفتتاً وخر موسى عليه السلام مصعوقاً من هول ما رأى ، ولما أفاق تاب إلى الله وأعلن أنه أول المؤمنين به سبحانه فإذا كان الإنسان قد صعق من تجلي الحق للجبل ، فكيف يقدر على أن يتجلى الحق له ؟

إننا نعلم أن كل تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء، وضربنا لذلك مثلاً من دنيانا العلمية ـ ولله المثل الأعلى دائماً وهو منزه عن كل مثال ـ نجد الإنسان منا عندما يدخل الكهرباء إلى بيته لرغبته في الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة، فيطفىء المصابيح، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوى ؛ لذلك يأتي الإنسان بمحول للطاقة فيستقبل المحول طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويخفضها بصورة تناسب المصباح الصغير . وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف في الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

وقد من الحق علينا أنه خلق النور وخلق الظلام، وكل منهما له مهمة . فإذا كان خلقُ النور والضوء والكهرباء قد أتاح للإنسان بناء حضارة، فالظلام أتاح للإنسان أن يرتاح وتسكن نفسه فيقوم ممتلئاً بالنشاط والحيوية . وإذا كنا نحتفظ في الليل ببصيص نور لا يزعج، فنحن نفعل ذلك حتى لا نحطم الأشياء أو نصطدم بها إذا ما قمنا في الليل لقضاء حاجة

وكذلك الإنسان . . إنه لا يستطيع بضعفه أن يأخذ عن الله مباشرة . . ومن رحمة الحق بالخلق أن جعل بينه وبين الخلق وسائط، يتلقى الملك عن الله ، والملك وسيط، والملك ينقل إلى الرسول المصطفى، والرسول المصطفى وسيط، ومن تعقيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول . ويرد الله عليهم في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

[سورة الإسراء]

لقد طالبوا ـ جهلاً ـ أن ينزل إليهم ملك رسول بالهدى، ويأمر الحق رسوله أن يرد عليهم بأنه لو كان بين البشر ملائكة . أي لو كان هناك ملائكة يمشون في الأرض لنزل إليهم الملك كرسول . ولما كان هذا غير حاصل، فقد أرسل الحق

رسولاً من البشر ؛ لأن المفروض أن يُبلغ الرسول وأن يكون كذلك أسوة سلوكية للمنهج ، بأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو نزل ملك كرسول وطبق المنهج على نفسه لقال له البشر : إنك ملك تقدر على ما لا نقدر عليه وأنت لا تصلح أسوة لنا ، لذلك كان لا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم أنفسهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة

إن هذا هو ما يبطل الادعاء بألوهية عيسى عليه السلام أو بنوته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله . وأراد الحق ببشرية الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة في الرسل ، ولذلك قال : « ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر » ؛ لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات المَلَك لأنهم غير معدِّين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات . وبذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينة المَلَك على صورته الأصلية ، وقد يهلكون عند رؤيته (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي وخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ما يخلطون هم على أنفسهم فإنهم سيقولون ـ حينئذ ـ إنما أنت بشر ولست بملك ، وقد أنزل الله المَلَك على صورة البشر كما حدث مع خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول تعالى

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم بعد أن قرَّب العجل ورآهم لا يأكلون إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبر بشارة من الله ، بأن

يولد له الغلام إسحاق من زوجته « سارة » بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من « هاجر » .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول ملكاً وتمثل لها بشراً سوياً ليبشرها بحملها بعيسى عليه السلام . إذن فالملك يتجسد في صورة بشرية عندما يرسله الله في مهمة إلى البشر ، لأن الملك لا يأتي إلى البشر على حقيقته . ومن امتنان الله على رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبي ومرة في صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان ، وحدثنا عنه عبد الله بن عمر قائلاً :

(حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1]

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، وهذا الحديث من الأحاديث التي تفرّد بها مسلم عن البخاري ورواه ابن حبان في صحيحه وخرّج في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر » الخ ورواه أحمد في مسنده ، ورواه الترمذي وفيه أنه بدأ بالسؤال عن الإيمان

إذن ، فنحن ببشريتنا لا نستطيع رؤية الملك إلا بعد أن يجسده الله بشراً . ولذلك قال الحق « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » إذن فاللبس موجود بدليل أن الله أرسل الملائكة في صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ومريم ابنة عمران ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس بين قومه

ويسلي الحق سبحانه وتعالى رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

هنا يخبر الله رسوله أن أهل الكفر كثيراً ما سخروا من قبل بالرسل السابقين وأخزاهم الله بالعذاب الذي أنذر به أهل التكذيب للرسل ، فالذين يسخرون بخبر السماء يحيطهم سبحانه بالعذاب جزاء لما كانوا يستهزئون .

ويقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

نعلم أن الحق لم يقل أبداً « سيروا على الأرض » ؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مظروف في الأرض . وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومعلقة في الهواء ، والهواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يغذي النبات من ثاني أوكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان يصبر عن الطعام لأسابيع ويصبر على الماء لأيام

ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحظات . ولذلك لا يملك الله الهواء لأحد أبدا ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض . وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير في الأرض . وهذا من الإعجاز الأدائي في القرآن ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

وهنا في سورة الأنعام يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ما الفرق بين الاثنين ؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف العطف وكذلك « ثم » هي أيضاً من حروف العطف وكلتاهما حرف يفيد الترتيب ، ولكن الفارق أن الفاء تعني الترتيب مع التعقيب أي من غير تراخ ومضي مدة . مثل قولنا : جاء زيد فعمرو ، أي أن عمرا جاء من فور مجيء زيد من غير مهلة . ولكن « ثم » تعني طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فعندما يقول الحق :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فكأن النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سيرَ الاعتبار .

ويقول الحق : « قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » يعني أن الإنسان قد يسير في الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأي عمل ، وعليه أن يفكر في أثناء ذلك وأن يتأمل . إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة . والسير للاعتبار يعني أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة ، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة . وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم . وكان عليهم أن يأخذوا العبرة في أثناء سعيهم لتجارتهم .

ويقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

كأن الحق يعلّم رسوله السؤال والجواب ؛ حتى يتعلم الناس من خلال ذلك أن كُلَّ المُلْك لله ؛ لأنهم مهما بحثوا عن مالك للكون فلن يجدوا إلا الله ، حتى المكذبين منهم قال الحق عنهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وعلى الرغم من شركهم بالله لا يقدرون إلا على الإقرار بأن الله هو خالق كل شيء ؛ لأن الإنسان قد يغتر بما لذاته من اختيار ، لكن عندما ينظر لما يقع على ذاته من اضطرار فهو ينصرف فوراً على الإيمان . وقد يختار الإنسان أشياء لكنّ هناك أحداثاً تقع عليه لا اختيار له فيها وذلك ليبين الحق خلقه أنه فعال لما يريد وأنه يحكم هذا الكون وأن الاختيار ما كان إلاّ ليختبر الإنسان نفسه باتباع تكاليف الله .

والأحداث ثلاثة : حدث يقع عليك ، وحدث يقع فيك ، وحدث يقع منك وما يقع عليك ليس لك فيه اختيار ، وما يقع فيك لا اختيار لك فيه ، ولا يبقى لك إلا ثلث الأحداث وهو ما يقع منك . وأنت محكوم في ذلك بقوسين لا اختيار لك فيهما : قوس الميلاد وقوس الموت ، إذن فالأمر كله لله .

ويطمئن الحق خلقه قائلاً : « كَتَبَ على نفسه الرحمة » وهو قول ليُطَمْئِن به الحقُّ عباده حتى لا يظن الناسُ أن الله يعاقبهم دون حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

ويعفو سبحانه عن الكثير، وباب رحمته وفضله مفتوح ويفسح التوبة لكل عاص. ومن فضل الله أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون في بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سيوفاً للإسلام، وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا لحساب يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتي الكافر على رغم أنفه، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه

والكافر - والعياذ بالله - قد خسر نفسه بنفسه مصداقاً لقول الحق: ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾، وخسران النفس مترتب على عدم الإيمان؛ لأننا لو نظرنا إلى الغايات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتي قبل الغاية، ولكن في التحضير العقلي الغاية توضع قبل الوسيلة، فالذي يستذكر إنما يستحضر في ذهنه الغاية وهي النجاح، فيبذل الجهد لينجح؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو وقع بين أمرين، بين جواب دافع، وجواب واقع؛ فالنجاح دافع للمذاكرة، والمذاكرة تجعل النجاح واقعاً، ويقول ابن الرومي:

ألا مَنْ يُريني غايتي قَبْلَ مذهبي
ومِنْ أين والغايات بعد المذاهب؟

وهذا القول منه غير سديد؛ لأن الإنسان عليه أن ينتبه إلى الغاية وأن يتعرف على الوسيلة التي توصله إلى الغاية، وإذا كانت الغاية أن يذهب الإنسان إلى الله، والوسيلة هي المنهج، فلماذا الحيرة إذن؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهي الذهاب إلى الله والنزول على حكمه، عن الغاية الواقعة وهي الوسيلة، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أتى لهم بالمنهج الذي يسيرون عليه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك:

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

إن من عظمة الموجود الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل فى أول بعض الآيات : « قل هو الله » .

و« قل » هى أمر ، فكأن الحق حين يقول : « هو » فلا يمكن أن تطلق « هو » إلا على الله ولا تنصرف إلا لله « وله ما سكن فى الليل والنهار » وكلمة « سكن » هى من مادة السين والكاف والنون ، وتأتى لمعان متعددة ؛ فتكون من السكنى أى الاستيطان ، وتكون من السكون الذى هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لآدم :

﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه يقول هنا : « وله ما سكن فى الليل والنهار » فكأن الليل والنهار ظرف ، وكل الوجود مظروف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتى على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان فى الأرض يأتى عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان فى السكن فهى موجودة ، وإن أردناها من السكون ـ وهو ضد الحركة ـ فهى موجودة ؛ ذلك لأن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن فى الأرض . وهكذا نرى أن الجنس الأعم الذى يشملهما معًا هو « ما سكن » ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحينما يقول : « وله ما سكن فى الليل والنهار » ، فهو يتكلم عن الزمان ، واحتوائية الزمان للزمانيات ، أى للأشياء التى تحدث فى هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عليه حدث ، وكل ما فى الكون حدث ، وقد أحدثه حق الواجب الوجود .

ومادام الحدث قد وُجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار .

إذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لك أنه خالق المكان .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنعام)

وهكذا نعلم أن الزمان والمكان قد وُجدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون . ولا تقل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ ؛ لأن « أين » هي بحث عن مكان ، و« متى » هي بحث عن زمان . و« أين » و« متى » إنما وجدتا بعد وجود الحدث في الكون . والكون هو ظرف قار أي شيء ثابت . والزمان هو ظرف غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً ، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً

والحق سبحانه عندما قال : « وله ما سكن في الليل والنهار » أي أن له الظرفين القار وغير القار . . أي له ـ سبحانه ـ الساكن وكذلك له ما يتحرك في الكون ؛ لأن كل متحرك يؤول أمره إلى سكون أو أن قوله الحق « وله ما سكن في الليل والنهار » أي ما حل في الليل والنهار ، أي له سبحانه ما حل في الليل والنهار متحركاً كان أو ساكناً .

والحق يذيل هذه الآية بقوله : « وهو السميع العليم » فالسمع متعلق بالمسموع أي الذي له حركة ، والعلم متعلق بالمسموع والمنظور والمشموم وكل شيء من آلات الإدراك ؛ لذا جاء قوله ـ سبحانه ـ (وهو السميع العليم) ليشمل المتحرك والساكن ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شيء .

ونعلم أنه إذا أخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها في البشر فنحن نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال مبصر ولك قدرة فيقال قادر . وقد تكون ذا مال وغير فيقال : غني ولك وجود فيقال موجود . وأنت حي فيقال حي

لكن أهذه الصفات التي فيك هي عين الصفات التي في الله ؟ لا ؛ لأن صفات الله إنما نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . ونحن نشاهد ذلك في أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت وفي حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم وفي حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، وهذا البصر محدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء . وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة

ومع ذلك فالإنسان ينام ويغمض عينيه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأى شيء أدركت الألوان وعينك مغمضة ؟ إذن فمادام فى البشر رؤيا بدون عين فلا تقل عن رؤيا الله لنا إن له عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى فى إطار « ليس كمثله شىء » . إنه سبحانه وتعالى قيوم يحكم عباده فى الزمان والمكان فى حالة يقظتهم وفى حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، فنحن نجد الرجل وزوجه ينامان فى فراش واحد ، وقد يرى الرجل فى المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستيقظ كل منهما ليحكى ما رأى فى أكثر من ساعة ، على الرغم من أن مخ الإنسان لا يعمل فى أثناء النوم إلا لسبع ثوان .

إذن ، ففى النوم تلغى المعية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هى القوانين التى تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ، وعلينا أن نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء »

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

والهمزة هنا فى « أغير » يسمونها همزة الإنكار كقول قائل . أتسب أباك ؟ إنها ليست استفهاماً بقدر ما هى توبيخ ولوم . وكذلك : « أغير الله أتخذ ولياً » ، أى أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولى غير الله

إن اتخاذ الله ولياً هو أمر ضرورى ؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوى إلى من هو أشد منه قوة

ولا يتغير . إن الولى - وهو الله - قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يحول إلى جهل . إنه مُغيِّر ولا يتغير . ولذلك فمن نعمة الله علىْ خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم ، فهو صاحب الأغيار .

والحق سبحانه وتعالى يعلِّم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ؛ يضعون الأمور في نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحي الذي لا يموت . ونلحظ أن الحق هنا يأمر رسوله بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآني فيأتي البلاغ كما نزل من الحق حرفياً

مثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ (سورة الإخلاص)

ويبلغنا الرسول ﷺ بالنص القرآني كما نزل عليه ، مبتدئاً بكلمة «قل» ويبلغه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : «قل أغير الله أتخذ ولياً» . وهو الإله الذي جمعت كمالاته في الآيات السابقة ؛ الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور وله ما سكن في الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أتخذ ولياً غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليغاً عن الله ، وتعطي لهم الحرية في الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كي يجد جواباً . ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لي ركنٌ غير الله ؛ فالولي هو القريب الذي ينصر الإنسان في ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه .

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل ، فإذا ما جاء القوي ليغيث صاحب الصرخة فهو يطمئن إلى أن من جاء سيعينه ويخلصه . واتخاذ الولي أمر فطري في الكون . والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن - المؤمنين - يتخذ بعضنا بعضاً أولياء في إطار الولاية لله مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاقد الإيمانى بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التى حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة . ويؤدون حق الله فى مالهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمتثلون أوامر رسوله ، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم فى صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد .

إذن فأنت تطلب الولى لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوت له كل زوايا الحياة فيصير قوياً لا يضعف أبداً ، أو يصير غنياً لا يفتقر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم نر قوياً ثبتت له قوته ، ولا غنياً ثبتت له ثروته ؛ فالإنسان ابن الأغيار ، وتأتى له حالات فوق قدرته ؛ لذلك فهو يسأل عمن يعينه ويساعده . والمؤمن يجب أيضاً أن يكون قوياً ليساعد غيره ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه فى الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأنت فى احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف فى ناحية وغيرك قوى فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح ، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامى .

هكذا وزع الله المواهب فى الكون ، ولم يجعل من إنسان مجمعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتساند المجتمع لا بالتفضل والتكرم بل بتساند الحاجة . فكل إنسان هو سيد فى زاوية ما من زوايا الحياة ، وبقية الزوايا يسودها غيره من البشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتساندوا ويُسخر بعضهم بعضاً فى قضاء حوائج بعضهم بعضاً لتنتظم أمور الحياة . وفى هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق فلو تساوى الناس فى الذكاء ، وصاروا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذى سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذى سيقوم بأعمال وصيانة المبانى ورعاية وإطعام الحيوان والقيم على أمره ونحو ذلك من الأمور التى لا تنتظم الحياة إلا بها ؟

وكلك يرى الرجل الذى ينزح آبار المجارى ويخرج فى الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليم ، يا رزاق يا كريم ويطلب بئراً جديداً من المجارى لينزحه حتى يكسب قوت نفسه وعياله وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

إذن فاتخاذ الولى هو أمر فطرى . والإيمان بالله يصعب ذكاء اختيار الولى . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولى الذى يجده عندما يحتاج إليه ؛ لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الأغيار . فيسخر الله للمؤمن حتى عدوه ليخدمه . لذلك يلفت الحق على لسان رسوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً » والذين ينكرون علينا أن نتخذ الله ولياً ويريدون أن نتخذ غيره يرون فى أنفسهم المثل . فقد يخيب رجاؤهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً ، أو غائباً أو تغير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذى لا يغيب ولا يتغير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولى الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ؛ لأنها ولاية من الله وفى الله .

وأنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذى يُحضر لك كل زوايا المواهب ويمدها ويهيئها لتكون فى خدمتك ؛ لأنه سبحانه وتعالى فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم؛ وقد خلق الحق السموات والأرض على غير

مثال وسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج مسبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهيئة الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه . وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة ، وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (سورة غافر)

وهو سبحانه يقسم أن خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سورة الذاريات)

وفي قوله (وإنا لموسعون) إشارة إلى خلق هذا الكون المرئي وغير المرئي ؛ لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، ومن وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يدركه العقل ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هي من قدرة الله سبحانه وتعالى (وإنا لموسعون) .

ونجد الحق يستخدم كلمة : « فاطر » مرة في شيء مُصْلح ، وأخرى في شيء مفسد . والمثال للشيء المصلح هو ما يقوله الحق هنا « فاطر السموات والأرض » أي أنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وباقتدار محكم .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ (سورة الانفطار)

أي أن الحق ينبه هنا إلى يوم الهول الأعظم الذي تنشق فيه السماء وتتساقط فيه

الكواكب فلا يؤدي أي شيء منها مهمته ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ سلبها ما كانت به صالحة.

ويقول أيضاً :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ﴾ (سورة الملك)

فالحق لا يعجز من شيء ، وهو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض، فلا يرى الناظر أي خلل في هذا الخلق ، وليُعد الإنسان النظر إلى السماء فلن يجد أي خلل من شقوق أو دروق.

و«فطور» هنا معناها شقوق . إذن فالحق ـ بتمام قدرته ـ يعطي الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلق له فلا يظن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه ـ سبحانه ـ وخلق السموات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن يفطرهما ويجعلهما غير صالحتين في أي وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكَوَّر ، والنجوم تُطْمَس ، والجبال تنسف .

وقال عالم من العلماء . ما فهمت كلمة « فاطر » إلا حين جاء أعرابي ، وقال: فلان ينازعني في بئر أنا فطرته . أي أن الأعرابي هو الذي بدأ حفر البئر . إذن فاطر السموات والأرض . أي الذي خلقهما على غير مثال وسبحانه وتعالى القائل

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ (سورة الأنبياء)

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا العصر الذي نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلهُما الحق بإرادته وجعل من الماء حياة لكل كائن حي .

إذن هو سبحانه قادر على كل شيء ، ولا يخرج شيء عن نطاق قدرته . وهو

سبحانه قبل أن يمن علينا بخلق الحياة فهو يحذرنا أن يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، ولذلك قال :

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الملك)

وكأنه يـنبه الإنسان إلى أن يستقبل الحياة ، ليعرف أنه سبحانه أوجد نافض الحياة وهو الموت ، فإياك أن تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ؛ لأن هناك ناقض الحياة وهو الموت

وها هو ذا سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

والإنسان لا يرى الحيوانات المنوية المقذوفة منه في رحم زوجته ، ولا أحد يقدر على ذلك ويرعاه حتى يصير جنيناً ثم بشراً ، ولكن الحق هو المقدر والخالق ، إنه القادر الذي أعطانا الحياة وقدّر علينا الموت ولا غالب له ، إنه يبدل صورنا حين يريد ، ويحقق غيرنا وينشئنا في صور لا نعرفها ، وهو الواهب للحياة ، وهو الذي ينزعها بالموت

ويقول لنا :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هنا ينبهنا جل وعلا إلى أن الزرع الذي نأكله ، والثمار التي نجنيها من الأرض ليس لك فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبحانه الذي أودع في البذرة عجائب مختزنة ، ففي البذرة ما يقيتها إلى أن يوجد لها جذير يمتص غذاءها من الأرض ، فتنمو لها

ساق ، ثم تقوى الجذور ، وتشتد الساق . ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعن الماء يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هذا الماء العذب الذى نشربه إنما أنزله الله من السحاب الممطر وعملية الإمطار هذه غاية فى التعقيد . والماء السارى فى الأنهار إنما جاء من المطر الذى تم إنزاله من السماء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخر الماء من البحار ، وتتجمع فى سحب ثم يجرى الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطرا

ونحن عندما نقطر كوب ماء فى معمل ، نأتى بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيتبخر ، ثم نكثف قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الذهنى والمادى لبناء مثل هذا الجهاز حتى نقطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذى ينزل مدراراً وسيولاً

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه - سبحانه - بسطه على رقعة واسعة ، حتى يسهل البخر وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح متسع فى أبرد مكان فلسوف يتبخر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذى يسهل عملية البخر .

ويصعد البخار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالى الجو ثم يتكثف فى صورة قطرات صغيرة من الماء تتساقط كمطر يتفاوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعدّ لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ويذكرنا هنا سبحانه بأنه الذي خلق النار التي نشعلها ، وقد جاء بالمصدر الأول للوقود ، وهي الأخشاب التي كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً نوقدها ونشعل فيها النار . وفي كل ذلك تتجلى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى، فنسبح باسمه العظيم :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وننزهه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك في أمور الخلق والكون

إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبلغاً رسوله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأنعام)

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولي في رءوسنا وأن نُعْمِلَ أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولي أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذي يستحق أن نتخذه وليًّا؟ ونجد في تربية الحق لنا ما يعيننا على استنباط الفكرة السليمة والرأي الرشيد حين يقول لنا :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ وليًّا من البشر فهذا البشر عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد في هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حيٌّ لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : «فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » وهو الذي خلق السموات والأرض على غير مثال ، وهو الذي يطعمنا من مطمور كنوز الأرض التي أرادها قوتاً لنا . ولماذا جاء الحق هنا بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لون من الرزق ،

والورق ـ كما نعلم ـ رزق ينتفع به مباشرة ، ورزق يأتي لنا بما ننتفع به مباشرة . فلو أن إنساناً في صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب ماء ولا رغيف خبز ، فجبل الذهب لا يساوى شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة . والرزق الذى ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر فى المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو المقوّم الأساسى للحياة .

والولى الذى ينصر لا بد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذى يمدنا بالقدرة التى هى أساس الحيلة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض . فالأم تطعم طفلها وهى تَطْعَم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . والحق سبحانه وتعالى وحده هو الذى يُطعم كل الخلق ولا يُطعمه أحد . وحينما تسلسل كل عطاء فى الدنيا تجده يئول إلى الله تعالى .

إذن فلا تجعل وليّك فى الوسائط ، بل اجعله فى الغايات ؛ لأن الوسائط كلها راجعة فى الحقيقة إلى الله ، ويأتى الأمر من الحق لرسوله : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهذا الأمر يجىء من الآمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ؛ لأنه بشر مثلنا ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أول من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادئ الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائد مسلم هو القدوة لغيره ، فها هو ذا طارق بن زياد الذى فتح الأندلس وهى مُلْك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : لنا لم آمركم أمراً أنا عنه بنجوة ـ أى أنا بعيد عنه ـ بل أنا معكم ، واعلموا أنى عندما يلتقى الجمعان حامل بنفسى على طاغية القوم « لزريق » فقاتِلُهُ إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وآفة الأوامر أن كل إنسان يأمر أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد حكم نفسه أولاً لحكم الدنيا . لقد جمع أقاربه أولاً وقال لهم : إنى سأشرع للمسلمين ، والذى

نفسي بيده من خالفني منكم إلى شيء فيه لأجعلته نكالا للمسلمين .

لقد أراد عمر ـ رضوان الله عليه ـ أن يحكم أقاربه أولاً ضارباً المثل لولي أي أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يعلوهم أن يستغلوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الآفة أننا نجد الكثير من الناس تتكلم في الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادىء الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

ومعنى « أسلم » أي ألقى زمام حياته إلى من يثق في حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى وعندما كنا صغارا كنا نلقى زمام أمورنا لمن يتولى تربيتنا، ونرى الآباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون . نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فتنمو فينا الذاتية ، ونجدالمراهق وهو يرفض مثلا ارتداء البنطلون القصير ويرتدى البنطلون الطويل ويختار ألوان ملابسه في ضوء الأزياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشاب في إدارة أموره بنفسه .

وآفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نأتي لنقول : هيا لنربي الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمتلىء بطاقة يمكن أن يستغلها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطفولة . « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » . وها هوذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويخبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله

وإياكم أيها المسلمون أن تتعاظموا على مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختار هو أول من أمره الحق بذلك . وإياك أيها المسلم أن تجد غضاضة في أن تتلقى أمراً من خالقك ؛ لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمرٌ من مساوٍ لك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا بد أن يعزك وترضيه نَفْسُك ويطمئن به قلبك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حادثة ليس فيها حكم الله ، ويأتي الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكده ، وإن احتاج الحكم إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق

سبحانه وتعالى له ولا يجد غضاضة فى ذلك ، بل يبلغنا ببشاشة وصدق وأمانة أنه البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد منّ على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل فى الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين بالتخلف عن القتال قبل أن يتبين أمرهم ليعلم الصادق منهم - فى عذره - من الكاذب . وجاء العفو من الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد ببشريته وأبلغنا الرسول بما أنزله الله

ونحن فى حياتنا اليومية - ولله المثل الأعلى - نفتح كراسة الابن فنجد أن فيها شطباً بالقلم الأحمر ، فنسأل الابن : من الذى فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوبه لى المدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن تصويب من هو أعلى من المدرس وهذا شرف للتلميذ فما بالنا بالمصوِّب الأعلى سبحانه وتعالى وهاهو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

إنه الرسول المصطفى والمجتبى والمعصوم يعلن أنه يخاف الله ؛ لأن قدر الله لا يملكه أحد ، ولا يعير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد علق الخوف على شرط هو عصيان الله . لكن مادام لم يعص ربه فهو لا يخاف ووجود « إن » يدل على تعليق على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصى الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . لكن هذا القول

يأتي على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم أن هناك عذاباً عظيماً توعد به الله من يعصيه . وهو عذاب يلح على العاصي حتى يأتي إليه . ولهذا العذاب خاصية أن تكون بينه وبين العاصي جاذبية كجاذبية المغناطيس لغيره من المواد . ونجاة الإنسان من العذاب تحتاج إلى من يصرف عنه هذا اللون القاسي من العذاب ، يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

فكأن من لا يُصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلى قوة العذاب ؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدّر عليهم العذاب ويقول سبحانه

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الملك)

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذي يبدأ بسماع شهيق جهنم في أثناء فورانها . والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهي تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فقوة العذاب التي جعلها الله مهمة لجهنم هي التي تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شيء ليؤدي مهمة ، والنار مهمتها أن تمتثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك فهي تلح في طلب الذين سيتلقون العذاب ، ولا تخرج النار أبدا عن أمر الله وقدره ، فإن صرف الحق

العذاب عن عبد من العباد فالنار تمتثل لذلك الأمر . ومن يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وسبحانه فعال لما يريد ، وهو إن حاسبنا بالعدل فكل منا سيمسه شيء من عذاب جهنم ؛ ولكن رحمة الله هي التي تجعل النار لا تمس المؤمنين ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير ؛ ولأن للنار شهيقا ، فهي تستنشق المكتوب عليهم العذاب ، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير . والشهيق في الحياة يكون للهواء .

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن في الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهي إمداد الجسم بالهواء ، والإنسان ـ كما نعلم ـ لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة . ومن رحمة الله أنه لم يملك الهواء لأحد . وهذا الشهيق الذي يعطي الحياة في الأرض يوجد ـ أيضا ـ في الآخرة وهو منسوب إلى النار ، إنما تشهق لتبتلع العصاة ، وهي بذلك تؤدي مهمتها الموكولة لها . ونعرف أيضاً أن النار تؤدي مهمتها بغيظ طبقاً لما قاله الحق سبحانه :

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

فهل تؤدي النار مهمتها وهي غير راضية عنها ؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التي تؤدي مهمتها بسعادة وتسبيح ؟ إن النار تميز من الغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان ، وللنار مشاعر مثل بقية المخلوقات . وللكون كله مشاعر ؛ فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرحت بمقدم الرسول الكريم ؛ لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهي مسبحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتي البشير ليهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهي تفرح بمقدم هذا البشير

ونعرف أن المكان الذي يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً ، ويضيق المكان ـ أي مكان ـ بوجود أي عاص فيه . ونرى ذلك واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا

﴿ فَكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝ ﴾

(سورة الدخان)

والأرض التي كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التي ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهي تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها ، ولذلك لا تبكي السماء والأرض على المختلف والهلاك بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين ، بينما تبكي السماء والأرض إن فارقها مؤمن ، ولنا في قول الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ، فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض . أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه في الأرض فهو موضع مُصلاه .

وفي الحديث : « إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »[1] .

إذن فموضع صعود عمل الإنسان في السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمر فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفتقد سجود إنسان خشوعاً لله ، ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر ، وكل شيء في الكون يؤدي مهمته بقانون التسيير والتسخير لا قانون التخيير ، الإنسان ـ فقط ـ هو الذي يحيا بقانون التخيير في بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية . ولذلك فعندما نرى السجود لله في القرآن فإننا نسمع قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝ ﴾

(سورة الحج)

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر

إذن فكل الكائنات تسجد له ماعدا كل أفراد الإنسان ؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق . ومن يعص منهج الله غير مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومن يهنه الله بذلك فليس له تكريم أبداً. وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنه من يغضب منه الكون لأنه يعصى الله .

إن اللغة العربية توضح لنا ذلك ؛ فالعرب يقولون : فلان نَبَتْ به الأرض من النُّبُوّة وهى الجفوة والبعد والإعراض . . أى أن الأرض تكره شخصاً بعينه ؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاص .

ويقول الحق عن الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمته بعباده لأنهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم فى بعض الأحيان فيتوبون عنها :

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

(سورة الأنعام)

ونعلم أن هذا الفوز هو أرقى درجات الفوز ؛ ذلك أن الفوز درجات ؛ فالفوز فى الدنيا كالنجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز مُعَرّض لأن يضيع . وهو عُرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذى لا ينتهى .

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة ، والإنسان يتنعم فى الدنيا على قدر تصوره للنعيم ، فنجد الريفى - مثلاً - يتصور النعيم أن تكون له مصطبة أمام داره يجلس عليها ، وعدد من القلل التى تمتلىء بالماء النقى ، فإذا ما انتقل هذا الريفى إلى المدينة فهو يتصور النعيم فى منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاجة وغير ذلك ، إذن فإمكانات النعيم مختلفة على حسب تصور الإنسان ، أما نعيم الآخرة فهو نعيم لا يفوته الإنسان ولا يفوت الإنسان ؛ لأنه نعيم من صنع الخالق الواسع العطاء . إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولذلك فالفوز بنعيم الآخرة هو الفوز المبين .

والحق سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شىء علماً واقتداراً :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

والضر هو ما يصيب الكائن الحي مما يخرجه عن استقامة حياته وحاله. فعندما يعيش الإنسان بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه سليم الصحة؛ لأنه لا يشعر بألم في عيونه أو ضيق في تنفسه أو غير ذلك. لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر في الذهاب إلى الطبيب. إذن فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هي رتابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفت إلى شيء.

ويلفت الحق أصحاب النعم عندما يرون إنساناً من حولهم وقد فقد نعمة ما. ساعة تسير في الشوارع وترى إنساناً فقد ساقه فأنت تقول: «الحمد لله»؛ لأنك سليم الساقين. كأنك لا تدرك نعمة الله في بعض منك إلا إن رأيتها مفقودة في سواك. وهكذا نعلم أن من الآلام والآفات منبهات للنعم. وأيضاً قد تصيب منغصات الحياة الإنسان ليعلم أنه لم يأخذ نعم الله كلها فيقول العبد مخلصاً: «يا مفرج الكروب يارب»، ولذلك نجد الإنسان يقول: «يارب» حينما تأتيه آفة في نفسه ويفزع إلى الله. وقد قالها الله عن الإنسان:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالإنسان عندما يحس ضعفه إذا ما أصابه مكروه لا يمل دعاء الله، سواء أكان الإنسان مضطجعاً أم قاعداً أم قائماً، وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن جانب الله، ويستأنف عصيان الله وكأنه لم يدع الله إلى كشف الضر، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم بعصيان الله. والنفس أو الشيطان تزين للعاصي بعد انكشاف الضر أن يعرض أكثر وأكثر في آثار المعاصي ورحلة الرذيلة.

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله، فينسب انكشاف الضر إلى مهارة

الطبيب الذي لجأ إليه ، ناسياً أن مهارة الطبيب هي من نعم الله . أو بسبب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال ، ناسياً أن الله هو واهب كل شيء ، كما فعل قارون الذي ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكده وعلمه ومهارته ، ناسياً أن الحق هو مسبب كل الأسباب ، ضرًا أو نفعا ، فسبحانه هو الذي يسبب الضر كما يسبب النعم .

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى في هذه الدنيا . وإذا ما رضي الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ؛ لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر الله . ولا يرفع الحق قضاءه في الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله ، والذي لا يقبل المصائب هو من تستمر معه المصائب ، أما الذي يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء .

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر ؛ فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة ؛ فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء في الابتلاء . ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل : إنها مجرد رؤيا وليست وحياً ولكنه حق . وقد جاءه الأمر بأهون تكليف وهو الرؤيا ، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن ، ويرى عصمة النبوة في استقبال أوامر الحق . ويلهمه الله أن يشرك ابنه إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)﴾

(سورة الصافات)

لقد بلغ إسماعيل عمر السعي في مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم يشتعل بالحقد على أبيه ولم يقاوم ، ولم يدخل في معركة ، بل قال :

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، وأسلم كل منهما للأمر ؛ أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعلم الله صدقهما فى استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامتثال ، ولذلك يجىء إليك وإلى ابنك اللطف ، وذلك برفع البلاء ، وجاء الفداء بذبح عظيم القدر ، لأنه ذبح جاء بأمر الله . ولم يكتف الحق بذلك ولكنْ بَشر إبراهيم بميلاد ابن آخر

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد رفع الله عن إبراهيم القدر وأعطاه الخير وهو ولد آخر . إذن صحبة البشر تطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له . لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مجريه وهو ربه بمقام الرضا ، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء . فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

ونلحظ أن الحق هنا يقول : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » الله سبحانه وتعالى يعلم أن أى عبد لا يتحمل أن يضره الحق ؛ فقوة الحق لا متناهية ولذلك يكون المس بالضر ، وكذلك بالخير ؛ فالإنسان فى الدنيا لا ينال كل الخير ، إنما ينال مس الخير ؛ فكل الخير مدخر له فى الآخرة . ونعلم أن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه ، أما كل الخير فهو فى الآخرة .

ومهما ارتقى الإنسان فى الابتكار والاختراع فلن يصل إلى كل الخير الذى يوجد فى

الآخرة ، ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير في الآخرة فهو على قدر المعطى الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى . إذن فكل خير الدنيا هو مجرد مس خير ؛ لأن الخير الذي يتناسب جمال كمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير ، وهو مدخر للآخرة . ولا كاشف لضر إلا الله ؛ فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب ، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله ، والذي يَشفي هو الله .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ ٨٠ ﴾

(سورة الشعراء)

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء ، وخلق الدواء ، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء ثم إلى الشفاء ، والله يوجد الأسباب ليُسرَّ ويُفْرِح بها عباده ، فيجعل المواهب كأسباب ، وإلا فالأمر في الحقيقة بيده ـ سبحانه وتعالى ـ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَدَاوَوْا عبادَ الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد . الهَرَم »[1] .

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاء معه ، لا به . ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه . إذن فالحق هو كاشف الضر ، وهو القدير على أن يمسك ويمسك بالخير وقدرته لا حدود لها

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ ١٨ ﴾

وقد رتب سبحانه وتعالى الكون والخلق بأسباب ومسببات . وكل شيء موجود هو واسطة بين شيء وشيء ، فالأرض واسطة لاستقبال النبات ، والإنسان واسطة بين أبيه وابنه ، ولنفهم جميعاً أنّ الحقّ ، فوق عباده ، إنه غالب بقدرته ، يدير الكون بحكمة وإحاطة علم ، وهو خبير بكل ما خفي وعليم بكل ما ظهر .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك .

وهو القائل :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

سبحانه وتعالى له مطلق القدرة على أن يرسل العذاب من السماء أو من بطن الأرض ، أو أن يجعل بين العباد العداء ليكونوا متناحرين ليدفع بعضهم بعضاً حتى لا تفسد الأرض (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)

وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين يملك بعض الخلق أسباباً أنهم مالكو الأسباب فعلاً ، لا ، إن الحق سبحانه أراد بذلك ترتيب الأعمال في الكون ولذلك ساعة ترى واحداً يظلم في الكون فإننا نجد ظالماً آخر هو الذي يؤدب الظالم الأول . ولا يؤدب الحق الشرير على يد رجل طيب ، إنما يؤديه عن طريق شرير مثله .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لأنه سبحانه وتعالى يُجِل المظلوم من أهل التقوى أن يكون له دور في تأديب الظالم ، ثم ينتقم الله من الظالم بظالم مثله أو أقوى منه وهذا ما نراه على مدار التاريخ القريب والبعيد ، فحين يتمكن العبد الصالح من الذين أساءوا إليه يقول ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة حيث قال : « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

أما إذا أراد الله الانتقام من شرير فهو يرسل عليه شريراً مثله يدق عنقه ، أو يجدع أنفه ، أو يذله حتى لا ينتشر ويستشري الفساد ، فسبحانه القاهر فوق عباده ، وهو

(١) رواه البيهقي في سننه ١١٨/٩ وفي تاريخ الطبري ٦١/٣

قهر بحكمة وبعلم وليس قهر استعلاء وقهر جبروت وسيطرة. وحتى نوضح ذلك قد يجرى الله على أحد عباده قَدَراً بأن ينكسر ذراع ولده فيسوق الرجل ولده إلى طبيب غير مجرب ليقيم جبيرة للذراع الابن، وتلتئم العظام على ضوء هذه الجبيرة في غير مكانها، فيذهب الرجل بابنه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام في مكانها الصحيح.

إن هذا الكسر كان لحكمة وهي استواء العظام ووضعها الوضع السليم، ولا يغيظ عبد من العباد الخالق أبداً، ولكن الحق يتصف بالمشيئة. ونعلم أن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر، فإن كفر وعصى فليس له في الآخرة إلا العذاب، إلا أن الله يجرى عليه قَدَرَ المرض فلا يستطيع أن يتمرد عليه؛ لأنه سبحانه قاهر فوق عباده بدليل أنه متحكم في أشياء لا خيار للعباد فيها. ومادام الإنسان منا محكوماً بقوسين ولا رأى له في ميلاده أو موته فلماذا إذن التمرد بالعصيان على أوامر الله؟ ونعلم أن الحق هو القاهر فوق عباده بقهر الحكمة وسبحانه يضع لكل أمر المجال الذي يناسبه وهو خبير بمواطن الداءات، ويعالج عباده منها على وفق ما يراه.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

لقد اختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم المناوئين له. والاختلاف يتطلب حكماً وبينة. والشهود هم إحدى البينات، فمن بالنا والشاهد هو الله؟! إنه الشاهد والحكم والمنفذ. وشهادة الله لا تحايل فيها، وحكمه لا ظلم فيه، وإرادته

لا تظلم عبداً مثقال ذرة ، ولا شهادة - إذن - أكبر من شهادة الحق لرسوله بأنه رسول من الله . ولو شاء الحق لجعلكم كلكم مؤمنين ، لكنه أراد للإنسان الاختيار وحنان الرسول صلى الله عليه وسلم على البشر هو الذي جعله يتمنى إيمانهم ، لكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أي أن الحق يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفق على نفسه وألاّ يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم . ولو أراد الحق لجعلهم جميعاً مؤمنين بآية منه ، فمهمة الرسول هي ابلاغ فقط ولو شاء الحق لقهر الخلق جميعاً على الإيمان به كما سخّر الكون ليخدم الإنسان وليسبح الكون بحمد الله . لكنه سبحانه ترك للخلق الاختيار حتى يأتي إيمانهم مثبتاً صفة المحبوبية لله ؛ لأن إيمان المختار هو الذي يثبت تلك المحبوبية والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير وبشير بهذا القرآن المُنزّل عليه بالوحي .

والنذارة تأتي هنا لأن المجال مجال شهادة ؛ لأن الشهادة إنما تكون على خلاف ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان ، والمناوئون له يدعون إلى الكفر وإلى الشرك ، وشهادة الله أكبر من كل شهادة أخرى . لذلك يقرر الحق هنا بأن الرسول نذير بالقرآن . وهذا الخطاب موجه لتبليغ المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمن وصله بعد ذلك أي شيء من القرآن ، فكأنه قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ووصله البلاغ منه . فقد قال - سبحانه - : (ومن بَلَغَ) أي لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من البشر جميعا

ويوجه الحق على لسان رسوله سؤالاً استنكرياً للمناوئين فيقول : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » . إنه سؤال من سائل يثق أن من يسمع سؤاله لا بد أن ينفي وجود آلهة أخرى غير الله . إنه سؤال يستنبط الإقرار من سامعه . والمثال على هذا ما عرضه الحق على رسوله من أمر قد حدث في عام ميلاده فيقول

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ما حدث في عام الفيل ؛ لأنه عام ميلاده ، ولكن حين يخبره الله بذلك فمعنى هذا أنه بلاغ عن الله ، والبلاغ عن الله يجعل الخبر القادم منه فوق الرؤية وأوثق وآكد منها . وهنا يأتي السؤال الاستنكاري : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » . وعندما أحرجهم هذا السؤال في بعض مراحل الدعوة قال بعضهم

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

وكأنهم أخيراً يعترفون ان المتقرَّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : « قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني برىء مما تشركون » فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشهد بأي آلهة غير الله ، وألقى إليهم السؤال الاستنكاري لعلهم يديرون رءوسهم ليصلوا إلى صحيح الإجابة التي يوجزها الحق في قوله للرسول . « قل إنما هو إله واحد وإنني برىء مما تشركون » .

إن الكلام هنا موجه إلى فئة من المناوئين لرسول الله من عبدة الأوثان ، وهم بعض من الكافرين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبعض الآخر هم بعض من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين تغافلوا عن الكتب المنزلة إليهم ، وغابت عنهم الخواطر الإيمانية التي كانت ترد العاصي عن معصيته ، فانتشر الفساد في الكون . لذلك أرسل الحق رسوله صلى الله عليه وسلم لأن العاصي لم يجد من يرده ، واختفت من المجتمع في ذلك الوقت النفس اللوامة ، وسادت فيه النفس الأمارة بالسوء

إن الحق سبحانه لم يترك أمر الرسول غائباً عن البشر ، فقد كان الرسول في كل أمة يُنبىء ويخبر عن الرسول الذي يليه حتى يستعد الناس لاستقبال النذير والبشير ، ولذلك كانت كل الرسالات تنبأ بالرسل القادمين حتى لا يظنوا أن مدّعي اقتحم عليهم قداسة دينهم ، ولأن الإسلام جاء ديناً عاماً ، فلم يأت الخبر فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة ، ولكن جاءت أوصافه وسماته أيضا واضحة وبيِّنة فيها .

إن الذين قرأوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطتهم الزمنية لآمنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل « عبدالله بن سلام » رضي الله عنه حين قال : لقد عرفته حين رأيته وعرفته كابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد .ومن هؤلاء أنهم هم الذين نُصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا ، فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قَرُب مجىء نبى منكم سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين :

لعل هذا هو النبى الذى توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عَرَف بنبأ مقدمه وبعثه وصورته ونعته كلُّ من له صلة بكتاب من كتب السماء . إنهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذى ختمت به أخبار السماء إلى الأرض .

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إذن فرسول الله معلوم مقدماً من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكنّ بعضاً منهم فصل السلطة الزمنية عن الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم ، لأن الخسارة - كما نعرف - هى ضياع رأس المال أو نقصانه وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تحرص على مصلحة الأرواح التى جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إنهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفى ذلك خيبة كبرى .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

الله يعلمنا أن الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياك أيها المؤمن أن تظن أن قولك « لا إله إلا الله » هو سند لعرش الله . لا ، إنما سند لك أنت ؛ لأنه لا إله إلا هو خلق الكون والخلق بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعتراف الخلق بألوهية الله وحده لا تزيد من كمال الله ولكنها تفيد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعمارة الكون ، لتسير حركة الحياة في ضوء منهج الله فينسجموا مع الكون كله المسبح لله .

وحين يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهو يخبر أهل مكة أن الصيحة الإيمانية التي صاح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في آذانهم لم تكن صيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صيحة بُشّر بها على لسان كل رسول ، وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسل والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم يجاورهم لأهل كتاب في المدينة يعلمون هذه الحقيقة التي جاء بها رسلهم مؤكدين للعهد الذي أخذه الله عليهم ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم في الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدْرَةً ، ومن غناه سبحانه غنىً ، ومن علمه الكامل علماً ، ومن حكمته المطلقة حكمةً ، ومن رحمته الكاملة رحمةً ، ومن قهرية الله قهراً ؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وُجدت فيه هذه المتكاملات وإن كانت متناقضة ؛ لأن لكل صفة مجالها التي تعمل فيه

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوته ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخلق رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً ؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطبع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم ينفعلون للمواقف المختلفة ؛ فالموقف الذي يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحماء ، والموقف الذي يتطلب قسوة وشدة يكونون فيه قساة ، ولذلك يقول الحق في المؤمنين :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطبعهم على الشدة ؛ لأن المواقف قد تتطلب رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطبعهم الحق على اللين ، لكن اللين مطلوب فيما بينهم ؛ لأن كلاً منهم يرجو رحمة الله وفضله ؛ ففي الموقف الذي يتطلب رحمة ؛ هم رحماء . وفي الموقف الذي يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق . وجعله عزيزاً على الكافرين المتأبين على الله .

إذن ، فسبحانه يريد من خَلْقه أن يكونوا على خُلُقِ الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضي الله عنه « حُسْن الخلق خُلُق الله الأعظم »[1] ورُوِي : (تخلقوا بأخلاق الله) .

إن لله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فخذوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة، ولله علم فحاولوا أن تكونوا عالمين ، ولله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء، والله جبار فإذا تطلب الموقف منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ؛ لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلا بهذا .

وما دام الحق قد أراد من الخلق أن يعمروا هذا الكون فلا بد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز على « افعل » و« لا تفعل » ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن نأخذ ما يمكن أن نسميه بالعرف الحاضر : «قانون الصيانة» فلنفعل ما قال الله افعلوا ،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط

ولنترك ما قال الله في شأنه لا تفعلوا حتى تؤدي الآلة الإنسانية مهمتها كما يريد الله لها أن تكون.

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطاق « افعل » إلى نطاق « لا تفعل » ، والأعمال التي يجعلها الله في نطاق « لا تفعل » تجعلها أنت في نطاق « افعل » . فإن طلب الله أن نقيم الصلاة بـ « افعل » فكيف نجعلها في نطاق « لا تفعل » بعدم الصلاة ؟ ، وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشربها إذن ؟.

إن الخلل الإيماني الذي يحدث في الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات « افعل » إلى « لا تفعل » ، ومن نقل متعلقات « لا تفعل » إلى « افعل » ، أما ما لم يَرِد فيه « افعل » و« لا تفعل » فقد ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن الكون لا يفسد بشيء منها.

وإذا نظرت إلى منهج الله في « افعل » و« لا تفعل » ، فأنت تجد أن الحق سبحانه لم يقض على حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضبطك ضبطاً محكماً فيما ينشأ فيه فساد الكون ، أما الذي لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه . وزود الحق كل البشر بهذا المنهج من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسولاً ، ولذلك توالى الموكب الرسالي . لماذا ؟ لأن الغفلة تتمكن من الإنسان ، فقد يتناسى الإنسان مرة الشيء الذي يحد حركته ويتكرر التناسي إلى أن يصير نسياناً ، فيشاء الحق أن يرسل رسولاً لكل فترة لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن الله أمة محمد أن تكون هي المبلغة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبي الخاتم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبي أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذي توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبي على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، وبلغوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فنصرة النبي الخاتم موجودة في كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطي إيضاحاً بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عليهم العهد بنصرة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤيدوا ذلك الرسول إن هم عاصروه .

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أي أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعت لشكله وصورته ، وإذا كان كفار قريش على فترة من الرسل فليسألوا أهل الكتاب ، وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادماً سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وإرم . إذن فالصيحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد تناست الأمة التي تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أضلوا ، وهم المتلقون عن الله ، السلطة الزمنية ورأوا فيها الحظ والجاه والتنعيم ، فمنهم القضاة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم في القضاء ، وكذلك يأخذون الصدقات . وألفوا حياة السيادة والنعيم . وها هي ذي دعوة جديدة جاءت لتسلب منهم هذه السيادة ، وبالرغم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزلت بها سلطتهم الزمنية ، ولذلك بدأوا العداء .

إذن فالآفة هي أخذ سلطة زمنية من باطن سلطة الله ثم يدعي أنها سلطة الله وعندما ننظر إلى التاريخ الديني في العالم نجد أن السلطة الزمنية في الأديان التي

سبقت الإسلام هي التي أرهقت الكون ؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل في خدمة الإنسان وإن لم يدر بها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هي التي تجعله يهتدي إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التي تعمل بها ؛ مثال ذلك قانون الجاذبية ، وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة في الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هي مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليصلوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام ونواميس هذا الكون . وحين يصل العالم الذكي إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير عطري دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا ؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً في الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود في الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الإفادة منه .

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء في دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المباني تدفئ حجراتها بالطاقة الشمسية وتسخن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمي أو البدوي في الصحراء من نور الشمس وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التي يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استفادة الخبير بها ، صحيح أن الأمي لا يعرف كيف تدور المصانع التي تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستفيد برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعها موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التي يستفيد بها الإنسان .

ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء ميعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسبحانه يكشفه لأي بشر بالمصادفة ، وكثيراً ما نسمع أن عالماً كان يبحث في مجال ما ولكنه اكتشف سراً غير الذي كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق في آية الكرسي :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ، وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التي تسير عليها البواخر والغواصات، إلى قانون الجاذبية الأرضية الذي اكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة، إلى اكتشاف البنسلين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضاً علوم ليس لها مقدمات ، إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة الجن)

فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ، ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخبيطهم حتى يُبَلِّغ ما أُوحِيَ به إليه . وحين يريد الحق أمراً محكماً لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق ليهديهم بـ « افعل » و « لا تفعل ». وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتي بإذن من الله حتى لا تتعارض أهواؤنا ، سبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تتساند فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر

إن النشاطات الذهنية التي يصل بها البشر إلى أسرار فيها رفاهية الحياة ، هي أسرار بنت التجربة والمعمل ، والمعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المادة تستنبط في المعمل .. ولذلك ترى الدول تتسابق كل يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة الجواسيس . أما في مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم سدوداً بينها وبين المبادئ ، فالغرب لا يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا الأمر في البحث العلمي؛ فقوانين البحث العلمي عن أسرار الكون يحاول كل طرف امتلاكها . وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره

ويعلمنا الحق أن نبحث في كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لنا :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فسبحانه يلفتنا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن ننظر فيها بحكمة وإمعان ؛ لأننا قد نستنبط منها أشياء تريحنا . ومثال ذلك قوة البخار ، اكتشفها رجل وطورها آخر حتى صارت تلك القوة البخارية في خدمة البشرية كلها وكذلك الذي اخترع العجلة أفاد البشرية في نقل عشرات الأرطال عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله في الكون بإمعان وتدبر . لقد جعل الحق البحث في آيات الكون مشاعاً للمؤمنين والكفار ، وهو حق لمن يبحث في أسراره وهذه هي قضية العلم أما قضية الدين فأمرها مختلف ؛ لأن الخبر في قضية الدين يأتي من الله بواسطة رسول أما البحث في الكون وأسراره العلمية فالحق يقول فيه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إن الحق يلفتك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها ضعيف وبعضها قوي ويختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن فروعها متباينة لخدمة الإنسان .

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون في اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله

الصانع العليم . إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسل مبلغون عن الله ، وكذلك أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين مبلغون عن الله لا متكلمون بلسان الله ؛ لأن بعض البشر قد يخلطون أهواءهم مع كلمات الله ويقولون: إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير

إن ما حدث في القرون الوسطى ـ على سبيل المثال ـ كان خلطاً بين البحث العلمي وما ينزل الحق من منهج ؛ فعندما جاء عالم مثل «جاليليو» ليبحث في طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم في طبيعة الأرض حبسوا حريته . وعندما حكمت الكنيسة العالم الغربي بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش في عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمي من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمي الذي طرحه الإسلام وأتيته علماء المسلمين

إن السبب في تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهنوت والدين ، بل إن نفور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يمقتون الحياة والتقدم الحضاري ـ حماية لنفوذهم وسلطتهم الزمنية والروحية ـ وأراد بعض من أهل أوروبا أن يأخذوا كل الأديان بجريرة رجال الكهنوت عندهم . ونسي الذين حملوا على الدين ـ كل الدين ـ أن رجال الكهنوت هذا أتوا وادعوا ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها ؛ فالمسيح لم يقل لهم ذلك ، ولكنهم كرجال كهنوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التي كانت لهم وكانت النتيجة أن اتخذ البعض من فساد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

ولهؤلاء نقول إن الدين لا يتدخل في أي أمر من أمور الحياة العلمية ولا يصادمها أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث في آياته وأن نزيد من البحث وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدنيا على ضوء التجربة وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم التجريبي وأمور الدين، وأراد أن يحمي دينه من تدخل أي فئة تدعي أنها تملك كلام الله فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله سبحانه

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر تلقيح النخيل . ويعرف

أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طلع الذكورة ونلقح به الأنوثة من النخيل فيخرج التمر ناضجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة . والسر في إنتاج النخيل لثمار غير ناضجة أن التلقيح قد تم بواسطة الريح التي تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التلقيح اليدوي للنخيل هو الذي يزيد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابة ما يمكن أن يفهم منه ألا يقوموا بتلقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل أثمر شيصاً أي ثماراً غير مكتملة النضج ، ويستند الرسول في ذلك إلى قول الحق .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

وهذا قول صحيح صادق حكيم نجد آثاره في السحاب الذي يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالسالب ، ونجده في معظم النباتات من قمح وفاكهة وذرة وغير ذلك . فطلع الذكر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة في النباتات القريبة فتلقحها وتنقل الرياح كذلك اللقاح الخفيف واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن يحتاج في بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل في العام الذي لم يلقح فيه بعض الصحابة نخيلهم قال صلى الله عليه وسلم لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] .

وبهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يعد لرجال الدين أن يتدخلوا في أي أمر لا تستقيم به الحياة إلا بناء على التجربة المعملية ولذلك يقال عن الإسلام إنه دين العلم ، لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا في تأمل آيات الله في هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون أما في أمور السلوك البشري وحركة المجتمع فقد أنزل الحق من المنهج ما يكفل عدم استعلاء أحد على أحد ، وأن نضبط السلوك الإنساني بتعاليم المنهج الإيماني

لقد جاء المنهج الإيماني في كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هي رسالة محمد ابن عبدالله ، وكانت البشارة به موجودة في التوراة والإنجيل ويقول الحق .

---

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة رضي الله عنها

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة ؟ لا ، ذلك أن بعضاً منهم خافوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبدالله بن أُبَيّ الذى كان رأس النفاق فى الإسلام والذى كان يستعد لتولى مُلْك المدينة قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه النبوءة ، مثال ذلك : عبدالله بن سلام رضى الله عنه. ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(سورة المائدة)

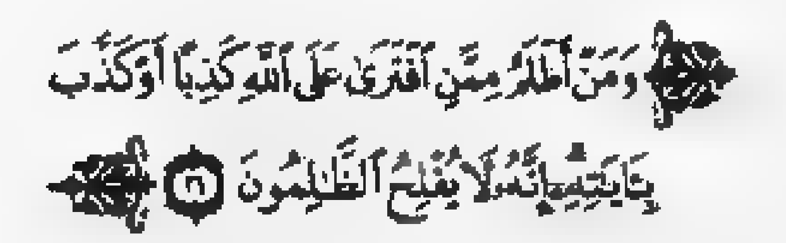
إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كفر وعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على السلطة الزمنية التى كانت لهم .

وعندما ننظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت فى وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث فى أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأفسد رجال الكهنوت فى الأرض ، فتمرد عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقننوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت فى الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم ينال العفو ، ومن لم يدفع ينال العقاب ! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينفذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم .

ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جاءت البشارة به وعرفوه بالإيضاح والنعت ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الاستمتاع بالمال والسلطة فخسروا أنفسهم وظلوا على الكفر ؛ لقد قال فيهم الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . لقد خسروا أنفسهم ؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال ؛ لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفقة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن

الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة . لكنّ بعضاً من أهل الكتاب آثروا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنتين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة .

ويقول الحق من بعد ذلك :



إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك، نسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل في الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فنسبوا إليه ما لم يرسله، ولذلك فالويل كل الويل لهم ؛ لأنهم انحطوا إلى أخس دركات الظلم وكذلوا الكذب المتعمد في كلية ملزمة وهي الإيمان بالله وبالكتب المنزلة والرسل .

والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شيء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وهو أعظم الظلم (إن الشرك لظلم عظيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكرنا بيوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله : أين الذين ادعيتم وأشركتموهم معى ؟ إذ الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله الإنسان فى الدنيا يحصى عليه وسيسأل عنه يوم القيامة . سيسأل الله المشركين عن الذين عبدوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التى أشركها الكافرون فى العبادة مع الله ؟ ولماذا لا يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذى يصليه الله لهم ؟! ويقرع سبحانه المشركين ، ويحشرهم مع ما عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفى ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أن الفتنة هى الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشىء لتعرف الردىء من الجيد ، والحقيقى من المزيف . ونحن نختبر الذهب ونفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى أن الفتنة فى ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التى نحصل عليها من الفتنة ؛ فالامتحانات التى نضعها لأبنائنا هى فتنة ، ومن ينجح فى هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هى التى يفرح بها الإنسان أو التى يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة أمراً مطلوباً لمن له اختيار . وأحياناً تطلق الفتنة على الشىء الذى يستولى على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التى أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة

فيقولون : (والله ربنا ما كنا مشركين). وهم فى ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم، وفى باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة وهى أن المُلك كله لله ، ففى اليوم الآخر لا شركاء لله ؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان فى اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار فى الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذى يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار فى اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله فى الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطرار فى الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ماعدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالمحبة .

والمشركون بالله يفجؤهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : (ما كنا مشركين) . وهم قد كذبوا بالله فى الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله فى اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليم بخفايا الصدور وما كان من السلوك فى الحياة الدنيا ، ويوضح لهم فى الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وحين يسألهم الحق : « أين شركاؤكم » ؟ فهى هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار من المسئول . وفى حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ؛ ليعلم التلميذ ما يجهل ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الأستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تبكيت أيضاً ، لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : (أين شركاؤكم) ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء . وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له

لقد أشركوا بالله فى الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء فى

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم فى الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فيطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك فى موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول فى حق مثل هؤلاء .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝ ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً ينجيهم من العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يغمرون فى الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾

(سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض منبسطة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه ، وهذا الإنكار لون من الكذب

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون فى الدنيا ، لكن الله يصمهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلسوا على البشر بالحلف الكاذب فى الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذى لا يمكن أن يدلس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هى محنة كبرى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :

﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم ويعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماض أو حاضر أو مستقبل

والمثال على ذلك قوله الحق

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وليس لقائل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماض ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجل إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقائل أن يقول ذلك ، لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله غداً إننا فعلناه ، ذلك أن غداً قد لا يأتي أبداً ، أو قد يأتي الغد ولا نستطيع أن نفعل شيئاً مما وعدنا به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صارت ميسرة فأي قوة للعبد منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله ؟ . ونحن - المؤمنين - نعرف ذلك وعلينا أن نقول كما علمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٣ وجزء من الآية ٢٤ سورة الكهف)

وهكذا يضمن الإنسان منا أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسوله : « انظر » ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه ، فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر . إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : « كذبوا على أنفسهم » أي أن كذبهم الذي سوف يحدث يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه في الدنيا . لكن الكذب أمام الله يكون ضد حساب الإنسان لا له .

ويتابع الحق : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » ومعنى هذا أنهم يبحثون في اليوم الآخر عن الشركاء، ولكنهم لا يقدرون على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : « والله ربنا ما كنا مشركين » وغياب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه ويبيّنه قول الله : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » . و« ضل » هنا معناها « غاب » . ألم يقولوا من قبل :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝ ﴾

(سورة السجدة)

إنهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أإذا غابوا في الأرض واختلطوا بعناصرها يمكن أن يبعثهم ربهم من جديد ؟ . فهم لا يصدقون أن الذي أنشأهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم مرة أخرى . ونعرف أن كلمة « ضل » لها معاني متعددة

لكن معناها هنا «غاب»، وحين يسألهم الله: أين شركاؤكم؟، ينكرون كذباً أنهم أشركوا، لقد ضل عنهم - أي غاب عنهم - هؤلاء الشركاء. والإنسان يعبد الإله الذي ينفعه يوم الحشر، وعندما يغيب الآلهة عن يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وغيابها وقت الحاجة إليها، ولا يبقى إلا وجه الله الذي يحاسب من أشركوا به.

و«ضل» يقابلها «اهتدى»، و«ضل» أي لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية، و«اهتدى» أي ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية. ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية، يكون قد ضل أيضا. ولكن هناك من يضل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر. وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً؛ لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه، وهذا هو ضلال القمة. وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات الإيمان ضعيفة في نفسه فيعصى ربه.

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان:

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القمة. لكن ماذا عن الذي يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الشعراء)

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بني إسرائيل، فماذا عن موقف فرعون؟ ماذا قال فرعون؟:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

(سورة الشعراء)

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرع موسى ذلك وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك فى نظر فرعون لوناً من الجحود بنعمته ، وها هوذا يتحدى مرة أخرى على ألوهية فرعون بدعوته للإيمان بالإله الحق الذى لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهرى فى سلوكه فى ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن الخطأ كان هو القتل فيقول :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قتله رجلا من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وها هوذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

أى لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحى لم يكن يعرف أى طريق يسلك . وقد يكون الضلال نسياناً ، ومادام الإنسان قد نسى الحقيقة فهو ضال ، والمثال قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

هنا يقرر الحق أن شهادة امرأة تحتاج إلى ضمان وذلك بتأكيدها بشهادة امرأة أخرى ؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضع أنفها فى كل تفاصيل ما تراه ، بل هى تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منهن تذكر الأخرى بتفاصيل قد تكون فى منطقة النسيان ؛ لأن نفسية المرأة وطبيعة تكوينها مبنية على الصيانة والتحرر من أن توجد فى مجتمع فيه شقاق .

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين فى يوم القيامة فهو يقول . « وضل عنهم

ما كانوا يفترون ، أى غاب عنهم ما كانوا يكذبون ويدعون أنهم شركاء لله ، والمشركون هم المؤاخذون والمحاسبون على اتخاذ الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ شريكاً لله لا ذنب له فى تلك المسألة ، كاتخاذ بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله . وعيسى عليه السلام منزه عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه فى الألوهية والحق قد قال :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

بل إن الأصنام نفسها التى اتخذها المشركون أرباباً تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار .

إذن مالخطأ يكون عن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسبحة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تخيل أحد الشعراء حواراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثَوْر :

كم حسدنا حراء حين ترى الرو ... ح أميناً يغزوك بالأنوار

وعندما أذن الحق بالهجرة اختبأ النبى بغار ثَوْر ، فقالت بقية الأحجار :

فحراءٌ وثورٌ صارًا سواءً ... بهما أشمت لدولة الأحجار
عبدونا ونحن أعْبدُ لله ... من القائمين بالأسحار
تخذوا صمتنا علينا دليلا ... فغدونا لهم وقود النار
قد تجنَّوْا جهلاً كما قد تجنَّ ... وْا على ابن مريمٍ والحوارى
للمُغالى جزاؤه والمغالَى ... فيه تنجيه رحمة الغفار

إذن ، فهاهي ذي الحجارة تقول : إنها بريئة من الشرك بالله وهي أعبد لله من القائمين بالأسحار ، وصمت الحجارة الطاهر اتخذه البعض دليلاً على أن الحجارة رضيت بأن يعبدوها ، لكن الحجارة تصير هي أحجار جهنم المعدة لمن كفر بالله ، وكان التجني من العباد على الأحجار مثل التجني على عيسى ابن مريم . والذين غالوا في عبادة الأحجار أو البشر لهم عقاب ، أما الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم في ذلك فهم طامعون في مغفرة الله ورحمته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الذين اتخذوا شريكاً لله . ولكن الشريك المتخذ لا يقال له ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم في يوم كان أملهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم والهداية ، ولكن بهدف تلمس أي سبيل للطعن في القرآن ، فكأن قلوبهم مغلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستبانة آفاق آيات الحق والوصول إلى الطريق القويم .

ونعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله ، ونعلم أن المعجزة التي جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المرئية التي شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام .

كشق البحر بالعصا أو رؤية العصا وهي تصير حية تلقف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية ومحددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهي معجزة مسموعة ودائمة .

إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تنبه الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التي تستصحب وقت النوم وتؤدي مهمتها ؛ لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق حينما أراد أن يقيم أهل الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون نومهم سباتاً عميقاً ، فهم في كهف في جبل ، والجبل في صحارى تهب عليها الرياح والزوابع والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا في النوم الذي أراده الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومعجزة رسول الله ـ إذن ـ جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاغاً فهو يتلقاه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتعمق فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد تميزت معجزته صلى الله عليه وسلم سيد الأدلة في وسائل الإدراك الأساسي ، وهو السمع ، والحق يقول : « ومنهم من يستمع إليك » .

إن هناك فارقا بين « يسمع » و« يستمع » ، فالذي يسمع هو الذي يسمع عرضاً ، أما الذي « يستمع » فهو الذي يسمع عمداً والسامع دون عمد ليس له خيار ألا يسمع ، إلا إذا سد أذنيه . أما الذي يستمع فهو الذي يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف آفاق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المآخذ على القرآن

ويقول الحق سبحانه . « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » و« الأكنة » جمع « كنان » وهي الغطاء أو الغلاف ويتابع الحق : « وفي آذانهم وقرا » أي جعلنا في آذانهم صمماً ، كأنهم باختيارهم الكفر قد منعهم الله أن يفهموا القرآن ، ونعلم أن

جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر . ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً. ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ، وقد يكون المستقبل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وهنا يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾

(سورة محمد)

إنهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم ينصرفون ليقولوا في استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا . أي كلام هذا الذي يقوله محمد ؟ هؤلاء المستهزئون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال والمتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله، والسامع مختلف ؛ فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع ، وهناك سامع كافر لا تستطيع أذنه أن تنقل الوحي والإدراك بما سمع . لكن القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به فآذانهم تصم عن الفهم وأعمالهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، ونجد نفس المؤمن تستشرف لأن تعلم ماذا في القرآن . أما الذي يريد أن يكون جباراً في الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمنهج .

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللونين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك أن له صانعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته في عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو ينصرف عن ذلك .

وكان صناديد قريش أمثال أبي جهل وأبي سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صناديد قريش يجتمعون ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذي يقوله محمد ؟

وكان النضر راوية للقصص التي يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنه يقول أساطير الأولين .

ويتجادل النضر وأبو سفيان وأبو جهل مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من آيات القرآن . ولم يجعل الله الوقر على آذانهم قهراً عنهم ، بل بسبب كفرهم أولاً ، فطبع الله على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرض الكفر في قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله مرضاً ، وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

والأساطير هي جمع أسطورة ، والأسطورة شيء يسطر ليتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية . وكان الحق سبحانه وتعالى يكشفهم أمام أنفسهم وهم يحاولون أن يجدوا ثغرة في القرآن فلا يجدون . وقال الله عنهم قولاً فصلاً .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاغة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا في السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوي بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وضربها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فأزالت صلف العناد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التي بها بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صلفه وعناده وبتطهره صار ذهنه مستعداً لفهم

ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدى ، ويمعن فى طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهى غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذى يسمع القرآن يهتدى به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يخرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجا يحول بين السامع للقرآن وتدبره .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنهم واثقون من أن القرآن يبهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً فى الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة فى البلاغة العربية ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيمانى من محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا ؛ فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

﴿ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء . وذلك ماجعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وماداموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فآواه الله .

إنّ هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها ونهوهم عن اتباعها ، لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم في خدمتهم وبسط سلطتهم عليهم . هذا - أولا - هو الذي دفعهم إلى منع غيرهم ونهيهم عن اتباع الإسلام ، ثم هم - ثانيا - ينأون ويبتعدون عن اتباع الرسول ، - إذن - فمن مصلحتهم - أولا - أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا هم ؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيستفيدون من هذه العملية ؟ لا يستفيدون - إذن - فحرصهم - أولا - كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآني معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : « وهم ينهون عنه وينأون عنه » فالبداية كانت نهي الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أنّ الأداء القرآني جاء معبرًا دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير .

فقول الحق « وهم ينهون عنه » قول منطقي يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : « وينأون عنه » فهذا تصوير لما فعلوه في أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير، والثاني ضلال نفوسهم وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

ذلك لأن الوزرين : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من عملهم

ويتابع الحق : « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ونرى أن الذي يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويحاربها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جنده أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله فهم في الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية في صعود . وسيرون أرض الكفر تنقص من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

أي أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن في آخر ترتيبه النزولي هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

(سورة الكافرون)

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين: فريق يرى أنه على حق، وفريق ثانٍ أنه على باطلٍ ، وقد يكون قطع العلاقات أمراً مؤقتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لابد أن يكون مؤبداً في شأن العقيدة ولا مداهنة في هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين :

﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

(سورة الكافرون)

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبده الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن في ترتيبه النزولي لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى في قوله تعالى (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل في دين الله . نقول : نعم إنه لا يتعارض ، لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ؛ بدليل أنه قال جل وعلا :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾

(سورة النصر)

إذن فالمسألة لن تجمد عند ذلك ، فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

إذن فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل في دين الله أبداً.

ويجيء قول الحق :

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾

(سورة النصر)

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام . ومجيء سورة المسد من بعد سورة النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبي لهب وزوجه

وتأتي من بعدها سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾

(سورة الإخلاص)

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .

ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

عندما ننظر إلى قول الحق : « ولو ترى إذ وُقفوا على النار » ، هنا لا نجد جواباً، مثل ما نجده في قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته إن في كلٍّ من هاتين الجملتين جواباً ، لكن في هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآني ؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع في المعنى مذهبه التي يراها

وفي حياتنا نجد مجرماً في بلد من البلاد يستشرى فساده وإجرامه في سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فترى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطي حتى لا يضع القيود في يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدي كل معاني الذلة التي يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً نرهيب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع في تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة في إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيل وتصور السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطي على هذا المجرم فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق « لو » بلا جواب حين قال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالى البيان ، فصيح الأسلوب ، معجزة الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟ . .

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة الصافات)

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس فى ذلك شذوذ ؟ ثم تتمادى الصورة . صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (سورة الصافات)

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . ويَسْخَرُ الذين يتصيدون للقرآن فى أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول ؟ وتساءلوا بطنطنة ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول ؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذى يجعلكم لا تفهمون ما فى هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامى « الكاريكاتير » فى العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس فى الجمال ؛ ولكن الفوز هنا فى مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصور شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان ؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التى يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك هنا قوله الحق : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » والذى يحدث لهؤلاء

الوقوف على النار لا يأتي خبره هنا ، بل يكتفى الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم في مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار والجنة - كما نعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا ترمان إلا ما رأيته أنت بعمرك ، ولا يكتفى الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن في الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أي أن في الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس في الأشياء والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

وهكذا نعلم أن ما في الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدي كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك نعلم أيضاً أن في النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه . ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » لرأينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذي جاء به حذف الجواب .

وعندما نقرأ « وُقِفوا » نعرف أن فيه بناء وكياناً موجوداً ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين في الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقفهم الله على النار ليروا العذاب الذي ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشيء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التي أنكروها في الدنيا ؛ فقد جاءهم الخبر في الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة مجسمة للخبر ، فهذا عين يقين . والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام علي - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً » ، لأنه مصدق بلاعي به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى علم اليقين في اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشترك في ذلك المؤمن والكافر . ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو « حق اليقين » .

هكذا نعلم أن النار «عين اليقين» يراها المؤمن والكافر. والنار كـ «حق اليقين» يعاينها ويصطلي بها الكافر فقط، أما المؤمن في الجنة فيحس «حق اليقين» لأنه يعيش ويسعد بنعيمها ويصور سبحانه ذلك في قوله

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة التكاثر)

وجاء حق اليقين في قوله تعالى

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين، لذلك يقولون:

﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنعام)

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان والتمني في بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون، كقول القائل:

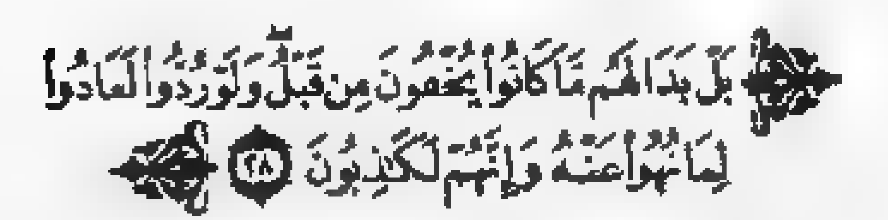
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

أو قول القائل

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

وهم قالوا : « يا ليتنا نرد » فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضاً وعداً بعدم التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك ؟

لا ، لأن القرآن الكريم قد قال في الآية التالية :



إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد في طلبهم المستحيل ؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم . بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يعملونه في الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم الفاضحة » ؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه في عنقه ، ويقال له :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فإذا كنا في الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسان مكرَّه يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل عمله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدي تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكي إلى أين ذهب بها صاحبها ، فهذه الجوارح التي كانت تنفعل لمراد صاحبها في الدنيا ، يختلف موقفها في الآخرة ولا تنفذ في اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (من الآية ١٦ سورة غافر)

مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم

الجنود ، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد الأعلى ، فيقولون مسئولية الأوامر الخاطئة التي أصدرها قائدهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائما ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء في الدنيا . ويأتي يوم القيامة لتنتهي سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى في الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى ، فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة عن جارحة أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هي أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » يفضح تدليسهم في الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيهم السابق الملىء بالذلة والمسكنة ، التمني بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

فهم كاذبون في الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ (٢٩)

إنهم لم يأخذوا في أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكون منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظم والإحكام والترتيب موجود في علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك في كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم ؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب ؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه ، وفي كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . ولايمنع لا يمنع أن يصطلح الناس على شيء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب

إننا نجد أن تحريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطري

وضروري للإنسان ؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تفضحهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوي جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمي كرامة الإنسان . ويوم القيامة يقفون في صَغار وفي اضطرار ليروا ما فعلوا :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيعملون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول في اليوم الآخر إلا لأنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

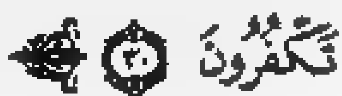
(سورة الأنعام)

ففي دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا في الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوى . والقوى إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضي المؤمن يقول دائماً : لئن عمّيتم على قضاء الأرض ، فلا تعمّوا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهي في حقيقتها دنيا ، وماداموا قد حكموا وعرفوا أنها « دنيا » فلا بد أن يقابلها حياة عليا إن كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾



هم - إذن - قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله ؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قبل الجواب عندما أوقفهم على النار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى .. إنه ارتقاء في الصوت .

وهكذا نرى التبكيت لهم في قول الحق لهم « أليس هذا بالحق » ؟ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار . « أليس هذا بالحق » ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : « بلى » لأن الأمر لا يحتاج - إذن - إلى مكابرة . و« بلى » حرف يجعل النفي إثباتا .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفي حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب . ويصدر حكم الحق : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهكذا يذوقون العذاب الذي كانوا به يكذبون . وذوق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت ، لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال ، فهذا يعني الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال

إذن فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر. وكل إنسان منا يريد أن يثمّر عمله ويحاول أن يعطي قليلاً ليأخذ كثيراً.

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقتطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التي في مخزنه ليبذرها في الأرض بعد أن تُحرث . وهذا يعني النقص القليل في مخزن هذا الفلاح ، ولكنه نقص لزيادة قادمة ؛ فعندما وضع البذور في الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبتها له أضعافاً مضاعفة والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل أن يأخذ الآجل الكبير .

وهذه أصول حركة العاقل الذي يزن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل الجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتي له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العاقل لا يحب الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذي سيأتي إليه . أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها ؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره في الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه فانٍ وذاهب وميِّت ، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (من الآية ٣١ سورة الأنعام)

ونعلم أن « حتى » هي جسر بين أمرين ، فالأمر الذي نريد أن نصل إليه هو غاية ، كقول إنسان ما. « سرت حتى وصلت المنزل » ، والمنزل هنا هو غاية السير .

والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الخسران ، فمجيء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به. ويعلمون جيداً أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب

وهنا تبدأ الحسرة التي لا يقدرون على كتمانها ، ولذلك يقولون : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » . أي على تفريطنا وإسرافنا في أمرنا وذلك في أثناء وجودنا في الدنيا . وبذلك نعرف أن عدم التفريط في الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم، ولكن التفريط في أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم ؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد في الأرض

إنني أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع في الدنيا أمر مذموم في حد ذاته، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هي موضوع الدين ؛ لأن الدنيا هي موضوع الدين أيضاً ، والجزاء في الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة في الدنيا ؛ فمن يحسن السلوك في الدنيا ينال ثواب الآخرة ومن يسيء ينال عقاب الآخرة ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا .

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا بل الدنيا هي موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد في زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما في الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذي يبني الحضارات ويُثاب المصلح في الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً ؛ يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزاءً . والذين يعتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » . والأوزار المنسوبة في الدنيا ـ وهي الذنوب ـ ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية ؛ فمن سرق غنمة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره، ومن سرق بقرة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على

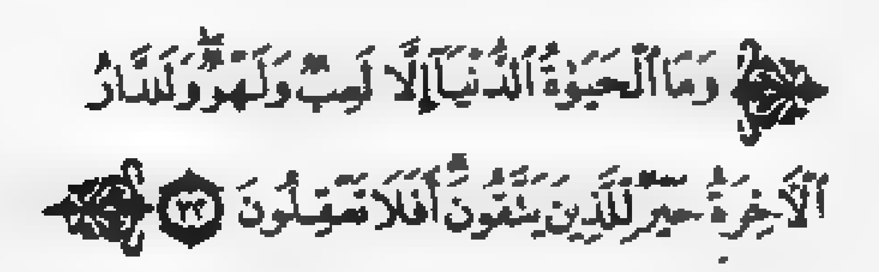
كتفه وهي تخور ، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة .

وهكذا يكون موقف أهل النار ؛ لذلك يقول الحق : « ألا ساء ما يزرون » ونعلم أنهم لا يحملون أوزاراً فقط بل يحملون من أوزار الذين اتخذهم قدوة له ، فهذا وزر الإضلال ويعرفون - جميعاً - أن حمل الوزر يتجسد في الإحساس بحيث فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هي الهدف منه ، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السيء .

إننا نرى الأمثلة العملية لذلك في حياتنا اليومية ؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلاً . الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتنى بأرضه ويحرثها ويحمل إليها السباخ ويعتنى بمواقيت الري ويسعى إلى يوم الحصاد بجد واهتمام . والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من النوم إلا في منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد . ثم يأتي يوم الحصاد فينال الأول ناتج تعبه من محصول وفير ، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالإضافة إلى الحسرة التي يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن فالعاقل هو من يدرس ما تعطيه حركته في الحياة . ويختار نوعية الحركة في الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة ، واطمئنان النفس في الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه ، ومن قام في بكرة الفجر إلى عمله يحب نفسه أيضاً ، ولكنّ هناك فارقاً بين حب أحمق عقباه الندم ، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر

والحق سبحانه وتعالى يقول لنا :



هكذا تكون الحياة بالنسبة لمن يقف عند وصفها على أساس أنها « الحياة الدنيا » إنها لا تزيد على كونها لهواً ولعباً . واللعب ـ كما نعلم ـ هو مزاولة حدث ونقضه في آن واحد ، والمثال على ذلك الطفل على شاطئ البحر قد يقيم بيتاً من الرمال ثم يهدمه ، إنه لم يقم ببناء بيت من الرمال إلا ليهدمه . واللعب عملية يُقصد بها قتل وقت في عمل قد يُنقض ، فالبناء والنقض في هذه الحالة تعب ولا يشغل اللعبُ الإنسان عن الواجب . أما اللهو فهو قتل الوقت في عمل قد ينقض ويشغل الإنسان عن الواجب أيضاً .

والطفل الصغير ـ على سبيل المثال ـ يتلقى من والديه بعض اللعب ليقضي وقته معها وقد يخربها ويهدمها وقد يعيد بناءها . ولعب الطفل هو لهو في الوقت نفسه ؛ لأن الطفل غير مكلف بواجب . وما إن يدخل إلى المدرسة وتصير لديه بعض من المسئوليات نجد الأسرة تعلمه أن يفرق بين وقت أداء مسئولياته ووقت اللعب ؛ لأنه إن لعب في وقت أداء المسئوليات صار لعبه لهواً ؛ لأنه شغله عن أداء مسئولية مطلوبة منه .

وكذلك الحياة الدنيا مجردة من منهج الذي خلقها وخلق الإنسان فيها هي لهو ولعب ، أما إن أخذ الإنسان الحياة بمواصفات من خلقها فهي حياة منتجة للخير في الدنيا وفي الآخرة . والذي خلق الحياة الدنيا جعلها بالنسبة لنا مزرعة للآخرة والمؤمن ـ إذن ـ له حياتان ، حياة صلاح في الدنيا ، وحياة نعيم في الآخرة ؛ لأنه يعيش الحياة الدنيا على مراد مَن خلقه .

ومن العجيب أن من خلقنا لم يكلفنا إلا بعد أن يصل الإنسان منا إلى البلوغ ، أي أن يكون الإنسان صالحاً لإنجاب إنسان مثله إن تزوج . ويأتي التكليف متناسباً مع النضج وعند تمام العقل . وسمح الحق لنا أن نلعب في سنوات ما قبل النضج ، ولكن لا بد أن يكون مثل هذا اللعب تحت إشراف من الكبار حتى يمكن للعب أن يتحول إلى دُرْبة تفيدنا في مجالات الحياة ، ويجعلنا نعرف كيف وصل في العصر الحديث إلى درجة من التقدم في صناعة اللعب التي يتعلم منها الطفل ، ويمكن أن يقوم بتفكيكها وإعادة تركيبها ، وحتى الكبار نجدهم في زماننا يتعلمون قيادة السيارات في حجرات مغلقة وأمامهم شاشة تليفزيون ، وكأنهم في طريق حقيقي وفي شارع مزدحم بالسيارات ، ومن يتقن هذا التدريب العملي يخرج إلى قيادة السيارة

وهكذا نجد أن التدريب مفيد للإنسان ، يعلم الصغار اللعب الذي ينفعهم عندما يكبرون ، وكذلك يفيد التدريب الكبار أيضاً .

وعندما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلم أبناءنا ركوب الخيل والسباحة والرماية، كانت الخيل - في زمن الرسالة - هي إحدى الأسلحة المهمة ليركبها الداعون إلى الله المجاهدون في سبيله . وحين طلب منا أن نعلم الأبناء السباحة فهذا بناء للجسم والقوة يفيد الشاب ويعلمه مواجهة الصعاب ، وحين طلب منا أن نعلم الأبناء الرماية فذلك لأن تحديد الهدف مادياً أو معنوياً ومعرفة الوصول إليه أمر مطلوب من كل شاب . وكل هذه ألعاب ولكنها ليست لهواً . إنها ألعاب ممتعة ويمكن أن تستمر مع الإنسان بعد أن يكبر . قال عليه الصلاة والسلام : « علموا أبناءكم السباحة والرماية »[1] . فماذا عن ألعاب عصرنا وزماننا ؟

إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار ، وهي لعبة لا تعلم أحداً شيئاً ، لأنها لعبة لذات اللعب ، وهي لعبة تعتدي على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجادة . فهي تبدأ في زمان محدد ، ويذهب المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجند لها الدولة من قوات الأمن أعداداً كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمنع وتحول وتُعطل البعض عن عمله والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك بينما نجد أن بعضاً من ميادين الجد بلا قانون .

وأقول ذلك حتى يُفيق الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تفيدهم في شيء ما وأقول هذا الرأى وأطلب من كل رب أسرة أن يُحكم السيطرة على أهله ، وينصحهم بهدوء ووعي حتى ينتبه كل فرد في الأسرة إلى مسئولياته ولتعرف أنها لون من اللهو ، وتأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونتعب من قلة الإنتاج

إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولتأخذ كل أمر بقدره ، فلا يصح أن ننقل الجد إلى قوانين اللعب ، ولكن يمكن لمجد قانونه ، وللعب وقته وإلا سنقل

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس وأبو نعيم في الحلية

اللعب إلى دائرة اللهو ، لأن معنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه وإن نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهي لعب ولهو .

ونلتفت هنا إلى دقة الحق حين جاء باللعب أولاً ثم باللهو من بعد ذلك ، ثم يقول : وللدار الآخرة ، وفي هذا لفت واضح إلى أن الإنسان حين يعزل عن منهج الحق في الحياة تصحبه الأحداث بالانتقال المفاجئ إلى جد واضح ؛ لذلك فلنأخذ الحياة في ضوء منهج الله ؛ لأنه سبحانه حين أعلمنا أنه خلق الإنسان من طين ، وصوره ونفخ فيه من روحه فقد أعطاه الحق بذلك حياة أولى ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي وكل إنسان له حس وحركة وفكر وإرادة وأرسل الله الرسل بالمنهج من أجل أن تسير الحياة إلى الغاية منها وهي الحياة الثانية وهي الدار الآخرة وإنها الحياة الكاملة الباقية ، ونسمع قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إن الحق سبحانه وتعالى يقدم لنا حياة عالية دائمة تخلف الحياة التي تنتهي والذي يتوقف عن أخذ منهج الله في حياته يكتفي بمثل ما يأخذ الحيوان من الحياة وهي النفخ في الروح ، لكن الذي يأخذ بمنهج الله يأخذ الحياة العالية حياة الخير والجمال والإصلاح والإحسان . ونعلم أن الجمال في الحياة هو الجمال الذي لا يورث قبحاً والخير الحقيقي هو الذي يعمم خير الله على العباد ، فلا يأخذ الإنسان الخير لنفسه ويترك شروره للآخرين ، لذلك أقول : لا تأخذ أيها المسلم الخير لنفسك على حساب الشر للآخرين ؛ لأنك لا تحب أن يحقق الآخرون الخير على حسابك ، والذي يحب أن ينطلق بشروره في الناس فليستقبل الشر من غيره ومن يحب أن يأخذ الخير من الناس فليعطهم من خيره حتى يبقى الوجود جميلاً . إنه فالحياة بدون منهج الله تكون قبيحة ؛ لأن القوي يعيث فيها فساداً بقوته ويصل الضعيف إلى الإحساس بالذلة والضياع .

لكن الحق سبحانه أراد الحياة للمؤمنين في ضوء منهجه ، وعندما يطبقون تكاليفه بـ « افعل » و« لا تفعل » فهم يصونون الحياة من الفساد حسب أوامر الخالق الأعلى للحياة ، فهو سبحانه الذي أوجدنا ووضع لنا قوانين صيانة الحياة وحين منع مؤمناً واحداً من الشر ، فهو قد منع وحرم على كل إنسان مؤمن من أن يصنع شراً لأخيه ،

وبذلك حمى الإنسان من الشر. وإنما خص الله المؤمنين بالنداء والدعاء ؛ لأنهم أهل الاستجابة والطاعة ، أما ما عداهم من أهل الكفر والشرك فقد تأبوا على الله وعصوه ولم يؤمنوا به . وحين يأمر الله المؤمن بالخير ، فهو يأمر المؤمنين جميعاً بأن يصنعوا الخير لهم ولغيرهم . وبذلك يكسبون حياة مطمئنة ؛ لذلك يقول سبحانه : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »

فالذين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحييهم يظلون في الحياة الدنيا غارقين في اللهو واللعب ، إنهم كالغرقى. وحتى نعرف أن الحق سبحانه أراد لنا - نحن المؤمنين - الحياة العالية ؛ إنه - سبحانه - قد سمى المنهج الذي يرسم لنا الأوامر والنواهي بالروح : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . وسمى الحق سبحانه وتعالى جبريل الملك الذي نزل بالوحي :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فالحياة التي تعطي الإنسان الحس والحركة هي الحياة الأولى التي يلعب ويلهو من خلالها ، وليست هي الحياة المرادة لله ؛ لأن الحياة المرادة لله هي الحياة الإيمانية ولذلك سماها الحق سبحانه الحيوان أي الحياة الكملة وسمى المنهج روحاً .

﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن مجرد التعقل يعطي الإنسان الخير ، والتعقل هو محاولة فهم نواميس الكون من الأسباب والمسببات ، ونحن نرى نور الشمس يعمّ النهار ويشيع الضوء والدفء ، وغياب الشمس وظهور القمر يحقق صفاء الكون ويهدي الناس في ظلمات البر والبحر ، وجريان الماء يروي الإنسان والزرع ، وحركة الرياح تحرك السحب وتقود السفن وتساعد في حركة الملاحة في الجو والبحر وتلقح النبات ، وكل ذلك أسباب أرادها الله حتى يتحقق التوازن في الكون. والإنسان يأخذ حظه من الحياة بالأسباب التي يعمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره

صحيح أن هناك أناساً يعيشون بلا أسباب ويأخذون تعب غيرهم ، ولكن عليهم أن يعلموا الله ، فإياك أيها المسلم أن تبني لحمك ولحم أولادك من استغلالك

لغيرك ؛ ذلك أن أغيار الحياة ستمر عليك وقد تصير قوتك إلى ضعف ، وتأمين الإنسان لضعفه إنما يكون بإخراج الزكاة للضعيف ، ومساعدته ومعاونته في كل ما يحتاج إليه ، وبعد غير المؤمنين وقد أخذوا فكرة التأمين من الزكاة ، فأنت تدفع للفقير زكاتك لتؤمن نفسك كمؤمن ، وهم أخذوا هذه الفكرة ليحولوها إلى تأمين على الحياة ، ولذلك تدخلوا في قدر الله.

لكن الحق أراد بالزكاة أن يطمئن المجتمع كله لا أن يطمئن من يؤمن على نفسه فقط. ونعلم أن الذي يخيف الإنسان ويجعله يكدس المال ويجمعه ويكنزه هو الخوف من الضعف ، لكن لو أعطى الغني بعضاً من المال للفقير لأشاع الاطمئنان في نفسه وبعوض الضعفاء.

والذي يجعل الناس تلهث في الحياة للادخار لأبنائها هو عدم اقتناعهم بالتكافل الاجتماعي الذي شرعه الإسلام. وهم يرون اليتيم وهو يضيع في المجتمع ، لكن لو آمن الناس في المجتمع بالتكافل الاجتماعي لوجد كل يتيم أبوة المجتمع كله له.

والإنسان الذي يلهث وراء الكسب من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده قد يحول أولاده إلى يتامى لأنه مشغول عن تربيتهم ، وبذلك يقول أمير الشعراء شوقي رحمة الله عليه

ليس اليتيم من انتهى أبواه من
هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له
أمًّا تخلت أو أبا مشغولا

إن على المجتمع أن يأخذ قضية الخير من قول الحق سبحانه: ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ فكما أحيا الحق الأجسام بالروح التي تنفخ في القالب الطيني فصار لها حس وحركة ، فهو قد أنزل المنهج أيضاً روحاً من عنده لترتقي به روح الحس والحركة ، حتى لا يصير الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلا.

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣٢)
(سورة الأنعام)

والدار الآخرة خير ، لأن الدنيا مهما طالت فهى منتهية ، لكن الحياة الآخرة خلود أبداً ، ونعيمنا فى الدنيا نأخذه بالأسباب ، ولكن نعيم الآخرة نأخذه على قدر سعة ورحابة قدرة الله . وآفة الدنيا حتى بالنسبة لأهل النعيم والقوة والثراء هى الخوف من الفقر أو الموت ، لكن فى الآخرة لا يفوت أهل الجنة النعيم ولا يفوتون النعيم .

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لقد شرح الحق حال الكفار وموقفهم فى الآخرة حين يقفون على النار ، ويقفون أمام الله ، ومن بعد ذلك يوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تقع عليه مشقة البلاغ من الله لهؤلاء الكفار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حزيناً لأن قومه لا يذوقون حلاوة الإيمان ، وهو الرسول الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون كل الناس مؤمنين ، ويتألم لمقاومة بعض الناس دعوة الإيمان ، إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على الكافر ليؤمن على الرغم من أن مهمة الرسول هى البلاغ فقط ، ولو شاء الحق أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لأنزل عليهم آية تجعلهم جميعاً مؤمنين .

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد خضوع أعناق ، ولكن يريد خضوع قلوب . إنه - سبحانه - يريد أن يأتي الناس طواعية واختياراً ليثبتوا الحب للخالق ؛ لذلك يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون » وساعة نسمع : « قد » فلنعرف أن ما يأتي بعدها هو أمر محقق ، ويأتي ذلك إذا دخلت على الفعل الماضي فهي في هذه الحالة تأتي لتسبق أمراً محقق ، ومرة تأتي للتقليل أو للتكثير إذا دخلت على الفعل المضارع الذي يدل على الحال أو الاستقبال ، فإذا كان العامل والمعمول بينهما ارتباط سبب فهذا للتكثير ، وإذا كان ظاهر الأمر غير مرتبط ارتباط واضحاً .. فهذا للتقليل ولمثال على الارتباط الذي يدل على لتكثير هو قول القائل : قد ينجح المجدّ ؛ لأن المجدّ والنجاح مرتبطان ارتباط سببية ، ولكن قد يكون هناك حادث مفاجيء لأحد المجدين فلا يستطيع النجاح ، كأن يمرض يوم الامتحان ، ولكن احتمال الصحة أكثر من احتمال المرض فكانت للتكثير

والمثال على مجيء « قد » للتقليل هو قول القائل : قد ينجح الكسول ، أي أن الكسول قد ينجح بالمصادفة وبدون أسباب منطقية ، كأن يقرأ عدداً من الدروس ليلة الامتحان فيأتي فيها الامتحان فينجح ، إذن فـ « قد » إذا دخلت على الماضي تكون للتحقيق ، وإن دخلت على المضارع فهي لتكثير إن كانت منطقية الأسباب ، وهي للتقليل إن كانت غير منطقية الأسباب ولكن كلنا يعلم أن علم الله هو علم أزلي ، ولا قوة ولا أمر يخرجان عن معلوم الله . إذن فـ « قد » هنا للتحقيق وهي داخلة على الفعل المضارع ، فالحق أراد أن يبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث وجاء بـ « قد » لنستحضر صورة الفعل

« قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون » والحزن هو خروج النفس عن سياق انبساطها ؛ فالإنسان يكون غاية في الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يؤدي مهمته ، فإن حدث شيء يخل بعمل أحد الأجهزة فذلك يورث الحزن أو يكون الحزن انفعالا لمجيء وحصول أمر غير مطلوب للنفس

لقد كان مطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ منه ، لكن البعض قاوم الإيمان ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قول الشعر ، وها هو ذا الحق يسلي رسوله فيقول « قد نعلم إنه ليحزنك الذي

يقولون ، أى إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوامهم هذه ليست متعلقة بك ، لأنك ـ بإجماع الآراء عندهم ـ أنت الصدق الأمين وهم إنما يكذبون بآيات التى أرسلتها معك إليهم ، لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شىء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنسان لا يغش نفسه فيما يخصه فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله ؛ لأن من يوجه إهانة للرسول إنما يوجهها للمرسل له وهو الله جلت قدرته .

ولذلك يقول الحق : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وسبحانه يبين لنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أن تستجيب أمته لداعى الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قول الحق سبحانه وتعالى فى رسوله :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب ألا يفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجىء له طواعية ويقدر ألا يجىء ، ومن لا يجىء وهو قادر أن يجىء .

إن الحق سبحانه وتعالى له سنن كونية فى الكون يجريها على كل الخلق . وقد يتساءل قائل : وما الذى يجعل الحق سبحانه وتعالى يترك للكفر به مجالاً فى دنياه ؟ ولماذا يجعل الحق سبحانه وتعالى للشر مجالاً فى دنياه ألا يحكمها بهندسة حكيمة ؟ ونقول لو لم يوجد للشر مضار تُفَزِّع الناسَ لما عرفوا للحق حلاوة . إذن فوجود الشر ، ووجود الكفر ، وآثار الكفر فى الناس جبروتاً وقهراً واستدلالاً ينادى فى الناس أنه لا بد من الإيمان ، وأنه لا بد من وجود الخير . فلو لم يكن للشر مكان فى الكون فما الذى يلفت الناس إلى الخير ؟ ولذلك نجد أن هبات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فترتها إلا حين نجد قوماً من خصوم الإيمان يهيجون المؤمنين ويؤذونهم ويستفزونهم أما إذا صارت الدنيا إلى رتابة فرتب فتر أمر الإسلام فى نفوس المسلمين ولذلك نجد المؤمنين بالله فى غيرة دائمة ؛ لأن هناك من يكفر بالله فيقول لرسوله « قد نعلم

إنه ليحزنك الذي يقولون ، وكأنه سبحانه يعلمنا أنه أراد كونه ليكون فيه المؤمن والكافر .

لذلك إن تساءلت - أيها المسلم - كيف يكون في الأرض كافرون ؟ فلك أن تعلم أنهم من خلق الله أرادهم الحق أن يختاروا الكفر فلم يختاروا الكفر قهرا عنه - سبحانه - وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزن لأن هناك أناساً لم يؤمنوا ، فيسليه الحق سبحانه وتعالى ، بأنه يعلم أنه يحزنه الذي يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله . ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كذب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟ ألم يقولوا إنه شاعر ؟ وسبحانه وتعالى يعلم ما قالوا ويعلم أن هذه الأقوال تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريد الحق سبحانه أن يرفع ويدفع هذا الحزن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبلغه أنهم لا يكذبونك يا رسول الله ، فأنت تعرف منزلتك عندهم وهي منزلة الصادق الأمين ، ولا يجرؤ أحد على تكذيبك ولكنهم يجحدون بآيات الله وهل هناك تسلية أكثر من ذلك ؟ لا يمكن أن توجد تسلية أكثر من ذلك

ونعلم أن ما قاله أهل الشرك عن رسول الله هو قول مردود ، فهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان ، فكيف يقولون إن القرآن شعر وهم أصحاب الدراية بالأساليب مرسلها ، ومسجوعها ، ونظمها ، ونثرها ؟

أمن المعقول أن يلتبس عليهم أسلوب القرآن بالشعر ؟ من المؤكد أن هذا غير ممكن ولقد قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه ساحر ، فكيف سحر الذين آمنوا به ولم يسحر الباقين ؟ ولو كان ساحراً لسحرهم أيضاً ، وبقاؤهم على الكفر ينقض هذا . وقالوا كاذب ، فهم بقولهم هذا يكذبون أنفسهم لأنهم يعرفون عنه أنه الصادق الأمين ، ولنعد إلى الحوار بين الأخنس بن شريق وأبي جهل

قال الأخنس : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال أبو جهل : ماذا سمعت ! وهنا نسمع قول الغيرة والحسد والبغض ، نسمع عن تلك الأمور البعيدة عن موضوع الرسالة النورانية المحمدية فيقول أبو جهل . تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء فمتى

تدرك مثل هذا ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس وتركه . إذن هي مسألة غيرة غاضبة على مناصب وسلطة زمنية ، ولذلك يرد الله عليهم قائلاً :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وها هو ذا الحق يسلي رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾

(سورة الأنعام)

إنهم ظالمون ، لأن الظلم نقل حق إلى غير مستحقه . وأبشع أنواع الظلم هو الشرك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة ، والظلم الأخف وطأة هو أن ينقل الإنسان حقاً مكتسباً أو موهوباً إلى غير صاحبه وهذا ظلم موجود بين الناس . وقد نقل المشركون حق الذات الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام ، أما المؤمنون فهم الذين اعترفوا بحق الذات الإلهية في العبادة

وهناك نوع آخر من الظلم أريد أن أتحدث عنه ، وهو أن يظلم الإنسان اسمه ، كأن يكون والده قد سماه « مهدياً » ولكنه يملأ الدنيا فساداً بإيذاء نفسه وبإيذاء الآخرين . نقول لمثل هذا الإنسان : إن الواجب يقتضي منك أن تحترم أمل والدك فيك ، فلا تظلم اسمك « مهدياً » ولتكن هناك عدالة بين الاسم والمسمى وذلك بأن يكون سلوكك متوافقاً مع الاسم الذي سماك به أبوك .

أما إن كان أبوه قد سماه « مهدياً » ولم يلقنه أي شيء من تعاليم الهدى والدين، ثم خرج الشاب إلى الدنيا ليملأها بالشقاء لنفسه ولغيره ثم اهتدى من بعد ذلك فهذا شاب استطاع أن يتعلم الهداية فنصر اسمه على مسماه .

وقد كنا في الثلاثينيات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة :

« إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عماد الدين لأن كل الموبقات فى هذا الشارع » وتعجبت أن يكون اسم الشارع « عماد الدين » ويكون مكاناً للموبقات وقلت فى ذلك :

واقبح الظلم بعد الشرك منزلة
أن يظلم اسما مُسمّىً ضده جُبِلا
مشارع كعماد الدين تسمية
لكنه لعماد الدين قد جُعلا

وفى حياة كثير من حالات الأسماء يظلمها أصحابها . ولكن أكبر وأقبح درجات الظلم هو الشرك بالله « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » والجحد هو إباء اللسان وترفعه وعدم رضاه بأن ينطق بكلمة الحق ، فلو أن المشركين نفروا إلى أنفسهم واستعرضوا مسائل محمد ومسائل الرسالة لوجدوا أن قلوبهم مقتنعة بأنه صادق وأنه رسول وأن المنهج إنما جاء للهداية لكن ألسنتهم غير قادرة على الاعتراف بذلك

ولذلك يأمر المنهج الإيمانى أن على الواحد منا إن أراد أن يناقش قضية أهى حق أم باطل فلا يصح أن نناقشها فى حشد من الناس ، ولكن فلنناقشها أولاً فى نفوسنا لنتبين الحق فيها من الضلال ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

كأن الحق يهديك إلى كيفية التمييز ، فإما أن تناقش أنفسنا ، وإما أن يتناقش اثنان حتى يمكن أن يقتنع أحدهما برأى الآخر دون أن يشهد ثالث هزيمته فيكابر ويجادل وقد نصح الحق بذلك هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به ـ والعياذ بالله ـ مساً من الجنون ، فالجنون هو أن تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبر أو نظر فى آثارها وتكون خالية من حكمة فاعلها . أما العاقل فهو الذى يرتب الأعمال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهى به عقله وحكمه إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى

سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال؟ لا .

ولذلك يقول الحق :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

إن الخلُق العظيم يتنافى مع الجنون . وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنّهم رمَوْه بالسفه والجنون . فكلما جاء رسول لقومه بمنهج حق ليطمس معالم الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة . ونعرف أن السماء لا تتدخل بالنبوات والمعجزات إلا حين يطم الفساد وتنطمس النفس المؤمنة . فالمؤمن فيه خميرة الخير فيندفع إلى فعل الخير . وإن حدثته نفسه بفعل معصية وفعلها ، فإن نفسه اللوامة تؤنبه على ذلك ، لكن إن انطمست نفسه ولم تعد تلوم ، صارت نفسه الأمارة بالسوء هي المسيطرة وإن لم يجد من يقول له في المجتمع : لا تفعل ذلك . فالمجتمع كله يكون قد فسد « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

إذن السماء لا تتدخل برسالة أو معجزة أو منهج إلا حين يطم الفساد . وما دام قد طم الفساد فهناك من يستفيد من هذا الفساد . وحين يأتي الرسول من أجل أن يمنع الفساد فهذا الرسول يمنع عن المفسدين استغلال الناس ويحول بينهم وبين الاستفادة من الفساد . ولذلك كان لكل رسول مقاومة من المفسدين وكانوا يقولون :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وأتباع كل رسول هم المظلومون الذين يحتاجون إلى منقذ . أما الجبابرة فهم يخاصمون الرسول ويقاومونه ، ويستقبله هؤلاء الجبابرة بإيذاء يتناسب مع مهمته . فإن كانت مهمته لقبيلة فالإيذاء يأتيه من هذه القبيلة وإن كانت مهمته أوسع من ذلك فإنه يلقى من صنوف العذاب ألواناً

وما دام محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس كافة فعليه أن يجد المتاعب

الكثيرة ويتحملها وقد أعده الله وهيأه لذلك ، وقد أخذ الرسل السابقون من الإيذاء على قدر دعوتهم أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو للناس كافة ، ولا رسالة من بعده ، لذلك يتجمع ضد هذا الرسول وهذه الرسالة أقوام كثيرون . ولذلك يقول له الحق سبحانه .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ، ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟ إن عليك أن تتحمل هذا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد اختارك لهذه المهمة وهو العليم أنك أهل لها والحق كفيل بنصر رسله فلا يتأتى أن يترك الشر أو الباطل ليغلب الرسل ، وما دام سبحانه وتعالى قد بعث الرسول فلا بد أن ينصره . فهو القائل .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (سورة الصافات)

وما دامت قد سبقت كلمة الله للرسل فلا مبدل لكلمات الله ، ولا أحد بقادر على أن يعدّل في المبادئ التي وضعها الله بقوله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنعام)

وقد قص الحق سبحانه على رسوله قصص المرسلين ، ولم يكتف بالقول لرسوله أن الرسل السابقين عليه قد كذبتهم أقوامهم ، ولكن أورد الحق لرسوله ما حدث لكل

رسول ممن جاء ذكرهم بالقرآن الكريم وماذا حدث للرسول ـ أي رسول ـ من ثبات أمام الأعداء ، ثم بيّن أن كلمة الحق قد انتصرت دائماً . وقد روى الحق بعضاً من قصص الرسل فقال

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (من الآية ٧٨ سورة غافر)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥ ﴾

إنك يا محمد رسول من عند الله ، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به ، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نفقاً في الأرض تأتيهم بآية أو أن تبني سلماً لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية فافعل ، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك جئت يا رسول الله تبدد من صولجان سلطتهم الزمنية وتقيم العدل الإيماني ولذلك حاولوا السخرية منك وإيذاءك

وقد طلب الكافرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعاً ، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفاً وقطعاً لتهلكهم وهذه أشياء لم تكن في مكنة واستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول له الحق سبحانه وتعالى ما يغلق عليه أبواب الحزن ويقضي على أسباب الأسى والأسف عنده بسبب إعراضهم ، وأن يعرف أن السخرية والمقاومة هي مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل ، وأنت يا رسول الله أولى

بهذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل . ونلحظ أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب « إن » فهو يقول :

﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنعام)

ولم يقل الحق : فافعل ذلك ، كأن المسألة هي تهدئة للرسول ؛ لأن الجواب في مثل هذه الحالة معلوم ؛ فالرسول لا يجبر أحداً على الإيمان . وإعراض هؤلاء القوم أمر مقصود لواجب الوجود حتى يختبرهم ولو أراد قهرهم لفعل ، فلا أحد يتأبى على الله ، فالكون كله مطيع لله ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والهواء ، والماء ، والجبال ، والأرض ، وكل ما في الكون مطيع لله بما في ذلك الحيوان المسخر لخدمة الإنسان . ولكنه ـ سبحانه ـ أعطى الاختيار للإنسان ليأتي إلى الله محباً .

ونعلم أن الحق قد ترك بعضاً من المسخرات غير مذللة ليثبت للإنسان إنه لم يذلل الأشياء بحيلته ، ولكنه ـ جل شأنه ـ هو الذي خلقها وذللها له ؛ لذلك نرى الجمل الضخم يجره طفل صغير ، ونرى أي رجل مهما تكن قوته يأخذ الحذر والاحتياط من ثعبان صغير .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولو لم يذللها الله فلن يستطيع أحد أن يقترب منها . وأضرب هذا المثل دائماً ، عندما قال قائل : لماذا خلق الله الذباب ؟ فقال رجل من أهل الإشراق : ليذل به الجبابرة ؛ فسلطانهم لا يمتد إلى هذه الحشرات . لقد أعطى الحق الإنسان عزة السيادة ، وعلمه أيضاً أن يتواضع للخالق .

ويبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنعام)

أي أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين . وقد يقول قائل : كيف يخاطب الله رسوله فيقول له : « فلا تكونن من الجاهلين » ؟ ونقول : إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول ، فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

و« يستجيب » معناها أنهم يطيعون أمر الآمر ونهي الناهي . وهناك فارق بين « الاستجابة » و« الإجابة » ؛ فـ « الاستجابة » هي : أن يجيبك من طلبت منه إلى ما طلبت ويحققه لك ، و« الإجابة » هي : أن يجيبك من سألت ولو بالرفض لما تقول ، وقد يكون الجواب ضد مطلوب ما سألت . ويقول الحق : « إنما يستجيب الذين يسمعون » أي أن الذين يستجيبون لنداء الحق هم الذين يسمعون بآذانهم وقلوبهم مصدقة ؛ لأن هناك فارقاً بين سمع ظاهره سماع وباطنه انصراف ، وبين سماع ظاهره طاعة وباطنه محبة لهذه الطاعة . ونعلم أن استقبال المسموع شيء ، وانفعال الإنسان بالمسموع شيء آخر .

وعندما يتحد حس الاستماع مع انفعال الحب لتنفيذ ما سمعه الإنسان فهذا ما يطلبه الإيمان . والمؤمنون هم الذين يستمعون لكلمات الله بانفعال الحب ، وهم يختلفون عن هؤلاء الذين يسمعون الكلام من أذن ويخرجونه من الأذن الأخرى ، ويتركون الكلمات بلا تطبيق ، ولا يبقى في النفس الواعية من آثار الكلام شيء .

وهكذا نرى أن الله قد صنع وخلق في الإنسان من الحواس ما تهديه وترشده إلى الإيمان أو إلى الكفر ؛ فالأذن عند المؤمن تسمع ، والقلب يصدق ، والعمل يخلص ويزمن . أما الكافر فأذنه تسمع وقلبه يعارض ، وعقله يبحث في أسباب الكفر رغبة

فيه وسعيا إليه ، ولذلك لا تؤدى حواسه مهامها بانسجام ، وكأن الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموتى فالأمر - إذن - ليس مقصوراً على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالمسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذى لا يسمع سماع طاعة يهتدى ويستقيم ، فلا شىء ولا كائن يتأبى على الله ؛ لأنه سبحانه يحيى الموتى

وما دام هو سبحانه يحيى الموتى فهو لا يطلب إيماناً جبرياً إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية تظلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب إذن فالذين يستجيبون لداعى الإيمان هم الأحياء حقا ، أما الذين لا يستجيبون فهم فى حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم فى الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يجدون الحساب . ونعلم أن المرجع أخيراً ودائماً إلى الله ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل الجزاء الطيب ويتشوق ويتشوف إليه ، أما من يرجعه الله قهراً فهو يخشى الجزاء الأليم

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إن الله سبحانه يوضح لنا مواصلتهم للجدل ، وطلبهم لآية ما والآية هى الأمر العجيب الذى يبعثه الله على يد نبى يثبت صدقه فى تبليغه عن الله وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن القرآن آيات بينات على الرغم من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة ؛ لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذى جاء به ، فموسى عليه السلام معجزته العصا ، ويده التى أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وشق البحر ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم فى المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وجاء بالإنجيل مكملاً بالروحانيات تلك الماديات التى ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفترى الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم نزل بهم إلى أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم إلى أن يأتوا بمثل سورة واحدة من أقصر سوره . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضاً ، فكما أن محمداً افترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك بما سمعتم وتفوقتم فيه من أساليب البلاغة . إن القرآن قد تحداهم ومادام قد تحداهم فإنه معجزة ؛ لأن الأصل فى المعجزة التحدى ، ويتحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم فى أمر اللغة ، وهم سادة اللغة وهم النابغون فيها .

جاء القرآن ليتحداهم فى مجال نبوغهم ، ولكنّ بعضاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونية يرونها . وأعماهم الحمق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب . ونحن - المسلمين - لا نصدق المعجزات الحسية إلا لأن القرآن أوردها ، ولأن القرآن قد جاء للناس كافة ؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبى الذى جاء به .

جاء القرآن - إذن - معجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كونيه وقضايا علمية ، وإذا كان الخلق يجتمعون فى اللمحات مما تضمنه القرآن من معجزات لن تنقضى عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستنبط من آيات الله معجزات جديدة تخرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العجيب أن بعض الذين يستنبطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكنّ بعضاً من المشركين لم يكتف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب للآية حقيقياً يرجون من ورائه معرفة الحق والإيمان به أو كان مجرد سبب يضعون وراءه حتى لا يؤمنوا ؟ إن كان

طلب الآية هو أمرًا حقيقياً نابعًا من قلوبهم فإننا نأخذ بأيديهم ونرشدهم ونهديهم ونقول لهم : إن الرسل التي جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كانوا رسلا إلى أمم مخصوصة وفي زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرى مرة واحدة وتنتهي ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حسية ؛ حتى لا تنحصر في الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المنهج الدائم . وكنز القرآن أظهر وكشف من الآيات الكونية ما تحقق من علم وراء البشر ، وما سيظل يكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

أي أن البشر سيريهم الله وسيكشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تقترحون آية لمجرد التمحك والتلكؤ في إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

مثلما طلب قوم صالح الناقة ، فجاءهم بالناقة ، فكذبوا بتلك الآية وعقروا الناقة . « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » إذن فمسألة طلب الآيات قد سبقت في أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيقولون مثلما قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

ولقد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وبه آيات كثيرة عظمت وجلت عن أن تحصى وتحصر ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بألا يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »

إذن فعدم استجابة الله لإنزال آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤمنون يحملون المنهج ويقومون به إلى أن تقوم الساعة لأنهم أتباع وحملة الرسالة الخاتمة .

وبعد ذلك يأتي الحق بالبيان الارتقائي :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنه سبحانه يوضح لنا : أنا أعطى الآيات التى أعلم أن الفطرة السليمة تستقبلها كآية وتؤمن بها . وأنزلت لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذى يحمله منهجاً يُصلح حياتكم وقد جعلتكم سادة للكون ؛ تخدمكم كل الكائنات ، لأنكم بنو آدم وكان الأجدر بكم أن تنتبهوا إلى أن الحيوان فى خدمتكم ، والنبات فى خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنت قد جئتُ للأجناس كلها وجعلتُها دونكم وأعطيتها ما يصلحها ويقيمها ووضعت لها نظاماً ، وأعطيتها من الغرائز ما يكفى لصلاح أمرها حتى تؤدى مهمتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم ؟ إنى أنزلت المنهج الذى يصلح حياة من استخلفته سيداً فى الأرض

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة . وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداما سليما صحيحا فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة استخداما سيئا

فيضل عن الإيمان . وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات ؛ فقابيل تعلم من الغراب كيف يوارى سوأة أخيه . ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور . إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت والمثل ما قالته نملة لبقية النمل :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

إن النمل أمة لها حرس ، قالت حارسة منهم هذا القول تحذيراً لبقية النمل

والله سبحانه يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التي خلقها الله في الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم . وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأقوام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته النملة تبسم « ضاحكاً من قولها » .

وهكذا علمنا أن الله أعطى أذن سليمان عليه السلام ما جعلها تمتلك حاسية التقاط الذبذبة الصادرة من صوت النملة وتفهم ما تعطيه وتؤديه تلك الذبذبة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها ؛ لأن الله علمه منطق تلك الكائنات ولو علمنا الله منطق هذه الكائنات لفقهنا تسبيحهم لله ، ونحن لا نفقه تسبيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يسافر إنسان عربي إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً . إذن لو علمك الله منطق الطير ، ومنطق الجماد ، ومنطق النبات ؛ لعلمت لغاتهم

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

إن الجماد - الجبال - تسبح مع داود . وكذلك الطير ، فهاهوذا الهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وحز في نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

إذن فالهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن للشيطان مداخل عن الكائن الحي ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن كل الكائنات هي أمم أمثالنا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست في السماء ولا في الأرض ، مثل الأسماك التي في البحار ؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والسمك يسبح في جزء من الماء الذي هو جزء من الأرض فهو يسبح في جزء من الأرض ، فسبحان الذي خلق الدواب في الأرض ، وخلق الطيور وخلق الأدنى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى »

ونرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش النمل مخازن في الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة القمح ، وكيف تخلع النملة خلايا الإنبات من بذرة القمح ، لأن خلايا الإنبات إن دخلت مع حبة القمح إلى مخزن غذاء النمل قد تنبت وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى .

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

ونرون الاستثمار في النملة تثير العلماء ، لأن النملة الواحدة ترى على سبيل المثال

قطعة السكر ، فلا تقربها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر . ووجد العلماء أن وزن الشيء الذي يتغذى به النمل إن زاد على قدرة نملة ، فهي تستدعي أعداداً من النمل ليؤدوا المهمة .

وتساءل العلماء : من أين للنمل إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن ؟ إن تحديد العدد الذي يحمل حجماً محدداً يثير الغرابة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها في الحجم من الأسفنج ؟ إن النمل يستدعي لكتلة الحديد أضعاف ما يستدعيه لحمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما في الحجم ، إنها من قدرة الحق الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله في ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك في إناث الحيوان ، والكثرة الغالبة هي من الإناث والقلة من الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا في موسم معين ، وإلى أن يأتي موسم التلقيح تنصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهيئته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان في إعمار الأرض

وفي عالم الطير تجد الطيور تبني العش بفن جميل لاستقبال الفرخ الذي خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلها . ثم تجد في دنيا الحيوان والطير أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالنا أرزاقاً وآجالاً ، وأعمالاً ، فصدق الله إذ يقول : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، ولكننا نقول : إنه القرآن ، وكل شيء موجود ومذكور أو مسطور في القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون لله . والعلم المعاصر يكتشف في كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . والجهد العقلي يهديه إلى أن يوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما نتبع الهوى فإننا نفسد هذا الكون . إن الله ـ سبحانه ـ جعل للخادم من دواب

الأرض نظاماً للنمل والورق والأجل بحكم الغريزة ، وكذلك جعل للطير ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته الكريمة :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

إذن كل شيء يحشر يوم القيامة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء[1] من الشاة القرناء »[2].

أي أن الحق سبحانه يقتص من الشاة ذات القرون التي نطحت الشاة التي بلا قرون ويعوضها عن الألم الذي أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حقه يصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون فهم المكذبون بالآيات ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والبكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبكم مرتبط بالصمم ؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن البشر ينشأون في بيئات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التي نشأوا في

---

(١) الجلحاء : هي التي لا قرن لها ، بعكس القرناء .

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد بن حنبل .

بينها ؛ لأن اللغة ليست دماً ولا جنساً بل اللغة سماع وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى ؛ لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط ؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتذوق ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتي له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لمست كائناً وأحرقته . ومثال آخر : يتفق الناس على أن صوت العندليب جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العندليب إذن فالمعلومات العقلية تأتي نتيجة للمعلومات الحسية .

« صم وبكم في الظلمات » إنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أي ناحية ؛ صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفي ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة غافر)

وقال سبحانه أيضاً : « والله لا يهدي القوم الظالمين » إذن ، فمقدمهم الظلم ، والفسق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر في قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . ويأتي من بعد ذلك أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

و« أرأيتكم » مكونة من استفهام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المفتوح

للمخاطب كقولك : « أرأيت فلاناً » وكأنك تقول له : « إن كنت قد رأيته فأخبرني عنه » ، وعندما تقول لمخاطب ذلك فأنت تستفهم منه عن شيء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتي بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له :أخبرني عنك ، فيكون المعنى أخبروني عن أنفسكم ، وهكذا تكون : « أرأيتكم » معناها « أخبروني عن حالكم إخبار من يرى . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يخبروه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضر أو أي شيء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى ؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما يدعون الله الذي لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله . بل كان يجب أن ينادوا آلهتهم ، لكنهم في لحظة الخطر يقولون : « يارب » كأنهم يعرفون أنه لا منقذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا ينكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى الدجال الذي يدعي بممارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان نجد الحقيقة تنبع من الإنسان نفسه .

ويسألهم النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر ؟ إنهم يدعون الله . وكأنهم لا يثقون في آلهتهم .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لكن ماذا يحدث عندما يعود لتقلب غفلته ؟

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف ؟ يأتي الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر ؟ ويأتي الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) ﴾

إنكم - أيها المشركون - لا تدعون إلا الله أن يكشف عنكم الضر ، فإن رأى أن من الحكمة أن يجيب دعاءكم أجابه ، وإن رأى أن من الحكمة ألا يجيب فهو لا يجيب . وهم يدعون الله وينسون آلهتهم ومن أشركوهم بالعبادة مع الله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) ﴾

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التي تضر إما في النفس ، وإما في المال ، بالمرض ، والفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمناً بغير الله فليذهب إلى من آمن به ، ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله . وعندما يتضرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع ويقول سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

إنه - سبحانه - يحثهم ويحضهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى فى لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التى لا ينفذ إليها الهدى وكما قال الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى صارت قلوبهم مغلقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون .

ويتابع الحق القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالمنهج والتوحيد من خلال الرسل إنه - سبحانه - يصيبهم بالعذاب الذى يفاجئهم به فيقعون فى حيرة تأخذ عليهم ألبابهم وتشتت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتى لتذكر ؛ لأن الإيمان موجود بالفطرة ولكن الغفلة هى التى تطمس الإيمان والإنسان يحيا فى كون مليء بالنعم ولا دخل لأحد بها ، ولا يد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب على هذا الإنسان أن يعيش دائماً فى رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن إنساناً قد غفل عن نعمة الله فى الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس

يشتهى لطعام فسخه الله ذلك الطعام فكيف ينسى لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

« فلما نسوا ما ذكروا به » إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التى تمر على الإنسان فى كل لحظة من اللحظات ؛ لأنها تنبه الإنسان إلى أن هناك من أعطاها . مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذى وهب الصانع تلك الموهبة التى صمم بها الزى . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم ؟ إن الله سبحانه لا يحرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شىء ، أى يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، ويترفون ويعيشون فى ألوان من حياة الثمر والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذى يحدث ؟ « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وقلنا من قبل هذا المثل الريفى : لا يقع أحد من فوق الحصير . ولكن الحق يعلى الكافر المشرك فى بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الألم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أسرف على نفسه ووسع الحق عليه فى نظام الحياة . إياك أن تغتر وتقول : آه إن الكافر الظالم يركب أفخر السيارات ويعيش فى أبهى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة .

وننظر إلى دقة التعبير فى قول الحق تبارك وتعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » لقد فتح عليهم . أى سلط عليهم ، لا فتح لهم . ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

وهكذا نعرف أن الفتح لك غير الفتح عليك ؛ لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قسرى سوف يحدث له . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

إن القصص يأتى لحظة الفرح . وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث فى الحياة ،

تلتفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس في يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحادثات في غرف الحمراء
مشى النعى في دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وعندما ندقق في كلمة : « بما أوتوا » فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم كتمهيد إلى يسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أي أن الحادث الضار يأتي بدون مقدمات ؛ لأن مجيء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحتاط أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول في موقع آخر من القرآن الكريم .

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنعام)

أي أن العذاب قد يأتي مرة بغتة ، وقد يأتي مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتي بغتة عقاباً ، ويأتي جهرة حتى لا يقول أحد . لولا أن مجيء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم العذاب وهم مبلسون أي يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم .

ويتابع الحق ما يحدث هؤلاء :

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وما دام هؤلاء القوم قد نسوا ما ذكروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شيء ثم فرحوا بما أوتوا وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأنه يربي الخلق بالنقمة والنعمة ويطهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين

معصية لهؤلاء المفسدين ، ونعمة من نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض : كيف يأتي القرآن بالنقم وكأنها نعم ؟

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إنها نقم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواظ من نار ونحاس ، وهي نقم بالنسبة للكافرين وعليهم ، وهي نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهويل في أمر العذاب يجعل الناس ترتدع ، وهذا الوعيد نعمة من الله وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله .

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويعود الحق إلى استنطاقهم بالإخبار عن المرئيات :

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنطقهم : ماذا يفعلون إن سلب الله السمع وغطى قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل هناك إله آخر يستطيع أن يرد لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم ؟ لقد أخذوا نعمة الله

واستعملوها لمحادّة الله وعداوته ، أخذوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأخذوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله . ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها في وجه قضايا الخير . فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه النعم ؟ هل هناك إله آخر يلجأون إليه ليستردوا ما أخذه الله منهم ؟

ونرى في الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم أدامها على خلق آخرين . إن في ذلك وسيلة إيضاح في الكون . وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سلب إنساناً نعمة ، أنه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منعماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أي كدر فماذا سيفعل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .

وهاهوذا النبي يوضح لهم بالبراهين الواضحة ، ولكنهم مع ذلك يُعْرِضون عن التدبر والتفكر والإيمان « ثم هم يصدفون » .

والمؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق - سبحانه - بواسع رحمته يعطي صاحب العاهة تفوقاً في مجال آخر . ولنذكر قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للقلب رافداً
لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

إننا قد نرى أعمى يقود ببصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كبيتهوفن - على سبيل المثال - قد فتن الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجودٍ وفضل منه في نواحٍ ومجالات أخرى من حياته . ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كلفراً ابتلاء الله ؛ لأن الله هو الواحد الأحد : « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » ، أي انظر يا محمد وتعجب كيف نبين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجج عقلية وتوجيه إلى آيات

كونية وترغيب وترهيب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يفكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم يعرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ أن « تاء الضمير » في هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لها جاءت فيها « تاء الضمير » مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونلحظ أيضاً أن الآية التي نحن بصددها الآن تأتي فيها كاف الخطاب : « أرأيتكم » بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب « أرأيتم » ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدي معنىً لا يؤدي بغيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقوله : (أرأيتكم) يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضا كاف الخطاب والجمع بين علامتي الخطاب (التاء) و(الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استئصال وإبادة ، ومرة يقول الحق : « أرأيتم » أي أخبروني أنتم وأعلموني إعلاماً يؤكد لي صدق القضية ، ويأتي الاستفهام هنا من مادة « أرى » و« رأى » .

إن السبب في ذلك أنك حين تستفهم عن شيء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشيء ، وإما أن يكون المستفهَم منه لم يحضر حدوث الشيء . فإن كان قد حضر حدوث الشيء فإنك تقول له : أرأيت ما حدث لفلان وفلان ؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا وكذا . وإن كان المستفهَم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو

يجيب بالنفى ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهَم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهَم منه ، فالإيمان يقتضى أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث بـ « نعم » .

ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾

(سورة الفيل)

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عما حدث لأصحاب الفيل فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله رسوله باستفهام عن حادث لم يره ؟ ونقول . إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع منى ، وسماعك منى فوق رؤية عينيك للحدث ، فإذا ما قلت لك : « ألم تر » فمعناها : اعلم علماً يقيناً ، وهذا العلم اليقينى يجب أن تثق فى صدقه كأنك رأيته رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يخبرك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .

إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يجحد إحسانك ، فأنت لا تقول له : أنا أحسنت إليك ، ولكنك تقول له : أرأيت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا ؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدير رأسه فى الجواب فلن يجد إلا ما يؤيد منطقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجانبى فى كل المواقف التى تذكرها . وفى مثل هذا القول إلزام لا من موقع المتكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

وبعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلم اكتفائهم بالآيات التى أنزلها الله مؤيدة تصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تماديهم فى اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها فى شىء من الصفاقة والسماجة ، فقالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾

(سورة الإسراء)

وكلها أسئلة مليئة بالتعنت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى اختار القرآن معجزة ومنهجاً لرسوله صلى الله عليه وسلم ويعلم سبحانه صدق رسوله فى البلاغ عنه ، لكل ذلك يبين الحق لرسوله أن يبلغ هؤلاء الكافرين أنه سبحانه وتعالى لن يعود عليه أى نفع أو ضر نتيجة إيمانهم به سبحانه ، لكن النفع بالإيمان يكون للعباد ويعود خيره إليهم ، لأنه سبحانه وتعالى له صفات الكمال كلها قبل أن يخلق الخلق إنها له أزلا وأبدا .

فبصفات الكمال - علماً وقدرة ، وحكمة ، وإرادة - خلق الخلق جميعا . فإياكم أيها الناس أن تفهموا أن إيمانكم بالله يزيده صفة من صفات الجلال أو الجمال ، وإنما الإيمان عائد إليكم أنتم ، فإذا كان منكم متكبرون ومتعنتون ، فالحق سبحانه لا يترك من تكبر وتعنت ليقف أمام منهجه الذى يحكم حركة الحياة فى الأرض ، ولكنه سبحانه يأخذ أهل التكبر والتعنت أخذ عزيز مقتدر . واستقرئوا أيها الناس ما حدث لمن كذبوا رسل الله ، وماذا صنع الله بهم ؟ إنه بقدرته سبحانه وتعالى يستطيع أن يصنع معكم ما صنعه معهم . وإذا ما استقرأتم قصص الرسل مع المكذبين لهم وجدتم العذاب قد جاء للقوم بغتة ، فهاهو ذا الحق يقول عن قوم عاد .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

﴿ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوى الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤم ليذيقهم عذاب الهوان والخزى والذل فى هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزيا ، لأنهم فى هذا اليوم لا يجدون ناصرا لهم لأنهم كفروا بالذى ينصف وينصر وهو الحق جلت قدرته .

وماذا عن قوم ثمود ؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية ، لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبى الله صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وماذا فعل الحق بأصحاب الفيل ؟ لقد جاء قوم أبرهة لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبابيل . أى التى جاءت فى جماعات كثيرة متتابعة بعضها فى إثر بعض بحجارة من طين متحجر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بغتة . ومعنى البغتة أن يفجىء الخطبُ القومَ بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسام أنزلها الله بالكافرين جهرة ، مثالهم أولاء قوم فرعون يغرقهم الله علناً وكذلك قارون أهلكه الله جهرة :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد أخذ قارون نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، وصار مفتوناً بما امتلك ، وغرق في الغرور ، فماذا فعل الله به ؟ خسف الله به جهرة وأمام أعين الذين تمنوا مكانه . إذن فمن الممكن أن يأتي عذاب الله بغتة للكافرين به أو يأتيهم بالعذاب جهرة .
وما السبب في التلوين بين « بغتة » و« جهرة » ؟ البغتة تثبت لمن يعبد غير الله أنه مخدوع في عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قبل هذا الإله أن يعذب أتباعه من حيث لا يشعر . إذن فالبغتة تثبت عجز المعبودين من أصنام وغيرها ، فقد عجزت تلك الأصنام أن تحتاط للعابدين لها . وقد يقول قائل منهم : لقد جاءنا العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجهة لكنا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه

فيأتي الله أيضاً بالعذاب جهرة فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت في قلوب هؤلاء المعاندين القدرة على إبصار ضرورة الإيمان . ويعامل سبحانه خصوم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - مثل هذه المعاملة ، فعندما عاند القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معجزة لعلهم يتذكرون

فهم لولاه قد اتفقوا على قتله قبل الهجرة ، ويقفون على باب بيته ، ويخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون فى التآمر على رسول الله ، ولا ينجح لهم تبييت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله فوق كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاءه به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد نفع ، ولا ذاك التبييت أتى بنتيجة . وكانت تكرمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شيء . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويكون تذييل الآية - أيضاً - على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا - كما علمنا من قبل - إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار - كما نعلم - هو سيد الأدلة .

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجي الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف ؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين ؛ لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحي المتمتع بالحياة ، والذى لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة تهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران ، لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذى يتيقن أن له إلهاً وأنه سيرد إليه ليحاسبه ويجزيه عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت به محنة فى طى محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه لتستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفْقِدهم كل ما كانوا يتمتعون به فى دنياهم وليس لهم فى الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى ينقلهم إلى حياة خالدة هى خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتلقون فيوضات الله عليهم فى النعماء وفى البلاء أيضاً .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى فى الآية التالية عن التصور الإيمانى الذى يجب أن

يرسخ في أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعي الفطري البلاغ عن الرسول فهو يصدقه فورا ؛ لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ، وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخلافة الإنسان ، لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذي يجب أن تسير عليه لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود في الكون .

ويقتضي الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهي أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون مليء وغني بالخيرات ، ولم يدع أحد أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور في خلد صاحب الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذي وهب للإنسان حق الاستخلاف في كل هذا الكون . فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أنا جئتكم لأخبركم بمن خلقكم ، وبمن خلق السموات ، وبمن خلق الأرض ، وبمن رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذي كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هذا الرسول مؤيداً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشري يعترف اعتراف الإقرار على الفور ؛ لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعن الرسول نفسه ، وحتى على الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضعوا أي رسول في مكان أعلى من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحي واصطفاه للمهمة التي جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتي بالآيات التي يقترحها بعض من القوم ؛ لأن الرسول لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مقصور على أداء الأمانة الموكلة إليه وهي أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي أن الحق سبحانه لم يعط الرسل قدرته ليفعلوا ما شاءوا ، ولكنهم فقط مبلِّغون عن الله ، فلا يطلبن منهم أحد آيات ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكل رسول يعلم أنه من البشر ، وهو يستقبل عن الله فقط . ولذلك فتأخذ الرسل على أنهم مبشرون ومنذرون ، وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين »

ونعرف أن البشارة هي الإخبار بما يسر قبل أن يقع . والسبب في البشارة هو تهيئة السامع لها ليبادر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمتثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق . ونعرف أن الإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع في المحاذير التي حرمها الله .

والبشارة - كما نعلم - تلهب في الراغب في العمل والمحب له أن يفعل العمل الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف من يرغب في العمل السيىء ليرتدع ويرتدع . إذن فمهمة الرسل هي البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى ، ومن سوء الأدب أن نُخطىء الله في الآيات التي أرسلها مع الرسل ونطلب آيات أخرى . إنكم بهذا تستدركون على الله .

ويبيّن الحق لنا حدود مهمة الرسل فيقول :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

هذا هو عمل الرسل ، فماذا عن عمل الذين يستمعون للرسل ؟ إن الحق يقول :

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

فالمطلوب ـ إذن ـ من الذين يستمعون إلى الرسل أن يقبلوا على اختيار الإيمان ، وأن يستمعوا إلى جوهر المنهج وأن يطبقوه . فمن آمن منهم وأصلح فلا خوف عليه لأنه قد ضمن الفوز العظيم ، ولا يصيبه أو يناله حزن ، لأن ناتج عمله كله يلقاه في كتابه يوم القيامة والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية عقدية لا تطفو إلى الذهن لتناقش من جديد . ولذلك نسمي الإيمان عقيدة ، أي شيئاً انعقد عقداً لا ينحل أبداً

إن على المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التي تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً ؛ وهذا من عمل القلب ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفي كتعبير عن الإيمان ؛ لأن الكائن الحي ليس قلباً فقط ، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة ، وكل ما في الكائن الحي المؤمن يجب أن ينقاد إلى منهج ربه ، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل يؤديه بجوارحه أداء صحيحاً سليماً

إنني أقول ذلك حتى يسمع الذي يقول . إن قلبي مؤمن وسليم . لا ، فليست المسألة في الإيمان هكذا ، صحيح أنك آمنت بقلبك ولكن لماذا عطلت كل جوارحك عن أداء مطلوب الإيمان ؟ لماذا لا تعطي عقلك فرصة ليتدبر ويفكر ويحفظ ويتذكر ، لماذا لا تعطي العين الفرصة لتعتبر وتستفيد من معطيات ما ترى ؟ وكذلك اليد ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وكل الجوارح .

والإصلاح هو عمل الجوارح ، فيفكر الإنسان بعقله في الفكرة التي تنفع الناس ، ويسمع القول فيتبع أحسنه ، ويصلح بيديه كل ما يقوم به من أعمال . ويعلم المؤمن أنه حين أقبل على الكون وجده محكماً غاية الإحكام ، ويرى الإنسان الأشياء التي لا دخل له فيها في هذا الكون وهي على أعلى درجات الصلاحية الراقية ، فالمطر ينزل في مواسمه ، والرياح تهب في مواسمها ومساراتها ، وحركة الشمس تنتظم مع حركة الأرض ، وكل عمل في النواميس إنما هو على الصلاح المطلق .

راجع أسنده وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إن الفساد يأتي مما للإنسان دخل فيه ، فالهواء يفسد من بناء المنازل المتقاربة ، وعدم وجود مساحات من الخضرة الكافية ، ويفسد الهواء أيضاً بالآلات التي تعمل ولها من السموم ما تخرجه وتدفعه من أثر عملية احتراق الوقود . وعندما صنع الإنسان الآلات نظر إلى هواه في الراحة ، وغابت عنه أشياء كان يجب أن يحتاط لها ، ومثال ذلك : « عادم » السيارات الذي يزيد من تلوث البيئة ، ورغم اكتشاف بعض من الوسائل التي يمكن أن تمنع هذا التلوث . إلا أن البعض يتراخى في الأخذ بها .

ونحن حين نأخذ بقمة الحضارة ونركب السيارات فلماذا ننسى القاعدة التي تقوم عليها الحضارة وهي الدراسة العلمية الدقيقة لصنع الآلات ونأخذ من الآلات ما يفيد الناس ، فنعمل على الأخذ بأسباب تنقية البيئة من التلوث ونمنع الأذى عن حياة الناس . فالعادم الذي من صنعتنا ـ مثل عادم السيارات والآلات ـ يفسد علينا الهواء فتفسد الرئة في الإنسان .

إن علينا أن نعرف أن من مسئولية الإيمان أن ننظر إلى الشيء الذي نصنعه وكمية الضرر الناتجة عنه . وكل إنسان يحيا في مدينة مزدحمة إنما يضار بآثار عادم السيارات على الرغم من أنه ليس في مقدور كل إنسان أن يشتري سيارة ليركبها ، فكيف يرتضي راكب السيارة لنفسه ألا يصلح من تلك الآلة التي تسهل له حياته ويصيب بعادمها الضرر لنفسه ولغيره من الناس ؟ لذلك فعلى المسلم ألا يأخذ الحضارة من مظهرها وشكلها بل على المجتمع المسلم أن يعمل على الأخذ بأسباب الحضارة من قواعدها الأصلية ، وأن يدرس كيفية تجنب الأضرار حتى لا نقع في دائرة الأخسرين أعمالا ، هؤلاء الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولنا أن نأخذ المثل الأعلى دائماً من الكون الذي خلقه الله لنفصره . إن عادم وآثار ونواتج أي شيء مخلوق لله يفيد الإنسان ويفيد الكون حتى فضلات الحيوان يُنتفع بها في تسميد الأرض وزيادة خصوبتها . وهكذا نعرف معنى : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالإيمان عمل القلب ، والإصلاح عمل الجوارح ، ولذلك يجب أن نصلح في الكون بما يزيد من صلاحه . ولنعلم أن الكون لم يكن ناقصاً وأننا بعملنا نستكمل ما فيه من نقص ، ليس الأمر كذلك ، ولكننا إردنا أن نترف في الحياة ، ومادمنا نريد الترف فلنرد من عمل العقل المخلوق لله في المواد والعناصر التي أمامنا وهي المخلوقة لله . وأن نتفاعل معها بالطاقات والجوارح المخلوقة لله ، مادمنا نريد أن نتنعم نعيماً فوق ضروريات الحياة.

ومثال ذلك أننا قديماً وفي أوائل عهد البشرية بالحياة ، كان الإنسان عندما يعاني من العطش ، يشرب من النهر ، وبعد ذلك وجد الإنسان أنه لا يسعد بالارتواء عندما يمد يده ليأخذ غرفة من ماء النهر ، فصنع إناء من فخار ليشرب منه الماء ، ثم صنع إناء من الصاج ، ثم صنع إناء من البلور ، فهل هذه الأشياء أثرت في ضرورة الحياة أو هي ترف الحياة ؟

إنها من ترف الحياة . فإن أردت أن تترف حياتك فلتُعمل عقلك المخلوق لله في العناصر المخلوقة لله ، بالطاقة والجوارح المخلوقة لله ، وبذلك يبيك الله من الخواطر ما تستكشف به آيات العلم في الكون . ومثال ذلك : أن أهل الريف قديماً كانوا يعتمدون على نسائهم ليملأن الجرار من الآبار أو الترع ثم تقوم سيدة البيت بترويق المياه . وعندما ارتقينا قليلاً ، كان هناك من الرجال من يعمل في مهنة السقاية ، ويمر بالقرب المملوءة بالماء على البيوت . وعندما قام أهل العلم بالاستنباط والاعتبار اكتشفوا قانون الاستطراق ، فرفعوا المياه إلى خزان عالٍ ، وامتدت من الخزان « مواسير » وأنابيب مختلفة الأقطار والأحجام ، وصار الماء موجوداً في كل منزل ، هذا ما فعله الناس الذين استخدموا العقول المخلوقة لله.

وكان الناس من قبل ذلك يكتفون بالضروري من كميات المياه ، فالأسرة كانت تكتفي بملء قربة أو قربتين من الماء ، ولكن بعد أن صارت المياه في كل منزل ، أساء الكثير من الناس استخدام المياه ، فأهدروا كميات تزيد عن حاجتهم ، وتمثل ضغطاً على « مواسير » الصرف الصحي ، فتنفجر ويشكو الناس من طفح المجاري.

إن على المسلم أن يرعى حق الله في استخدامه لكل شيء ، فالماء الذي يهدره الإنسان قد يحتاج إليه إنسان آخر ، وعندما يتوقف عن إهداره ، يمنع الضرر عن

أنفسنا وعن غيرنا من طمع « مواسير » الصرف الصحى . وليحسب كل منا - على سبيل المثال - كم يستهلك من مياه فى أثناء الوضوء . إن الإنسان منا يفتح الصنبور ويغسل يديه ثلاثاً ويتمضمض ثلاثاً ، ويستنشق ثلاثاً ، ويغسل وجهه ثلاثاً ، ويغسل ذراعيه ثلاثاً ، ويمسح برأسه ، ويغسل أقدامه . ويترك الإنسان الصنبور مفتوحا طوال تلك المدة ليهدر كميات من المياه ، ولو فكر فى حسن استخدام المياه التى تنزل من الصنبور لما اشتكى غيره من قلة المياه . فلماذا لا يفكر المسلم فى أن يأخذ قدراً من المياه يكفى الوضوء ويحسن استخدام الماء ؟ وكان الإنسان يتوضأ قديماً من إناء به نصف لتر من الماء ، فلماذا لا نحسن استخدام ما استحلفنا الله فيه ؟

على الإنسان منا أن يعلم أن الإيمان كما يقتضى أويوجب ويفرض الصلاة ليصلح الإنسان من نفسه ، يقتضى - أيضاً - إصلاح السلوك فلا نبذر ونهدر فى تلك من إمكانات ، وأن ندرس كيفية الارتقاء بالصلاح ، فلا نتخلص من متاعب شىء لنقع فى متاعب ناتجة من سوء تصرفنا فى الشىء السابق ، بل علينا أن ندرس كل أمر دراسة محكمة حتى لا يدخل الإنسان منا فى مناقضة قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى عليك أن تعرف أيها المسلم أنك مسئول عن السمع والبصر والقلب وستسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أن تتوانى عن الأخذ بأحسن العلم ليحسن قولك وعملك . وبذلك لا يكون هناك خوف عليك فى الدنيا أو الآخرة ؛ لأنك آمنت وأصلحت ، وأيضاً لا حزن يمسك فى الدنيا ولا فى الآخرة : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

إنك بذلك تصون نفسك فى الآخرة وفى الدنيا أيضا ؛ لأنك تسير فى الحياة بإيمان وتصلح فى الدنيا متبعاً قوانين الله . وإن رأيت أيها المسلم متعبة فى الكون فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطل ، إن رأيت فقيراً جائعاً أو عرياناً فاعلم أن حقاً من حقوقه قد أكله أو جحده غيره ؛ لأن الذى خلق الكون ، حلل ما يعطيه الغنى من فائض عنه للفقير ليسد عوزه ، لكن الغنى قبض يده عن حق الله ، وأيضاً جاء قوم

يتسولون بغير حاجة للتسول ، والفساد هنا إنما يأتي من ناحيتين : ناحية إنسان استمرأ أن يبني جسمه من عرق غيره ، أو من إنسان آخر غني لا يؤدي حق الله في ماله ، بذلك يعاني المجتمع من المتاعب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

والذين كذبوا بآيات الله هم إما من كذب الرسول في الآيات الدالة على صدقه وهو المبلغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا في دائرة الكفر . وإمّا هم الذين كذبوا بآيات المنهج ، فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الصراط المستقيم والطريق السوي . وهؤلاء وهؤلاء قد فسقوا ، أي خرجوا عن الطاعة ، ونعلم أن كلمة « الفسق » مأخوذة من خروج « الرطبة » عن قشرتها عندما يصير حجمها أصغر مما كانت عليه لاكتمال نضجها . والذي يفسق عن منهج الله هو الذي يقع في الخسران ؛ لأن منهج الله هدفه صيانة الإنسان المخلوق لله ـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » .

إن الإنسان يفسق عندما لا يفعل ما أمره الله أن يفعله ، أو يفعل ما نهاه الله عن أن يفعله . ونجد الإنسان منا يخاف على جهاز التسجيل أو جهاز التليفزيون من أن يفسد فيتبع القواعد الفرعية لاستخدامه . فلا يمد ـ مثلاً ـ جهازاً من الأجهزة الكهربية بنوعية من الطاقة غير التي يحددها الصانع ، فإن قال الصانع : استخدم كهرباء مقدارها مائتان وعشرون فولتاً حتى لا تفسد الآلة فالإنسان ينصاع لما قاله الصانع ، فما بالنا بالإنسان ، إن الله ـ جلت قدرته ـ خلق الإنسان ووضع له قوانين صيانته . إذن فمن يفسد في قوانين صيانة نفسه يمسه العذاب ، وكلمة « يمسهم العذاب » تعطي وتوحي بأن العقوبة تعشق أن تقع على المجرم ، كأن العذاب يسعى إليه لينال ويمسه ، وهو مأخوذ قول الحق عن النار .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الملك)

وهو سبحانه القائل عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (٣٠)

(سورة ق)

إذن فالعقوبة نفسها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلح العذاب في أن يمس الذين فسقوا . ويأتي الحق هنا بكلمة « المس » لحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تقارن بعقوبة البشر .

فالإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وقوته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل قدرة الله في العذاب . ولذلك يكفي المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعذب ، فلو نسبنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٠)

و« قل » - كما نعلم - هي أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفي أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندي خزائن الله . لكنها دقة البلاغ عن الله ، إن القرآن توقيفي بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هي وبلغها الوحي الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هي ، ويدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى في اللفظ ، بل لابد من أمانة النقل المطلقة .

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً بآية دالة على صدق البلاغ عنه وهي القرآن . وكان يجب على من يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذي ادعاه صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التي أنزلها الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدّع إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له في إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتفجير بعض الأرض بينابيع مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السموات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتاً وقصوراً ، وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتتجنبوا الضار؟ . ألا يكفيكم المنهج الإلهي الذي يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويجنبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب . وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويمشي الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه مَلَكاً يساعده في البلاغ عن الله ، أو يلقي إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذي ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن

من أحلامهم، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التي ضلوا بها وأضلوا بها سواهم. إنه صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)﴾

(سورة الفرقان)

إن الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام، وتكسب العيش من العمل ويترددون على الأسواق. فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويجزي كُلاً بما عمل. ثم إن الآيات التي يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتاً، فهو لم يقل لهم: إنه ملك. لقد قال لهم: إنه رسول مبلغ عن الله، وكل ما يؤديه هو صدق الأداء عن الله، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق إلا بملكية الله لخزائن الأرض؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب؟ وكيف يتقبلون أنه رسول وبشر يأكل ويتزوج ويمشي في الأسواق؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعنت، لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله. إنهم طلبوا الخير النافع والينابيع التي تجري، والجنات والقصور، وأشياء كلها ليست في مقدور رسول مبلغ عن الله، لأن الذي يهبها هو الله سبحانه وتعالى.

وكلمة «خزائن» هنا مفردها «خزانة»، وهي الشيء الذي يكتنز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة. ولا تقل: خزانة إلا لشيء جعلته ظرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أن تخرجه في غير أوانه وزمان إخراجه. وخزائن الأرض كلها يملكها الله، فهو سبحانه وتعالى القائل:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)﴾

(سورة الحجر)

إذن فالحق جاء بالقضية الكلية ، وهي أن أسرار الله ومعانيه في الكون هي بيد الله في خزائنه ، وهو سبحانه يجليها ويظهرها ويكشفها لوقتها . كيف ؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً مجملاً تفسره الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التي هي مناط الحركة لابن آدم . لقد خلق فيها سبحانه ما يقيت ابن آدم وتقوم به حياته إلى أن تقوم الساعة . والقوت - كما نعلم - هو الذي يبقي للإنسان حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح في الحياة . وهو سبحانه جعل في الأرض رواسي - أي جبالاً - وبارك في الأرض وفي الرواسي . ثم جاء بتقدير الأقوات بعد ذكر الرواسي وهي الجبال ، فكأن الجبال في حقيقة أمرها هي مخازن القوت . وقد يقول قائل : كيف ذلك ؟

ونقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة ، فأنت إن نظرت إلى الأنهار التي تجري ، لوجدتها تتكون من الماء الذي تساقط من الأمطار على الجبال ، فالجبال المكونة من ذرات صغيرة دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكأن الماء هو « المبرد » الذي يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه نحن « الغرين » ، والغرين - كما نعلم - هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وباندفاع المياه في مجرى النهر تنتقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التي تتغذى منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مستوياً ، وبه الخصوبة التي تنبت النبات .

لكن حكمته سبحانه شاءت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأنت إذا

ما نظرت إلى النبات وجدته يختلف من نوع إلى نوع في أسلوب امتصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النبات يمتص غذاءه من عمق نصف متر ، ونوع ثانٍ يأخذ غذاءه من عمق المتر ، وهكذا . وإن لم نأت للأرض المزروعة بسماد أو مخصبات أو غرين ، فإن الأرض تضعف ؛ لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتمتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صُلب ، وتمر على الجبال عوامل التعرية من حرارة وبرودة وتشققت ثم ينزل عليها المطر فيذيب من سطوح الجبال بعضاً من تلك المواد الغذائية اللازمة للأرض ، تنتقل هذه المواد الغذائية عبر المياه إلى الأرض ، وبهذا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض . وهكذا نجد أن الجبال في حقيقتها هي مخازن لخيرات الله .

وهل مقومات الحياة زرع فقط ؟ لا ؛ لأنك إن نظرت إلى نموذج مصغر للكرة الأرضية ، ستجده يشبه البطيخة الكبيرة ، وإن جئت لتقطع مثلثاً من محيط القشرة إلى مركز البطيخة ، وجعلت هذا المثلث يشبه الهرم ، ثم أخذت منها مثلثاً آخر من أي ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الخصبة ، أم من البحار أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحارى ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخير المطمور في كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مساوياً للجزء الآخر . لماذا ؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج في عمارها إلى أسمنت ومواد المحصورة من حديد وبترول ومنجنيز وغير ذلك من كنوز الأرض التي تقوم عليها الحضارة .

إذن نجد هذه الخيرات مكنوزة إما في الجبال وإما في الصحارى . ولكن كل خير من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد . ولنت لو قست ووزنت الخيرات الموجودة في أي مثلث هرمي من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وقارنتها بوزن وقياس الخيرات الموجودة في مثلث هرمي آخر مساوٍ له من الكرة الأرضية نفسها ، لوجدت الخيرات متساوية في كل من المثلثين . ولكن لكل لون من هذه الخيرات ميلاد وميعاد .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فما يقال له شيء ، فإن له خزائنه عند الله يُنزلُ منها سبحانه بِقَدَر . ونرى ذلك من قمة الوجود ، وهو العقل ، إن العقل شيء ، وله خزائن عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى البشرية جميعاً لا يقاس بكمية الأفكار التي يمتلكها

العقل الجمعي للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استعاد مقدمات من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتاج جديد . إذن فهناك خزائن للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء في الوجود له عند الله خزائن لا ينزل منها إلا بقدر معلوم « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وساعة يريد الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يجيء الأسباب لذلك . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ كنا قديما نقطع الأخشاب من الأشجار لنصنع منها وقوداً ، وكنا بعد أن نقطع الأخشاب نخشى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشرى حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتي ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجري . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات الطاقة كان مكنوزاً في الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيظل عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البخار ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة .

وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان في خزائن الله ، وعندما ينزل الله أي خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكنوز . وكل لاحق يأخذ من خير السابق ويبنى عليه ، وهكذا ينمو الخير دائماً .

والأشياء في خزائن الله إما أن تكون مطمورة وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً ، وعلى سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذي اكتشفته « السيدة كورى » ، أظهره الله على يديها في وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذري معين ؛ لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جليلة كبيرة وقد ينزل الشيء شائعاً في غيره ، ومثال ذلك أن تقطف وردة وتستمتع بأريجها وجمال منظرها إلى أن تذبل ، وقد يغيب عنك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالرطوبة هي التي تعطى الوردة نضارة ، وكل شيء في الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تذبل الوردة فهي تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من المتبخرات إلى السحاب الذي تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التي كانت في الوردة تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله الخلق في هذا الكون ، ونحن ننتفع بهذا الماء ، وعندما ينتهي انتفاع إنسان بجزء من المياه فالماء يعود من خلال عمليات أرادها الله إلى خزانة الماء في الكون وليسأل الإنسان منا نفسه : كم طناً من الماء قد شربته في حياتك ؟ وستجد أنك قد شربت وانتفعت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء في شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم بقي من الماء في جسمك ؟

إنها نسبة قد تزيد على تسعين بالمائة من وزن جسمك أياً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتي أجلك كما قدره الله ، ستتبخر كمية المياه التي في هذا الجسم لتنضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن فكمية المياه لم تنقص في الكون ولم تزد ، وهذا ما نسميه الرزق المخزون بالتحول ، تماماً كما تبخرت كمية المياه التي في الوردة ، وتبخرت رائحتها في الجو وكذلك مادتها الملونة ذابت في الأرض وساعة تزرع شجرة ورد تأخذ كل وردة لونها من المواد الملونة المخزونة في الأرض . إذن فكل شيء إما مخزون بذاته في خزائن الله ، وإما مخزون بعناصره المحوله إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هي بين الاثنين .

إن الإنسان ـ على سبيل المثال ـ من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستعيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر في دورة جديدة . إذن هي خزائن للحق ، إما محولة ، وإما خزائن حافظة ؛ فالشيء الذي نستنبطه بحالته هو في خزائن حافظة ، والشيء الذي يدور في غيره ويرجع إلى الأصل هو في خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعلي إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسل أي حق للتصرف في هذه الخزائن ؛ لأن الرسل بشر ، وقد احتفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطمئنا على هذه الخزائن . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠)﴾

(سورة الإسراء)

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الحرص الشديد أو البخل، وهو سبحانه الغني الكريم؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى يتمتعوا. ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخزائن لنفسه، فكيف يطالبه المشركون بما في خزائن الله، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه أي صفة من صفات الألوهية؛ لأن الخزائن الكونية هي في يد الله، وكذلك ينفي عن نفسه علم الغيب. ولقائل أن يقول: ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التي كان يخبرنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي أحداث مستقبلية؟

ونقول: إن ذلك ليس علماً بالغيب، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعَلَّم غيب، أي أن ربه سبحانه وتعالى قد علمه. ومثال ذلك قول القرآن الكريم

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾

(سورة آل عمران)

إن الحق سبحانه هو الذي علّم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار التي كانت من أنباء الغيب، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (٢٧)﴾

(سورة الجن)

سبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب، ولا يُطْلع أحداً من خلقه على الغيب

إلا الرسول الذى يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله فى أثناء ذلك بملائكة حفظة تحميه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصا من تخليط الجن وعبثهم .

إذن فالرسول مُعلَّم غيب وليس عالم غيب . والغيب - كما نعلم - هو ما غاب عن الحس ، ولم توجدْ له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تغيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن التزمت بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذاً مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعندما يحل التلميذ هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، ويبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة

وكذلك حال الذين اكتشفوا أسراراً فى الوجود ، أعلموا غيباً ؟ لا ، إنهم فقط استخدموا بعضاً من المقدمات التى كانت موجودة أمامهم فى الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عنا ، ولكن مقدماتها كانت موجودة ، وكذلك كل النظريات الهندسية ، كل نظرية نجدها تعتمد على سابقتها ، وكل نظرية - حتى أعقدها وأصعبها - هى ملاحظة لأمر بدهى فى الكون . وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه « غيبا إضافيا » ، أى كان غيباً فى وقت ما لكنه غير غيب فى وقت آخر ، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً ، ولنقرأ قول الحق سبحانه

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذى يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعض من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا فى المقدمات ليصلوا إلى النتائج . ولكن ماذا عن العلم الذى لا توجد له مقدمات ؟ هذا من الغيب المطلق الذى لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يخطىء أحد فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شىء ضاع

منه هو معرفة للغيب ، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للص الذي سرقه ، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذي أخفى المسروقات ، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين باللص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للغير . إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخير التي تؤدي للإنسان مهمة البقاء في الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية .

﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس مَلَكاً ، فهل يعني ذلك أن المَلَك أرفع من النبي ؟ لا ، ولكنهم قالوا له : إنه يمشي في الأسواق ويكتسب العيش بالعمل ، والملك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المَلَك ؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن ويتبع ما يوحيه إليه ملك الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى : « إن أتبعُ إلا ما يوحى إليّ » .

إنه من فرط ارتفاعه في الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أغيار ، يعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بألفاظها لا أفكار البشر التي قد تتغير أو تتبدل . فلو ابتدع لابتدع في إطار بشريته ، وفي ذلك نزول لا ارتقاء ، لكنه في الاتباع يلي بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذي اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية في رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً له وحده . أما أُمّيّة الإنسان العادي فهي عيب ، إنما أُمّيّة محمد صلى الله عليه وسلم هي الكمال .

و« أُمّيّ » - كما نعلم - تعني أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فوقية كلها . إن ذلك وحي من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلن أنه نبي أمي ، فهذا معناه أن كل ما دخل في ذهنه لم يأخذه من أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أدخله رسول الله عن الله .

وهكذا تكون أميته شرفاً لنا ، ولكن الأمية فينا ـ نحن المسلمين ـ تخلف يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها : « إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ » . والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحي .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وساعة يأتي الحق بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتي بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ، فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوى الظل والحرور أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقبل الخلاف في هذه الأمور . والعمى ـ كما نعرف ـ هو عدم الرؤية لمن من شأنه وحاله أن يرى ، فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى ؛ لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تعمل عدم الرؤية في الأمر المحس ؟ إن عدم الرؤية يؤذى الإنسان لأنه كائن متحرك . فقد يقع في حفرة أو يصطدم بشيء يؤذيه ، وبإقرار الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته ويتعرض للمتاعب ، والذي يحمي الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات .

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشيء المرئي ونقض هذه القضية عالم إسلامي هو ابن الهيثم الذي علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئي إلى عين الرائي بدليل أن الشيء المرئي لا يراه الإنسان في الظلام . والعمى يمنع العين من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد في أن العمى مهلك وضار ومتعب ، والإبصار مريح . وكأن الحق يقول للخلق : إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس . لا ، إن هناك قيماً إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط .

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدى النفس البشرية إلى القيم ، كما يهدى النور الحسى الإنسان إلى المحسات . فإذا كان البصر هو وقاية للإنسان لتفادى العقبات ،

فكذلك المنهج هو الذي يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات في الأمور المعنوية والإنسان يحيا بقيمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد لا يجد هدايته في هداية مهتد . إذن فالإنسان قد يستغني عن البصر ، ولكنه لا غنى له عن الهدى ؛ لأن الضلال سيصيبه ، والضلال في القيم أبشع وأشد قسوة من الضلال في الأمور الحسية .

« قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر . التفكر هو شغل العقل ابتداء بأمر ظاهر ، يريد أن يستنبط منه شيئاً . وعندما يقول إنسان لآخر : فكر في هذا الأمر . أي أدر عقلك في كل ما يتعرض لهذا الأمر والذي يطلب من آخر التفكير في هذا الأمر كأنه واثق من أن الذي يفكر في أمر لن يصل إلا إلى الرأي الذي قاله من عرض عليه التفكر . وأما التذكر فهو أن يصل الإنسان إلى حكم انتهى إليه بالتفكر ثم نسيه ، ويأتي من يلفت الذهن إلى ذلك الحكم الذي انتهى منه فكرياً .

إذن فالفكر يأتي بحكم أوّليّ ناصع . والتذكر يأتي بحكم كان معلوماً للإنسان ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفي الإنسان بالنظر إلى واجهة الأمور ولكن إلى ما وراء ذلك أيضاً ؛ لأن كل شيء له واجهة ، وقد تخفي الواجهة ما خلفها ، لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقفائها ، أي يدير الأمر على كل جهاته ولا يكتفي بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشتري الإنسان شيئاً من تاجر أمين ، ويعرض التاجر على المشتري مواصفات الشيء بأمانة ويطلب منه أن يختبر الشيء حسب مواصفاته ، لكن التاجر الغشاش يحاول أن يخفي المواصفات لأنه يريد خداع المشتري .

وعندما يطلب الحق منا أن التفكر والتذكر والتدبر إنما يوقظ فينا المقاييس الحقيقية التي نصل بها إلى المطلوب الذي يريده الله . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ

رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

أى أنذر بالوحى ـ الذى تتبعه ـ هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله. والإنذار ـ كما تعلم ـ هو إعلام بشيء مخيف قبل وقوعه لتتفادى أن يقع. وما المراد بهؤلاء الذين يطلب الحق من رسوله إنذارهم بالوحى ؟ فى أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل الإيمانى ضعيفاً ، ومادام فى قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحى إنذار لهم بضرورة العمل الإيمانى الجاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحى لأهل الكتاب ؛ لأنهم يعرفون أن هناك يوماً آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار لإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك فى الأنبياء وشفاعتهم ، فهذا الصنف قد يجعله التخويف والإنذار إلى أن يعيد النظر فى قضية الإيمان ويتقبل النبأ الصدق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولك أن تأخذ الإنذار بالوحى على أى وجه من الوجوه السابقة. ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله ؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولى والناصر إذ فى الحقيقة ليس هناك أحد يحمى وينصر من الله ، ولا شفيع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وهذا ما يعتقده المؤمنون.

وقد حدد الحق ذلك فى قوله :

﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

إنهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وبرسوله ولكنهم قصروا فى بعض المطلوبات والتكليف التى ينطوى عليها قوله الحق : (فمن آمن وأصلح) .

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولى ولا شفيع . المؤمن ـ إذن ـ له أمل أن يكون يوم الحشر فى ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق .

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

(سورة التوبة)

وإن كانت الآية الكريمة تنزل وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضاً الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستخلفه في الأرض، وجعله طارئاً على هذا الوجود الذي يدعّ الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته واستبقائه.

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراق عبودي بحيث لا يوجد متعال على مستضعف، ولا يوجد طاغ على مظلوم، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطي فيها كل فرد على قدر ما هيىء له من مواهب. فإذا ما اختل ميزان الاستطراق البشري ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك. والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم في أصل الوجود من تراب، وتساويتم في العودة إلى التراب، وتتساوون في موقفكم يوم القيامة للحساب، فلماذا تختلفون في بقية أموركم؟ إن التساوي يجب أن يوجد. وهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن تهتدي الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه، فعاتبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصاً على إيمان قومه.

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير، ونرد على هؤلاء: ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقي، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعاتب، وعتاب للومه وتوبيخه؛ لأن المعاتب خالف وعصى، ونضرب هنا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت في يومك العادي إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه، فأنت تعاتبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويسرف ويمضي أوقات راحته في المذاكرة، فأنت تطلب منه ألا يكلف نفسه كل هذا العناء، وتخطف منه الكتاب وتقول له اذهب لتستريح. أنت في هذه الحالة تلومه لمصلحته هو، فكان اللوم والعتاب له لا عليه. إذن قد حُلَّ هذا الإشكال لدى من يقولون فيه: إن الله كثيراً ما عاتب رسوله، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه، لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيرا سهلاً بين الضعفاء، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان، وجاء في ذلك قول الحق:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ② وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦﴾

(سورة عبس)

إذن فالعتاب هنا لصالح من؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ①﴾

(سورة التحريم)

إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبي صلى الله عليه وسلم، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله. والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين، كان يحب أن يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم. ولكن العظماء لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خبّاب بن الأرت وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسي وهم

من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .

وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس . فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدئية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقعاً وسطاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الرأي حلاً وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجيء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التي جيء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعاً في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئاً ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله

الآية ونهيه عما همّ به من الطرد ، لا أنه - صلى الله عليه وسلم - قد أوقع ذلك وطردهم وبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب - صلى الله عليه وسلم - أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراد أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أفيضوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم »[1]

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين ويقول سلمان الفارسي وخباب بن الأرت فينا نزلت ، فكان - رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام ، أي أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » هذا هو قول الله سبحانه أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفي هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين ، لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ورواه الطبراني ، قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح

وحضروا أحد حشاه المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا في الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . وورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

ـ أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن هؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأبطىء دخولكم .

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة « وجه الله » تدل على أن الإيمان قد اشرب في قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فراراً بأنفسهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين تسمع قول الحق : « يريدون وجهه » فهذا وصف لله بأنه ـ جل شأنه ـ له وجه ، ونطلق في هذه الحالة ما نطلقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف في إطار قوله الحق : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات ، فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستعشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوه القوم . أي التقى بالكبار في القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، ويقول الحق سبحانه : « ما عليك من حسابهم من شيء » وفي هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حباً في الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

وكأن الحق يوضح لرسوله: لو كان عليك من حسابهم شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كل واحد مجزيٌ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . إذن فلكل إنسان كتابه قد سطر وسجّل فيه عمله ويجازى بمقتضى هذا ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول لرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هي الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . فالاختبار - إذن - لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يؤول إليه . وتأتي الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيماني ، وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴿٢﴾ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه - سبحانه - يختبرهم بالمحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق في الإيمان

من الكاذبين في الإيمان . فمن صبر على الاختبار والمحنة فقد ثبت صدقه ويقينه ، ومن لم يصبر فقد دلّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضي ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

إذن فالفتنة مجرد اختبار . والوجود الذي نراه مبني كله على المفارقات . وعلى هذه المفارقات نشأت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله في خلقه ؛ فهذا طويل ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غني ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك يكون كل نقيض فتنة للآخر .

فالمريض - على سبيل المثال - فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله في نفسه ولا يخطر بحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلي الصحيح عليه ويستذله ، أو يقدم له المساعدة ؟ والفقير فتنة للغني ، وهو ينظر إلى الغني ليعرف أيحتقره ، أيجرحه ، أيستغله ؟ والغني فتنة للفقير ، يتساءل الغني أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد ، أم الراضي عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .

إن من البشر من هو موهوب هبة ما ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء وذلك السلب كلاهما فتنة ؛ لنؤمن بأن خالق الوجود نثر المواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، ويقوم التعاون بين الناس ، وينشأ الارتباط الاجتماعي .

وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم ساعة يرى رسول الله الكمال وهم يجترئون عليه ويقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا القرآن العظيم ، وفي

هذا القول فتنة واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضي إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والجماعة التي استكبرت وطلبت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ، والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر في نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكلنا يفتن بعضنا بعضًا . وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضى بها في غيره . وما عُبِدَ الله بشيء خيرا من أن يحترم خلق الله قدر الله في بعضهم بعضا ، ولذلك يعتبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمناً بالله فاحترم قدر الله في خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترمون قدر الله فيك .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ووجه الفتنة هنا أن قومًا طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : « أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا » ؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعي للمستضعفين من المؤمنين ، ويأتيهم الرد من الله « أليس الله بأعلم بالشاكرين » . سبحانه هو العليم أزلاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يعمل ، وقد سبق للذين كفروا أن قالوا « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وجاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع مفاتيح الرسالة في أيدي المشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذي يوزع المواهب في البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين في مواهبهم التي يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون في موهبته التي يعجزون عنها . ومسألة النبوة هي اصطفاء إلهي يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا . ويدل السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمئن المستضعفين بشيء عجل لهم به في الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين في الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) ﴾

لقد كان طلب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إهاجة لكرامتهم ولمنزلتهم ولأنهم دون الأثرياء ووجهاء القوم ، فطمأنهم الحق بالسلام منه في الدنيا فيأمر رسوله : «فقل سلام عليكم» . ونفهم من السلام أنه الخلو من الآفات النفسية والآفات الحسدية، فكأن الحق سبحانه أراد أن يعوضهم بالسلام القادم من الله «فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة» ونرى كلمة « الرحمة » تتردد كثيراً في القرآن الكريم ، فها هو ذا الحق يقول في موقع آخر :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾

(سورة الإسراء)

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة ؟ الرحمة . لا يبتلي الله الإنسان بمرض ، إنها الوقاية ، أما الشفاء فهو أن يزيل الحق أي مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .

إذن ففي القرآن شفاء ورحمة ، أي وقاية وعلاج . والذي يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذي تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعي والنفسي ، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يشفى من أي داء . وحين يأمر سبحانه رسوله أن يقول لهؤلاء الذين أميجرا يطلب طردهم على الرغم من إيمانهم برسالة رسول الله : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فهذا يعني أن ما حدث لهم في هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا بهذه الإجابة سلاما دائماً ، ومادام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به غيرهم

وإذا سمعت قول الله « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فالكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد يوجب على الله شيئاً لأنه خالق الكون ، وله في الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذي أوجب على نفسه الرحمة . ونأخذ كلمة « نفسه » في إطار « ليس كمثله شيء » ، ذلك أن النفس عند البشر هي الجسم والدم والحركة والحياة ، ولكن ماذا عندما نأتي كلمة « النفس » منسوبة إلى الله ؟ المراد - إذن - هو الذات الإلهية . وإن لم نأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأنت تدخل إلى متاهات كثيرة وقانا الله وإياك شرورها

وأؤكد هذا المعنى ليستقر في ذهن كل مؤمن ، أن النفس بالنسبة للكائن الحي غيرها بالنسبة لله ، ولا بد أن نأخذ أي شيء منسوب إلى الله في إطار « ليس كمثله شيء » ؛ لأن النفس بالنسبة للكائن الحي عبارة عن امتزاج الروح بالمادة ، والمادة مكونة من أبعاض وإن لم نأخذ المراد من نفس الله عن صفة « ليس كمثله شيء » ، فأنت - والعياذ بالله - تنفي عن الحق « الأحدية »

ونعرف أن للحق سبحانه وتعالى « وصفين » يتحدان في المادة وفي الحروف الأول هو « واحد » ، والآخر هو « أحد » . والسطحيون في الفهم يظنون أن « واحداً » معناها « أحد » . ونقول : لا ، إن « واحداً » لها مدلول ، و« أحد » لها مدلول آخر فعندما نقول : « إن الله واحد » أي لا يوجد فرد ثانٍ من نوعه فليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير وعندما نقول : « إن الله أحد » أي أنه لا يتكون من أبعاض يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ؛ لأن الشيء قد يكون واحداً وليس أحداً ولذلك نؤكد الفارق بين « واحد » و« أحد » ، وحتى يعرفه كل

مؤمن جيداً فهو ـ سبحانه ـ واحد لا يوجد فرد ثان يشاركه في وحدانيته ، فهو واحد لا شريك له ، وهو أحد جل وعلا أي ليس له أبعاض يحتاج بعضها إلى بعض وسبق أن أوضحنا أن هناك شيئا اسمه : « كل » وشيئا آخر اسمه : « كلي » والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا يؤدي حقيقة ، وإنما لا يؤدى الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض

ومثال ذلك الكرسي . إنه مكون من خشب ومسامير وغراء ، فلا يقال للخشب كرسي ، ولا يقال للمسامير كرسي ، ولا يقال للغراء كرسي . ولكن يقال للشيء المصنوع من كل هذه الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسي . إذن فـ « الكل » له أجزاء تجتمع لتكوّنه . والكلّي يمكن أن تطلق على الإنسان ، ولكن في الجنس البشري هناك أفراد كثيرون له .

وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس « كُلاًّ » أي لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس « كلياً » لأنه لا شيء مثله ، فسبحانه وتعالى واحد أحد . وهذا نفهم جميعاً أن كل شيء منسوب إلى الله يجب أن يكون في إطار : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾

ونحن لا نفهم مراد كلمة « النفس » بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر ؛ لذلك فنفس الله ليست كنفس البشر ؛ لأن الله غني لا يحتاج إلى غيره ، وهو ـ سبحانه ـ ليس مكوناً من أجزاء ، فهو سبحانه له كل الكمال والجلال في وحدانيته وأحديته وفي سائر صفاته وأفعاله . وحين يقول سبحانه : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » قد يتساءل إنسان . وما مدلول الرحمة ؟

وتأتي الإجابة في قوله الحق : « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » . والحق حين أنزل منهجا من السماء فالمنهج يضم نصوصاً للتجريم كنصوص عقاب الزنى أو اللص ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتي عقوبة إلا إذا جاءت بعد تجريم ، مثال ذلك الرشوة والنميمة وكل مخالفة للمنهج . فلا عقاب إلا بجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق الذي خلق الخلق يعلم أن بعضا من خلقه يكون من ضعاف النفوس ، وقد تغلب إنساناً نفسه فيرتكب ذنبا أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾

(سورة المائدة)

هذا هو عقاب السارق والسارقة

وكذلك يقول الحق عن الزاني والزانية :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

(سورة النور)

ما معنى إنزال مثل هذه النصوص؟ يعني إنزال هذه النصوص أن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان قد يضعف في بعض مطلوبات الدين فيقع في معصية، ولا بد أن يوجد عقاب عليه . واحترم الحق بذلك تكوين الإنسان عندما منحه الاختيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما وضع الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقه ، حتى لا يكون الذي عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق التوبة للخلق ليرحمهم من شرور من ارتكبوا المعاصي ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصي ما داموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصي فيحفظهم منها.

وهو الحق القائل :

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

سبحانه - إذن - يهدي إلى التوبة ويعفو ، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه

﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

والسوء هو الأمر المنهي عنه من الله . هل هناك من يعمل السوء بجهالة ؟ . بعضنا يفهم الجهالة فهماً سطحياً على أساس أنها « عدم العلم » ؛ لا . إنّ الذي لا يعلم هو الأمي الخالي الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بعقيدة تخالف الواقع . ومعالجة الجهل تقتضي أن ننزع منه هذه العقيدة التي هي ضد الواقع ثم نقنعه بالعقيدة المطابقة للواقع.

والذي يسبب المتاعب للناس هم الجهلة ، لأن الجاهل يعتقد في قضية ويؤمن بها وهي تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم ﴿ من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ . قالوا : إن الجهالة هي السفه والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر نتائج العمل . والسفه ألا يقدّر الإنسان قيمة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب . وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب ويرتكب من السوء ما يحقق له شهوة عاجلة دون التمعن في نتائج ذلك مستقبلاً ، ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ويمكن أن نفهم أيضاً الجهالة على أنها ارتكاب الأمر السيىء دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط ، وذلك كأن يخطط إنسان السفر إلى باريس لتحصيل العلم ، وعندما وصل إلى هناك جاءت له امرأة في غرفته في الفندق وهي في كامل فتنتها وزينتها ، وألحت عليه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسه . هذا فعل للسوء بجهالة ؛ لأنه لم يخطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعد ذلك ، ولا يحكي عن ذلك العمل بفخر أبداً .

هناك فارق - إذن - بين هذا الإنسان وإنسان آخر يبحث في عناوين بيوت اللذة في باريس قبل أن يسافر إليها ، إنه بذلك يخطط لفعل المنكر وارتكاب الفحشاء . ويصر على السوء ، ويتفاخر به ولا يندم على ما فعل ؛ هذا الصنف من البشر لا يغفر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أدركه الموت ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء)

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب في حالة الحماقة والطيش ، ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يندمون على فعل السوء فيقول الحق عنهم :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذين لا يُقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب وينتظر الإنسان منهم مجيء الموت ليتوب قبله أي وهو في حالة الغرغرة ـ وهي تردد الروح في الحلق عند الموت هؤلاء لا تقبل لهم توبة ، وكذلك الذين يموتون على الكفر ـ والعياذ بالله ـ وقد أعد الله لكليهما عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد أوضح ما قبل ذلك فقال :

﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

إذن فالتوبة يجب أن يتبعها إصلاح وصلاح ، ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب على ذنب تاب عنه العبد ، ورحيم لأنه يثيب على الفعل الحسن ، بل إنه يثيب الإنسان الذي يكرر ندمه على فعل سيء ويكتب له عن ذلك حسنة . بل إنه ـ لسعة رحمته ـ يبدل سيئاته حسنات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وساعة تسمع قوله الحق : « وكذلك نفصل الآيات » فاعلم أن هناك مفصلاً

سبيل ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصّل الله فيها أموراً كثيرة ؛ فصّل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصّل لنا صحة النبوة ، وفصّل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المقاييس التي تقرر حقائق الحق ينكرها أهل الباطل ، فيفصّل لنا في العقائد ، ويفصّل لنا في حركة الحياة والحركة العابدة التي تؤدى بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحدانية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التي تقرر الحقائق

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقرأ « سبيل » في بعض القراءات مرفوعة ، أي أن سبيل المجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، ويقرأ في بعض القراءات منصوبة ، أي أنك يا محمد تستبين أنت السبيل الذي سيسلكه المجرمون

وكلمة « سبيل » وردت في القرآن مؤنثة مثل قوله الحق

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأعراف)

ووردت أيضاً في بعض الآيات مذكرة :

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

ويريد الحق بذلك أن يعلمنا أن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين قد استقبلته قبائل من العرب ، بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها سكن مكة ، والكعبة في مكة وكل القبائل تحج إلى الكعبة

ويريد أن ينفي سبحانه هذه السيادة ، ولذلك جاء القرآن ببعض الألفاظ التي تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة « سبيل » التي تؤنث في لغة « الحجاز » ، وجاء به مرة كمذكر ؛ كما تنطقها « تميم » . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة

لأسلوب قريش ، حتى لا تظن قريش أن سيادتها التي كانت لها في الجاهلية قد انسحبت إلى الإسلام ، فقد جاء القرآن للجميع . ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾ أي أن الله سيعامل كل إنسان على مقتضى ما عنده من اليقين الإيماني

والمعاندون لهم المعاملة التي تناسبهم ، وكذلك المصرّ على الذنوب ، والمقدم على المعاصي ، وهي تختلف عن معاملة المؤمن ولكنها في إطار العدل الإلهي إذن فلكل المعاملة التي تناسب موقعه من الإيمان

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون فإذا استبنت سبيلَ المجرمين ، أو إذا استبان لك سبيلُ المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟.

وحين يذكر الحق شيئا مقابلاً بشيء فهو يأتي بحكم شيء ثم يدع الحكم الآخر لفهم السامع ، فإذا كان الحق قد بين سبيل المجرمين لعنا وطردا ، فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم . ومثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تقول للتلميذ الذي يواظب على دروسه ويذاكر في وقت فراغه من المدرسة إن سبيلك هو النجاح . ومن يسمع قولك هذا يعرف أن الذي لا يواظب على دروسه ولا يذاكر في وقت فراغه من المدرسة تكون عاقبة أمره الرسوب والخيبة

وهكذا يترك الحق لفطنة السامع لكلامه أن يأتي بالمقابل ويعرف أحكام هذا المقابل فإذا كان الحق قد قال : « ولتستبين سبيل المجرمين » فهذه إشارة أيضاً لسبيل المؤمنين من رحمة وتكريم ونعلم أن القرآن قد جاء على أبدع الأساليب وهي أساليب تقتضي أن نعرف معطى كل لفظ وكل حرف حتى نفهم مقتضيات المقامات والحالات التي تطابق كل مقام ومثال على ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

لقد ترك الحق لفطنة السامع هذه الآية أن يعرف أن الفئة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، وأن الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي الفئة المؤمنة ، وترك لنا الحق أن

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول الحق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأي قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون . إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذي يتنظرهم، وهم يقعون في الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالعمل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق في بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ (سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله في الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد في الآخرة . وأعمالهم كمثل السريق اللامع الذي يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوي شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم: «والله ربنا ما كنا مشركين» . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه. وهذا الإنكار لون من الكذب

مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترق وإما بنزول تدن . وقمة أجناس الوجود هو الإنسان الذى كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويلى الإنسان مرتبة جنسُ الحيوان الذى له الحس والحركة دون التفكير . ويلى جنس الحيوان مرتبة النبات، وهو الذى له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالى : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خصوصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذى يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان ، وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو الجماد ؟

إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير . وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

إذن مسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هدى ولكنها خضوع إلى هوى ؛ لأن الهدى هو الطريق للوصول للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين فى شىء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقدمون التنازلات فى أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك فى بعض من القضايا التى نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذى يدعى التدين ويقبِّل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرتبة من التعليم ،

وقد أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخلصوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض للدين .

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

أي أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التي تقود إلى الضلالة ؛ لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين.

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ؛ لأن اصطفاء الحق له جعله يتبين هدى الله بالشريعة الواضحة في « افعل » ولا « تفعل » ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدي كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن في كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدي على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبي ، والجهاز الهضمي . ونجد « أفلاماً » تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر

امتناع ابتعاد المصلحة لا امتناع التدين . ولكن علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نقبل على مثل هذا الامتناع لأنه من الإيمان

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

هكذا نعرف أنه لا أحد أحسن قولاً ممن يمتثل إلى أوامر الحق لأنه مُقرٌّ بوحدانية الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقرّ بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله .

« قل إني على بينة من ربي » القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ، ولكن ببينة من الله نعلم أنه إله واحد أنزل منهجاً « افعل » و « لا تفعل » . وجاء الحق هنا بكلمة « ربي » حتى نعرف أنه الخالق الذي يتولى تربيتنا جميعاً . وما دام سبحانه وتعالى قد خلقنا ، ويتولى تربيتنا فلا بد أن نمتثل لمنهجه . وقد أنزل الإله تكليفاً لأنه معبود ، وهو في الوقت نفسه الرب الذي خلق ورزق ، ولذلك نمتثل لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم ؟

﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

فالذين كذبوا بالله اتخذوا من دونه أنداداً، ولم يمتثلوا لمنهجه ، بل تمادى بعضهم في الكفر وقالوا ما رواه الحق عنهم :

﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وعندما نناقش ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : « اللهم » ، وهذا اعتراف منهم بإله يتوجهون إليه . وما داموا قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه وعبادته ؟. هم يفعلون ذلك لأنهم نموذج للصلف والمكابرة المتمثل في قولهم : « إن

كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ».

ألم يكن من الأجدر بهم أن يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

ونجد أيضاً أنهم لم يردوا على رسول الله فلم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » . إنهم يرفُضون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة المكابرة ، والتمادي في الكفر وذلك بطلبهم تعجيل العذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله : (وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به)

والاستعجال هو طلب الإسراع في الأمر ، وهو مأخوذ من « العجلة » وهي السرعة إلى الغاية ، أي طلب الحدث قبل زمنه . وماداموا قد استعجلوا العذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن في الميعاد الذي يقرره الحق ؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلادا حدده الحق سبحانه :

﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

إن الحكم لله وحده ، فإن شاء أن ينزل عذابه ويعجل به في الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام من قبل فلا راد له . وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجل أو إلى الآخرة فلا معقب عليه .

ومن حكمة الحق أن يظل بقاء المخالفين للمنهج الإيماني تأييدا للمنهج الإيماني . ويجب أن نفهم أن الشر الذي يحدث في الكون لا يقع بعيدا عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد خلق الحق الإنسان وأعطاه الاختيار ، وهو سبحانه الذي سمح للإنسان أن يصدر منه ما يختاره سواء أكان خيراً أم شراً . إذن فلا شيء يحدث في الكون قهراً عنه ؛ لأنه سبحانه الذي أوجد الاختيار . ولو أراد الحق ألاّ يقدر أحد على شر لما فعل أحد شراً . ولكنك يا المؤمن إن نظرت إلى حقيقة اليقين في فلسفته لوجدت أن بقاء الشر وبقاء الكفر من أسباب تأييد اليقين الإيماني .

كيف ؟ لأننا لو عشنا في عالم لا يوجد به شر لما كان هناك ضحايا ، ولو لم يوجد ضحايا لما كان هناك حث على الخير وحض ودفع إليه . ولذلك نجد روح الإيمان تقوى حين يهاج الإسلام من أي عدو من أعدائه ، ونجد الإسلام قد استيقظ في نفوس الناس ، فلو لم يوجد في الكون آثار ضارة للشر ، لما اتجه الناس إلى الخير وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيماني ، فعندما يطغى أصحاب الكفر في الأرض فسداً واستبداداً ، نجد الناس تتدرع باليقين وتتحصن بالإيمان لأنه يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيماني

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يفصل بين المواقف دون هوى لأنه لا ينتفع بشيء مما يفعل ، فقد أوجد الحق هذا الكون وهو في غنى عنه ؛ لأن لله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم يضف له خلق الكون صفة زائدة ، وقد خلق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط ويبلغنا الرسول .

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجريها الحق بإرادته وبمواقيت لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو ـ جل وعلا ـ الذي يأذن بها . أي قل لهم أيها النبي : لو كان في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بيني وبينكم ولأهلكتكم بعقاب وعذاب عاجل غضبا لربي وسخطا عليكم من تكذيبكم به ـ سبحانه ـ ولتخلصت منكم سريعا ، لكن الأمر ليس لي ، إنه إلى الله الحكيم الذي يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول ـ سبحانه ـ في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وحكمة الله ـ إذن ـ هي التي اقتضت تأجيل العذاب إلى وقت يحدده الله ، وفي هذا ما يجعل بعضا من الكافرين يجترئون على الله ويوغلون في الكفر ويقولون ما الذي يمنع عنا العذاب ؟

إنهم يقولون ذلك استهزاء وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آت حتما ولا خلاص لهم منه ؛ لأن الله صادق في وعده ووعيده وسيأتيهم العذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مناص لهم عنه ولا مهرب لهم منه .

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

(سورة العنكبوت)

وهكذا نرى تحدي الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيهم بالعذاب لكنه تحدٍّ مردود عليه بأن الحق هو الذي يقرر ميلاد كل أمر ولسوف يأتيهم العذاب فجأة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت الملك الموكل بعذابهم : ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء لأعمالكم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾

و « مفاتح » هي إما جمع لمِفْتح أو جمع لمَفتح . و« المِفتح » هو آلة الفتح ، ومثلها مثل « مِبرد » أي آلة البرد . وآلة الفتح هي المفتاح . و« مَفتح » هو الشيء الذي يقع عليه الفتح مثل الخزانة ، ونعلم أن بعض الأسماء تأتي على وزن « مِفعل » أو « مِفعال » . فإذا أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع لِمفتح ، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التي تفتح على الغيب . وإن أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع « مفتح » أي خزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب . وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح . يقول الحق عن قارون :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

هكذا نعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك . وهو نوعان . أمر غاب عنك ومعلوم لغيرك ؛ وهو غيب غير مطلق ولكنه غيب إضافي .

ومثال ذلك ، عندما يقوم نشال بسرقة حافظة نقودك وأنت في الطريق ، أنت لا تعرف أين نقودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، ولهذا الغيب مقدمات إن أخذ الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب . وهذا ما نراه في الاكتشافات العلمية التي تولد أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التي وضعها الله في الكون ، وهو لون من الغيب الإضافي . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، مثل ميعاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذي يحتفظ الله به لنفسه .

ولذلك نقول : إنه لا يوجد أبداً في هذه الدنيا عالِمُ غيب إلا الله . وعنده سبحانه مفاتح الغيب ، هذا الغيب الذي لا نحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أي أنه ليس له أسباب يمكن لأحد أن يأخذ بها

ويقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق سبحانه وتعالى - إيناساً لخلقه - حينما يأتي لهم بأمر غير محس لهم ، فإنه يوضح ذلك بالمحس . وعالم المشهد المحس إما مسموع وإما مرئي وإما مذوق وإما ملموس . وهناك عالم الغيب ، فقد يصطفى الله بعضاً من خلقه ليلقي إليهم هبَّاتٍ من فيضه وعطائه ترضح ببعض الأمور ، ومثال ذلك العبد الصالح الذي سار معه موسى عليه السلام وقال :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

ومثل هذه الهبَة تأتي لتثبت لصاحبها أنه على علاقة بربه ، ولا يعطي الحق سبحانه هذه الهبات لتصبح عملاً ملازماً للإنسان ، وجزءاً من طبيعته بحيث يذهب إليه في كل أمر فيخبره بما يتعين عليك أن تقوم به . إن الأمر ليس كذلك بل هي مجرد هبات صفائية ، يمنحها - سبحانه - وينزعها ويمنعها ؛ فسبحانه عنده مفاتح كل الغيب ، ويأتي لنا بالعالم المحسوس « ويعلم ما في البر والبحر » . وأتى الحق بالبر أولاً قبل البحر ، والبر محس لكل الناس بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأناس وبلاد وطرق . وهناك من البلاد ما لا تطل على بحار أبداً ، ولذلك جاء الحق بالبر أولاً ، ثم جاء بالبحر الذي يمكن أن يُشاهد ، ولكن عالم البحر أخفى من عالم البر وعوالم البحر تأخذ من سطح الكرة الأرضية مساحات كبيرة للغاية وكل يوم نكتشف في عالم البحار جديداً .

ومن بعد ذلك يردنا الحق إلى البر مرة أخرى فيقول :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إلى هذه الدرجة يوضح لنا الحق علمه الأزلي ؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تؤدى مهمتها من التمثيل الكلوروفيلي وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض . والسقوط كما نعرفه هو هبوط شيء ما إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالجاذبية الأرضية .

وعندما تسقط الورقة من الشجرة تكون خفيفة الوزن ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف في الأجواء التي تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التي تحركها ولماذا جاء الحق بمسألة الورقة هذه ؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لنعلم أنه عندما ذيل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنعام)

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلاً على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التي يترتب عليها الثواب والعقاب ؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويفصل فيها .

﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبة التي تختفي في باطن الأرض وأحوالها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

أي أنه جلت قدرته يعلم أمر كل كائن في هذا العالم ؛ لأن كل كائن في هذه الدنيا إما رطب وإما يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكة المدبرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق على وَفق ما في الكتاب ، فإنها لا تفتر عن تسبيح الله ليلاً أو نهاراً :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾

(سورة الأنبياء)

وللحق مُلك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبَد ، ولا تتكبر الملائكة عن عبادته والخضوع له ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه. وأنت أيها العبد تكون في بعض الأمور مقهوراً ولك في بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه عالم بما ستختار.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠ ﴾

نعلم جميعاً أن النوم ليس عملية اختيارية ، وفي بعض الأحيان نرى من يسلط الله عليه الهموم فلا يعرف النوم طريقاً إلى جفونه. ونعلم أن النوم عملية قسرية يخلقها الله في الإنسان لتردعه عن الحركة بعد أن يستنفد كل قدرته على التحرك والنوم لون من الردع الذاتي.

ولماذا جعل الحق النوم كالوفاة ؟

يعرف البعض أن الوفاة في معناها هي فصل الروح عن الجسد. وكأن الحق يقول لنا: إياكم أن تقولوا أن وجود الروح في الجسد هو الذي يعطي للإنسان الحياة والحركة والتصرف ، لا ، إنني سأحتفظ بالروح في الجسد ولا أقدره على التصرف

الاختياري ، وذلك حتى لا تفتتنوا في الروح ؛ لأن هناك أجهزة لا دخل لاختيارك فيها مثل نبض القلب والتنفس ، وغير ذلك من حركات أجهزة الجسم . وضرب لنا الحق المثل بأهل الكهف الذين أنامهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝٢٥ ﴾

(سورة الكهف)

النوم - إذن - نعمة من الله جعلها في التكوين الذاتي ، ولذلك إذا أردت أن تنام فليس ذلك بمقدورك ولكنه بمقدور الحق . إنه يقال عن النوم : ضيف إن طلبته عنك - أي أتعبك - وإن طلبك أراحك . ويأتي النوم للمتعب حتى ولو نام على حصى ، وقد لا يأتي النوم لمن يتهيأ له ولو كان على فراش من حرير .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ ﴾

(سورة الروم)

النوم - إذن - آية كاملة بمفردها ، ولا يأتي النوم بالليل فقط ، ولكن يأتي بالنهار أيضاً ؛ لأن هناك أعمالاً تتطلبها حركة الوجود ويقوم بها أناس في أثناء الليل ؛ لذلك ينامون بالنهار .

ويتوفانا سبحانه بالليل ويعلم ما جرحنا في أثناء النهار ، ثم يرسلنا إلى أجل يحدده هو سبحانه ، ثم يبعثنا في يوم القيامة لينبئنا بكل أعمالنا . وسمّى الحق النوم وفاة ، وسمى الاستيقاظ بعثا ، لأن الإنسان في مثل هذه الأحوال لا يملك حركته الاختيارية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف يعلن بعثته بعد ثلاث سنوات من الدعوة سراً :

(إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش قالوا: مالك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله سبحانه: «تبت يدا أبي لهب»(١)

والحق سبحانه إما أن يشل الجوارح ويعطلها ويمنعها من الحركة، أو يأخذ الروح من الجسد، فعندما يشل الجوارح ويمنعها ينام الإنسان، وعندما يأخذ الروح ويمسكها يحدث الموت. ولذلك يجب أن نفهم أن للنوم قانوناً، ولليقظة قانوناً، وللموت قانوناً، ولكل قانون قواعده، فلا قانون اليقظة كقانون النوم، ولا قانون النوم كقانون الموت، ولا قانون البعث كقانون الموت. فهناك يقظة، ونوم، وموت وبعث، ومن الخطأ أن نأخذ قانون حالة ما لنطبقه على الحالة الأخرى.

إن الحق يضرب لنا المثل لنوضح فيه: فالإنسان منا له حالة من اليقظة تسيطر الروح فيها على حركته الاختيارية. وعندما ينام تنحسر الروح عن الحركة الاختيارية وتبقى الحركات الاضطرارية. فعندما ينام الإنسان قد يرى بعضاً من الرؤى والأحلام يقابل فلاناً ويراه مرتدياً ربما ثياباً بألوان معينة. فبأي شيء أدرك الألوان وعيونه مغمضة؟. إذن فهناك وسائل إدراك غير العين. وكذلك الزمن يأخذ حظه في أثناء اليقظة. لكن في أثناء النوم يرى الإنسان حلماً في سبع ثوان ويحكيه في نصف ساعة. وقد ينام اثنان في فراش واحد، أحدهما يحلم بأنه التقى بالأحباب والأصحاب ويأكل ويشرب ويسعد ويأنس، والآخر يحلم بأنه التقى بأعدائه وعانى منهم ومن معركته معهم، إذن فالزمن مختلف وكذلك المدة. وهكذا يختلف قانون النوم عن قانون اليقظة. وكذلك يختلف قانون الموت عن قانون الحياة.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى
ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾

(سورة الأنعام)

(١) رواه البخاري والترمذي في التفسير والبيهقي في الدلائل وأحمد وغيرهم.

والجارحة كما قلنا هى التى تعمل ليكسب الإنسان. إذن فقد جاء لنا الحق بكل حالات اليقظة والنوم والموت والبعث. ولكل حالة قانونها، ونحن نعرف قانون اليقظة وقانون النوم لأننا نتعرض لهما، فإذا قيل لنا: إن هناك قانوناً للموت فنحن نقيس ذلك على ترقى القوانين من اليقظة إلى النوم، وعندما يقال لنا: إن هناك بعثاً نحن نصدق أيضاً.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

والقاهر هو المتحكم بقدرة فائقة محيطة مستوعبة. ولقائل أن يقول: مادام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصى العاصى؟. ونقول: إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصى. ولكن الحق أوجد فى الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد. ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت.

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذى خلقه الله فيه، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شىء للإنسان فيهما، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر، ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التى تحدث له وإن تمرد على منهج الله؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذى أودعه فى الإنسان.

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم فيقول

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وقد يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة مثل قوله هنا

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إنَّ المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت لكن الذي يتكلم بضمير الغيبة لابد أن يعود الضمير على مرجع هذا الضمير . وحين يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير الغيبة فإنه - سبحانه - يريد أن يبين لنا أنه في أجلى مجال المشاهدة والحضور ؛ فكأنه إذا قال « هو » لا ينصرف إلا إلى ذاته العليا ؛ فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ .

(سورة الإخلاص)

وسبحانه يقول « هو » قبل أن يذكر المرجع ، وهو « الله » ؛ مع أن الأصل في المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

فكأنه إذا أُطلق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحين يتكلم بضمير التكلم نراه يتكلم عن ذاته بضمير الإفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه) .

ويقول مرة أخرى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾ (سورة الحجر)

لماذا ؟ إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله نجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبرازه ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾ (سورة الحجر)

فالتنزيل فعل ، والفعل يقتضى صفات متعددة . فلا بد أن يأتى بضمير التعظيم وهو الجمع ؛ لأن كل صفات الكمال متجلية فى التنزيل . ولكن إن تكلم عن الذات فى التوحيد لا يأتى بضمير الجمع أبداً ؛ لأنه يريد أن ينفى عن ذاته أنه متعدد ، لأنه هو الواحد الذى لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. ۝ ﴾ (سورة طه)

وحين يتكلم عن الذكر يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ... ۝ ﴾ (سورة الحجر)

ففى مجال التعظيم والتنزيل الذى يتطلب تجلى كثير من صفاته - جل شأنه - يأتى بضمير الجمع ، وفى التوحيد والتفرد ونفى الشريك يأتى بضمير الإفراد .

هنا يقول سبحانه

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .. ۝ ﴾ (سورة الأنعام)

وكلمة « قاهر » إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففى ذلك

ميزانان بين مجالين . ومادام هو قاهراً ففي أي مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثاني مقهوراً له ؟ إننا نعلم أن كل شيء في الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم وقهر الغنى فأفقر ، وقهر الفقر فأغنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكل شيء في الوجود مقهور لله حتى الروح التي جعلها الله مصدر الحس والحركة للإنسان يقهرها سبحانه فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه على المكان الذي لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح في الجسم هي المسيطرة ، لكن من يفسد البنية التي تسكنها الروح يُذهبُ الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر المادة بالروح ، فيأخذ الروح من غير آلة ومن غير أية إصابة ويحول الجسم إلى رمّة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر المادة ، ولا توجد متقابلات في الوجود عالية ومتأبية ومتمردة عليه - سبحانه - :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

والقاهر هو المتحكم بقدرة شاملة على المقهور . ونظر أي تفسل في الحياة تجده مدينا وخاضعا لصفة القهر . «وهو القاهر فوق عباده» وكلمة «فوق» تقتضي مكانية . ولكن المكانية تحديد ، ومادام القهر يتطلب قدرة فهل يعني ذلك أن القاهر لابد أن يكون في مكان أعلى ؟ لأننا نجد - على سبيل المثال ولله المثل الأعلى - من يضع قنبلة تحت العمرة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضي الفوقية المكانية ، إذن فالفوقية المرادة هي فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما تكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوضحنا أن نلتزم بإطار « ليس كمثله شيء » فهو ذات لا ككل الذوات وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك بأن ونقول في فعله . وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل جزئية من الفعل تحتاج إلى جزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلى زمن ؟ لا ؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العملية ، إنما يفعل سبحانه بـ « كن » ، إذن القهر في قوله : « وهو القاهر فوق عباده » هو قهر الاستعلاء .

ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة لآخر رمضان » .

ففي أية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التي تشرق الشمس فيها في مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن ، فكل واحد من الملايين من الثانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، باسطا لك ولغيرك يده .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأن يده مبسوطة في كل زمان وفي كل مكان وليس كمثله شيء .

« وهو القاهر فوق عباده » ، وعباده من مادة العين والباء والدال ، ومفردها « عَبْد » ، وجمعها يكون مرة « عبيدًا » وأخرى « عِبادًا » . و« العباد » هم المقهورون لله فيما لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضا المنقادون لحكم الله فيما لهم فيه اختيار ، لأن الإنسان مقهور في بعض الأمور ولا تصرف له فيها ، لا تصرف له في نفسه ، ولا تصرف له في نبضات قلبه ، ولا تصرف له في حركة المعدة ، ولا تصرف له في حركة الأمعاء ، ولا تصرف له في حركة الحالبين ، ولا تصرف له في حركة الكُلْية ، وكلها مسائل تشمل المؤمن و الكافر ، والكل مقهور فيها .

إن من رحمة الله أننا مقهورون فيها ولا رأي لنا ؛ لأنه لو كان لنا رأي في مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظم عملية تنفسنا في أثناء النوم ؟ . إذن فمن رحمة الله أن منع عنا الاختيار في بعض الأمور التي تمس حياتنا . ومن رحمة الله أن كلا منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمي الطعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل ؟!!

إذن فكل أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذي لك فيه اختيار فهو مناط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : « افعل » إلا وأنت

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي موسى في التوبة ، ورواه النسائي في التفسير

صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك « لا تفعل » إلا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختيارية هي التي وردت فيها « افعل » و« لا تفعل » . وهي الأمور التي فيها التكليف . ومن يضع ربنا في منهج التكليف يصبح وكأنه مقهور للحكم ، ويكون ممن يسميهم الله «عباداً» ، فكأنهم تنازلوا عن اختيارهم في الأحكام التكليفية ، وقالوا : يارب لن نفعل إلا ما يريده منهجك . وكل منهم ينفذ حكم الله فيما له فيه اختيار ألا ينفذه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ (سورة الزمر)

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (سورة الفرقان)

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم في الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفهم به ، وهم في الأمور التي لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أما المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدة في القرآن وهي التي تثير بعض الجدل في مثل هذا الموضوع . سمعه يقول الحق سبحانه وتعالى عما يحدث في الآخرة :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ... ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة الفرقان)

وكأن « عبادي » هنا أطلقت على الضالين ، ونقول : نعم ؛ لأن الكل في الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن في الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمردون في الاختيارات .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

ومع مجيء معنى القهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القهر يعني الغلبة والتمكن والسيطرة والقدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول في موقع آخر

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهكذا يكون قهر الله لك ، لمصلحتنا نحن ؛ لأن الضعيف حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفي هذا تذكير للقوى نسبياً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوى عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، ويمتنع عنه العقوبة ، وفي ذلك رحمة له .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وجاء معنى « الحفظة » في القرآن في قوله الحق :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أي ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فهماً للمعاني الغيبية ، وإن كانت المعاني الغيبية التي نتقبلها من الله دليلك فيها السماع ، فهو رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربك فآمنا بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب ، ولذلك قال الحق :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالمشهد فما الفرق - إذن - بين الناس ؟ إن الإيمان في كماله وقمته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . وحين ننظر إلى البشر ، نجدهم يتفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض في صفات وقدرات ، وكلما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به . وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن كلما تقلصت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً في حجم الساعة ، ثم صنعوا آخر في حجم « فص الخاتم » ، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها في أي مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قويت قدرة الصانع دقت الصنعة . فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذي صنعته أنت بجانب دقة صنعة الله ؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتي بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته في الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم وستحصي عليك أعمالك وهم غيب فقل على العين والرأس ، وسبحانه القائل .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الانفطار)

وهنا يقول الحق

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما أراد العلماء أن يعرّفوا الموت قالوا : الموت سهم أرسل ، وعمرُك بقدر سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن عمرك يُقدَّر بمقدار سفره إليك ، وحين يقول الحق : « حتى إذا جاء أحدكم الموت » فهو بسبب الموت لمن ؟ . لقد أبهم الله زمانه ، وأبهم مكانه ، وأبهم سببه ، وأبهم قدره ، وهذا الإبهام هو أشد أنواع

البيان؛ لأنه مادام قد أبهمه في كل هذه الأمور يجب أن نستعد للقائه في كل زمان، وفي كل مكان، وبأي سبب.

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث في أي سن، فإبهام الحق له هو أكبر بيان؛ لأنه سبحانه لو حدده زماناً أو مكاناً أو سناً أو سبباً؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت، لكن الحق شاء هذا الابهام وهو أقوى أنواع البيان، ليلفتك ويحثك على أن تنتظره في أي زمان وفي أي مكان وبأي سبب وفي أي سن، وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً، ولذلك تخشى ارتكاب أي ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ.

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصلِّ، قد تقول: إن وقته ممتد، وتجد من يقول لك: اضمن لي أنك ستعيش إلى أن ينتهي وقت الظهر ولذلك يقول النبي ﷺ: عندما سأله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائلاً: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «برّ الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[1].

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت. ولذلك عندما نقول: إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك؛ لأن البعض يقول ولماذا لم يبين الله لنا ذلك؟ ودائماً أقول: لقد أوضح الله ما أبهم، فإن الإبهام هو أقوى بيان، ألم نر إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة فكان الطبيب سبب موته؟ لقد رأينا ذلك لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن قدر الله قد نفذ فيه. ولذلك قال شوقي - رحمة الله عليه -:

أسد لعمرك من يموت بظفره عند — اللقاء كمن يموت بنابه

إن نام عنك فكل طب نافع — أو لم ينم فالطب من أذنابه

---

(١) رواه البخاري ومسلم

فقد يخطىء الطبيب ـ مثلاً ـ في إعطاء حقنة فتنتهي الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصداقاً لقوله تعالى

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما تأتي كلمة « توفى » نجدها في القرآن دائرة على ثلاثة ألوان ، اللون الأول هو قول الحق .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

وقوله سبحانه

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ (من الآية ٦١ سورة الأنعام)

سبحانه ـ إذن ـ ينسب الموت له ولملك الموت ، ولرسله

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت ؟ إنهم جنوده، فلا أحد يميت دون إذن من الله ، فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة وواسطة ، وإلى الرسل تنفيذاً .

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (من الآية ٦١ سورة الأنعام)

من أين يأتي التفريط ؟ لقد تقدم في هذه الآية شيئان اثنان: حفظة يحفظون

عليك تصرفاتك وأعمالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً . وهؤلاء الملائكة لا يفرطون في هذه المهمة أو تلك . وحين ننظر في مادة الـ « فاء » ، والـ « الراء » والـ « طاء » نجدها تأتي مرة « فرّط » ، ومرة « أفرط » . ومن العجيب أنها تأتي لمتقابلين ؛ ففرّط في الشيء أي أهمله ، وأفرط في الشيء أي جاوز الحد والقدر في الحدث .

وهنا يقول الحق سبحانه : « وهم لا يفرّطون » أي لا يهملون ولا يقصرون . وفي إحدى قراءات القرآن نجد من يقرأ : « لا يفرطون » بالتخفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجد الحق يقول :

﴿ وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وكلمة « ردوا » تفيد أن كان لهم اللقاء به أولا ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف ؟ لقد كانوا منه إيجاداً ثم ردوا إليه حساباً ثواباً وعقاباً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ... ﴿٥٥﴾ ﴾ (سورة طه)

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكلمة « مولى » تعني أنه هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك . وهذا القريب قد يكون منجداً لك إن حدث لك ما يزعجك وهو الذي يُعينك ، وهكذا أخذت كلمة « مولى » معنى القريب ، والناصر والمعين الذي تفزع إليه في شدائدك ، وقد يوجد لك مولى في الدنيا وهو من الأغيار . ومن الجائز أن يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أن تنالك الأحداث التي هي فوق قدرته

وطاقته، ومن الجائز أن يكون لك مولى تشله وتطلبه لنصرتك فيرفض ؛ لأن خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فيقف بجانب خصمك وقد يوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك في الآخرة مولى حق واحد « وردوا إلى الله مولاهم الحق » وتطلق كلمة « مولى » على السيد حين يعتق عبده . وحين يعتقنا ربنا من النار أليس في ذلك أعظم ولاية ؟. إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ؛ لأن الأغيار من طبيعة الخلق .

وحين يطلب منك الحق أن تُعمل عقلك لأنك حين تعتمد على واحد ينفعك في أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهنا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحيّ الذي لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأغيار فقد يصبح الصباح فتجده قد حلا بك وتخلّى عنك . أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم » . ولماذا جاء بكلمة « الحكم » هنا ؟؛ لأننا في دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه ؛ فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتعيينات ، وكلها أحكام ، أما في الآخرة فالحق يقول :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وأنت في الدنيا تملك ، ويكون رزق ابنك - على سبيل المثال - من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تخيط الثوب لغيرك إن كانت تلك مهنتك ، ففي الدنيا كل منا يملك بعضاً من أسباب الآخر . لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وساعة تسمع « ألا له الحكم » فـ « ألا » في اللغة أداة تنبيه لما يأتي بعدها ، ولماذا

تأتي أداة التنبيه هنا؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم. والكلام - كما نعرف - واسطة بين متكلم ومستمِع؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره ومطلوباته إلى السامع. وهو قبل أن يتكلم يدير الأمر في رأسه: أيتكلم أم لا؟ لكن السامع يفاجأ بكلام المتكلم، والمتكلم قبل أن ينقل خواطره توجد في خياله نسبة ذهنية، أي أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم، أما السامع فهو يفاجأ، وعندما تريد أن تقول أمراً مُهمّاً فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تفلت منه أية حرفية من كلامك، فتقول: «ألا» لتشد انتباه السامع نفسه. والحق هنا يقول: «ألا» ليأخذ انتباه السامع، ويأتي بعدها قوله: «له الحكم».

إذن: ساعة تسمع «ألا» فاعرف أن بها تنبيهاً لأمر قادم «ألا له الحكم».

والحكم: هو الفصل بين أمرين، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف الحاكم؛ فإن كان الحاكم له هوى فالحكم يميل، لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى، فالحكم بالميزان يقتضي أن تكون له كفة هنا وكفة تقابلها، وساعة ما تضبط الميزان تحاول أن توازن الكفتين لتفصل بين مسألتين متخاصمتين، وما دمنا نريد لتساوي فحتى نسمي ذلك: الإنصاف، أي أن تقف في النصف دون ميل أو حيْف.

«ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين» وساعة يسمع إنسان «ألا له الحكم» فالواحد منا يعلم أنه سبحانه يحكم بين الخلق بداية من آدم إلى أن تنتهي الدنيا، وكل واحد منا تتشابك مسائله مع غيره، وما دام لله الحكم فليس لغيره معه حكم، ويحكم بين الخلق جميعاً وعمله لا يحتاج إلى زمن، ونتذكر هنا الإمام عليّاً - كَرَّمَ اللهُ وجهه - حين قالوا له: كيف يحاسب ربنا الناس جميعاً في وقت واحد، وبمقدار حلب شاة كما قال بعضهم؟ فقال الإمام عليّ: «كما يرزقهم في وقت واحد يحاسبهم في وقت واحد»، وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً. وقديماً عندما كانوا ينيرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج: هنا مسرجة، وهناك مسرجة، وعلى البعد مسرجة ثالثة، وكان الوقاد يمشي ليشعل المسارج... إلخ، وارتقى العقل البشري المخلوق لله واستطاع أن ينير الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفي وقت واحد.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) ﴾

المتعب للخلق أن تأتى الظلمة وتكون فى مهمة النور ، وأن يأتى النور فى مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور دور ومهمة فى الحياة . ولذلك قلنا فى أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. (١) ﴾

(سورة الأنعام)

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لنتلمس القول الحق ، ونعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعى مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذى يعيننا على السعى على أمور حياتنا ، ويتطلب السعى طاقة ، ولا يمكن أن تأتى الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة ؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذى يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشىء الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه - سبحانه - يريد متكاملا يعين متكاملا ، فلا شىء يهدم شيئا مقابلاً له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ (سورة الليل)

وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدى مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأديت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسع

الناموس أو الراميث ، أو من ضجيج وخلافه ، ولم ينم ، ثم في الصبح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما يقولون « مدهول » .

إذن فمن أجل حركة الضوء لابد أن توجد الظلمة .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

الليل والنهار ـ إذن ـ نعمتان ، وكل نعمة تساوي الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندها ، لا لقد جاءت كل منها لتساند الأخرى . وفي سورة الليل يتابع الحق :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة الليل)

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين لتنجح الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . ومادام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن خلطت المهمتين ينتج الفساد .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

ويقول الحق هنا :

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ ﴾

(سورة الأنعام)

والظلمة ـ إذن ـ هي عدم النور ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهي ظلمات متراكمة ؛ لأن الظلمة

إذا ما غُشيت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : « ظلمات البر والبحر » ، وحتى نعرف أهي ظلمات حسّية أم ظلمات معنوية لابد لنا أن نعرف الظلمة في معناها الحسي ، إنها ما يؤدي إلى عدم الاهتداء إلى الحركة الصحيحة ، إذن فكل أمر يؤدي إلى عدم الاهتداء - حسّياً أو معنوياً - هو ظلمة ؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يسير في أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التي يصعب على الناس أن يعرفوا طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمةً حسّية أم معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمور الحسّية ، والمراد بالظلمات هنا هي الأحداث والكوارث والنوازل التي تضيق أسباب البشر عن النجاة منها والإنسان حريص دائماً على نفع نفسه ، وتظهر التناقضات في أعمال إنسان عن أعمال إنسان آخر لاختلاف كل منهما في تقييم وتقدير المنفعة . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذي يذهب صباحاً مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدي واجبه ، ويخرج من لديه الكسل ليجد لذة في العمل ، إنه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذي ينام ويوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع في الطريق ، مثل هذا التلميذ يحب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التي تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذي يتبوأ المكانة اللائقة به .

والمثال الواضح أيضاً في الريف هو الفلاح الذي يقضي وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التليفزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا ري ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التي يفلحها محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذي يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينتظم في ريها في المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها ؛ لأن الذي أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحقُّ الرزق الوفير . أما الذي يتكاسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذي أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره

إن كل حركة يصنعها الإنسان في الحياة إنما يريد بها نفع نفسه، ولكن هناك اختلاف في تقدير النفعية بين إنسان وآخر، والعاقل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها. وها هو ذا المتنبي الشاعر العربي يقول:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهاما بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حب الشجاع لنفسه - إذن - جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد في سبيل الله، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية. فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث ترى نفسيته وهي تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه، أما إذا عزّت أسباب البشر وكان غافلاً عن الله، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالقه فيقول «يارب»، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصاً. لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله وتمرد على ربّه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله في وقت الشدة، فإن نجا وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده. ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

(سورة الإسراء)

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهي أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم، بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم. فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح، وتختل آلاتها لا تجد إلا كلمة «يارب. يارب» على ألسنة كل ركابها بداية من «القبطان» والقائد إلى أصغر راكب بها، ونجد من يتمتم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة. وكذلك لحظة أن تضطرب طائرة في الجو، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله.

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه: «بل من تدعون إلا إياه» ودعوة الإنسان ربه ومولاه هي الوسيلة الأولى من وسائل اليقين، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين: أمر يبسط ويسعد الإنسان، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به، فأما الذي يبسط ويسعد فهو إدراك الجمال، والنعمة والراحة، والسعادة، والإحساس بالرضى. وأما الذي يضيّق على الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو.

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول: «الله»، وهي صيحة التقدير والتقديس لله الذي أعطاه موهبة إتقان العمل. وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يلهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته: «يارب». إذن فلا ملجأ إلا إلى الله.

«قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر»؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التي لا بد أن يقررها السامع هذا السؤال وهي: إن الله هو المنجي من ظلمات البر والبحر. وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هي التي ستغلب على ألسنة الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجي من ظلمات البر والبحر. والكون كما نعلم - إما بر وإما بحر. ولقائل أن يقول: ولكن هناك كوارث جديدة في عصرنا هي كوارث الجو؟

ونقول: يجب أن نفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه، فجو البر من البر، وجو البحر من البحر، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة في المسجد الحرام؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو في الدور والطابق الأول أو الثاني أو الثالث من المباني المقامة كمسجد حول الكعبة. ونلحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المباني التي حولها. والمصلون يتجهون في صلواتهم في تلك الأدوار إلى جو الكعبة، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس أيضاً، وجو الحرم من الحرم.

ومثال آخر هو السعي بين الصفا والمروة؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة في الدور الأرضي، وهناك الآن دور ثان أقيم للسعي. وهكذا نرى أن جو المسعى

مسعى أيضاً . وقديماً كان محرماً على الطائرات أن تطير في جو مكة أو المدينة ـ حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم في الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم في أجواء مكة والمدينة المنورة .

فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضي طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوباً منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله والمطلوب هو الشيء الذي نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفي اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لي » ، نجد الذي استذكر دروسه دون تفقه يقول : « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه في فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هي فعل دعاء ؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوي للمساوي فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيط به الكوارث والأحداث والزلازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ؛ هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو؟ إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتثال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . إنه السؤال بتضرع وخضوع . والتضرع يقتضي قولاً ، ويقتضي فعلاً ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات .

ويخطئ من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يرتبط ذلك بفعل . فعندما تكون في موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون في موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفي لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون

فى قلبه ذرة من نفاق ، لأن الحق يقول : « تدعونه تضرعاً وخفية » . والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس فى ذلك رياء ، لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلا الخالق البارىء ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوروبية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت فى قراءتها إلى أسباب نزول قول الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ وبينما هى تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلاناً عن مقدم سعد وحذيفة وقالا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيطه ، ثم نزل عليه الوحى بهذا القول الكريم :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعندما قرأت المرأة الأوروبية هذه الحكاية فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم واستنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة فى أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية . والدعاء - كما علمنا - يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر فى قوله الحق :

﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

فكلمة (تدعونه) . قول و(تضرعا) : فعل لأنه خشوع وخضوع . و(خفية) : انكسار القلب وخشيته وو أنجانا ، تدل على التعدد ، لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضا قوله : (قل الله يُنَجِّيكم) يدل على التكثير ، أي أنه لا ينجّي مرة واحدة ولكنه ينجّي لمرات كثيرة . ويأتي لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجّينا إما بتكرار النجاة أو بتعدي النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجي الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطالب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجّي الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة وسبحانه القائل :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس ضعفه ودعا ربه في أي حالة من حالاته - سواء أكان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً - حتى يكشف الله عنه هذا البلاء . وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر

والحق سبحانه يقول :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

(سورة الإسراء)

وسبحانه - هنا - يُذكّر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر في البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا لله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجحود بنعمته سبحانه

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينجيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية في البر والبحر ، وسبحانه بعلمه الأزلي يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يطغى فيها قاله الحق تبارك وتعالى

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء . ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح في بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا في ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله في كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا أطلقت تقترن بالخسارة

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العصر)

أى أن الإنسان على إطلاقه فى خُسْر ولكن الحق يستثنى من؟

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ٣ ﴾

(سورة العصر)

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذى يحيا فى خسران ، لكن من يعيش فى رحاب المنهج هو الذى لا يخسر أبداً والإنسان حين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ٤٩ ﴾

(سورة الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرّ ، وإذا ما أنجاه الله ادّعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد فى الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله ، إنه نسى أن كل نعمة هى مجرد اختبار من الله

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝ ٦٥ ﴾

وكلمة « قادر » تعنى تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يمهل القوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم

الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلتهم كعصف مأكول ، وهناك من أخذتهم الحق بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام .

أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه ، وهذه هي التحتية . فالعذاب قد يأتي من فوق أو من تحت الأرجل حسّياً ، وقد يأتي أيضاً من فوقيّة أو تحتيّة معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذي يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين ، وقد يأتي العذاب من الفئات الفقيرة التي تعيش أسفل السلم الاجتماعي .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

والمقصود بلبس الأمر أي خلطه بصورة لا يتبينها الرائي . و « شيعاً » هي جمع « شيعة » . والشيعة هم . المتعاونون على أمر ولو كان باطلاً ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : « أو يلبسكم شيعاً » أي أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التي تختفي وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً

ولماذا كل ذلك ؟ لأن الناس مادامت قد انصرفت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب . ولكن أغيّر ذلك في ملك الله ونواميسه الثابتة من شيء ؟ أبداً ، فالسماء هي السماء ، والأرض بعناصرها هي الأرض ، والشمس هي الشمس ، والقمر هو القمر ، والنجوم هي النجوم ، والمطر هو المطر .

إن الذي يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض ، ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس كلها مذنبة ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلابد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ، ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله ؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا العبادات

الجماعية حتى يرى الضعيف في سلطان الدنيا القوى في السلطان وهو يشترك معه في السجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة في ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضا تجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساويا لمن في المركز الاجتماعي القوى . الكل يقف أمام ربّه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكياً . ويريد سبحانه بذلك استطراق العبودية ، ويذل الإنسان المؤمن أمام الله وأمام الناس حتى يمحى الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفي بيته على سواء .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥ ﴾

(سورة الأنعام)

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً ، إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التي تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجرات)

ها هوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل ، ويزداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة

والقاعدة التي قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين ؛ «

لأنه لا يوجد في الأمر الواحد إلا حق واحد . ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل ؛ لأن الباطل زهوق وزائل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله .

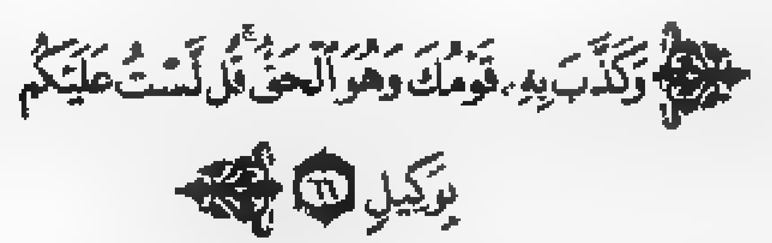
ومثال آخر كنا نراه في بلد كلبنان - إبان الحرب الأهلية - وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب .

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتي لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً في الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا . والفقه هو شدة الفهم . والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التي يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :



﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾

ما الذي كذب به القوم ؟ المقصود هو القرآن أو المنهج عامة ؛ لأن المنهج الإيماني يشمل القرآن ويشمل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام . فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالسُّنة ليبيّن ويشرّع ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العقيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التي تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات في كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن

لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل في حديث شريف : « صلوا كما رأيتموني أصلي »[1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم مفوض بالتشريع بنص القرآن الكريم :

﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

ونحن نصلي كما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزكي بنصاب الزكاة الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق القرآن والسنة .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

أي أن هناك من الأمور العقدية التي أنزلها الحق مجملة في القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق . وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن وهي ضمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

وهنا طاعة الرسول غير مكررة إنها ضمن طاعة الله .

ويقول سبحانه مرة أخرى .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النور)

أي أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمراً بإطاعة الرسول .

---

(١) رواه البخاري ، والبيهقي ، والدارقطني في السنن .

ومرة ثالثة يقول سبحانه : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ .

وكل ذلك حتى تستوعب الأحكام التي التقت السنة فيها بكتاب الله .

وحين قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ .

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولي الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى معنى الآية التي نحن بصددها :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ (٦٦) ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالذي كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للصبح أيضاً . فالمكذَّب به هنا هو الحق . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وفي حياتنا اليومية تحدث واقعة ما ويأتي أكثر من شاهد عيان لها فلا نجدهم يختلفون في رواية الواقعة لأنهم يستوحون واقعاً ، لكن إن كان بعض من الشهود لم يروْا الواقعة التي يشهدون عليها تجدهم مضطربين في الأقوال ولذلك نجد وكيل النيابة يحاول استنباط كل الوقائع من أقوال الشهود ؛ لأن الحق قد يختفي قليلا وراء بعض من الضباب لكن لا يدوم اختفاؤه طويلا بل يظهر جلياً ناصعاً .

والحق يضرب لنا المثل فيقول سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ (١٧) ﴾

(سورة الرعد) .

الماء - إذن - ينزل بأمر الله من السماء فتستبشر به حياة النبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل واد على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل فهو يصحب معه بعضاً من الشوائب التي تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يطفو - أيضاً - عندما يُصهر الذهب أو أي معدن ويُسمى الخبث . هكذا يطفو الباطل كالزَّبدِ ويذهب جُفاء مطروحا ومرميا به بعيدا أو ينزل على جوانبه ، أما الحق الذي ينفع الناس فهو يبقى في الأرض . وتكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمنهج الإيماني هو البهتان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيل على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ، فالوكيل هو الله الحق الذي يعاقب كل مكذب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ

« وكذَّب به قومك » ، وكلمة « قومك » هذه هي تقريع فظيع لهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادقاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل الرسالة ، وما جرَّبوا عليه كذباً ، ومقتضى مكثه معهم هذا التاريخ الطويل كان يفرض عليهم أن يتساءلوا من فور بلاغهم بالرسالة : أنه لم يكذب علينا قط ونحن من الخلق ، أيكذب على الخالق ؟. ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك يقول الحق عن هذا البلاغ :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

أي قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا ينزل قرآنا عليَّ من لدنه وألاَّ أبلغكم وأعلمكم به ما أنزله وما تلوته عليكم ، ولكنه أنزله وأرسلني به إليكم . وصدق يمن الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وبرغم تكبر وعناد وتكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ترك علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حق أكثر من حق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكون أمينا معهم ولا يكون أمينا مع ربه ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

والنبأ هو الخبر المهم ، فليس كل خبر نبأ ، ذلك أن هناك الكثير من الأخبار التافهة التي يتساوى فيها العلم الذي لا ينفع بالجهل الذي لا يضر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فلكل نبأ مستقر ، والمستقر هو من طلب القرار فيه . والنبأ مظروف والمستقر مظروف فيه . والمظروفية تنقسم قسمين : مظروفية زمان ، ومظروفية مكان . أي أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيهما الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق بميلاد هذا المستقر الذي يُعلن فيه الخبر.

النبأ - إذن - هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تحمل السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هي فيه من ضلال ، وهو منهج عام لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبأ عظيم ؛ لأنه يخص دنيا الناس من جبابرة الأرض ، ويبعث كل الناس إلى منهج يخرجهم جميعاً من أهوائهم . فلا أضر بالمجتمع من أن يتبع كل إنسان هواه ؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها ، والشهوات متضاربة ، فإذا حكم كل إنسان هواه فلن تجد في الأرض قضية متفقا عليها . ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج وهو الأمر الذي تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذي تلتقي فيه الأهواء وهو استنباط ما في الأرض من كنوز وستكشف ما في الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذي خلقه الله ، من الكون

الذي خلقه الله ، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التي يستكشفها في الكون

ويؤكد لك واقع الحياة هذه القضية ، ونجد طموح العقل البشري عندما فكر في مادة الكون استنبط منها الأسرار وأخرج الكثير من الاكتشافات العلمية ولم تختلف الدول والمعسكرات في تلك المجالات ، بل اتفقت كل الأهواء عند هذه الاكتشافات . فلا توجد - كما قلنا - كهرباء روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد « كيمياء انجليزية » وأخرى « فرنسية » ، ولذلك نجد الأنظمة السياسية والاجتماعية على اختلافها تلتقي في مجالات العلم وتتفق ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرق من البعض الآخر ما توصل إليه . ولا نجد في عالم المادة والمعمل والتجربة اختلافات بين نظام سياسي ونظام آخر ، بل تلتقي الأهواء عند القوانين المكتشفة والمأخوذة من مادة الكون ، وهو الأمر الذي تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، يفكرون ، وينظرون ، ويتأملون ، ويبتكرون ، ويصلون إلى أسرار في الكون تخفف عنهم متاعب الحياة ، وتؤدي لهم غايات السعادة في الوجود بأقل مجهود

ولكننا نجد الصراع العنيف من الجانب الآخر - جانب المبادئ والمنهج - وهو صراع لا يهدأ أبداً ؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يختلفون خلافات عميقة ، الرأسمالية تختلف عن الاشتراكية ، وتتنوع الخلافات بين كافة المذاهب التي أنتجتها الأهواء : الشيوعية ، الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل لذلك كان الخلاف . ومن المؤسف أن البشر قد استغلوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية في فرض النظم التي اختلفوا عليها

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر : إنه جل وعلا قد ترك عقول البشرية حرة في كل ما يخضع للتجربة ، ولكنه نظم حياة الإنسان على الأرض في ضوء المنهج الإيماني ؛ لأن الإسلام جاء في إثر ديانة حاول القائمون على أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة الكهنوت على العقل البشري في أسرار الكون

والمثال على ذلك واضح تماماً في التاريخ البشري ، ففي العصر الذي تأخرت فيه أوروبا وسُمي « عصر الظلمات » كان المسلمون في الشرق باتباعهم لمنهج الله يعيشون

في عصر النور ؛ لأن الإسلام منعهم مجال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله في الكون ، وجاء سبحانه بهذا الدين وهو النبأ العظيم ليوضح لنا في مسيرة هذا الدين كل عبرة ، وكأنه يقول لنا :

إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب في الحبشة ، وعلى الرغم من ذلك انتصروا لأنهم أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومعنى « مستقر » أي ميلاد يستقر فيه . أي لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها ؛ فإن شاء الله سيكون هذا الدين انتشار . وهذا الانتشار له ميلاد في زمان وميلاد في مكان . أما زمانه فإلى أن تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس كافة ، وخاتما للنبيين والمرسلين

ويؤيد الحق سبحانه قضية « لكل نبأ مستقر » بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك ومثل ما حدث في الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . فحينما جاء الإسلام آمن به قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أي جمع هذا الذي سيهزم ويولون الدبر ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزم الجمع وولَّوا الدبر . ونجد كل قضية قرآنية محفوظة ومسجلة في السطور . يحفظها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة ؛ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ ﴾ [سورة الأنعام]

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبأ مستقراً ، ولكن حدث ميلاداً زماناً ومكاناً ، فماذا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن ؟ لذلك أتى الحق بكل قضية قرآنية وسمعها عليها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق الموثقة بالأحداث زماناً ومكاناً ليتأكد قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ ﴾ [سورة الأنعام]

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يربي حامل الدعوة الأول - عليه الصلاة والسلام - ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم منطقاً ليسايروا به أحداث الكون .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان يُنزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما يعُم الفساد في الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل في كل نفس بشرية تماداً ذاتياً ، فإذا اشتهى الإنسان شهوة يحرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهدأت شرّة وحدّة المعصية في نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها . ولكن النفس قد تستمرئ الشهوات ، وينعدم الوازع الذي يردع الإنسان .

وإذا انعدم الوازع في فرد واحد فلن ينعدم في المجتمع ، ونجد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التي استمرأت المعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد في الفرد وفي المجتمع فماذا يكون الموقف ؟

لا بد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتي الرسول الجديد ومعه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون القلة ، وأهل البصيرة من أهل القوة حتى لا يظن ظان أن الضعفاء لاذوا بالدين ومالوا إليه بسبب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول : إنكم تواجهون باطلاً

بعض الناس وأرهقهم وأضناهم ، وحين يعضّ الباطل المجتمعات فالذي ينتفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذي يشقى بذلك هم أهل الحق ، فلكل فساد طبقة منتفعة به . وحين توجد الطبقة المنتفعة بالفساد ، وحين توجد كلمة الحق فإن المنتفعين بالفساد ينظرون إلى نفوذهم الذي سينحسر حتماً عندما تسود كلمة الحق

وحين ينتصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل نفوذ أهل الفساد . لذلك يقف المنتفعون من الفساد ضد الذين اجتهدوا ليحافظوا على مكانتهم في المجتمع . ويقول الحق تهذيباً للمؤمنين، وتأديباً لغير المؤمنين :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: اعلم أن ما جئت به سيخاض فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا المنتفعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فسيجعلونه عدواً لهم. لذلك لا بد أن تحافظ على أمرين . الأمر الأول - أن الذين اتبعوك - وهم ضعاف - قد لا يستطيعون مواجهة القوة الطاغية ؛ لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن تريّثْ ؛ فإن لكل نبأ مستقراً ، والأمر الثاني: أنك إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم وبيِّن لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا توادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يستمع إليهم أصحابك ، لماذا؟ لأنهم يخوضون في آيات الله. ولكن أيستمر هذا الإعراض عنهم طوال الوقت؟ ، لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون في أثناء خوضهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما في غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آذانهم في حاجة إلى سماع صيحة من الحق ، لذلك انتهز فرصة عدم خوضهم في دينك ونبيك ، ولقِّنهم ما تبشر به ، ولقِّنهم كذلك ما تنذر به ؛ لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قضية الإيمان تصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

وكلمة « الخوض » هذه تشعرنا بمعنى في منتهى الدقة ؛ لأن الخوض في أصله هو الدخول في الماء الكثير . والماء الكثير ساتر لما تحت قدمي الذي يخوض فيه ، ومادام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أى موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا في هوّة ، لكن الذي يسير في غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدمه حيث يرى فيها ثباتاً واستقرار وعدم إيذاء . وأخذوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه خوض بدون اهتداء . ولذلك يقول الحق

﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

ولماذا وصف لعبهم هذا بأنه لعب ؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب وكان في قالب الجد . ولكن إذا كان هذا الشيء يؤدى إلى تنوع في مجال من مجالات الحياة فنحن ندرب أبناءنا عليه في فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على السباحة والرماية وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى تصير له مهمة في الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسئولية ، فلا يضيع وقته في اللعب أو فيما يلهيه عن أداء لواجب

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

والنفس البشرية لها أغيار . وهذه الأغيار قد تنسيها بعض التوجيهات . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم النسيان

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

وإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نفهم قول الحق هنا.

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

إننا نفهم هذا القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وحين ينزل أمر من السماء فرسول الله أولى الناس بتطبيقه، وإذا كان الرسول يخاطب: «وإما ينسينك الشيطان» فإذا ما نسي إنسان لعلة من العلات، فليأخذ علاج الله للنسيان، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخوضون في آيات الله في أثناء خوضهم، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم. إذن فالحق سبحانه وتعالى احترم خلقه؛ لأنه وهو العليم بهم، خلق لكل إنسان ملكة حافظة، وملكة ذاكرة، وملكة مخيلة، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدي مهمة. فالملكة الحافظة تحفظ المعلومات، والذاكرة تأتي بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها في بؤرة الشعور. ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل في ذهن الإنسان؛ لأن العقل لا يشتغل إلا بقضية واحدة في بؤرة الشعور. وحتى تدخل قضية أخرى في بؤرة الشعور، لا بد أن تتزحزح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور.

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر. ولو ظل الإنسان ذاكراً لقضية من القضايا في نفسه لصار من المحال أن تدخل قضية جديدة أخرى. وهكذا خلق الله النسيان، أي انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور. والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً، ثم يمر هذا الحادث بالخاطر مجلة، ويتساءل الإنسان، كيف؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً ومصوناً في دوائر شعورية بعينها. ولذلك نجد الإنسان عندما يريد استعادة معنى من المعاني فهو يترك لنفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى. ولذلك يسمون هذه المسألة «تذكر».

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ولماذا ينسب الحق النسيان للشيطان؟، لأن حقائق الحق في دينه هي الصدق،

ولا يصح أن تغيب أبداً عن بال المؤمن ، وهي لا تغيب عن بال المؤمن إلا بعمل الشيطان ، فالشيطان يزين الأمر الذي يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزغ الشيطان لينسى الإنسان ، وتذكر الإنسان أن هذا من نزغ الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلفتهم إلى أن ما عندك من يقين إيمانى هو أعز عندك مما في مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من متع وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليفرض على المؤمنين مقاطعة المشركين في أثناء فترة ضعف المؤمنين في بداية الدعوة وكان المؤمنون يلتقون في المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهى مكان حجيجهم ، فهل يقاطع المسلمون المسجد الحرام في بداية الدعوة الإسلامية ولا يلتقون ؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء في المسجد الحرام ، وإذا جاء الذين يخوضون في آيات الله فهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى أنك إذا كنت معهم وخاضوا في الحديث فقمت من مجلسهم أو نسيت وقعدت ثم تذكرت فقمت ، فأنت تلفتهم إلى أن ما أقامك من مجلسهم هو شيء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه احترام تكليف الله فيما أمرك به ونهاك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار هؤلاء الظالمين من شيء ، وليس عليكم من حسابهم من شيء ، ومجرد قيامكم من مجلسهم هو تذكرة لهم لعلهم يتفكرون في منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع في الباطل حتى يكونوا في وقاية من عذاب الله وسخطه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلنا - من قبل - إن اللعب هو الاشتغال بما لا يفيد لقتل الوقت . وعرفنا أن اللعب مجاله قبل التكليف أي قبل سن البلوغ . وإذا شغلك اللعب عن شيء مطلوب منك فهو لهو ؛ لأنك لهيت عن أمر واجب عليك ، فاللهو - إذن - هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة

وقوله الحق : « وغرتهم الحياة الدنيا » هو تصوير لا يوجد أبرع منه ؛ لأنهم من أصحاب العقول التي تغتر بالحياة الدنيا فهي عقول تائهة ؛ فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأناً من أن تكون غاية ، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة .

وعلى العقل الناضج أن يعاملها دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انحرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

إننا نعلم أن غاية الإنسان من الحياة الدنيا ليست أن يعيش عمراً طويلاً ، ولا أن

ينال المناصب ، ولا أن يحصل على الثراء ، ولا أن ينال القوة ، فكل ذلك من الأغيار ، والأغيار تختلف من إنسان إلى آخر .

وما نختلف فيه نحن البشر ليس غاية لوجودنا ، والغاية للوجود الإنساني لابد أن تكون واحدة . وأن نتفق فيها جميعاً ، هذه الغاية هي ما نصير إليه بعد الموت . ونجاح كل عمل بمقدار ما يقرب الغاية منه . ولذلك فالمؤمن الحق يرى استقبال البشر لقضية الموت استقبالاً أحمق ، فعندما يموت شاب في العشرين نجد من يقول : « إنه لم يستمتع بشبابه » والمؤمن الحق يرد على مثل هذا القول متسائلاً : أين تريد أن يستمتع بشبابه ؟ . ويجيب أصحاب الفهم السطحي . لقد مات قبل أن يستمتع بشبابه في هذه الدنيا

ويقول المؤمن الحق وهل هذه الدنيا هي الغاية ؟ . إنها ليست الغاية . بل الغاية هي الحياة الأخرى ومن مات قبل التكليف فقد أنقذه الله من الحساب وأوطنه الجنة يتلقى نعيمها الدائم فلماذا - إذن - هذه المبالغة في الحزن على أي ميت ؟ والذي يقترب من الغاية يجب هذه الغاية . وهب أن إنساناً غايته أن يذهب إلى الإسكندرية ، والوسيلة إليها قد تكون حصاناً أو عربة أو طائرة ، فكل شيء يقربه من الغاية يكون هو الأفضل .

فإذا كان الله يريد أن يأخذ بعضاً من خلقه وهم في بطون أمهاتهم ، فهذه إرادته . والذي ذهب من بطن الأم إلى القبر قرب من الغاية ، وخلص من المراحل التي كانت تحمل في طياتها الفتنة ودخل الجنة

وهب أن الوليد عاش إلى عمر المائة وصار شيخاً رغم كل اضطرابات الفتنة واستقام على النهج ، فإلى أين مصيره ؟ إنه إلى الجنة

إذن فعلينا أن نستقبل كل قدر لله بحب قدر الميلاد أو قدر الخروج من الدنيا ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(سورة الملك)

إنه سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، لا ، بل قال : « خلق الموت والحياة » وذلك حتى يستقبل كل منا الحياة ، ويسبقها فى الذهن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت . إذن فهذه هى القضية التى يتفق فيها كل الحس البشرى . أما ما عداها فهى أغيار تختلف فيه .

لذلك لا تقل إن الغاية من ابنك أن ينجح فى القبول للإعدادية ثم يحصل على الشهادة الإعدادية ، ثم يحصل على الثانوية العامة ، ثم يحصل على ليسانس الكلية أو بكالوريوس التخرج أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه ، ثم يصير صاحب شأن فى الحياة ، لا تقل ذلك ، لأن كل ذلك ليس غاية فى الحياة ، ولأن الغاية هى ما لا يوجد بعدها بعد ، ولكن علينا أن نقوم بإعمار الأرض كما أمرنا الله ولكن لا نجعلها هى الغاية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هى الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن نحيا دائماً على ضوء ما ينجينا من العذاب وهو ذكر الله . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

والذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن وهو المنهج المنزل من السماء وطبقه رسول الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر أيضاً ، أو الذكر هنا مقصود به العذاب الذى ينتظر من يخالف المنهج . وقوله الحق : « وذكر به » ، يدل على أن منطق الفطرة يقتضى أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المنعم فى الدنيا كما يعامل

المنحرفون . ومثال ذلك الإنسان الذي يخوض في أعراض الناس ويظلمهم لا يتصور أبداً أن يلقى من الحق ـ سبحانه ـ المعاملة التي يعامل بها الإنسانَ الملتزم بمنهج الإيمان، فالفطرة تقول لنا : إن الحق يجازى كل إنسان بعمله ، سواء أكان الجزاء في الدنيا أم في الآخرة . ومن المأثور عن بعض العرب أنه قال: لن يموت ظلوم حتى ينتقم منه الله . ومن بعد ذلك مات رجل ظلوم ولم ير فيه الناس انتقام السماء ، فقال الرجل العربي :

والله إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » والبَسْلُ معناه : المنع ، والمنع له صورتان : الأولى منع حركة حياة حي . . أي أن تحبسه في مكان محدد يتحرك فيه ، والثانية : منع من أصل الحياة . أي أن تهلكه وتزهق روحه ، « تبسل نفس بما كسبت » أي تُمنع نفس بما كسبت ، والمنع إما بالهلاك أو بالحبس حبساً يديم عليها العذاب والحبس ـ في أعراف البشر ـ هو وضع إنسان في مكان لكفِّه عن ظلم غيره ، أي أننا نمنع شرور إنسان عن المجتمع بوضعه في الحبس .

وعندما جاء الإسلام لم يحبس فرداً إنما حبس المجتمع عن فرد ، وهذا عقاب أكبر وأشد ؛ فقد ترك الإسلام المجرم حراً في المجتمع ولكنه حبس المجتمع عنه ؛ فالمجرم يمشي فلا يجد من يكلمه أو يضحك له أو يمرح معه أو يشاركه حزنه .

وحدث ذلك عندما حبس المؤمنون أنفسهم عن ثلاثة تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن إنساناً منهم جاء ليقرب امرأته فرفضت . وحاول ثان أن يسلم على ابن عمه فما رد عليه السلام فجلس يبكي . وقاطع كل الناس هؤلاء الثلاثة ، وهذه هي عظمة الإسلام ، لقد سجن المجتمع عن المجرم فتعذب المجرم بقطيعة المجتمع له .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » أي ذكر بالقرآن أو بالمنهج أو بعاقبة مخالفة الإنسان للمنهج . والعقاب إما حبس وإما هلاك ، وذلك بسبب ما تكسب النفس . والكسب في اللغة معناه زيادة على رأس المال وللكلمة اشتقاق ثان وهو « اكتسب » . ومرة تأتي الكلمتان في معنى واحد، فالكسب يحدث دون افتعال ودون

تعب أو مشقة ، أما الاكتساب فهو يحدث بافتعال وبمعاناة وعنت ؛ لأن الذي يصنع المحرَّم يأخذ أكثر من قدرة ذاته ، فيكون قد اكتسب . أما الذي يأخذ الأمر المشروع له فهو قد كسب . ولكن بعض الناس تأخذ ما اكتسبوه باحتيال ومكر ويظنون أنه كسب وهذا هو الشر ، لأنه يأخذ غير المشروع به ويحلله لنفسه ، ويعتبره كسباً لا اكتساباً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

إن « لها » أي لصالح النفس ؛ لأنها أخذت ما هو حق لها . و« عليها » أي ضد النفس ؛ لأنها افتعلت في أخذ ما ليس حقاً لها . ومثال ذلك : نظرة الرجل إلى زوجته ، إنها نظرة طيبة إلى حلال طيب . لكن نظرة الرجل إلى امرأة غريبة قد تحتوي من الافتعال الكثير ؛ فهو يتلصص ليراها ، ولا يرغب في أن يراه أحد وهو يختلس النظر إليها ، وهذه كلها انفعالات مفتعلة .

ومثال آخر : سيدة البيت عندما تدخل إلى مطبخها فتتناول شيئاً لتأكله ، إنما تأكل من حلال مال زوجها ، أما الخادمة فعندما تريد أن تأخذ قطعة من اللحم من المطبخ دون علم أهل البيت فهي تتلصص ، وتحاول معرفة عدد قطع اللحم ، وقد تتساءل بينها وبين نفسها : ألم تقم ربة البيت بحصر عدد قطع اللحم ؟ ولذلك فهي تأخذ من كل قطعة لحم قطعة صغيرة . وهذا افتعال يتعب الجوارح ؛ لأن مثل هذه الأمور تتعب ملكات الإنسان ، لأنه يحاول أن يرضي ملكة واحدة فيتعب كل ملكاته الأخرى .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

إذن فهذه النفس التي تحبس وتسلم نفسها إلى الهلكة والعذاب بسوء كسبها ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، ولا يُقبل منها عدل . وهذه مراحل متعددة تبدأ بقوله الحق : « ليس لها من دون الله ولي » ، والولي هو الذي ينصرك إن كنت في مأزق .

ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذي ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

والمرحلة الثانية « ولا شفيع » أي ليس له من يشفع عند من يملك النصرة وهو الله ؛ فالذي يحبك إن لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند من يستطيع أن ينصرك . وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتذكر ويتعظ ولم يتبع المنهج الإيماني .

والمرحلة الثالثة « وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها » أي أنه لا تقبل منه فدية فهذه المنافذ الثلاثة قد سُدّت ولا سبيل للنجاة لهؤلاء الذين قال فيهم الحق : « أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا » أي أهلكوا أو حُبسوا في الجحيم حبساً لا فكاك منه ، وليس هذا فقط ولكن الحق يقول أيضاً : « لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إن كلمة «شراب» إذا سمعناها مؤسسا نفهم منها الرِّيَ ، ولكن الحق هنا يتبع كلمة «شراب» بتحديد مصدر هذا الشراب ، إنه « من حميم » ليحدث ما يُسمى «انبساط» و«انقباض» ؛ فالشيء الذي يسرّ الإنسان تنبسط له النفس والشيء الذي يحزن الإنسان تنقبض له النفس ولو أن الأمر المحزن جاء بداية في هذا القول الكريم لانقبضت النفس في المصدر الطبيعي ، لكن الحق شاء أن يأتي أولاً بكلمة من يسمعها تُسر نفسه وهي «شراب» ثم تبعها بما يقبض النفس «من حميم» ليكون الألم ألمين : ألم زوال السرور ، وألم مجيء الحزن

ويصور القرآن في موضع آخر هذه الصورة فيقول :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ (سورة الكهف)

وتنبسط النفس حين تسمع الجزء الأول وهو : « وإن يستغيثوا يغاثوا» ولكنها تنقبض فور سماعها «بماء كالمهل يشوي الوجوه»

وصورة أخرى عندما يقول الحق

﴿ ... فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة التوبة)

وتنبسط النفس - كما علمنا - حينما تسمع خبر البشارة ؛ لأن البشارة تأتي للأمر المفرح ، وتنقبض عندما تعلم أن البشارة هي بالعذاب الأليم . إذن فقد جاء الحق بالانبساط ، وجاء بالانقباض - وهذه سنة من سنن الله في التأديب . ومثال على ذلك : عندما يرتكب إنسان مظالم كثيرة ، وتفاقم واستفحل شره ويريد الله أن ينتقم منه ، إنه سبحانه لا ينتقم منه وهو على حاله الطبيعي ، إنما يرفع الحق - سبحانه - هذا الظالم إلى درجات عالية ثم يخسف به الأرض.

ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

وساعة تسمع « فتحنا عليهم » فأنت تخاف ؛ لأن الفتح هنا « عليهم » وليس « لهم » . لكنك ساعة تسمع قوله الحق .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ (سورة الفتح)

فإنك تحس بالانشراح والسرور ؛ لأن الفتح هنا لصالح المتلقي وليس عليه هكذا يريد الحق أن يصلي المتجبرون العذاب المضاعف :

﴿ .. لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

والعذاب هنا نتيجة لما فعلوه وليس فعل جبار متسلط . أما غيرهم من المتساوين معهم في الملكات ، واختاروا الخير فأمنوا بالمنهج وطبقوه على أنفسهم فقد نالوا الخير مما فعلوا ، والتكوين الإنساني في ذاته صالح لعمل الخير ولعمل الشر ، وسنة الحق واضحة جلية .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الزلزلة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذي صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟ وهذا أول منطق في بطلان ألوهية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلا ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاملته الشمس ؟ إنها تشرق لمن عبدها ولمن لم يعبدها . والصنم الذي عبدوه ، ماذا صنع لهم ؟ لا شيء . وهذا الصنم لم يُنزل عقاباً على مَنْ لم يعبده ، بل إن الذي انتفع هو من لم يعبد الأصنام ، لأنه أعمل فكره ليبحث عن خالق لهذا الكون .

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق . « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيبصر ما هو أمامه ، أما من يُرَدُّ على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التي خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذين يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم قد ساروا في طريق الهدى ، وليس من المنطق أن يرتدوا على أعقابهم وأن يصبحوا خاسرين .

« كالذي استهوته الشياطين في الأرض » كلمة « شيطان » مقصود بها عاصي الجن ، والجن جنس مقابل للإنس ، ومادام في الإنس طائعون وعاصون فكذلك في الجن طائعون وعاصون .

والحق قال

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾

(سورة الجن)

إذن فمن الجن من هو مؤمن ، ومن الجن من هو عاص ، والعاصي من الجن يُسمى شيطاناً . وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التي ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقي وفلسفي بين وجود الشيء وبين إدراك وجود الشيء . والذي يتعب الناس أنهم يريدون أن يوحدوا ويربطوا بين وجود شيء وإدراكه . وهناك فرق بين أن يوجد أو يدرك ؛ ذلك أن هناك ما يكون موجوداً ولكنه لا يُدرك .

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

جاءت هذه الصورة في صورة استفهام . إنّ الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكأن الصورة . أن قوماً هداهم الله إلى الحق فدُعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا ما لا ينفع ولا يضر ، فيردوا على أعقابهم ، أي بعد الهداية ، وهذه هي صورة الحيرة والتردد ، لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرة ، ولهذا التردد ، فقال : « كالذي استهوته الشياطين »

و « استهوته » من مادة « استفعل » وتأتي دائماً للطلب ؛ كقولنا « استفهم » أي طلب الفهم ، و « استخرج » أي طلب الإخراج للشيء . « فاستهوته » طلبت هُوِيَّه . أي جعلته يفعل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه فأن صار عجينة تشكله الشياطين كما تشاء ، وترد مادة « الهاء والواو والياء » بمعانٍ ، إن مُدّت ؛ فهي الهواء الذي نتنفسه ، وما به أصل الحياة . وإن قُصِرت ؛ فإنها هي الهوَى وهو ميل النفس إلى شيء ، أو تكون هُوِيًا أي سقوطا

إذن فالمادة تأتي إما للهواء إن كانت ممدودة ، وإن كـانت بالقصر فهي من الهَوَى أو من الهُوِيّ ؛ كأن تقول . « هَوَى، يَهْوِي ، هُوِيّاً » أي سقط من علوٍ إلى أسفل ، وهوِيَ ، يهوَى، هوًى . أي أحبَّ ، وهكذا نعرف أن «استهوته » أي طلبت هويّه أو هواه أي ميل نفسه إلـى اتباع الهوَى ، وحين تستهوي الشياطين الإنسان فهي تريد أن تجتذبه إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى في النفس ، وبذلك تدعـوه ليَهْوِي . والحق يقول :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الحج)

وحين يخرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ، وحين تأتي إلى الهَوَى والهُوِيّ فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يصرعك ، ولذلك لا تسلم منه إلا أن يكون هواك تبعاً لما جاء به الحق ، ولكن إن اتبعت هواك فلا بد أن يؤدي بك إلى الهُوِيّ :

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

وما هي الحَيْرة ؟ هي التردد بين أمر ومقابله . وعرفنا من قبل أن الحَيْرة في هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابه ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛ لذلك يكون حيران . بين هاوية ونجاة ، والشيء الذي يهوي لا استقرار له ، وحين نرى ـ على سبيل المثال ـ حجراً يهـوي للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه صورة معبرة ، ويأتي له القول الفصل :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ (من الآية ٧١ سورة الأنعام)

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى

هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذي يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إنّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته مِمَّن خلقه ، والذي يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت « الهدى » هنا لتعطينا يقيناً إيمانياً في إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا في إله واحد ، لا تختلف أهواؤنا أبداً ؛ لأنه هو الذي يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلٌّ مِنّا خاضعاً لقانونه ، لا يذل أحد منا لأحد آخر ؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة عليَّ . وحين يُريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذِلَّ الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو في الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحقة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويتساند المجتمع ويتعاضد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة المؤمنون »

وبهذا جاء الدين ؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان

ونذكر جميعاً قصة ملكة سبأ وسيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾ ولم تقل أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن تكون قد أسلمت فهي ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتي التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد في أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعا سادة

ويتمثل الهدى في الإيمان بإله واحد ، ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له ؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا .

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢ ﴾

هنا نجد الأمر بثلاثة أشياء . نُسْلِمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونتقيه سبحانه ، لماذا ؟ ؛ لأن كل الأعمال الشرعية التي تصدر من الجوارح لابد أن تكون من ينابيع عقدية في القلب .

وكيف نسلم لرب العالمين ؟ أي نفعل ما يريد وننتهي عما ينهي عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابي ، ونتقي الله أي نتقي الأشياء المحرمة وهو أمر سلبي ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زمامنا له ؛ لتأتي حركتنا في الوجود طبقاً لما رسم لنا في ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وحركتنا في الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقي المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من الينبوع العقدي الذي يمثله قوله : ﴿ لنسلم لرب العالمين ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شيء فهو يعلم أنك صالح للفعل وللترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال « لا تفعل كذا » ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك افعل ؛ لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق في الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرّة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس حراً أن

يهب أو لا يهب ، والأرض فى عناصرها ليست حرّة فى أن تحكمها أو لا تحكمها ، لكن الإنسان يميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ؛ لذلك لا بد أن يكون صالحاً للأمرين ، والخطأ إنما يأتى من أن تنقل مجال « افعل » فى « لا تفعل » . أو مجال «لا تفعل » فى « افعل » . والمؤمن يأخذ منطقية « افعل » فى مجال « الفعل » ، ومنطقية « لا تفعل » فى مجال الترك .

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهى يناسب التكوين البشرى . وأنت تشترك مع الجماد فى أشياء ، ومع النبات فى أشياء ، ومع الحيوان فى أشياء ، وتتفوق على الكل بقدرة الاختيار التى منحك الله إياها .

ولتوضيح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك فى الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك ، فليس لك إرادة أن تقول « لا أريد أن أقع » وهكذا نرى الجمادية فيك ، وانظر إلى « النمو » الذى لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول : «سأنمو اليوم بزيادة فى الطول قدرها نصف المليمتر » بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة النفس التى بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين فى هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار فى التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى فى الأفعال التى تقع من الإنسان لا فى الأفعال التى تقع على الإنسان ؛ لأن الأفعال التى تقع من الإنسان هى التى فيها اختيار ويسبقها العقل أولاً ، ليقدها الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج ؛ لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف ؛ لأنه لم يُمرّ المسألة فى رأسه قبل أن يفعل ، وكذلك من لم ينضج ؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على عمل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان في تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

ويتابع الحق : ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ ولو أن المسألة ـ مسألة الإيمان ـ مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لنتبه إلى أن هناك غاية . واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أو لا ، ذاكر أو لم يذاكر ، ألا يظهر كل ذلك في شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ، لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أي أنك صالح لتفعل أو لا تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح ؛ لأن هناك غاية ؛ إنك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » في مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » في مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب

ثم يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وما دام الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

« من الآية ٤١ من سورة فاطر »

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

« من الآية ٢ من سورة الرعد »

وهنا يقول الحق : ﴿ لخلق السموات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القدير ، إنه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غافر »

وحين ينظر الإنسان في تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

« سورة الذاريات »

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، ولك ستعلم أحوالها تباعاً وأنك ستُهْدَى مع الأيام ، إلى سر جديد في هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم في البحث العلمي وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الأواني المستطرقة التي نضع فيها سائلا يمتد في أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائي ، ويوجد أيضاً استطراق حراري ، ويتمثل الاستطراق الحراري حين نأتي بالمدفأة في الشتاء ونجلس في الغرفة ، ونشعر بالحرارة التي تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهي سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى في البشر جميعا حتى في القطب الشمالي والقطب الجنوبي !! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع

الجو؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك لتتساوى درجات الحرارة؟

إن ذلك يثبت أن لك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذي تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء ٣٧ درجة ، وفي القطبين ٣٧ درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين ٣٧ درجة لانصهرت ؛ لذلك نجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذي تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهي مجموعة في شكل واحد ومع ذلك لا تستطرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار في مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت قد سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادي خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطا بتغليفات متتابعة ليحتفظ بحرارته التي تبلغ أربعين درجة ؛ لأنه لا يؤدي مهمته إلا عند هذه الدرجة . وكذلك نجد أنّ الأذن هي أول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

«من الآية ٧٣ سورة الأنعام»

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾

«سورة يس»

فيامَنْ تريد النظام دليلاً على حكمة الخالق الموجد خذها في النظام الأعلى . ويا من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خذها في الأفراد ؛ لأنه

لو حصل شذوذ في الكون الأعلى لفسدت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل في الكون ، ولذلك نجد الشذوذ إنما يأتي فيما فيه عوض ، والنظام يأتي فيما في تركه فساد . كما يقول سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنعام)

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض وينهي الدنيا ويزيلها ، فتمور السماء، والكواكب تنثر وتتساقط ، فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة ؛ لأنه سبحانه قال في البدء : « كن » فكان الكون ، وفي النهاية يقول : « كن » فيكون إنهاء الخلق ليعطي للمحسن جزاء إحسانه، ويحاسب المسيء ؛ لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولا بد له من ثواب ، والمسيء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهي الحياة لنأتي يوم الحساب لينال كلٌّ جزاءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالحق في الإيجاد والحق في الإعدام، إنّه حاصل في بدء الخلق ، وفي نهايته .

﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنعام)

وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

في هذا المقام علينا أن ننتبه إلى أن فيه مِلْكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه مُلْك ويقال لصاحبه ملك . والملك ما تملكه ؛ فقد تملك جلبابك الذي ترتديه . أما المُلْك فهو أن تملك من يَمْلك ، فهذا اسمه مُلْك ، وربنا سبحانه وتعالى في دنيا الأسباب جعل لكل واحد ما ملكاً ، وجعل لبعض علينا مُلكاً فيتوا ملوكاً ، لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا ، لذلك يقول الحق :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ من سورة غافر)

وفى الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفنى عندك وتعطينى أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لى طعامى أو تعطينى طعاماً ، أو تملك أنك تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحد لأحد شيئاً ؛ لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب.

﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ﴾ ولو سلسلتها قبل أن ينفخ فى الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنها أرض معاد ، لذلك قال:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٤٨ من سورة إبراهيم)

والأرض التى نحيا عليها مخلوقة لنستثمرها ، ونحرث جزءاً منها لنزرعه . ونبنى بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسبابا يتراقى بعضها مع بعض ، فأنا لا أستطيع أن أحرث إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب فى استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب فى استخراج البترول يأتى بالآلات التى تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد فى يده زاوية واحدة ، وباقى الزوايا فى أيدى بقية الخلق.

وحين تسلسل الأسباب التى نحيا بها سترجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهى يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائما ، وإياك أن تترك الأسباب ولكن سلسل الأسباب إلى أن تنتهى إلى الله.

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق ، فالطفل الصغير يرقب ظاهرة فى البيت ، هى زر فى الحائط ، عندما يضغطون عليه بأصبع واحدة يضىء المصباح ، فيقلدهم ، وحين يراه أخوه الذى يدرس الإعدادية يقول له :

لا تصدق أن الضوء يأتى من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعهما من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذى فى موقع ما من المدينة ، وقد صنعته المعامل والعقول حتى ينتهى الشرح فيصل إلى فكرة التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلا .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات عيبة لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد احترم دنيانا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مَلِك : إن هذا المُلك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلك أبداً . وسبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾

«من الآية ٢٦ من سورة آل عمران»

إذن فليس هناك من له المُلك بذاته إلا الله

والحق يقول هنا :

﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

«من الآية ٧٣ من سورة الأنعام»

ينفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حيًّا ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون

وكلمة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم المشهود وهذا تعبير دقيق ، وإنّه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذى يضع كل أمر فى مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شىء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ، لأن من يظلم إنما يريد أن ينتفع بالشىء الموجود لدى المظلوم ،

وربنا لا يتمتع بحاجة من هذه ، بل ينفعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزة ، وأنت تجد الناس تكره كلمة « عبودية » ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ؛ لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزة ، أما العبودية للبشر فهي ذلة

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

« من الآية ١ من سورة الإسراء »

فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد من عباده حبيبه : فأنا لا تأخذني سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن احتجت مني إلى شيء ما فادعني وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل في هذه العبودية لله شيء غير العزة ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطي له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبره على متاعب الدعوة ؛ لأن الدعوة للإسلام في أوله أوهنت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مثلاً حدثت للرسل ، وهنا يأتي الحق بخبر عن أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنعام)

وساعة أن تسمع « إذ » فافهم أن « إذ » ظرف ، أي واذكر جيداً الوقت الذي قال فيه إبراهيم لأبيه آزر « أتتخذ أصناماً آلهة » ؟ وما دمت تذكر هذه ، ففي التذكرة تسلية لك عما يصيبك في أمر الدعوة . وهنا وقف العلماء وقفة طويلة ، وتساءل بعضهم : هل آزر هو أبو إبراهيم ، أو أن والده هو تارخ ؟

وقلت من قبل : إن الأبوة تمثل ما هو أصل للفرد ؛ فالأب ، والجد ، وجد الجد أب ، وأطلقت الأبوة على المساوي للأب ، مثل العم . وجاء مثل هذا في القرآن حين قال الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ ﴾

(من الآية ١٣٣ من سورة البقرة)

وآباء هنا جمع، وإذا ما عددنا هؤلاء الآباء لوجدناهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، والكلام من يعقوب، وأبوه إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم، وبرغم ذلك جاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء ، فكأنك إن وزعتها قلت : « إبراهيم أب ، وبقى اثنان : هما إسماعيل وإسحاق . وإسماعيل هو أخ لإسحاق . كأن القرآن نطق بأن العم يطلق عليه أب » .

وأقول ذلك لأصفي مسألة وقع فيها اللغط الكثير ؛ فالبعض من العلماء قال : هل كان آزر أبا لإبراهيم ؛ والحديث الشريف يقول :

« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء »[1].

(١) رواه ابن عدي في الكامل، ورواه الطبراني في الأوسط عن علي رضي الله عنه

فكان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه من سلسلة نسب مُوَحّد لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال ، وآزر كان مشركاً ، وما دام الحق يقول في آية أخرى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ . فلو أن آزر الوالد الحقيقي لإبراهيم لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذريته وآزر أبه عمّه ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » ، وهو قول يدل على أن نسبه الشريف مطهر من الشرك من جهة الآباء ومن جهة الأمهات . إذن فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر ، لأنه كان على هذا الوضع مشرك ، لكن كيف نفسر قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ ؟

نقول : إننا نأخذ اللغة ، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة . والقرآن صريح في أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه تطلق كذلك على أخي الوالد أو عمه . والدليل على ذلك أن القرآن الذي قال « لأبيه آزر » هو بعينه القرآن الذي قال .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾

(من الآية ١٣٣ من سورة البقرة)

إذن آباء هي جمع أب ، وأقل الجمع ثلاثة . إبراهيم إذن وكذلك العم إسماعيل يطلق على كل منهما أب ، وأيضا إسحاق وهو والد يعقوب ، هؤلاء هم الآباء المذكورون في هذه الآية .

ونفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هي أبوة عمومة ؛ لأن يعقوب بن إسحاق ، وإسحاق أخو إسماعيل . إذن فقد أطلق الأب وأريد به العم ، ويدلنا الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حينما أُخِذَ عمه العباس أسيراً فقال : ردوا عليّ أبي ؛ وأراد عمّه العباس

وبعد ذلك نأتي لنقول - إننا حين نطلق كلمة الأب في أعرافنا نعلم أن اللغة التي نتكلمها لغة منقولة بالسماع ، مركوزة في آذاننا ، ينطق بها لساننا ، والعامية وإن كانت

بحرف الفصيح إلا أن أصولها منقولة عن أسلافنا وآبائنا ، وهم حين يريدون الأب الحقيقي يقولون له أب ولا يأتون باسمه الشخصي ، فإذا جاء لك إنسان وقال لك : أبوك موجود ؟ . ولم ينطق باسم الوالد فهو يقصد والدك فعلاً . لكن افرض أن لك عماً ، فيقول لك السائل : أبوك محمد موجود ؟

لقد جاء هنا بتحديد الاسم العلم حتى ينصرف الذهن إلى السؤال عن العم ؛ لأنه لو أراد الأب الحقيقي لما ذكر اسمه واكتفى بالسؤال عنه بالأبوة فقط ، إذن فلو قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ . ولم يحدد العلم لقلنا إن آزر هو والد إبراهيم وليس عمه وبذلك يكون هو جد رسولنا ، ولكن القرآن حدد الاسم وقال : «لأبيه آزر» أي ميّز اسم الشخص ليخرج الأب الحقيقي من كلمة أب، وبذلك تنتهي الخلافية في هذه المسألة .

ولماذا يطلب الحق سبحانه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ ؟ لأن رسول الله جاء على فترة من الرسل وجاء في الأزمة التي واجهت الدعوة أول مواجهة وهي أمة العرب وعلى رأسها قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم إن كان قد جاء على فترة من الرسل ، إلا أن إبراهيم يعيش في عقائد هؤلاء القوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النسكية كانت في هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا في هذا المكان ، ورفعه للكعبة كان في هذا المكان ، والكعبة هي مركز السيادة لقريش ، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل .

لقد أراد الحق أن يوضح لقريش أن السيادة التي أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة ، لكنتم قبيلة من القبائل ، لا مهابة لكم ولا سلطان ، ولا جاه ، ولكنكم تعلمون أن تجارتكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ، ولا يتعرض لها أحد بسوء أبداً ؛ لأن الذين يتعرضون لكم سواء منهم من كان في الشمال أو في الجنوب سيأتون في يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسك الحج وستتمكنون منهم في أثناء وجودهم في البيت . ولذلك قلنا حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾

« سورة الفيل »

إن الحق أتبعها بالقول :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ ﴾

« سورة قريش »

إذن لو أن البيت تعرض للهدم من أبرهة الحبشي لسقطت مهابة قريش ، وقد نصرهم الله لتظل لقريش رحلة الشتاء والصيف ، ولذلك قال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝ ﴾

« سورة قريش »

إن رب هذا البيت هو الذي أعزهم وحماهم بوجود هذا البيت الذي رفعه إبراهيم

إذن فالقوم وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أن لهم صلة عقدية بإبراهيم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يدخل إلى قلوبهم بالحنان الذي يعرفونه لإبراهيم الذي هو سبب هذا العزّ وسبب هذا الجاه والسيادة وأيضاً لأن المواجهة العقدية إنما جاءت أولاً لعبادة الأصنام ، والمسألة في سيدنا إبراهيم كانت كذلك في عبادة الأصنام ، فهناك ـ إذن ـ ارتباطات متعددة فأتى الحق هنا بقصة سيدنا إبراهيم ليرقق بها قلب هؤلاء .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ والأصنام هي شيء من الحجارة يصنع على مثال حي ، أما الوثن فهو قطعة من حجر خام لم يشكل أو يعالج أو يصنع كانوا يقدسونه ، وهكذا نعرف الفارق بين الصنم والوثن ، وكيف دخلت فكرة الأصنام على عقول الناس ؟ ومن أين جاءت ؟ .

نعلم أن الناس لهم أسباب مباشرة في الحياة ، فالإنسان حين يطلب الضوء يرى الشمس قد أشرقت ، وفي الليل يرى القمر قد طلع ، ويرى الجبال تعطي له الصلابة والقوة ، ويقيم فيها بيوتاً .

إذن ففيه أشياء يرى الإنسان فيها السببية الظاهرة ، فيعتقد أنها الفاعلة . وحين يرى هذه الأشياء ويظن أنها الفاعلة يظن أن لها قداسة سواء أكانت الشمس أم القمر . إذن فقبل أن توجد أصنام وجدت كواكب وكانوا يعبدونها . بدليل أن الحق يقول :

﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ... (٧٤) ﴾ (سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتي في النقاش ولا يأتي سيرة الأصنام

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ... (٧٦) ﴾ (سورة الأنعام)

إذن فقد كانت هناك علاقة بين الأصنام وبين الكواكب ، والأصل فيها أن الإنسان حينما يرى شيئاً بنعمة ، ينسب إليه كل نفع يحصل عليه ويرى له قوة يحترمها فيه ، ولم يتنبه الإنسان إلى أن خالق هذه الأشياء غيب ، فعَبَدَ الشيء الظاهر له ، وعندما وجد الإنسان أن الكواكب تأفل وتغيب قال بعض الناس : لنقيم أصناماً تذكرنا بها ، وصار هناك صنم يمثل الشمس ، وصنم يمثل القمر ، وآخر يمثل النجم الفلاني ، أي أن الأصنام إنما جعلت لتذكر بالأصل من الكواكب ، ولذلك أقول دائماً : يجب على الناس ألا تغفل عن المسبب لأنه سبحانه - هو وراء الأسباب ، وكلما ارتقى العقل يتسلسل الأسباب ، إلى أن تنتهي إلى مسبب ليس وراءه سبب ، وإذ انتهت يد المخلوق وعجزت في الأسباب تبدأ يد الخالق ، فالذين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها .

ولذلك حينما أغفلت وسترت قضية الدين في أذهان الناس بدأوا ينظرون إلى ما حولهم وما ينفعهم ، فتوجهوا بالعبادة له ، وكانوا قبل الرسالة يحجون إلى الكعبة ويحبون الكعبة ، وحين يغتربون في كثير من الرحلات يأخذون قطعة من حجر من نوعية أحجار الكعبة في الرحلة الطويلة ، وحين يراها أحد من هؤلاء يطمئن ، ولكن بطول الزمن انفردت هذه الأشياء بتقديس خاص يعزلها عن الأسباب

وهكذا عرفنا أن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن كانت له عند العرب هذه المكانة ،

وكذلك عند أهل الكتاب حتى أنهم ادعوا انتسابه لهم فبعضهم قال : إن إبراهيم كان يهودياً ، وقال الآخرون : إنه كان نصرانياً ، وجاء القرآن وهو يواجه كفار قريش ، وكذلك أهل الكتاب فيأتي الله بقصة سيدنا إبراهيم ليعطينا قضية العقائد ويوضحها توضيحاً يؤنسهم بمن له في نفوسهم ذكر

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ ﴾

« الآية ٧٤ سورة الأنعام »

والضلال أن تريد غاية فتضل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم غاية في ذلك الزمان أن يقدسوا ، ويعبدوا من ينعم عليهم بالنعم . إلا أنهم أخطأوا الطريق ، ووقفوا عند السبب ، ولم يتذكروا ولم يتدبروا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضلوا الطريق ، لأنهم ساروا في النعمة في حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبب . وهذا ضلال مبين لأنه فتنة خلق في خلق ؛ فالإنسان الأول الذي جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض وأقبل على شمس ، وأقبل على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحاب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمده بالأقوات كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة ، لأنه لم يصنعها ولا ادعى أحد أنه صنعها ، أما كان من الواجب أن يفكر تفكيراً يسيرا فيمن خلق له هذه الأشياء ؟ !

إن أتفه الأشياء تحتاج إلى صانع ، مثال ذلك الكوب الذي نشرب فيه الماء لا يكون كوباً أمام أي واحد منا إلا بعد أن انتقل وتقلب في مراحل متعددة ممن اكتشف المادة وممن صهرها كيماوياً وممن أنفق عليها إلى أن وصل إلى الكوب ، وكذلك المصباح ، إن نظرنا إلى الأجهزة التي خلقته وأسهمت في إيجاده لوجدناها أجهزة كثيرة من إمكانات مالية إلى قدرات علمية ، من ماديات موجودة في الأرض إلى أن وصل إلى هذا المصباح الذي يتغير كل فترة ، فما بالنا بالشمس التي تنير نصف الكون في

وقت ، ونصف الكون الآخر في وقت آخر وليس لها قطع غيار ، ولم تقصر يوماً في أداء مهمتها .

وكثيراً ما درسنا في المدارس قصة من اخترع المصباح « أديسون » وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا - بإعجاب وإيمان - دقة الشمس التي تنير الكون ، فالآفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من عمق الفهم لابد أن نسلسل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب . وأن نرهف آذاننا لمن يأتي ليحل لنا هذا اللغز ويقول لنا . لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له في قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة ليتقذونا ويبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذي خلقت السموات ، وأنا الذي خلقت الأرض ، وأنا الذي سخرت لك كل ما في الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حقيقية فتعلن الإيمان به سبحانه ، وإما غير حقيقية ، فنسأل : من خلق الكون - إذن - غير الله ؟ . ولماذا لم يقل لنا صفاته ، ولم يرسل لنا بلاغاً عنه ؟ . ولأن أحداً لم يعمل ذلك إذن فالألوهية تثبت لمن أبلغنا عن ذاته وصفاته وصنعته عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فنحن نصدق هذا البلاغ

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا نقع في ضلال مبين ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن ننتهي إلى شيء لا شيء بعده ننتهي إلى مسبب الأسباب ومالك الملك - جلت قدرته

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

أي كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً حقاً ، فالإله الحق يبين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المبالغة في الملك ، مثلها مثل « رحموت » وهي صيغة مبالغة من الرحمة ، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذي يمشي وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك ؛ لأن ما يشهده ويحسّه هو أمامه ، والملكوت هو ما يغيب عنه ، إذن فيه « ملك » ، وفيه « ملكوت » ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، والملكوت هو ما وراء هذا الملك

والمثال هو ما قاله سيدنا إبراهيم حينما تكلم عن الشركاء لله قال سبحانه

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

ولنلحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ ولم يقل « الذي هو خلقني » ، ثم قال ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ لأن أحداً لم يدّع أبداً خلق الإنسان ، وهي قضية مسلمة لله ولا تحتاج إلى تأكيد . أما هداية الناس فهناك من يدعي أنه يهدي الناس . وما يُدّعى من البشر يؤكد بـ « هو » وما لا يُدّعى من البشر كالخلق والإماتة والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو

ويتابع سيدنا إبراهيم : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ وهنا تعبر سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وعرف الغيب ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء الصالحون والشافي الأعظم وهو الله - تبارك وتعالى - لأن الناس قد تفتن بالأسباب وتقول : إن الطبيب هو من

يشفى ، ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى تعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشفى ، بدليل أننا كثيراً ما رأينا من يذهب لطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يصير الطبيب فى مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطبيب وطبه
ويرى المريض مصارع الآسين

إذن ، ﴿ فهو يشفين ﴾ أى أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب

وبذلك جاء سيدنا إبراهيم بالأشياء التى يمكن أن يظن الإنسان فى أسبابها وأكدها بـ « هو » .

وحين ننظر إلى إبراهيم عليه السلام فى قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً يعترف به جميع الأنبياء ؛ لأن ربنا قال فيه : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾

وكذلك قال سبحانه .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

«من الآية ١٢٤ من سورة البقرة»

أى إنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وبظاهر الملك . سأل الله أن تكون الإمامة فى ذريته ، وقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ .

أى اجعل من ذريتى أئمة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

«من الآية ١٢٤ من سورة البقرة»

لأن مسألة الإمامة ليست وراثة دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . وقلنا : إن سيدنا إبراهيم جاء بهاجر وابنه إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، ويقول القرآن على لسانه :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

«سورة إبراهيم»

أى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعى مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت، وظل فى ذهن سيدنا إبراهيم، أن الحق سبحانه ـ لا يعطى الإمامة من ظلم ثم أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة، وعطاء الربوبية فى الطعام. ويتمثل ذلك فى دعاء سيدنا إبراهيم:

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

«من الآية ١٢٦ من سورة البقرة»

فكان إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق فى دعائه بين عهد النبوة والإمامة، ومطلوبات الحياة، فيقول له الحق: ﴿ومن كفر ...﴾

أى أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من عطاءات الربوبية. أما المناهج فهى من عطاءات الألوهية، والله سبحانه وتعالى رب لجميع الناس؛ لأنه هو الذى استدعاهم جميعاً. المؤمن والكافر، والطائع والعاصى، وما دام هو الذى استدعاهم إلى الوجود فهو لا يمنعهم الرزق.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

«سورة الأنعام»

وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يرتبط ويتعلق بذات الحق سبحانه وتعالى، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات، والارتباط والتعلق بالصفات؛ والذى يعبد الله لأنه رزاق، ولأنه مُغنٍ هو مَن يرتبط بالصفات. أما من يرتبط بالله لأنه إله فقط وإن أفقره فهو من يرتبط بالذات، وحين صفى سيدنا إبراهيم نفسه من كل

العقائد السابقة أوضح به الحق : أنت مأمون على أسرار كونى ، وأعطاه الحق الكثير كما يعطى لكل من يخلص فى الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المَثَل فى القرآن فيقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

أى أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتعبده، فإن الحق يحتبرك أميناً على أسراره، ويعطيك المزيد من الزيادة .

ومعنى « تتقى » أى أن تلتحم بمنهج الحق ، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت فى الفيوضات الدائمة التى لا تنقضى من الحق ؛ لأن الذى فى معيته لابد أن يخلع الحق عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجلى صلته بربه ويطمئنه عليه . ومثال ذلك ما حدث فى « قصة الهجرة » ، تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر فى الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، وهذه قضية كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما ينقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخالص ، ويقول : (يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1]) .

أى أنه يقول له : اطمئن ، لن يرانا أحد ؛ لأننا فى معية الله ، وسبحانه لا تدركه الأبصار . وحين يكون الضعيف فى معية القوى فقانون القوى هو الذى يعمل ، فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأعمال الذين فى مثل سنه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذونه ، ثم يرونه فى يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتى إلى ناحيته ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله ، ومن فى معية الله لا يجترىء عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت ، ويمثلها فى رسول من أولى العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئاً من علمه وبعضه لأنه اتقاه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

« سورة الكهف »

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذى جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فاتصل بالحق فأعطاه الحق من لدنه علماً . وحين ننظر فى هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى - ينظر فى عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لدنه رحمة ومن عنده علما ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور ؛ لأنه ينظر فى دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر فى دائرة ثانية ، ولذلك سيقول العبد الصالح . ﴿ وما فعلته عن أمرى ﴾ .

أى أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ . أى أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فيقول القرآن على لسان موسى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فها هو ذا الرسول الذى جاء ليبلغ المنهج يطيع عبداً صالحا طبق المنهج من رسول سابق ونفذه كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولى العزم ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

لماذا ؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الملك ، وهو يتكلم من عالم الملكوت .

وحين ركبا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهرى فى عالم المُلْك . يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إخلال بالقانون ، وكيف يعتدى على السفينة بالإفساد ؟ فيرد العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، وليست لك طاقة على مثل هذه المسائل ، فيتذكر موسى ، ثم تأتى حكاية الغلام ، وحكاية الجدار .

وحين ندقق النظر فى هذه الأمور تجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشائقة فى عالم الملك ، فخرق السفينة إفساد ظاهرى لكن إذا علم موسى أن هناك مَلِكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة ويستولى عليها غصبا وهذه السفينة لمساكين يعملون فى البحر ، ويريد العبد الصالح أن يحافظ لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المغتصب ، وحين يقارن الملك المغتصب بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .

إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذى كان يقوم بخرق السفينة ؟ إنه كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما فى نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو الفعل نفسه وحين نأتى لقتل الغلام ، لابد من التساؤل : وما ذنب الغلام ؟ فيفسر العبد الصالح الأمر :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

والأبوان قد يدللان هذا الابن ، ويطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام ليظلا على الإيمان ، وعجلّ ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة

وفى مسألة الجدار تجد الخلاف بين رؤية عالم المُلْك ، ورؤية عالم الملكوت . ففى ظاهر الأمر أنهما حين أتيا أهل القرية طلباً لطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق

على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود ، فقد يطلب أحد النقود ليدخرها ، لكن من يقول : « أعطنى رغيفاً لآكل ، فهذه آية صدق الضرورة فى طلب الطعام . ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما ، إذن هم لئام لا كرام . ويرى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وآيلاً للسقوط فأقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب غضبه أنه والعبد الصالح استطعما هؤلاء فلم يطعموهما ، فكيف تبنى جداراً لهم ؟ ! وكان يصح أن تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهر ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة .

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لئام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكنز تحته أمام لئام بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطفال ، وقد بناه العبد الصالح بهندسة إيمانية ألهمه الله بها بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار . أى أنه بناء موقوت ، مثلما تضبط المنبه على وقت محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار ويأخذان الكنز .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم المُلْك ، وبين عالم الملكوت ؛ فعالم الملكوت هو الذى يغيب عنا وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر ، إلى أن ينتهى إلى مسبب ليس بعده سبب .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾

« سورة الأنعام »

فهل تيقن أو لم يتيقن ؟ .

و« موقنين » جمع « موقن » والجمع أقله ثلاثة ، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل : يقين بعلم من تثق فيه لأنه لا يكذب ؛ ويقين بعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المُخْبَر به . وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى سورة التكاثر قال :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾

« سورة التكاثر »

إذاً أخبرتكم فهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾

« سورة التكاثر »

لأننا سوف نرى النار في الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين في سورة الواقعة :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾

« سورة الواقعة »

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقاً من الموقنين في كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء ، وعواقبها ؛ فمثلا عندما أخذ ليطرح في النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة ؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر المُلك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذى خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفىء الله النار بظاهر الأسباب ولكن جعلها الله تأبى لإعلاق خصومه ، فأوضح الحق : يانار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقى .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ ﴾

« سورة الأنبياء »

إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء المُلك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى في حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سأله قبل أن

يلقون به في النار. ألك حاجة؟ فيقول إبراهيم: أمّا إليك فلا.

ثم يأتي له الابتلاء في آخر حياته بذبح ولده. ونعلم أن الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيه، وأحياناً تكون الذات هي المسيطرة، وفي طور آخر تبقى ذاتية لأولاده فوق ذاتيته، أي أنه يحب أولاده أكثر من نفسه. يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً. فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه. إنه ابتلاء شديد قاس، وهو ابتلاء لا يأتي بواسطة وحي بل بواسطة رؤيا. وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق. لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه، ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه قضاء ربه في أي شيء؛ في مرض، في مصيبة، في مال، أو غير ذلك فاعلم أنه لم يرض بما وقع له، ولو أنه رضي لانتهى القضاء. فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به، ولا يستطيع أحد أن يلوي يد خالقه. إذن فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء.

ولذلك عرف سيدنا إبراهيم هذه القضية. قضية مهمة لعالم الملكوت. عندما قيل له: «اذبح ابنك» لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه؛ لأنه إن أخذه من يده وفي اليد الأخرى السكين فلابد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط، فيحرم من الجزاء، فبيّن له المسألة. ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾

(من الآية ١٠٢ من سورة الصافات)

وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده، فماذا قال إسماعيل؟

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

(من الآية ١٠٢ من سورة الصافات)

قال إسماعيل ذلك ليأخذ عبودية الطاعة. ويؤكد القرآن رضاء إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول:

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

« سورة الصافات »

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها :

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

« سورة الصافات »

ويفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر ؛ لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فإذا ما أصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : مادامت هذه المصيبة لا دخل لحركتى فيها ، وأجراها عليّ خالقى فهى اختيار منه ـ سبحانه ـ ولا يوجد خالق يفسد ما خلق ، ولا صانع يفسد ما صنع ، ولابد أن لذلك حكمة عنده لا أفهمها أنا ، لكنى واثق فى حكمته .

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فتنتهى . ومن تحدث به مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأت من فى مثل سنّه فسيظل باب الحزن مفتوحا ، وإن أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا . وليعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب من حُرم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

و« جن » تفيد الستر والتغطية ، ومنها « الجنون » أي ستر العقل ، و« جن الليل » أي أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . و« الجنّة » كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التي تستر من يمشي فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

وكلمة « كوكب » تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان في ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أي انتقل من بزوغ وطلوع إلى أفول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، فجاء لهم إبراهيم من جنس ما يعبدون ، وقال : « لا أحب الآفلين » .

ويتابع الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربي ، ووقف العلماء هنا وتساءلوا . كيف يقول إبراهيم هذا ربي ، وهي جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجري إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً ، لأن الذي نقل عن إبراهيم قال : هذا ربي ، هو الذي قال في إبراهيم :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

« من الآية ١٢٤ سورة البقرة »

إذن فقوله ﴿ هذا ربي ﴾ لا تخدش في وفائه الإيماني ، ولابد أن لها وجهاً . ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم

السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استخدم ما يسمى في الجدل ـ « مجاراة الخصم » ؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

مثال ذلك في حياتنا ، تجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير جداً ، بينما البنت ـ ما شاء الله ـ طويلة ، وحين جاء الخطيب ليراها ونراه تقول لأمها : هذا خطيبي ؟ ! وهذا القول يعني أنها تنكر أن يكون هذا القصير عنها هو خطيبها ، وحين قال إبراهيم : ﴿ هذا ربي ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هي الرب .

ويلاحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب ، فقال : ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ ، وفي هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ، ويكون قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ لونا من التهكم ؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ .

فكأنه قال . سلمت جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ يعني أنه غير متعصب ضدهم .

وكذلك حين يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وهكذا يثبت له أن كل كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى الأفول ، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدم المنطق الذي يحقق نيته في

أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به آذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نجد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قال الحق :

﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾

«من الآية ١٠٦ سورة النحل»

وقد جاءت بعد قوله سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَـٰنِ ﴾

«من الآية ١٠٦ سورة النحل»

فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لينجي حياته وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : ﴿ هذا ربي ﴾ بما تحتمل من أساليب حتى ينجي أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام ؟ .

إذن فقول إبراهيم ﴿ هذا ربي ﴾ يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى بنفسه عن نفسه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾

«من الآية ٤٧ من سورة فصلت»

وسبحانه يعلم أنه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم من زعم المشركين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادى فى بعض القوم : « يا إله الآلهة » لأنه يعلم أن قوماً قد ألهوا ظواهر طبيعية فى الكون لما يرون من الخير فيها ، فأراد أن ينبههم إلى أن هناك إلهاً حقًا .

ويوضح القرآن عدم جدوى الشرك حين يقول :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

«من الآية ٩١ سورة المؤمنون»

ويقول سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾

« سورة الإسراء »

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذي كان يعتز بجاهه في دنياه :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) ﴾

« سورة الدخان »

فهل هذا القول اعتراف بأن الكافر عزيز كريم أو هو قول تهكمي ؟ إنه تهكم ؛ لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر في الجحيم .

وكان المنطق في اللغة أن يقول : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذه ربي » ؛ لأن الشمس مؤنثة ، ولكنه قال : ﴿ هذا ربي ﴾ كما قال في القمر وفي غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أو بحالة واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيهاً مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هي مؤنث مجازي ، ولذلك يفطن العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : « فلان عليم » ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

« من الآية ٧٦ من سورة يوسف »

وإذا كان العالم متمكناً من علمه بشكل غير مسبوق نقول عنه : « علّام » . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول :

﴿ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

« من الآية ١١٦ من سورة المائدة »

ولم يقل العلماء في وصف الله علامة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ احترازًا من أن تلحق علامة التأنيث صفة من صفات الله -عز وجل- .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم :

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

«من الآية ٧٨ سورة الأنعام»

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التي قالها ، وحين يسمعها أي عاقل فلابد أن يعلن اتباعه في هذا الأمر ، ولذلك قال : «إني بريء مما تشركون» . ولأنه كإنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالي لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، والتحلية تعني أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل في العمل المصلح .. العمل الإيجابي .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

والسموات والأرض هما المظهر الأول للكون الذي طرأ عليه الإنسان ، لأن الكون طرأ عليه الإنسان - الخليفة في الأرض - ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إني خلقتكم فقط ، بل خلقت لكم الكون .

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾

«من الآية ٥٧ من سورة غافر»

ويقدم سيدنا إبراهيم برهانه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذي خلق السموات والأرض ، رافضاً كل فساد في الكون ، ويتمثل هذا في قوله ﴿ حنيفاً ﴾ ، و « الحنف » في اللغة هو ميل في القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعني أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود في الكون ؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يعلم الفساد في الأرض ، وحين يأتي الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً ؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وحاجّه أي حاججه بإدغام الجيمين في بعضهما . أي أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت في نقاش وكل واحد يدلي بحجته ، فهذا اسمه الحِجاج ، أو الجدل المبطل ، أي أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنعام)

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاراة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن ؟ . كان الغرض من الحِجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذي ارتآه في قوله سبحانه :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويرد عليهم :

﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

أي أن مسألة الإيمان قد حُسمت فقد آمن إبراهيم بالله ويعلن لقوم : «ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً»، وهذا القول يدل على أنهم قد هددوه ؛ لأن كلمة «الخوف» جاءت ونفاها عن نفسه . ويعللها إبراهيم قوية : «ولا أخاف ما تشركون به» أي لا أخاف من الكواكب التي تأفل سواء أكانت نجماً أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التي يعبدونها فليس لها نفع ولا ضر ، والضر والنفع هما من صنع الله فقط .

ولذلك تتجلى الدقة في الأداء القدسي فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

فإن شاء الحق أن يُنزل على عبد كوكباً يصدمه أو يحرقه فهذا موضوع آخر لا دخل لمن يعبد الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضا ؛ لأن النافع والضار هو الله ، فحين يشاء الله الضر ، يأتي الضر ، وحين يشاء النفع يأتي النفع .

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

أي اذكروا جيداً ، وافرقوا بين فعل يقع من فاعل ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير تلك الآلة ، فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فليست الصخرة هي التي صنعت وقوعها ، ولا الكوكب هو الذي أسقط نفسه ، إنما الفاعل هو الله :

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

وقوله ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطرى طبيعى ؛ لأن الإنسان الخليفة فى الأرض هو الذى تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا ؛ فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوى ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهج لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المناهج تنطمس ؛ لأن المناهج تتدخل فى أهواء الناس وتنهيهم عن شهواتهم وتصدهم عن المفاسد فيعرضون عنها أو يتجاهلونها ، إذن فهى عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلى الذى أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلنها إبراهيم :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . و « كيف » هنا تأتى للتعجب ؛ لأن المنطق أن نخاف من الله وحده الذى يضر وينفع . وحين تدور مجادلة تستيقظ فى كل طرف ذاتية المجادل ، وهناك من يستنكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بدون استعلاء لا يعطى الحكم بما يحرك الذاتية فى الخصم المجادل ؛ لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ بل قال : « فأى الفريقين أحق بالأمن » ، مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة سبأ)

وهذا منتهى الحيدة في الجدل، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال. وهذا هو الجدل الارتقائي، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه:

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾

(سورة سبأ)

هل يفعل الرسول جرائم؟ حاشا لله أن يفعل ذلك فهو المعصوم.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم: اسألوا عني إن كنت أجرمت؛ ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم: «ولا نسأل عما تجرمون» بل قال: «ولا نسأل عما تعملون». فلم يأت بمسألة الإجرام بالنسبة لهم؛ وجاء بها بالنسبة له، لأنه واثق أنهم إن أعادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فسينتهون إلى الإيمان بمنهجه. وهذا منتهى اللطف في الجدل.

ويتجلى اللطف في الجدل في قوله الحق:

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٨١ سورة الأنعام)

والعِلْمُ هو أن تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أن تدلل عليها، وإن اختل شرط فيها فهذا خروج عن العلم، ومثال ذلك ألفاظ اللغة؛ كل لفظ وضع لمعنى، وساعة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى؛ فحين أقول: الشمس تتصور أنت الشمس في ذهنك، وكذلك الأرض والماء والجبل. فأنت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة، وتعلم أن هناك فرقاً بين معنى اللفظ مفرداً، وما يعطيه ويفيده اللفظ إذا جاء في نسبة.

فإذا جاء اللفظ في نسبة فلابد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشيء ، ولكننا قبل أن نأتي بالقضايا النسبية لابد أن يكون للفظ معنى في ذاته ، وهذه اسمها معاني اللغة ، وتضم من خلالها لفظ إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن تعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهي ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أي أمر منسوب إلى أمر .

والعلم - كما قلنا - هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد في قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أو لا ؟ وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشيء متيقناً وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمى بالوهم ، وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : « إن كنتم تعلمون » أي تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم ؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين في « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم

إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، فأوضح لهم ﷺ مُضمِّناً : إن ذلك الظلم هو الذي قال الله فيه :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ (سورة لقمان)

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، أو لا أمر لأحد فى خلق الله إلا لله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هى دائرة الإيمان العقدية

ويقول الحق : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فكأن هذه المسألة هى منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصَّل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...(٣) ﴾ (سورة العصر)

والعطف فى قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يقتضى المغايرة ، فالإيمان شىء وعمل الصالحات شىء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينوعى فى القلب ، ولكن العمل نتشىء عن الالتزام الذى شرعه الإيمان عنه ، وعلى المؤمن أن ينتبه إلى أن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله ، لا ندّ له ولا شريك معه ، فإن وجدت صفة فى الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة فى الله فى دائرة «ليس كمثله شىء» . فلا قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شىء من ذلك فى اليقين فهذا ظلم واقع فى الإيمان .

فمثلاً . أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أى فعل لا بد أن يمر على بالك سببه دهنة ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المترط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذى لا يمر ببالك

فلست مسئولا عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر في الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزي لحفظ الإنسان فيحد رجله ، وهو لا يستطيع في هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]
« حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)[2]
« حديث شريف »

و « ذي بال » أي كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لابد أن تضعوا هذا الأمر في بالكم لأن الفعل الذي لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك - بدون أمر - أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شيء في قصبته الهوائية غير الهواء ؛ تجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشيء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذي تمر ببالك نسبته اللحظية ثم يمر بالعمل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمّي الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك في ذلك شيء ؟ . إنه ليس لك إلا تجميع فعل ؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التي وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة في الأرض لتغذي النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة في البذرة لتمتص شيئاً يغذي جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شيء أبداً . ولكن الله احترم عملك فقط فقال سبحانه :

---

(١) رواه عبدالقادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة .
(٢) رواه ابن ماجة والبيهقي في السنن عن أبي هريرة .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ثم قال سبحانه :

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أي شيء ذي بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس في قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أي شيء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ونحن في قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضي ليحكم بين الناس حُكماً ومعك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم القانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذي أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هي القدرة التي جعلتك تحكم على الأشياء لتعمل لك ؟ لابد أن تقول إذن : بسم الله الذي سخر لي هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون معتانا ومختلقا ومدعيًا أمراً لا تستطيعه ؛ لأنه ليس في سلطتك ولا في قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتعمل لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبَّس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندي » بل اذكر وقل : ﴿ ما شاء الله ﴾ ؛ لأنك إن قلت : « أوتيته على علم » فالحق قد قال في شأن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

« من الآية ٨١ من سورة القصص »

أين ذهب علم قارون الذي جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن احتل شيء فيك من هذه المسألة

فاعلم أنك لُبِّست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يطلب منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذي تعمله مبتدئاً بـ﴿ بسم الله ﴾ إلا ما يحثك على طاعته ، ويحثك على بر ، ويحثك على خير ، ولا تصرفه إلا في عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء في كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ؛ إنك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إذن « أولئك لهم الأمن » أي الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نكون دائماً بمنهجه ؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحماته وتجلياته لا تنقطع عن خلقه أبداً ؛ لأنه قيوم أي إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه بالتقدير وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكن دائما في صحبة القيوم ؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته . فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دفّ[1] نعليك بين يديّ في الجنة . قال : ما عملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي)[2] .

ويقول - صلى الله عليه وسلم - : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجههُ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًّا من الذنوب)[3] .

---

(١) الدف بالفاء : صوت النعل وحركته على الأرض .
(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري
(٣) رواه مسلم .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقاً ؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ الأمن في الدنيا ، والأمن بمجموع ما كان في الدنيا مع الأمن في الآخرة .

ولقائل أن يقول : هناك أناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون في طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم . ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة في عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطي له ، وإذا قام بأي عمل يأخذ نتيجته ، لكنه لا يأخذ البركة في العطاء .

وما هي البركة في العطاء ؟ البركة في العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومع ذلك نهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه في الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم في الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ أي إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن في جزيئات أعمالهم والأمن المتجمع من جزيئات أعمالهم يعطي لهم الأمن في الجنة . ﴿ وهم مهتدون ﴾ والهداية هي الطريق الذي يوصل إلى الغاية . ولا يقال لك إنك موفق في الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة في ذهنك من نتائج بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد

مهمتك ، فسبحانه هو الذي خلقك ، وفي عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذي يحدد لها الغاية منها ، فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ، وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذي يشقى بالتجارب إذن ؟

في الابتكارات العلمية المعملية المادية التي تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذي يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية التي تتعب العالم يأتي التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدي إذن ؟

إن المهتدي هو من يعرف الغاية التي يسعى إليها ، والوسيلة التي توصله إلى هذه الغاية . وإذا حدث له عطب في ملكات نفسه ، يستعين في إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التي تتعطل لصانعها . ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون في خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي
ومن أين للغايات بعد المذاهب ؟

ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

والحجة هي البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا حين نحاجج أن تكون لنا غاية في الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية في

الحجاج إن تعدت موضوع الحجاج نفياً أو إثباتاً صار تهريج ، وينحصر الأمر في أنك تريد الانتصار على خصمك وأن يحاول خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأصيلة هي الأساس ، وكما يقولون تحديد وبيان محل النزاع ؛ لأن الحق لابد أن يكون أعز منك ومن خصمك عندك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تتناظروا في قضية تنظراً جماهيرياً ، لماذا ؟ لأن الصوت الجماهيري يلتبس فيه الحق مع الباطل ، والله سبحانه وتعالى يريد من كل صوت أن يكون محسوباً على صاحبه ، ومثال ذلك عندما يقوم تظاهر كبير ويهتف فيه بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف

والذي جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ، يلقون فيها أقوال رسول الله فتاهت منهم القدرة على الحكم الموضوعي .

ولذلك يقول ربنا :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أي أن تجتمعوا وفي وجهتكم الله ، ومن عنده قوة فيناقش بالحجة أقوال رسول الله موضوعاً ، وتاريخاً ، ومنطقاً . ولا يمكن أن يجتمع اثنان ليبحثا مسألة وفي بالهما الله فقط ، إلا وينتهيان فيها إلى رأي موحد . ولذلك جاء التفاوض السري في العصر الحديث مستمداً من تلك القاعدة الإيمانية

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾

(سورة الأنعام)

وأول قوم إبراهيم أبوه آزر ، إنه حاججهم في الكواكب والقمر والشمس والتماثيل ،

وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو النمروذ حين أراد أن يناظره في قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهى فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذى لا يستطيع منه خلاصا ولا فكاكا ، فلا يغلبك ؛ فالملك النمروذ قال له :

﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

«من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة»

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت ؛ لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضباً ، ويسقطه على الحجة ويلزمه بها من أقصر طريق ، فقال الله :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

«من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة»

فماذا كانت نتيجة الجدل ؟ يقول الله سبحانه :

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

«من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة»

وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

«سورة الأنعام»

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع ؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والانتصار رفع للدرجة موضوعك ، ورفع أيضا لموضوع عملك . وسبحانه لا يشاء إلا عن حكمة ، ولا يشاء

إلا عن علم ؛ لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة وبدون علم ، أما الحق فينبئنا بأن مشيئته هي عن حكمة وعلم لصالح الخلق ؛ لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خَلْق الخلق وإيمانهم لا يزيد في ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شيء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجري أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا علته يريهم جل وعلا الحكمة في الفعل الذي كان غير مقبول لهم ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أزلاً أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاه على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً ويتعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عبد ، فسبحانه يعلم أنه ليس في صالح العبد أن يلبي له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إن العبد يقول : يا رب اصنع لي كذا ، يسِّر لي هذا الأمر ، وهو خير في عرفه ، وقد يكون هو الشر ؛ لأن الإنسان عجول . لذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

(من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء)

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق ؛ فالصالح يجريه عليهم .

﴿ نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ وكلمة ﴿ رب ﴾ حينما ترد لابد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتي كلمة « الألوهية » فلتعلم أنها للتكليف ؛ لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر أو نهى ، ولكن الرب هو من خلق وربّى ، وتعهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شيء ، وعطاء الألوهية شيء آخر ،

وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ لأن الله هو الذي استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مسخراً لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وهذا يدخل في منطقة الاختيار . فالذي يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج ؛ لأن الاستنباط في الكون من عطاء الربوبية .

ويقول الحق :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثاني لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهبة افهم أنها ليست هي الحق ، فالهبة شيء ، و « الحق » شيء آخر . الهبة - إعطاء معط لمن لا يستحق ؛ لأنك حين تعطي إنساناً ما يستحقه فليس ذلك هبة بل حقاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعتقدوا أن أحداً من خلقي له حق عندي إلا ما أجعله أنا حقاً له ، ولكن كل شيء هبة مني . والقمة الأولى في الهبات والعطايا هي قمة السيادة الأولى في الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوعيه الذكر والأنثى ، حيث الذرية من البنين والبنات . يقول سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فهبة الأولاد لا تأتي من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة، وأن التقاء بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه:

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾

(من الآية ٥٠ من سورة الشورى)

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكي لجاء الأولاد، لكن الأمر ليس كذلك؛ فمن يفهم في الملكوت تطمئن نفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله، حتى العقم هو هبة أيضاً؛ فالذي يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحسد سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بدون تعب في حمل أو ولادة، وبدون عناية ورعاية منك طول عمرك. ومن يرضى بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله ويبعث له من الذكور من يتزوج الإناث ويكونون أطوع له من أبنائه؛ لأنه رضي. إذن لابد أن نأخذ الهبة في العطاء، والهبة في المنع.

والحق يوضح: أنا وهبت لإبراهيم إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أقضية الكون ميّت لا محالة، وحين يكبر الإنسان يرغب في ولد يحمل اسمه في الحياة وكأنه ضمن ذلك، فإن جاء حفيد يكون الجد قد ضمن نفسه جيلاً آخر. ولكن لنعرف قول الحق:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾

(سورة الكهف)

وبقاء الذِّكْر في الدنيا لا لزوم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان في الآخرة!!

ونلحظ أن الحق قال في موقع آخر:

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾

(من الآية ٥ والآية ٦ سورة مريم)

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل بيعقوب أيضاً، وفوق ذلك قال: ﴿كلا

هدينا ﴾ أى أنهما كانا من أهل الهداية . ﴿ ونوحا هدينا من قبل ﴾ أى أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بنوح من قبل . ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

ويتابع الحق :

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متتابعين بل قسمهم بحكمة ، فيقول :

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلاً . وقد جمعوا فى قول الناظم :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح، وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين . داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث ملكاً رسولاً ، لأن المَلك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان في حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريده بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً .

وفي الحديث : « أملكا نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً »[1] فاختار أن يكون عبدا رسولا ، لأن الملك يأتي بسلطانه وبماله ، وقد يطغى .

وأراد الحق أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان ، وتتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان . أما أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الزوايا وهي الابتلاء والصبر مع النبوة ، وكل نبي فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميز شخصي . وكذلك يوسف أخذ الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان في النهاية . وموسى وهارون أخذا شهرة الأتباع ، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقدوة الطيبة وبقي لهم الذكر الحسن .

إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء

وعندما وقف العلماء عند « عيسى » هل يدخل في ذريتهم ، وجدوا من يستنبط ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

وإنما أمهات القوم أوعية
مستحدثات وللأحساب آباء

---

(١) رواه أحمد ٢٣١/٢ .

والعنصر البشرى فى عيسى هو الأم . ويمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية !

قال له الإمام الباقر رضى الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأى شيء فى القرآن ؟

قال اقرأ : « ومن ذريته . . . . » إلى أن تقرأ : « وعيسى » ، فعيسى من ذرية نوح ، من أب أم من أم ؟ .

قال له . من أم . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى شيء تقدم ، والمقصود به الهدى الذى هدينا به القوم ، وهو هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذى خلق ، وهو الذى يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبيّن الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أى هدى من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الراغب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

وذلك إشارة إلى المنهج الذى أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدى الناس جميعاً بدلالتهم على الخير ، والذى يقبل

على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه بصحبه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، وإن اخترت أي شيء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل في الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصى ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أي واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنه قد يكون مراداً غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كوناً ، ومراداً شرعاً وما دام الشيء في ملك الله فهو مراد لله ، والمراد الشرعي هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كوني ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تعطي ابنك جنيهاً ، والجنيه قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف فيه ، وتقول له : اسمع إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت « كوتشينة » ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشتري « كوتشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذي أعطيته الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ، وذلك بأن يحبّبهم في العمل ويحبب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت مني ؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين في التكاليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله ، ولو أشركوا لحبط عملهم و﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و« الحبط » هو الإبطال للعمل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والملك ، والنبوة ؛ أي أنه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين في الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ؛ فهؤلاء القوم الذين جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقي إلى أن تقوم الساعة .

ومَن القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله . ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ هم أهل المدينة أي الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع به أي إن تكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا يترك قضية الخير في الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لابد أن يبقيها كحجة على الخلق

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله ؛ لأن الذي يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه يقوم بالمطلوب له ـ سبحانه ـ وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومربي الجميع ، وراعي الجميع ، ورزّاق الجميع . وليتنا من يقوم بالخير ويجعل من نفسه

وكيلاً عن الله فى أن يشيع الخير فى خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف ما أعطى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

و﴿ هدى الله ﴾ هنا أيضا هو هداية دلالة ، وهداية معونة ، بدليل أنه قال : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن « أولاء » أى المشار إليهم هم المتقدمون ، و« الكاف » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول ﴿ اقتد ﴾ ولا نقول ﴿ اقتده ﴾ ولا تنطق الهاء إلا فى الوقف ويسمونها « هاء السكت » ، لكن إذا جاءت فى الوصل لا ينطقُ بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل السابق ذِكْرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص العبودية لله والإيمان بالله وأنّه واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكلهم مشتركون فى هذه الأصول . وتميّز كل منهم بخصلة فى الخير ؛ فسيدنا سليمان وداود أخذا القدرة والسلطان والملك ، وأيوب أخذ القدرة فى الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ القدرة فى الصبر والتفوق فى الحُكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كضارع إلى الله وهو فى بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ، أى أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكيوسف وكيونس . وأن يأخذ خصلة التميز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم فى القضية العامة وهى

التوحيد لله ويذلك يجتمع كل التميز الذى فى جميع الأنبياء فى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلابد ان نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾

« من الآية ٩٠ سورة الأنعام »

ولماذا يُطْلَب الأجر ؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أوله عملاً إلا إذا كان العمل الذى فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطى وتُمنح عليه أجراً ، فكان ما يؤديه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجرٌ ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبلغ عن ربّه : قل لهم . إنك نزلت عن هذا الأجر .

وقارنوا بين مَن يقدم لأى واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة فى جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل يعمكم فى مدًى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين ، فلم يرد فى القرآن أن قالاها ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر فى قصة إبراهيم وكذلك فى قصة موسى عليهما السلام . لكن جاء ذكر الأجر فى غيرهما ، يقول سبحانه :

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

وقال جل شأنه :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾

«سورة الشعراء»

وعندما تستقرىء سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم، وتجد مع قول كل منهم ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾، إلا سيدنا موسى، وسيدنا إبراهيم، لماذا؟ ونقول: إن من يتنزل عن الأجر، هو من يقدم لهم منفعة.

وفي موسى عليه السلام نجد أنه قد وجهت وقدمت وسبقت له المنفعة من فرعون الذي قام بتربيته، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً، لذلك لم يقل موسى لفرعون «لا أسألك أجراً» لأن القرآن جاء بقول فرعون:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾

«من الآية ١٨ سورة الشعراء»

وكذلك لم تأت مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم لأنه خاطب أباه آزر، ولم يكن من المقبول أن يقول له: «لا أسألك أجراً». وهكذا انطمست مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى، وبقيت فيما عداهما، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة؛ لأن من يتكلم هو ربنا. ويمتاز سيدنا رسول الله أيضاً ويقول: «لا أسألكم أجراً» إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النفي:

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾

«من الآية ٢٣ سورة الشورى»

والمودة هي فعل الخير الناشىء عن محبة قلب، أما فعل الخير الذي لا ينبع من محبة في القلب فهو فعل معروف؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع من يُحب ومن لا يُحب. ولذلك قال ربنا:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

«من الآية ١٥ سورة لقمان»

المعروف - إذن - هو عمل امتداده غير مسطحى . والرسول حين يطلب المودة فى القربى فهل هى قُرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة فى قرباكم ؟ هى القُربىٰ على إطلاقها ، وهى القُربىٰ أيضا للمتكلم وهو الرسول الذى يبلغ عن الله .

وإن صُنِّفت على أنها « إلا المودة فى القُربىٰ » أى القربى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف فى قومه ، هنا تتلاحم دوائر الخير فى الناس جميعاً .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن هو إلا ذِكْرى للعالمين » وهى ما تعطينا اجتماع الدوائر ويصير كل واحد مُهتماً بأقاربه ويتنازع الناس ويتنافسون فى مودة القُربىٰ ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القربى . هنا يعم الخير ويدوم الود ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الكلام عن الذين رفضوا وتأبوا عن الإيمان بالله . فيأتى الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القدْر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا نقدر عليه نحن البشر ، لذلك نقدره على قدر طاقتنا أو على قدر ما طلب منا ، وكما قال رسول الله .

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1]

والإنسان منا حين يثنى على واحد فهذا دليل أنه قد قيّم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقيّم قدر الله فعلينا أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهى لا تتناهى ولا يمكن أن تُحصىٰ . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمَّل عنا صيغة الثناء عليه ؛ كى لا يوقعنا فى حرج ، فليس لبشر من قُدرة أن يحيط بجمال الله أو بجلاله حتى يثنى عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك - ولن يحيط - فمن أين له العبارة التى تؤدى هذا الثناء ؟ ولا يوجد بليغ أو أديب يستطيع أن ينمق العبارات التى تكفى لتقدير هذا الثناء على الله ، فأوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم سواسية ، قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)

وفى كلمة « الحمد لله » وحدها يتساوىٰ الناس جميعاً ، ومن رحمته سبحانه أن سوّى بين الناس فى معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتى الحق هنا بالزاوية التى نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره ، فماذا ياربِّ لم يقدروك حق قدرك ؟ ويأتى الإجابة :

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

أى أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه مَن يجعلهم أهلاً لتلقّى منهجه لإبلاغه إلى خلقه . ويأتى الرد من الحق لرسوله رداً عليهم :

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

إذن لابد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسى نُزِّل عليه كتاب لتكون الحُجَّة فى موضعها . وكُفار مكة كانوا غير مؤمنين بأى رسول ، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا :

(١) رواه مسلم فى الصلاة وأبو داود فى الصلاة والوتر والنسائى فى قيام الليل والترمذى فى الدعوات وابن ماجة فى الدعاء ومالك فى الموطأ فى مس القرآن ورواه أحمد فى المسند ٩٦/١ ، ١١٨ .

﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾

«من الآية ١٥٧ سورة الأنعام»

ونقول : لو دققت النظر في السورة فقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الذين غلبتهم الحُجّة . وفي تاريخ السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائب الخوض في الإسلام ، وكان اسمه « مالك بن الصيف » فلقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحَبْر هو عالم اليهود والمفترض فيه أن يكون من الزهد فيهم متقطعا للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للعبادة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ، ويقيم الأود لأنه قد جاء في التوراة : « إن الله يبغض الحبر السَّمين » .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف - وهو من أحبار اليهود - يخوض كثيراً في الإسلام قال له : أفي توراتكم « إن الله يبغض الحبْر السَّمين » فبهت الرجل ، وقال : « ما أنزل الله على بشرٍ من شيء » يعني ما أنزل الله على بشرٍ من شيء من الذي أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتي من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف تقول . « ما أنزل الله على بشرٍ من شيء » فقال لهم : أغضبني محمد ، فردّدت على الغضب بباطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أن تكون حبْراً لأنك فضحتنا . وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولّوه مكانه .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

«من الآية ٩١ سورة الأنعام»

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه

قراطيس ، أو جعلوه أوراقاً منفصلة يظهرون منها ما يُريدون ، ويخفون منها ما لا يُريدون مثلما فعلوا في مسألة الرّجم كعقاب للزّنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبيّن الحق ذلك في آيات متعددة :

﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة المائدة »

والذي لم ينسوه كتموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذي لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم ، إذن فهناك نسيان ، وكتمان ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووقفوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هي من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

« من الآية ٧٩ سورة البقرة »

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

فإن كان الكلام في كُفّار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آباؤهم ؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان في أهل الكتاب فهو قول صدق ؛ لأنهم لما كتموا أشياء فضح القرآن ما كتموه وما حرفوه . وجاء القرآن معدل لهم ، فكأنهم عُلِّموا الحق ، ليمسحوا به الباطل الذي غيّروه وحرفوه ، وقوله الحق : ﴿ قل الله ﴾ أي أن الذي أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتي الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام تعلم أن الاستفهام الحقيقي بالنسبة لله مُحَال ، لأنه يعلم كل شيء ، وإنما يجيء باستفهام يقال له : « الاستفهام الإنكاري » أو « الاستفهام التقريري » وهو يأتي بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أو خجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يامحمد :

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

و«الخوض» هو الدخول في الماء الكثير ، الذي لا تستبين العين فيه موضع القدم ، وربما نزل في هوّة ، ثم استعمل واستعير للخوض في الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » أي أن هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة في طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذي يصنعونه هو خوض في باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتركهم محمد ؟ لا ؛ لأنه حين يجد آذانا منهم ينبههم ويذكّرهم ، ثم بعد أن يفتح الأمر للإسلام ، فالذي يقيم في جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف ، لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن مباركا ، فالحق يقول بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وكلمة « أنزلنا » الأصل فيها نون وزاى ولام ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة ؛ فمرة يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة القدر)

ومرة يقول عز وجل :

﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

«من الآية ١٠٦ سورة الإسراء»

ومرة يسند النزول للقرآن :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

«من الآية ١٠٥ سورة الإسراء»

ومرة يسنده إلى من جاء به :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

«سورة الشعراء»

هذه إذن تعابير متعددة ، وما دواعي هذا الاشتقاق ونحن نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ليباشر القرآن مهمته في الوجود الجديد ، وكان ينزل كل نجم من النجوم حسب الأحداث . و« أنزل » هنا للتعدية أي نقل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ليباشر مهمته ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾

ونعلم أن القرآن نزل في ليلة القدر وفي غير ليلة القدر ، ولكنه نزل في ليلة القدر جميعه إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منجماً ومفصّلاً في بقية أيام الثلاث والعشرين سنة التي عاشها صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي ، فإذا ما أراد أنه أنزله من اللوح المحفوظ يأتي بـ« همزة التعدية » وإذا أراد النزول والموالاة يقول : « نزّل » لأن فيها التتابع ، وإذا نسبه لمن نزل به يأتي بـ« نَزَل » لأن القرآن لم ينزل وحده بل نَزَل به الروح الأمين ، إذن فكلها مُلتقية في أن القرآن نَزَل أو أنزِل ، أو نُزِّل . وكلمة « نَزَل » تعطينا لمحة ، وهو أنه جاء من أعلى ، ويستقبله الأدنى . وساعة يطلب الحق منا أن ننصت لإنزال حكم يقول لنا عزوجل :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

«من الآية ١٥١ سورة الأنعام»

ومعنى « تعالوا » أي ارتفعوا ؛ لأننا نعيش على الأرض ، وإياكم أن تشرّع الأرض لكم ؛ لأن تشريع الأرض إذا لم يكن في ضوء منهج الله فهو حضيض. والله يريد تشريعا عالياً ، ولابد لكم من أن تتلقوا من السماء أحكامكم ؛ حتى لا تتيهوا ولا تضلوا في باطل تشريعات لا تدور في إطار منهج الله .

والحق يقول هنا : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » وهو قول يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج ، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج ؛ فمعجزة موسى عليه السلام ـ كما نعرف ـ هي العصا ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميّز بأن معجزته عين منهجه ، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمن محدود ، في مكان محدود . وجاء صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع المانع ، لذلك جاءت المعجزة هي المنهج ، فلو أن معجزته صلى الله عليه وسلم كانت من جنس معجزات السابقين ؛ أي كانت كونية مرئية لانتهت . ونحن لم نصدق معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خبراً ، وكل منها تليق بالزمن المحدود والمكان المحدود . لكن الإسلام جاء ليعم كل الأزمنة وكل الأمكنة ، ولذلك لزم أن تكون المعجزة مستصحبة للمنهج ؛ حتى يستطيع من يأتي بعد عصر النبوة إلى قيام الساعة أن يقول : مُحمد رسول الله وتلك معجزته.

والقرآن مُبارك ، ونحن في أعرافنا حين نتكلم بالعامية نأتي بالكلمة التي هي من فيح وصحيح الاستعمالات الفصيحة التي سمعناها ، فنجد من يقول : « والله هذا الأكل فيه بركة ؛ فهو مصنوع لاثنين وأكل منه أربعة وفاض ووراء » . إذن ، « البركة » أن يعطي الشيء أكبر من حجمه المنظور .

وبركة القرآن غالبة ومهيمنة ، ولو قيس كل إنسان حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجد حجم القرآن أقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ونجد من يؤلف ويفسر في أجزاء متعددة ، ومع ذلك ما استطاع واحد أن يصل إلى حقيقة المراد من الله ؛ لأن القرآن لو جاء وأفرغ عطاءه في القرن الذي عاش فيه الرسول فقل لي بالله : كيف تستقبله القرون الأخرى ؟ ! إنه يكون استقبالا خاليا من العناية به لأنه سيكون كلاماً مكرراً .

إذن فقد بيّن فيه كل شيء ومع أخذ كل إنسان وزمان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسّره أحد غير من انفعل له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيستطيع واحد بعد ذلك أن يقول شيئاً في التفسير ؟ ! إذن لو فسره الرسول صلى الله عليه وسلم لجمّده لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتي بتفسير بعد الرسول .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن عطاءات القرآن لا تتناهى ، لذلك لم يفسّره . بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصرة حتى لا ينصرفوا عنه . ولو كان القرآن قال : إن الأرض كرة وتدور حول الشمس ، أكان يصدقه أحد ؟ إن هناك حتى الآن من ينكر ذلك . ونجد القرآن يشير ويلمح إليها إلماحاً خفيفاً إلى أن تتسع العقول لها . فيقول الحق :

﴿ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ ﴾

« من الآية ٥ سورة الزمر »

ومدام الليل يأتي وراء النهار ، والنهار يأتي وراء الليل في شبه كرة ؛ فالذي يأتي عليه الليل والنهار شكل الكرة . فكأن كلاً من الليل والنهار دائر وراء الآخر حول كرة ، إذن فالحق يعطي اللمحة بميزان حتى تتسع العقول للفهم . ويقول القرآن :

﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾

« من الآية ١٤٢ سورة البقرة »

وهذا قول واضح ؛ لأن كل واحد منا يعرف المشرق والمغرب . لكن حين يقول الحق :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ ﴾

« سورة الرحمن »

أكان يفهمها المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم ، لأنه ساعة ما يقول : إن الشمس أشرقت من المكان الفلاني ، وغابت عن مكان آخر ، فساعة شروقها عندك تغرب عندي ، وساعة تغرب عندك تشرق عندي ، وهكذا يصير كل مشرق معه مغرب ، إذن فقد صدق قول الله « رب المشرقين ورب المغربين »

ونعلم أن الشمس لها مشرق كل يوم ، ومن زار فى الصعيد المعبد الذى توجد به ٣٦٠ طاقة ـ فتحة ـ وتطلع الشمس فى كل يوم من طاقة معينة ولا تطلع من الطاقات الأخرى يتأكد من أن الشمس لها فى كل يوم مشرق . إذن هناك مشارق ومغارب ، وصدق الله القائل : رب المشارق والمغرب .

إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، وإذا ما جدّ جديد نجد الأمر مكنوزاً فى القرآن ، ونجد تأويلا جديداً لا ينسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقى به

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يفسر القرآن التفسير الكامل ؛ لأنه كان لابد أن يفسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له ، وإن فسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له فمعنى ذلك أنه لن يعطى العقول التى تأتى بعد غذاء من القرآن ؛ لذلك ترك صلى الله عليه وسلم القرآن دون تفسير إلا فى النزر اليسير . وتجد ذلك فى آيات الكون ، أما فى الأحكام فالأمر محدد .

لكن فى الأشياء التى يتجدد فيها العلم فقد تركها . ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه » ، وكأنه يلفتنا إلى أن عجائبه لا تنقضى ولا تنتهى ، وكل يوم يعطى عجائب جديدة . إذن فالقرآن مُبارك بحكم ما هو مكنوز فيه إلى قيام الساعة . وأنت تلتفت إلى الناس فتجدهم يتعبون فى اكتشاف أسرار الكون ، وتجد القرآن قد مسّ ما يبحثون عنه مسّاً خفيفاً .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الأنعام)

وساعة تقول : « بين يدى الشىء » أى الشىء الذى يسبق ، والكتب السابقة هى التى نزلت بين يدى القرآن أى قبله ، والمقصود بها الكتب المعروفة المشهورة وهى التوراة والإنجيل إذ هما الكتابان الباقيان إلى الآن .

والقرآن يصدق الذى بين يديه ولا يعنى ذلك تصديق المحرّف بل تصديق « الأصيل » . ولذلك نجد عبد الله بن سلام وغيره حينما جاءوا للإسلام اعترفوا بذلك ، ويقول عبد الله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انشرح صدرى

للإسلام ، ولكنى أعلم أن اليهود قوم بهت ـ أى أنهم مكابرون ـ فأنا أريد أن تسألهم عنى قبل أن أسلم ، فقال رسول الله لهم : ما تقولون فى عبد الله بن سَلاَم ؟ قالوا : حِبْرنا وابن حِبْرنا وشيخنا ووليّنا . . . إلخ .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمداً رسول الله . هنا بدأوا فى كيل السباب لسيدنا عبد الله بن سَلاَم فقال : ألم أقل لك يا رسول الله إنهم قوم بهت ؟

وقوله الحق : ﴿ مُصدق الذى بين يديه ﴾ أى أنك إذا ما أردت أن تعرف صدق هذه القضية فهات ما لا حاجة لهم فيه إلى تكذيبه ، وستجد القرآن قد جاء موافقاً له . مثال ذلك حين جاء القرآن بالرَّجْم . هم حاولوا أن يخففوا حكم الرَّجْم ؛ لأن امرأة زنت وأرادوا أن يجاملوها . فرفعوا أمرها للنبى وقال بعضهم لبعض : إنْ حَكَم بعدم الرَّجم فهذا خير لنا ولها ، ومن العجيب أنهم غير مؤمنين بمحمد بينما يريدون الحُكم منه ، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هاتوا الكتاب ، ويأتون بالصحف الموجودة عندهم ، فوجدوا آية الرَّجْم ؛ إذن فالقرآن مُصدق الذى بين يديه من غير المكتوم ، ولا المُحرَّف ، ولا المُؤوَّل .

وإذا ما نظرت إلى القضايا التى يلتفتون إليها ، ولكنها تمر أمامهم خاطفة ، تجد أنت هذه القضايا وسيلة يريد الله بها أن يكشف الفساد والكذب والتجبر ، حتى لا يطمس أهل الباطل معالم الحق . ومثل هذه القضايا تحتاج إلى المُحقق الدَّقِق . ونجده سبحانه جاء فى التوراة بمثل للأمة المحمدية ، ويكرر هذا المثل فى القرآن حين يقول سبحانه :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وحين ننظر إلى كلمة « أشداء » ، وكلمة « رُحماء » ، نجد فى ظاهر الأمر تناقضا فى الطباع ، أما المدقق المحقق فيعلم من هذا القول أن الإسلام لا يطبع المسلم على لون واحد ؛ لأنه يريد منه كل الألوان ، فلو خلقه شديداً لفقدته مواطن الرحمة ، ولو فطره وخلقه رحيماً لفقدته مواطن الشدة . والإسلام يطلب من المسلم الالتزام

بالقيم الروحية والمادية لتحرس كل منهما الأخرى ؛ لأن المسلمين لو راحوا للمادة فقط لصارت حضارتهم شرسة ، ولو راحوا للقيم لما استطاعوا أن يقيموا حضارة تبقى وتدوم ، والحق يريد حضارة تجمع بين الاثنين ؛ الروح والمادة ، لذلك يجمع الإسلام بين الاثنين ؛ الروح والمادة ، لأن اليهود في فهمهم لها افتقدت الروح ، والنصرانية في فهمهم لها غرقت في الروحانيات وافتقدت المادة ، وجاء القرآن مُصدقًا لما بين يديه ، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب .

ويتابع البلاغ لأهل قريش قاطني مكة فيقول : ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ ، ونعرف أن أم القرى تعني مكة ، وقد حاول البعض أن يتخذ من هذه الآية حُجّة بقول : إن القرآن قد نزل لجماعة العرب فقط ، وهؤلاء نقول : أنتم لم تحسنوا الفهم لمعطيات اللفظ ، ولنسأل : ما الحَوْل أولاً ؟ . الحول هو المحيط الذي حول النقطة ، أيّ نقطة وكل نقطة ، وحول كل نقطة قُطر وقد يكون القطر ٢٠ كيلومترا ، وقد يكون مائة كيلومتر ، وكلما بعدت المساحة فهي حول هذه النقطة ، إذن فكلمة الحول تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان .

ولماذا سميت أم القرى ؟ ، إما لأن « هاجر » لما نزلت بابنها الرضيع بوادٍ غير ذي زرع ، وبعد ذلك تكاثر الناس فصارت هي أم القرى ، أو لأن فيها الكعبة ، وكل الناس يؤمّونها ، أو لأن الحاجّ يأتيها من كل صوب كما يهب ويسرع الأبناء ويلوذون بأمهم

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الأنعام)

من - إذن - الذي يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزل مصدقًا لما بين يديه لينذر به أم القرى ومن حولها ، ومن هم الذين يؤمنون بالآخرة ؟ ولماذا جاء الربط بين أم القرى وما حولها وبين الذين يؤمنون بالآخرة ؟ . لأن أحداً لن يذهب لتعاليم القرآن ليأخذها ويتمثلها إلا من يؤمن بأن هناك يوماً نذهب فيه جميعاً إلى الآخرة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

لذلك يخاف فيهرب من المعاصي ، ويرغب في الطاعة ؛ لأن هناك ثواباً وعقاباً ، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فلا يسمعك ولا يطاع ولا ينقاد لك حين تأمره بالعفة ؛ لأنه لا يرى ثواباً أو عقاباً ولا ينتهي عن السرقة أو الكذب أو الموبقات جميعاً ؛ لأنه لا يخاف من الآخرة ؟ .

إذن فالذي يملكنا جميعاً هو الآخرة والخوف منها ، ومن لا يؤمن بالآخرة يقول : أنا غير مُلزم بشيء ، ولا شيء يقيِّد حريتي . ثم لماذا أقيد حريتي ؟ !

وهنا نقول : أنت تأخذ الأمر بسطحيه ، فعلى فرض أن في قوانين السماء ما يقيد حريتك ، لكنه لا يقيد حريتك وحدك ، إنه يقيد حرية الكل ، فإن قيد حريتك بالنسبة للناس ، فهذه القوانين السماوية تقيد حرية الناس بالنسبة لك ، فحين ينهاك الدين عن السرقة ، وعن النظر إلى محارم الغير فهو يقول للناس كلها : لا تسرقوا من فلان ولا تنظروا إلى محارم فلان ، وبذلك تأخذ حقك كاملاً ، وبهذا تعيش في نظام متساوٍ لا تتعب فيه ؛ لأن الجاري والمطلق عليك جارٍ على غيرك مع جريانه عليك .

لكن من يؤمنون بالآخرة هم كل واحد يريد أن ينجي نفسه من العقاب ، ومن الوعيد . ويدخل نفسه في الوعد وفي الثواب . فمثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ حين نقول للولد : اذهب لتلقى العلم ، قد يرد : أنا لا أريد الشهادة ، فيجبره والده في البداية أن يستذكر ، ثم نجد الشاب بعد مشوار المذاكرة يخاف من الرسوب وأن عليه أن يجتهد وأن ينجح . أما إن لم يوجد امتحان في آخر العام فالمذاكرة وعدمها سواء لديه . فمن أقرب ـ إذن ـ إلى الاستجابة لنداء العقل والخير؟ إنه من يؤمن بالآخرة .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الأنعام)

ولماذا جاء بالحفاظ على الصلاة هنا ؟ . نحن نعلم أن الصلاة هي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وحين نحلل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تفر من الطاعات لأنها تأخذ زمناً يحبون أن يقضوه في اللعب ، وحين نقول لواحد مثلاً : اترك

عملك وصل . قد يرد : لا ؛ لأني حين أترك عملي يضيع عليَّ كذا . ولو كان طبيباً لذكر عددا من مرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لقال : إن توقف الآلة في أثناء الصلاة يجعلني أخسر كثيراً .

وهنا نقول : يا أخي تعال إلى الطاعة ، والبركة تعوض لك ما تظن أنك تخسره ، وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت ، فشهادة أن لا إله إلا الله مُحمد رسول الله لا تحتاج منك إلا إلى أن تقولها مرة واحدة ، وهذا ركن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا أن تعطيه يوم الحصاد ، وهذا يستغرق وقتا قليلا ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر في السنة ، وإذا كان زمن الصوم أوسع قليلاً إلا أنه وقت لا يمر إلا كل عام . والحج مرة في العمر إن كنت مستطيعاً .

إذن أنت تجد التكاليف الركنية في الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لمن يحرص عليها ، لكن الصلاة تؤدى في كل يوم خمس مرات ، ورقعتها بالنسبة للزمن أوسع . ولأداؤها يحتاج إلى طهارة من حدث أو جنابة وكذلك طهارة المكان ؛ لذلك جاءت الصلاة ركناً أصيلاً في الإسلام . وأنت لا تعرف الإنسان إن كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يصلي . لذلك هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم ؛ لأن الأركان الأخرى أزمانها محصورة ، ومع أنها كذلك إلا أنها أخذت من التشريع حظها من الركنية الأصيلة .

إنَّ كل تشريعات الإسلام أركاناً وفروعاً جاءت بالوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت بالمباشرة ، لأن الصلاة دعاء الخالق خلقه لحضرته ، فلذلك كان لابد أن يكون تشريعها بهذه الصورة الفريدة ، تشريعاً جاء بالحضرة الإلهية .

وشيء آخر ، ما دامت الصلاة هي العمدة في الدين فكأن الصلاة تقول للأركان الأخرى : أنا أجمعكم وأضمكم وأشملكم جميعا ؛ فالمسلم في أثناء الصلاة يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والمسلم يصوم في أثناء الصلاة عن شهوتي البطن والفرج بل وتكون الصلاة صوماً لا عن الأكل والشرب ، وشهوة الفرج

فقط بل هي إمساك عن كل حركة ، وفي الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة تعني أن تخرج بعضاً من مالك ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الوقت وأنت حين تصلي إنما تزكي بالأصل وهو وقت العمل ، وأنت في الصلاة تتوجه إلى الكعبة كما يتجه الحاج والمعتمر ، إذن ففي الصلاة كل أركان الإسلام مجتمعة .

إذن فأهمية الصلاة أنها قد اندمج فيها كل أركان الإسلام ، وبها يتحقق الاستطراق الاجتماعي للخلافة في الأرض ؛ لأن الخلافة في الأرض تقتضي مواهب متعددة ، وطاقات منصبة ، ولا يمكن لخليفة واحد في الأرض أن يكون مجمع هذه المواهب بل لابد أن تتفرق المواهب في المتفرق والشتيت من الناس ، فلا يمكن أن يكون الإنسان الواحد مهندساً وطبيباً ومحامياً وصانعاً وحارثاً وزارعاً وتاجراً . ولذلك وزع الله سبحانه وتعالى مقتضيات الخلافة في الأرض على الخلفاء في الأرض توزيعاً يجعل الالتقاء ضرورياً وليس تفضلياً ، بحيث تكون أنت في حاجة إلى مواهب ليست عندك تذهب لصاحبها . وصاحبها أيضا يحتاج إلى مواهب عندك ليست عنده يأتي إليك .

وانظروا إذا شاء واحد أن يستفتي في بعض الأشياء التي يقوم بها الغير كم يتعب ؟ ، فإذا ما أتعبه السباكون والمغالاة في الأجور . ويحاول تعلم السباكة ، ولابد له أن يتعلمها من سباك وكذلك حياكة الملابس ومعنى ذلك أن الله أبقى المواهب متفرقة مشتتة في الخلق ليحتاج كل خلق إلى كل الخلق والناس لا تنظر إلى جهة التميز إلا إلى شيء واحد هو : الغِنى .

ونقول الغِنى المالي أو العقاري هو نوع فقط من المواهب ؛ لأنك مثلاً إذا نظرت إلى العَالِم الذي يظل عشرين عاماً يستوعب العلم ، ثم يقابله من يستفتيه في فتوى فيقولها له مجاناً ، لو علم هذا السائل ماذا تكلف الأستاذ الذي أخذه طوال عشرين سنة بحثاً في الكتب وسماعاً من الأساتذة واستنباطاً من الأحكام لدفع مكافأة لهذه الفتوى ؛ لأن العالِم كان مُسخراً لمدة عشرين عاماً لتأخذ أنت الفتوى في نضجها النهائي في يسر وسهولة وتنتفع بها .

وحين نرى من يمسح الحذاء ، ونجد صاحب الحذاء وهو يمد رجله والآخر يمسح الحذاء تقول لنفسك : لماذا كل هذا الزهو لصاحب الحذاء ، ولماذا هذا الانكسار لماسح الأحذية ؟ . وأقول : أنت رأيت صاحب الحذاء وقت راحته ، ورأيت ماسح الأحذية وهو في وقت عمله . ولو عرفت كيف جاء صاحب الحذاء بالنقود التي سيدفعها لماسح الأحذية لعلمت أنه كان مسخراً له ساعة كان يعمل ليحصل على النقود ليعطي منها ماسح الأحذية ، ولذلك قال الحق :

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس لا تنظر في التسخير إلا إلى الغنى والفقير ، ونقول : خذوا التسخير على أن كل واحد في الكون مُسخّر في الموهبة التي عنده ، ومُسخّر له في المواهب التي ليست عنده . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يربط الناس بهذا ربطاً قسرياً وليس تفضلياً ؛ لأن من عنده أولاد يريدون أن يأكلوا وامرأة تحتاج إلى أن تُطعم ولا يملك نقوداً ، وليس أمامه من عمل سوى نزح المجاري ، فيأتي بأدوات نزح المجاري ، ويؤدي العمل ليعول من يعولهم ، ولولا ارتباطه بضرورة الحياة له ولمن يعول لما عمل في مثل هذا العمل ، إذن فهو مربوط ربطاً ضرورياً ليؤدي خدمة في الكون . ولو كان كل البشر يعيشون في رغد العيش أكان هناك من يتطوع لينزح المجاري ؟ لا يحدث ذلك أبداً ، لأنه عمل لا يأتي بالتفضل بل بالاحتياج .

وهكذا نرى أن الخلافة في الأرض تقتضي استطراقاً ، وهذا الاستطراق لا يدوم كثيراً ؛ فمرة تكون القوة لإنسان ثم تذهب منه ، ومرة يكون الثراء لإنسان ثم ينحسر عنه هذا الغِنَى ، ولذلك أخبرنا الحق أنه جعل الأيام دُوَلاً بين الناس ليستقيم العالم بارتباط الضرورة في بعض الأعمال ، وإن بدا لنا أن هناك مواهب تميز بين الناس في شكلهم ، وفي هندامهم ، وفي مطيتهم ، تجد الطبيب يعمل في أكثر من مكان ، وإن سار على رجليه لتعب ، لذلك يشتري سيارة ، ويظن من يراها أن السيارة امتياز لا مثيل له ، متناسياً أن هذه السيارة تقضي مصالح الرجل ليخدم الآخرين .

مثال آخر : أنت إن نظرت إلى كوب الشاي الذي تشربه بمزاج وليس لضرورة

حيوية ، وإن جمعك من يقدم لك الشاى ليقول : إن الشاى قد نفد من المطبخ ، فتعطيه جنيهاً وتقول : هات كيساً من الشاى من عند البقال ، ويذهب الغلام ليحضر علبة الشاى فيجد البقال وكأنه قد جهزها له ، وأنت لا تعرف أن علبة الشاى هذه قد استلزمت وقتا وعملا من اثنين أو ثلاثة لتصل إليك ، لأن الحق قد كلف أناساً ليزرعوا الشاى فى بعض البلاد ، وأناساً آخرين يستوردونه ، ثم تأتيك علبة الشاى لتصنع منها كوباً لتشربه.

إذن فالمسألة كلها تسخير ، لذلك توجد الفوارق الاجتماعية التى تقتضيها أعمالنا ، ويذيب الحق هذه الفوارق بأن جعل فى الصلاة استطراقاً للجميع ، وتنتفت ساعة يقول المؤذن : (الله أكبر) أن الكل قد جاء ، الغنى قبل الفقير ، والحقير مع الأمير ، ويخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساووا فى الصلاة ، ومن له رئيس يتكبر عليه يراه وهو ساجد مثله لله ، فتريحه لحظة استطراق العبودية .

ولنعرض أن كلاً منا سيصلى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ، يأمرنا الحق أن نذر ونترك كل شىء لنؤدى صلاة الجمعة معاً ويرى الضعيف عظيماً يتضرع مثله إلى الله ، ويرى القوى نفسه وبجانبه الضعيف ، وحين يعود كل منا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزهو ؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

إن هذا هو الاستطراق الاجتماعى ؛ لأننا حين يرقب بعضنا فى أثناء الصلاة سجد أنفسنا فى حضرة الرب الذى أعد لنا الكون ، وسخره لنا ، وأعطاه الطاقات ، وأعطانا المواهب ، وإذا تأملنا واحداً له وظيفة كبيرة جداً ، فأنت حين ترغب فى لقائه تكتب التماساً ، وينظر فى الالتماس ، فإما أن يوافقوا وإما لا يوافقوا على لقائك به . وإن وافقوا يسألوك : فى أى أمر ستكلم ؟ وسيحدد لك الوقت الذى ستجلس فيه معه وليكن ثلاث دقائق مثلا ، وحين تجلس إليه وتنسى نفسك يقوم هو ليدلك على أن المقابلة انتهت ، لكن ربنا يقول لنا : تعالوا لى فى أى وقت ، وكلمونى فى أى شىء ، وأنا لا أمل حتى تملوا ، وأنتم يا عبيدى مَنْ تنهون المقابلة ، وهذا عطاء كبير جداً ، يغدقه المولى عز وجل على عباده .

فهل هناك ربوبية أفضل من هذه ؟ .

إذن فالصلاة إذا نظرت إليها وجدت أنها : جماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع ؛ لذلك جعلها الله عماد الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾

ساعة يأتي الحق بأسلوب استفهامي فليس الهدف أن يستفهم . إنه ـ سبحانه ـ لا يريد أن يأتي الخبر من عنده ، وهو يقدر أن يقول : الذي يفترى ظالم ، لكنه هنا يأتي بالاستفهام الذي يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذي يفترى على الله كذباً ، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعرض كل مؤمن القضية على ذهنه ويستنبط الجواب . إن الذي يفترى على زميله والمثيل له كذباً نوقع به العقاب ، فما بالك بمن يفترى على الله ؟ وحين تسمع أنت هذا الكلام : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ . وتستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، وهكذا يستخرج الله الحكم من فم المقابل .

وكيف يفترى إنسان الكذب على الله ؟ كأن يبلغ الناس ويدّعي ويقول : أنا نبي

وهو ليس كذلك . هنا تكون الفرية على الله ، وإياك أن تظن أنه يكذب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله ؛ لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثه .

و « الافتراء » : كذب مُتعمَّد مقصود ، وينطبق ذلك على النبوات التي ادعيت ؛ من مثل مسيلمة الكذاب ، سجاح ، طليحة الأسدي ، الأسود العنسي ؛ كل هؤلاء ادعوا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نُبوّتهم ؛ لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يُخفّف عن الناس أحكام الدين .

فواحد قال : أنا أخفف الصلاة ، والزكاة لا داعي لها . لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من أوامر الدين ونواهيه ، موهما نفسه بأنه مُتدين ، دون أن يلتزم بالتزامات التدين ، وهذا هو السبب في أن أصحاب النبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجعلون لهم أنصاراً من المنافقين ؛ فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون متعماً ثم يصدق مبياً دجالاً ، ونسأل التابع للدجال ونقول له : أسألت مدعى النبوة هذا ما معجزتك ؟ - وهذا أول شرط في النُبوّة - ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التدين فطرة في النفس ، ولكن الذي يصعّب التدين هو الالتزامات التي يفرضها التدين ، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يُريحه من الالتزامات الدينية ، ويفهمه أنه على دين ، ويقلل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

هناك من ادعى وقال . أنا نبي ، وقال : سأنزل مثل هذا القرآن ، فماذا قال هذا المدّعى وهو « النضر بن الحارث » يقول - في أمة أذنها أذن بلاغية ، تتأثر بموسيقى اللفظ - : « والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا » !! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : « والزارعات زرعا والحارثات حرثا » ثم يقول مَن ادعى أنه أوحى إليه : « والعجنات عجنا والخابزات خبزا » ، وكان عليه أن يتبعها أيضاً :

« والآكلات أكلا والهاضمات هضما » .

وطبعاً كان هذا الكلام لوناً من هراء فارغ ، لأن الحق إنما أنزل كلامه موزونا جاذباً لمعانٍ لها قيمتها في الخير ، ولذلك نزل القول الحق : ﴿ أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء ﴾ ، وقد جاء واحد هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد في حضرة النبي . فنزلت الآية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾

(سورة المؤمنون)

وانبهر بالأطوار التي خلق فيها الحق الإنسان فقال : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . فقال له رسول الله : اكتبها فقد نزلت . واغترّ الرجل وقال : إن كان محمدٌ صادقاً فقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه ، وإن كان كاذباً فقد قلت كما قال ، فأهدر رسول الله دمه . وقال لصحابته : من رآه فليقتله . وفي عام الفتح جاء به عثمان رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، اعف عن عبد الله . فسكت رسول الله . قال عثمان رضي الله عنه : اعف عنه . فسكت رسول الله . وكررها ثالثا : اعف عنه يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله ، وأشار الرسول لسيدنا عثمان ابن عفان ، فأخذ الرجل وانصرف ، فلما انصرف قال الرسول لصحابته : ألم أقل لكم من رآه فليقتله ؟ قال سيدنا عباد بن بشر : يا رسول الله لقد جعلتُ إليك بصرى - أي وجهت عيني لك - لتشير عليّ بقتله ، فقال رسول الله لعباد بن بشر : « ما ينبغي لرسول أن تكون له خائنة الأعين » وأسلم ابن أبي سرح وحسن إسلامه

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وما هي عقوبات هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، ويحاولون التغرير بالناس مدعين أن الله أنزل عليهم وحياً ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

وساعة تسمع « لو » هذه تعرف أنها شرطية . وأنت تقول - مثلا - لوجاءني فلان لأكرمته . وحين نقرأ القرآن نجد كثيراً من « لو » ليس لها جواب ، لماذا ؟ لأن الإتيان بالجواب يعني حصر الجواب في دائرة منطوقة ، فإن أردت الجواب الذي لا يمكن للفظ أن يحصره فأنت تتركه للسامع مثلما تجد شاباً يلعب دور الفتوة في الحارة ويتعب سكانها ، ثم وقع في أيدي الشرطة وأخذوه ليعاقبوه ، فيقول واحد ممن رأوه من قبل وهو يرهق أهل الحارة . آه لو رأيتم لولد الفتوة وهو في يد الشرطة !

أين جواب الشرط هنا ؟ إنه لا يأتي ؛ لأنه يتسع لأمر عجيب يضيق الأسلوب عن أدائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت » لم يقل لي : ماذا ترى ؟ لأنك سترى عجباً لا يؤديه اللفظ و« الغمرات » هي الشدة التي لا يستطيع الإنسان منها فكاكاً ولا تخلصاً .

ويتابع الحق : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » فهل هم ملائكة الموت الذين يقبضون الروح ؟ أو الكلام في ملائكة العذاب ؟ إنه تشمل النوعين : ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب .

« والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم » كأن ملائكة قبض الروح

تقول لهم : إن كنتم متأبين على الله فى كثير من الأحكام لقد تأبيتم على الله إيماناً ، وتأبيتم على الله أحكاماً ، وتأبيتم على الله فى تصديق الرسول ، فهاهو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، فهل أنتم قادرون على التمرد على مرادات الحق ؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته فى التأبى على قبض روحه ، أو أن الملائكة يبالغون فى النكاية بهم كأن نقول لواحد : اخنق نفسك وأخرج روحك بيديك أو : أخرجوا أنفسكم من العذاب الذى يحيق بكم .

و« عذاب الهون » هو العذاب المؤلم وفيه ذلة . وأساليب العذاب فى القرآن متعددة ، فيقول مرة : « من العذاب المهين » أو وأعد لهم « عذاباً مهيناً » أو ولهم «عذاب أليم » فمرة يكون العذاب مؤلماً لكن لا ذلة فيه ، ومرة يكون العذاب مؤلماً وفيه ذلة . وكما أن النعمة فيها تعظيم فالنقمة فيها ذلة . ولنضرب هذا المثل — ولله المثل الأعلى ، فالله سبحانه منزه عن أى تشبيه — : قد نجد حاكماً يعتقل إنساناً ويأمر بأن يجلس المعتقل فى قصر فخم له حديقة ، لكن حين يأتيه الطعام ، يقول له الحارس : خذ اسمم ، وفى ذلك إهانة كبيرة .

ولماذا يذيقهم الحق العذاب المهين ؟ تأتى الإجابة من الله : « بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » . كأن يقول واحد: أوحى إلى ولم يوح إليه شىء . وهم أيضاً يستكبرون على الآيات التى يؤمن بها العقل الطبيعى ، ويقول الحق :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ٩٤

وقوله الحق : « ولقد جئتمونا فرادى » أي أن كلاً منكم يأتي إلى الله فرداً عما كان له في دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كل منهم لله وليس معه الأصنام التي لدعى أنها شركاء لله ، واتخذهم شفعاء له . و« فرادى » جمع « فَرْدَان » أو « فريد » مثل « سُكَارى » جمع « سكران » و« أسارى » جمع « أسير » ، إنهم يأتون إلى الله زمرا وجماعات ، ولكن كل منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ، بدليل أنه قال : « وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

و« خوّله » أي جعل له خَدَمًا من الأتباع ومن المريدين ، ومن المقدَّر والمضيَّق عليهم في الرزق ومن العائشين في نعمته ، جاء كل منهم منفردا عما له في الدنيا كما خلقكم الله أول مرة ، أي كما دخلتم في الدنيا !

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

وقوله الحق : « جئتمونا » أي كأن الإنسان الذي أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب معترفاً أنه يستحق هذا العذاب إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله والتوبيخ لنفسه التي انصرفت عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب .

﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾

أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

« البين » هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين وبينهما « بين » فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلاً ، أقول : تقطّع هذا ، أى وقع التقطع بينكما ، و انفصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلا فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .

وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التى يشركونها فى العبادة ؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكا مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : « لقد تقطّع بينكم ».

ويواصل سبحانه : « وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون » ، و« ضلّ » أى تاه وغاب ، ماكنتم تبحثون عنهم فلا تجدونهم مصداقا لقوله الحق :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

بعد ما تكلم الحق عن التوحيد والنبوات ، ومن كانوا يحاكون ويعارضون ويناوئون تلك النبوات ويكذبونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعدّه لهم استبقاء حياتهم ، وكيف سخّر لهم كل الكون بما فيه.. جماداً ونباتاً وحيواناً ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن

الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما أنعم عليك به من النعم ، ومادام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كلمته سبحانه ؟ أيها المخلوق أنت تتربى على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل واعرف .

« إن الله فالق الحب والنوى » وساعة تسمع لفظ الجلالة أي علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ما عرفته وما لم تعرفه ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قيوم عليه ، وهذا الخلق وتلك القيومية تقتضي صفات متعددة تقتضي قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقبضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتي لك بصفات القدرة ، وصفات الجمال و يذكرها ويعددها لك يقول سبحانه عن نفسه . « الله » ؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته . ونحن نقول في بدء كل عمل . بسم الله ، وفي ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أي عمل ، لأن أي عمل يحتاج إلى قدرة ، فتقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فتقول . « باسم العليم » ويحتاج إلى حكمة فتقول : « باسم الحكيم » ويحتاج عزة فتقول « باسم العزيز » وقد يحتاج الى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول . « باسم القاهر » إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أن تقول باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فتقول : بسم الله ؛ لأن اسم الجلالة وهو «الله» هو الجامع لكل صفات الكمال .

« إن الله فالق الحب والنوى » ، فالق أي شاق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فلقتين « والحب » ما لا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، وتجد في قلب النواة شيئاً آخر وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ ، وفي كل بذرة تجد فيها شيئاً ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتي تتجلى في أنني أفلق الحب وأفلق النوى ، وهناك حبوب مفلوقة جاهزة ، مثل حبة الفول مثلاً وحبة العدس

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئا عجباً !!

فحين تأتى لنواة البلح أو حبة الشعير ، وتضعها فى الأرض فى بيئة استخراجها ، وبقليل من الرطوبة ، تجد الفلقتين قد خرج منها نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الزبان الضعيف بين الفلقتين ويتكون ما يسمى بالجذير . وهكذا نجد سر الحياة يأتى من الفلقتين ، وإن نزعت هذا الجذير تنتهى الحياة . ولذلك وجدنا من يتعجب حين اقتحم أعشاش النمل ووجد فى العش قطعاً صغيرة مفتتة بيضاء بجانب العش ، واكتشفوا أن هذه هى زبانات الحب الذى يدخله النمل للعش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كاملة فقد تأتى لفحة من رطوبة فتكبر هذه الحبة ، وتنمو وتصير شجرة تفتك بالعش ، فمن الذى هدى النمل إلى أن تفعل هكذا ؟ إنه الله. ونجد النمل يفلق حبة نبات « الكزبرة » إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذى علمه ؟ إنه سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الأعلى)

والعجيب أنك حين ترى النبتة الضعيفة ساعة أن تخرج إلى الحياة وهى التى ستكون من بعد ذلك جذراً إنها هشة رهيفة إن أمسكتها بيدك تسحقها ، لكنها تخترق قلب الأرض الصلبة التي لو ضربتها بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يدخل فى قلب الصخر والأرض ، فأى قوة أعطته ذلك ؟ أي قوة تخرق له الأرض ؟ وهل الجذير هو الذى خرق الأرض أو خُرقت له ؟ لقد خرق الحق الأرض للبذرة لتستخرج منها غذاء للزرع ، إنها قدرة الحق سبحانه « فالق الحب » الذى ادخر فى فلقتين اثنتين قوتاً للنبات إذا مسته رطوبة تتغذى عليها الرويشة إلى أن ترى الجذور ، ويستمد النبات غذاءه من الفلقتين إلى أن ينبت ويتمكن فى الأرض ثم تتحول الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحانه : « يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ». وحين تأمل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحوا لنا ما الحى ؟ وما الميت؟

فات الجميع أن يعرفوا ما هي الحياة؟ الحياة هي قيام الموجود بما يؤدي به مهمته ، فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجرى ، ثم هناك حياة ثانية في الحيوان ، وحياة ثالثة في النبات، وحياة ذات طابع مختلف في الجماد . مثلما علمونا في المدارس حين كان المدرس يمسك بقضيب ممغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب فيه لون معين من الحياة؛ وكلنا رأينا في المدارس الأنبوبة الزجاجية التي وضعوا فيها برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس ، وتعتدل وتصير في مستوى واحد ، وهكذا نعرف أن الحياة هي الطاقة الموجودة في كل كائن ليؤدي مهمته حتى الأحجار يختلف فيها أشكال الحياة، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وآخر يأخذ شكل المرمر، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ في القرآن :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة ؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ، ويقول سبحانه في آية أخرى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن ما دام كل شيء هالكاً ، فكل شيء فيه حياة ، والخطأ أن تظن أن كل حياة تتشابه في الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة في كل شيء بحسبه ، إلى أن تقوم القيامة ، فكل شيء حي به حياة تناسبه ، وحين نسمع :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

تقول : نعم كل من يسبح بحمده يقول قولاً ، وإياك أن تقول إنّه تسبيح دلالة ؛ لأن بعضهم يقول: إن هذا تسبيح دلالة على الخالق ، ونقول ، لو أن الذي يقصده الله تسبيح دلالة على خالق لما قال : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

إذن ، فلا أحد منا يفهم لغة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليه السلام قول النملة وتبسم لها ضاحكاً ، وكذلك ما سمعه من الهدهد ، وكذلك تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن كل كلمة لها دلالتها ومعناها ، فكلمة العلم تدلنا على إحاطة علمه بكل شيء في الوجود ، وكلمة الحكمة تدلنا على أن كل شيء منه يصدر عن حكمة . وكلمة الرزاق تدلنا على أن كل مرزوق في الوجود إنما أخذ من فيضه وخيره ، وهكذا إلى ما لا نهاية لكماله من صفات ذاته . وكلمة « الله » تدل على كل صفات الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : « الله » فهذا الاسم : يشمل القادر ، العالم ، الحكيم ، القدير ، وكل صفات الحق ما علمت منها وما لم تعلم ، ما دامت ذاته سبحانه وتعالى متصفة بكل صفات الكمال ، فالواجب أن يكون كل فعل يصدر عن ذاته المتصفة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك فإنما يلفتنا إلى أن كل شيء كائن في الوجود إنما هو من خلق الله ، وأن له حياة تناسب مهمته ، فالإنسان له حياة تناسب مهمته . والحيوان له حياة تناسب مهمته ، والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته . وإذ نظرت إلى الأشياء كلها بهذا المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكن الحياة الكاملة بكل مقوماتها وجدت في الأعلى من المخلوقات وهو الإنسان ، والله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الحياة حساً وحركة ، ثم أعطاه حياة أخرى هي التي تُصعِّد

حياته وتجعل لحياته قيمة ؛ لأن حياتنا التي نعيشها إنما يتمتع بها المؤمن والكافر، وقصارى ما فيها أن تعطينا الحس والحركة قدر عمرنا في الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعثه الله لنا من منهج على يد الرسول . تعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأرغد، وهذه هي الحياة الحقة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

وهذه هي الحياة الحقيقية وقول الحق : « إن الله فالق الحب والنوى » هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم عن الحياة وأنه يخرج حياً من ميت ، وهو هنا قد خاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشياء ؛ فالشيء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شيء في الوجود له حياة . مصداق ذلك قوله جلت قدرته : « كل شيء هالك إلا وجهه » .

وما دام كل شيء هالكاً فكل شيء قبل أن يهلك كان فيه حياة

والله سبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(آل عمران)

ولماذا جاء في هذه الآية بـ « تخرج » وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قوله : « ومخرج الميت من الحي » ؟ إنّ الذين بحثوا هذا البحث نظروا نظرة سطحية في المقابلة الجزئية في الآية ، وهي : « يخرج

الحي من الميت » وقال : «ومخرج الميت من الحي » ونسوا أنه سبحانه قال: إنه يخرج الحي من الميت ، ببيان أن الله فالق الحب والنوى ليخرج الحي من الميت أي أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحي من الميت . .

ثم قال «ومُخرج الميت من الحيّ » هو مقابل لفالق فلا تأخذها مقابلة للجزئية في الآية ؛ ولأن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث ؛ فالحق سبحانه وتعالى له صفة في ذاته ، وصفة في متعلقات هذه الذات ؛ فهو سبحانه وتعالى رزّاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه هو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخالق ، والخالق صفة للذات وإن لم يوجد المتحقق ، وهو سبحانه المحيي قبل أن يوجد من يحييه ، لأن صفته في ذاته أنه يحيي ، ويميت قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة في ذاته .

وسبحانه فالق الحب والنوى أي قبل أن يوجد الحب والنوى الذي يفلقه ، ومخرج الحي من الميت هو صفة ثابتة في ذاته قبل أن يوجد متعلقها . وله صفة - أيضاً - بعد أن يوجد المتحقق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلّق جاء بالاسم « فالق ومخرج » وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد ، يقول : « يخرج » ، « يخرج » .

ويذيل الحق الآية :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الأنعام)

و «ذا » اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبحانه فالق الحب والنوى ومن يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي وهو الله والكاف في قوله « ذلكم » لمن يخاطبهم وهم نحن ، أما اللام من « ذلكم » فهي للبعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أن يخاطب رسوله ، يقول :

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

(من الآية ٢ سورة البقرة)

ولكنه هنا يخاطبنا فيقول « ذلكم » إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى: الله ، وفالق ، ومخرج ، والخطاب لجمهرة المخاطبين بالقرآن ، فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف يتصرفون عن الإيمان به وتوحيده ؟ وذكر لنا أول مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو ما نأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحب وخلق النوى ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبوداً فكيف تصرفون عنه ؟! وإلى من تصرفون ؟! إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات ؟!! لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات

وإذا سمعت كلمة : « أنى » فافهم منها أنها تأتي للتعجيب ، تأتي وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين

ومرة يقول الحق سبحانه

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله ؟ فالله في ذاته يستحق ألا يكفر به ؛ لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمدّ من عُدْم ، ولم يشاركه أحد أو ينازعه في هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به ؟ وهذا تعجيب كبير ؛ لذلك يقول سبحانه هنا : « فأنى تؤفكون » أي فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون - مع الله - إلهاً آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له - سبحانه - وليست لغيره ؟ وكل تعجيب يأتي في « أنى » مثل قوله الحق :

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أي كيف يحيي هذه الله بعد موتها ؟

ويقول سيدنا زكريا لسيدتنا مريم : ﴿ أنّى لك هذا ﴾

إذن فالتعجب ملازم لكلمة « أنّى » فكأن الصفات التي تقدمت صفات موجبة للإيمان بالله واحداً قهاراً مربياً عادلاً حكيماً نرجع إليه جميعاً ، فقولوا لنا : كيف تكفرون بهذا الإله ؟ وإلى من تذهبون إذا كان هذا الإله يُكفر به ؟ أهناك شيء ادّعى أنه خلق وأنه رزق ؟ لو أن شيئاً ادّعى أنه خلق أو رزق لكان لعذركم ، لكن لم يدّع شيء في الوجود أنه خلق أو رزق ، والدعوة تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض .

« فأنّى تؤفكون » وكلمة « أنّى تؤفكون » تعني كيف تصرفون انصرافاً كذباً ؛ لأن « الإفك » معناه الكذب المتعمد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦ ﴾

وسبحانه يأتي بآية أخرى من الآيات المعجزة كما جاء بالآية الأولى في أنه هو الذي خلق لنا ما يقيم حياتنا .

« فالق الإصباح وجعل الليل سكناً » . ومعنى « فالق » أي جعل الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفي واحدة عن الأخرى ، إذ

لابد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكناً ؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح الأشياء أمام رؤية العين ، لأننا نعلم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع الأشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى منك حطمتك . إن السير في الظلمات التي لا يوجد فيها نور يهدي الإنسان إلى مرائيه قد يؤدي إلى خسارة الأشياء .

إننا في الصباح نعمل ونسعى في الأرض ، وتملأ الدنيا حركة . فإذا ما أصابنا الكد والتعب والنصب من الحركة فالمنطق الطبيعي للكائن الحي أن يستريح ويهدأ ويسكن لا بحركته فقط ولكن بسكون كل شيء حوله ؛ لأنك إن كنت ساكناً ويأتي لك ضوء فهو يؤثر في تكوينك ، ولذلك يقولون الآن : إن « الأشعة » التي يكتشفون بها أسرار ما في داخل جسد الإنسان تترك آثاراً .

إذن فالإشعاع الصادر من الشمس يمنعه عنك الله ليلاً حتى يستريح الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة وافدة عليه ، وهكذا تكون نعمة سكون الليل وظلمته مثل نعمة الصباح ، وكلاهما تتمم الأخرى ، ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى في أول السورة قدّم الظلمات على النور .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

لأنك أنت لا تستطيع أن تتمتع بحركتك في النور إلا إذا كنت نشيطاً ومرتاحاً أثناء الليل . فإن لم ترتح كنت مرهقاً ولن تستطيع العمل بدقة في حركة النهار . إذن فالظلمة مقصودة في الوجود . ولذلك فالحضارة الراقية هي التي تنظم حياة الإنسان ليعمل نهاراً ويستريح ليلاً ، حتى لا يستأنف عمله في الصباح مكدوداً . ومن يرى ريف مصر هذه الأيام يفاجأ بأن أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة التلفزيون ، ويقومون إلى العمل في الصباح وهم مكدودون مرهقون .

ونقول : لا تأخذ الخسارة من قمتها ، ولا تأخذ الخسارة من أسفلها ؛

فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تخمد وتسكن ليلاً ، ومن يسير في الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يخرج من بيته ، ولا تسمع صوت ميكروفون في الشارع ؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر في بلادنا : فالشوارع تمتلىء بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء اللازم ، ومن يتعبد تخرجه الضوضاء من جو العبادة ، وتجد من يصف ذلك بأنه نقلة حضارية !!

ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها في الوجود النافع لك ، وحين يأتي الليل عليك أن تمسىء المصباح حتى تهجع ولاتتشاغب فيك جزئياتك وتكوينك

وسبحانه يقول : « فالق الإصباح » . و« فالق » ـ كما قلنا ـ تعنى شاقق ، فهل الإصباح ينفلق ؟ . وبماذا ؟. ونقول : إن « فالق » هي اسم فاعل ، مثلما نقول : « قاتل الضربة » أي أن الضربة من يده قاتلة

و« فالق الإصباح » معناها أن الصباح ينفلق عن الظلمة ؛ لأن الظلمة متراكمة وحين يأتي الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها ليخرج النور ، وتعنى « فالق الإصباح » أيضاً أن الفلق واقع على الإصباح فيأتي من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البياني في القرآن ؛ لأن الذي يتكلم إله

وامرؤ القيس قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

والصبح والإصباح معناهما واحد

هل الصبح من طلوع الشمس ؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس ؟ يأتي الإصباح أولاً وهو النور الهادىء ، ونجد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان في عينيه يقومون بفك الأربطة التي

ساعد الجرح على الالتئام ، يفكوها بالتدريج حتى لا يخطف الضوء البصر فوراً ، ومن رحمة الله أن خلق عزة الصبح بضوئها الهادئ قبل أن تطلع الشمس بضوئها كله دفعة واحدة . فكان الصبح جاء ليفلق ظلمة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جاءت الشمس فلقت الصبح .

إذن الإصباح فالق مرة لأنه شقّ الظلمة وفلقها ومفلوق مرة أخرى ؛ لأن الظلمة جاءت بعده . إذن فاسم الفاعل قد أدى مهمتين . المهمة الأولى : فالق الإصباح أي دخل بضوء الشمس . وإن قلنا : إصباحه فالق ، أي ظلمة الليل الأولى فلقت. إذن فالإصباح فالق مرة ، ومفلوق مرة أخرى وسبحانه حين يقول : « فالق الإصباح وجعل الليل سكناً » يريد أن يعطي شيئين اثنين ؛ لأنه هو في ذاته فالق الإصباح . فيأتي بالاسم ليعطي لها صفة الثبوت ، ثم جاء بـ « وجعل الليل سكناً » صفة الحدوث بعد وجود المتعلق . فإذا أراد الصفة اللازمة له قبل أن يوجد المتعلق يأتي بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلق يأتي بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور الثبات في قوله الحق :

﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

الكلب هنا على هذه الصورة الثابتة ، وحين يريد القرآن أن يأتي بالصفة التي تتغير ، يأتي بالفعل

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

وكان القياس أن يقول . فأصبحت الأرض مخضرة ؛ لأنه قال : « أنزل » لكنه يأتي بالتجدد الذي يحدث « فتصبح الأرض مخضرة » .

ويتابع الحق : « والشمس والقمر حسباناً » ونحن نعرف الشمس والقمر وجاء بعد ذلك بكلمة « حسباناً » ، على وزن فُعْلان ، وهذا ما

يدل عادة على المبالغة مثلما تقول : فلان والعياذ بالله كفر كفراناً . ومثلما تدعو . غفر الله لك غفراناً . فحين نحب أن نبالغ نأتى بصيغة فُعْلان . وجاء القرآن بكلمة « حسبان » فى موضعين اثنين فيما يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها « والشمس والقمر حسباناً » ، وفى سورة الرحمن يقول الحق سبحانه .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ (سورة الرحمن)

وما الفرق بين التعبيرين ؟ « حسبان » هنا تعنى أن نحسب الأشياء ، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس بـ ٣٦٥ يوماً وربع اليوم وهى تمر بالبروج فيها خلال هذه المدة ، والقمر يبدأ بروجه كل شهر فى ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكنا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت لا تقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل نحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم يكبر ويكبر ويكبر ولذلك يثبت رمضان عندنا بالقمر لا بالشمس . واليوم نثبته بالشمس

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر يقومان ويعملان في حسابنا للأيام والشهور ، والاثنان حسبان الشمس لها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة «حسبان» تفهم أن الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شيء آخر ؛ لأنهما خلقتا بحسبان ، أي أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة بحساب ، وكذلك القمر .

وتعال إلى الساعة التى نستعملها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر للدقائق ، وثالث للثواني ؟ . وهذا أقل ما قدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا نقسم الثانية إلى أجزاء مثلما عملنا في المساحات ؛ فهناك المتر ، والسنتيمتر ، والمليمتر ، ثم بعد ذلك قلنا الميكروملليمتر . إذن ، كلما نرتقى في التقدم العلمى نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا نحسب بهما الأشياء إلا إذا كانت مخلوقة بحساب.

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قفزة عقرب الثوانى ولكنك لا تدرك

حركة عقرب الدقائق، وكذلك لا ندرك حركة عقرب الساعات، وكل من العقارب الثلاثة يدور «بمسلك» وترس معين. إن اختلت الحركة في مسلك أو ترس، ينعكس هذا الخلل على بقية العقارب، والثانية محسوبة على الدقيقة، والدقيقة محسوبة على الساعة.

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنوعة بهذا الحساب الدقيق فهي لن تعمل جيداً. وهكذا لا نعتبر الساعة معيارا لحساب أوقاتنا إلا لأنها في ذاتها خلقت بحساب. والحق سبحانه يقول: «الشمس والقمر بحسبان» أي نحسب بهما لأنهما مخلوقتان بحسبان، أي بحساب دقيق، وهنا لم يقل الحق حساباً وجاء بحسبان هنا، وحسبان في آية سورة الرحمن*. ذلك لأن الأمر يقتضي مبالغة في الدقة. فهذا ليس مجرد حساب، لكنه حسبان.

ويذيل الحق الآية بقوله: «ذلك تقدير العزيز العليم». وكلمة «العزيز» تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أن يعلو عليه، فهذه الأجرام التي تراها أقوى منك ولا تتداولها يدك، إنها تؤدي لك مهمة بدون أن تقترب منها، فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها، مثلما تفعل في الساعة التي اخترعها إنسان مثلك، والشمس لها قوة قد أمدها الله خالقها بها ولا شيء في صنعته ولا في خلقه يستعصي عليه. فهذا هو تقدير العزيز العليم، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة في كونها حسبانا نحسب عليها. فهو جل وعلا خالقها بتقدير عزيز لا يغلب، وهو عزيز يعلم علما مطلقا لا نهاية له ولا حدود. ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾

وبعد أن أوضح سبحانه أنه قد خلق الشمس والقمر بحسبان لتكون حسبانا نهتدي به، وهو العزيز العليم، إنه ـ سبحانه ـ يضع لنا مهمة النجوم فقال: «لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر». والنجوم هي

الأجرام اللامعة التي نراها في السماء لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ؛ ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب في الأرض ؛ والسير ليلا في الأرض أو البحر مثل من يحرسون ويشيعون الأمن في الدنيا ولا يمكن أن يناموا بالليل بل لا بد أن يسهروا لحراستنا ، كل ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدي بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون في الأرض أو يمشون في البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم ؛ يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلاني أمام عينيك ، وسر فوق الحي الفلاني واجعل النجم الفلاني عن يسارك وامش تجد كذ ، أو اجعل النجم الفلاني خلفك وامش تجد كذا .

إذن لو طمّت الظلمة لمَنعت الحركة بالليل ، وهي حركة قد يضطر إليها الكائن الحي ، فجعل الحق النجوم هداية لمن تجبرهم الحياة على الحركة في الليل .

وعلى ذلك فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لو كان القصد منها أن نهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، لكانت كلها متساوية في الأحجام ، لكننا نرى نجماً كبيراً ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر في الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر ، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها في حركة الإنسان براً وبحراً ، فليست هذه هي كل الحكمة ، هذه هي الحكمة التي يدركها العقل الفطري أولا ؛ لذلك يأتي الحق في أمر النجوم بقول كريم آخر ليوضح لنا ألا تنحصر الحكمة في الهداية بها ليلا براً وبحراً فيقول : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فلم يقل - سبحانه - يهتدون في ظلمات البر والبحر . إذن - النجوم - لها مهمة أخرى ، إنه جلت قدرته يقول :

﴿ فلا أُقسمُ بمواقعِ النُّجومِ ﴿٧٥﴾ وإنَّهُ لقسمٌ لوْ تعلمُونَ عظيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

وكل يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المذنب الذي يقولون عنه الكثير ، وها هي ذي نجوم جديدة تكتشف تأكيداً لقول الحق :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾

(سورة الذاريات)

أي أنه سبحانه قد خلق عالمًا كبيرًا. وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامتداداتك في النظر الطبيعي الذي لا تستخدم فيه آلة إبصار، وأخذت منه بالنظر المعان الذي تستخدم فيه التليسكوب والميكروسكوب، وغير ذلك من أقمار صناعية. ولذلك يقول الحق سبحانه: «فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» وبعض العلماء يقول: إن كل إنسان يوجد في الوجود له نجم، وترتبط حياته بهذا النجم، وحين يأفل النجم يأفل قرينه على الأرض، وهناك نجوم لامعة ندرك حصاءها، ونجوم أخرى غير لامعة وبعيدة عنا، ويقال: إنها تخص أناسًا لا يدري بهم أحد لقلة تأثيرهم بأعمالهم في الحياة. ويتقدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح: إني خلقت لكم الأشياء مما قدرتم بعقولكم أن تصلوا إلى شيء من الحكمة فيها، ولكن لا تقولوا هذه منتهى الحكمة، بل وراءها حِكَم أعلى، فسبحانه هو الحكيم القادر، إنك قد تدرك جانبًا يسيرًا من حكم الله، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متناهٍ، ولا يزال في ملك الله ما لا تستطيع إدراك حكمته إلى أن يُنهي الله الأرض ومن عليها.

ويقول الحق سبحانه في تذييل الآية: «قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون» والآية هي الشيء العجيب، وتطلق على آيات كونية.

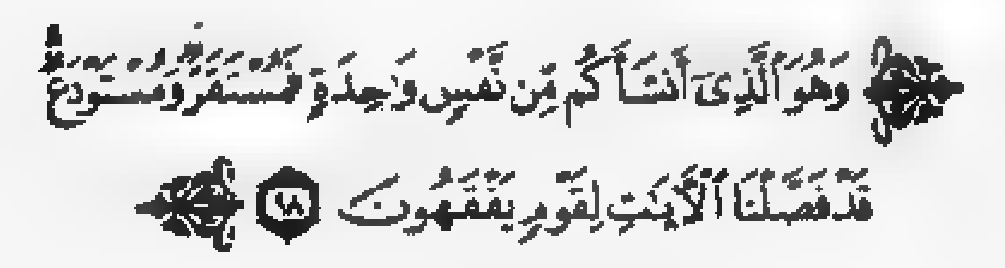
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وتطلق كلمة «آية» على الطائفة من القرآن التي لها فاصلة. إذن هناك آيات قرآنية، وآيات كونية، والآيات الكونية تعتبر مفسرة للآيات القرآنية؛ فتفصيل الآيات في الكون مستمر من تعددها أشكالاً وألوانًا وحكمًا وغايات. وتفصيل الآيات في القرآن هو ما ينبهنا إليه الحق في قرآنه ليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل في آيات الكون وذلك الخلق العجيب الحكيم

الذى لا يمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحَّداً ، ويستحق أن يكون إلهاً معبوداً .

ويقول الحق بعد ذلك :



وقد تكلم سبحانه لنا - أولاً - عن الآيات المحيطة بنا والتى بها قوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حولك ، ثم يتكلم عن شىء فى ذواتنا ليكون الدليل أقوى ، إنه - سبحانه - يأتى لك بالدليل فى ذاتك وفى نفسك ؛ لأن هذا الدليل لا يحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ما حولك ، بل الدليل فى ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى يكفى أن تجعل من نفسك مثلاً ، هذا العالم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

«وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه - أيضاً - استقراء فى الوجود ، الذى نسميه التنازل للماضى ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالم فى هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه فى القرن الذى قبله ، تجده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلت فى الزمن الماضى وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى «نفس واحدة» ، وهذا ما ذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول . كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(سورة الذاريات)

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائي في الزمن الماضي يدل على صدق القضية وكذلك كل شيء متكاثر في الوجود من نبات ومن حيوان تجمعت تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضي تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهي إلى أصل منه التكاثر إنه يحتاج إلى اثنين .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ولماذا جاء الحق هنا بقوله «من نفس واحدة» ولم يقل زوجين ؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الالتحام الشديد ؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا ـ كل الخلق ـ منها أبعاض من النفس الواحدة ، وقلت من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناه في قارورة ، ثم رججنا القارورة سنجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قد شاع في القارورة وصار في كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، وهب أننا أخذنا القارورة ووضعناها في برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سنجد أيضاً أن في كل قطرة من البرميل جزءاً من المادة الملونة . فإذا أخذنا البرميل ورميناه في البحر فستنساب المادة الملونة لتصير في كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة .

إذن مادام آدم هو الأصل ، ومادمنا ناشئين من آدم ، ومادام الحق قد أخذ حواء من آدم الحي فصارت حية ، إذن فحياتها موصولة بآدم وبعضه من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حي ، وبذلك يرد الحق سبحانه إلى أصل واحد ؛ ليثير ويحرك فينا أصول التراحم والتواد والتعاطف .

ويقول سبحانه « فمستقر ومستودع » والمستقر له معان متعددة

يشرحها الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه . وفى قصة عرش بلقيس نجد سيدنا سليمان يقول :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وأجاب على سيدنا سليمان عفريت من الجن ، وكذلك أجاب من عنده علم من الكتاب ، ويقول الحق سبحانه

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

مستقر هنا إذن تعنى حاضراً ؛ لأن العرش لم يكن موجوداً بالمجلس بل احضر إليه . وفى مسألة الرؤية التى شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ونعلم أن الجبل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن فـ «استقر» تأتى بمعنى حضر ، وتأتى مرة أخرى بمعنى ثبت

والحق يقول

﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأعراف)

وذلك بلاغ عن مدة وجودنا فى الدنيا ، وكذلك يقول الحق .

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الفرقان)

إذن فالجنة أيضاً مستقر، وكذلك النار مستقر للكافرين، يقول عنها الحق:

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

إذن فمستقر تأتي بمعنى حاضر، أو ثابت، أو كتعبير عن مدة وزمن الحياة في الدنيا، والجنة أيضاً مستقر، وكذلك النار. ولذلك اختلف العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى، منهم من يقول: «مستقر» في الأصلاب ثم استودعنا الحق في الأرحام. ومنهم من رأى أن «مستقر» مقصود به البقاء في الدنيا ثم نستودع في القبور.

ونقول: إن الاستقرار أساسه «قرار» حضور أو ثبوت، وكل شيء بحسبه، وثمة استقرار يتلوه استقرار يتلوه استقرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير، وهو مايطمع فيه المؤمنون.

وهذا هو الاستقرار الذي ليس من بعده حركة، أما الاستقرار الأول في الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال، لقد كنا مستقرين في الأصلاب، ثم بعد ذلك استودعنا الحق في الأرحام، وكنا مستقرين في الدنيا ثم استودعنا في القبور حتى نستقر في الآخرة. إن كل عالم من العلماء أخذ معنى من هذه المعاني. والشاعر يقول:

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن ترد الودائع

ونلحظ أن هناك كلمة «مُسْتَقَرّ» وكلمة «مستودع»، و«مستودع» هو شيء أوقع غيره عليه أن يودع. لكن «مُسْتَقَرّ» دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان. فكل واحد منا «مُسْتَقَرّ» به.

ويقول الحق: «قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون» والتفصيل يعني أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة؛ لأن الأفهام مختلفة، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل

تفصيل حالة من حالات النفس البشرية ؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألا يفقه، ولم يترك لأحد مجالاً في ألا يتعلم ، ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف ؛ فهناك يقول سبحانه :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنعام)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الأنعام)

و« الفقه » هو أن تفهم ، أي أن يكون عندك ملكة فهم تفهم بها ما يقال لك علماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية

وأراد الحق بالتفصيل الأول في قوله « لقوم يعلمون » الدعوة للنظر في آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أي في قوله سبحانه : « لقوم يفقهون » لفت للنظر والتدبر في آيات داخلة في ذات الإنسان .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي

﴿ ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

كان السياق يقتضى أن يقول سبحانه : أنزل من السماء ماء « فأخرج »

لكنه هنا قال : « فأخرجنا » ؛ لأن كل شيء لا يوجد لله فيه شبهة شريك ؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج النبات لأن الأرض أرض الله المخلوقة له والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعقل خلقه الله وبالطاقة المخلوقة له . وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذى عمل ، لكنه احترم تعبك ، وهو يوضح لك حين قال : « فأخرجنا » أى أنا وأسبابى التى منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإن نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شيء وإن نظرت إلى ظاهرية التجميع والحركة فالأسباب التى باشرها الإنسان موجودة ؛ لذلك يقول : « فأخرجنا ».

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم فى بعض المواقف فيثبت للإنسان عملاً لأنه قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفى عنه عملاً آخر ليس له فيه دخل بأى صورة من الصور ؛ مثل قوله الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

سبحانه هنا ينسب لنا الحرث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه - سبحانه - فهو الذى أنزل لنا الحديد الذى صنعنا منه المحراث وهدانا إلى تشكيله بعد أن ألانه لنا بالنار التى خلقها له ، وبالطاقة التى أعطانا إياها ، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل ولذلك يقول سبحانه :

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الواقعة)

هنا - سبحانه - أتى باللام فى قوله تعالى : (لجعلناه) للتأكيد ؛ لأن الإنسان له فى هذا الأمر عمل ، إنه حرث وتعهد ما زرعه بالرى والكد

حتى ي وأثمر ، يكن قد تصيبه آفة تقضي عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلا أنها لاتضمن الانتفاع بثمرة الزرع ، ذلك لأن الأسباب لا تتمرد ، ولاتتأبى على الله ولاتخرج عليه ، إنما تؤدي مايريده منها الله . وقد يعطيها سبحانه أمر في قوله تعالى « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لونشاء جعلناه أجاجا » ، إنه سبحانه لم يقل لجعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكده باللام

ويقول سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ ﴾

(سورة الواقعة)

ف كل شيء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لايغتر الإنسان بوجود الأشياء ، وعليه أن يستحضر الأشياء مع إمكان إعدامها وإذا ما كان الإنسان هو الذي يحرث فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل النبات حطاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٥٩ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : « نحن قدرنا بينكم الموت » . أما عن النار فلم يقل - سبحانه - إنه يقضي عليها ويخمدها ويطفئها ، إنه - جل شأنه - أبقاها ليعلمنا ويذكرنا بنار الآخرة «نحن جعلناها تذكرة » أي لابد أن نتركها أمامكم حتى لا يغيب عنكم العذاب الأخروي « ومتاعا للمقوين » أي ونتركها - دون نقض لها وذلك لأمر آخر هو منفعة في لذيذ للذين ينزلون أماكن خالية قفراء أو للذين خلت بطونهم وأوعيتهم ومزاودهم من الطعام لأن النار تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعامهم استبقاء لحياتهم :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

والشيء هو ما يُخبر عنه ؛ الهباءة شيء ، والذرة شيء وكل حاجة اسمها شيء ، ومعنى نبات كل شيء : أن كل حاجة مثل النبات تماماً . رأينا الحجارة التي يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك رخام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وجدتها أعماراً للحجارة ، طال عمر حجر ما فصار فحماً ، وطال عمر آخر فصار جرانيتاً ، وهكذا وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهي :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

أو نبات كل شيء ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطري يأخذها هكذا ، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتعلق في الكون ويجد الآية سابحة معه وهو سابح معها

ويتابع سبحانه : « فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً » وإذا قلت كلمة « خضر » فقد تعني اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن «خضر» فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر ؛ لأن «أخضر» يخبر عن لون فقط ، واللون متعلقه العين ، لكن « خضر » يعطي اللون ، ويعطي الغضاضة ونعرفها «بالحس» . وحين نلمسه نجد النعومة .

إذن «خضر» فيها أشياء كثيرة : «لون» متعلق العين ، «وغضاضة» نعرفها بالحس وفيها نعومة نعرفها باللمس وهذا اللون الأخضر يكون داكناً جداً أي أن خضرته شديدة حتى إنها تضرب إلى السواد ؛ لذلك نسمع من يقول «سواد العراق» أي الأرض الخصبة التي في العراق ، ويسمونها سواد العراق لأنها خضراء خضرة شديدة ولذلك تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

و «مدهامة» أي مثل دهمة الليل ؛ كأنها من شدة خضرتها صارت كدهمة الليل ويتابع الحق «خضراً نخرج منه حباً متراكباً» والحب هو

مالیس له نواة مثل حبة الشعیر وحبة القمح وحبة العدس وحبة اللوبيا و«متراكبا» نعنى أنه حب مرصوص متساند .

« ومن النخل من طلعها قنوان دانية» والنخل عند العرب له مكانة عالية لأنه يعطى هم الغذاء الدائم فيذكرهم به «ومن النخل من طلعها قنوان دانية»

و «الطلع» هو أول شيء يبدو من ثمر النخل ، وهو ماسميه فى الريف «الكوز الأخضر» وهو فى الذكر من النخل الذى يسمى «الفحل» ويوجد أيضاً فى الأنثى . وأول مايبدو من ثمر النخل يسمى الطلع ، ثم يشق الطلع ويخرج منه القنو أو العزق أو العرجون ، وهو الجزء الذى توجد فيه الشماريخ التى يتعلق بها البلح

والطلع إذن هو الثمرة الأولى للنخلة قبل أن تنشق ويطلع منه القنوان وهو «السباطة» كما نسميها فى الريف

«قنوان دانية» ويصفها الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع النخل أول ما يطلع تجده يشق ويحمى نفسه بشوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم يثقل وينحنى ويكاد ينزل على الأرض فيكون دانياً قريبا ، فإن كانت هناك «سباطة» شاذة تجد من يجنيها يُدخل يده بين الشوك ليصل إليها وسبحانه يترك لنا فلتات لنعرف نعمة الله فى أنه جعلها تتدلى لأنها لو كانت كلها دانية . قد لا يلتفت إليها ، لذلك يترك واحدة بين الشوك ليتعب الإنسان حتى يحصل عليها فتعرف أنه سبحانه قد دنّى لك الباقى وهذه نعمة من الله

ويُطلق الطلع مرة على الأكمام و «الكِم» هو ما توجد فى قلبه الثمار ، ومرة يطلق على الثمر نفسه

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾

(سورة ق)

وأنت ترى البلح نازلاً من «الشماريخ» ، وكل شمروخ به عدد من

الملح، ثم نرى «الشمروخ» متصلاً بالأم ، وفى ذلك ترى عظمة الهندسة العجيبة فى ترتيب الثمار . وكل شيء محسوب فى هذا الأمر بهندسة عجيبة وعدد. ننظر إلى ما نعتمده فى حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحى ، إنّ شبكة المياه التى تعطينا الماء الذى نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحى التى تأخذ الزائد من المياه والفضلات عندما ننظر إلى هذه الشبكة أو تلك نجد هندسة كل منها دقيقة ؛ لأن أى غفلة فى التصميم تسبب المتاعب فحين نريد توصيل المياه إلى حارة ؛ فأنت تستخدم ماسورة قطرها كذا بوصة ، وفى الحارة هناك عطفات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل بلبوصات ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق هذه المسائل

فإذا كانت هذه هى هندسة البشر ، فما بالنا بهندسة الخالق ؟ أنت تجد العرق وهو حامل الرطب يأخذ من النخلة ، وكل نخلة فيها كذا «سباطة» وفى كل «سباطة» هناك «الشماريخ» ، ثم هناك البلح وكل بلحة تأخذ شعرة لغذائها . وهكذا نجد كل شيء محسوباً بدقة بالغة . إنها هندسة كونية عجيبة مصنوعة بقول الحق كن ، وصدق الله القائل

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

« وهو الذى أنزل من السماء ماء » وكلمة «وهو الذى أنزل من السماء ماء» لم نكن نعرف ماوراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هى كل ما علاك فاظلك ، والماء يأتى من السحاب ، وكنا نرى السماء تمطر وكنا نعرف التعبير الفطرى الذى يقول غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال تضحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء الذى يروى عطشها من بدور لكن ماوراء عملية الإنزال هذه ؟

إن هناك عملية أخرى تحدث فى الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتقطير المياه ، فأحضرنا موقداً ووضعنا فوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج البخار ، وسار البخار فى

الأنابيب ومرت الأنـابيب فى أوساط باردة فتكثفت المياه ونـزلت ماء مقطراً ، ومثل ذلك يحدث فى المطر ، وانظـر كم يكلفنا كوب واحـد من الماء المقطر الذى نشتريه من الصيدليـة ؟ وقارن ذلـك بالسماء التى تنزل بماء منهمر ، ولا ندرى كيف صُنع . ولذلك يقول الحق :

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) ﴾

(سورة الواقعة)

هكذا ينـزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحـانه يقول هنا :

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

وحين يقول سبحانـه «مشتبها وغير متشابه» نصـدق ، مثال حبة الخوخ ، هناك حبة من نوع نسميه «الخوخ السلطـانى» ، حين تمسك بالثمرة الواحدة تفلق لتخـرج البذرة نظيفـة ، وحبة أخـرى نفلقها نحن فنجـد البذرة فيهـا بعض لحم الفاكهة ونجـد فيهـا أيضـا بعضـاً من الألـياف . وهذه لها لـون والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف .

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

هذا ليعرف الإنسـان أن طلاقة القدرة تحقق ما يريده الخالق ، وبعد ذلك تلتفت فتجـد البرتقـال ، فهناك برتقـال بسرة ، وهنـاك برتقـال بلـدى وبرتقال يافاوى ثم اليوسفى . وبذلك سنجد فى الجنة ما يحدثنا عنه سبحانه فيقول :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة البقرة)

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعما مختلفا . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التي قام بها العلماء المعمليون ـ جزاهم الله عنا خيراً ـ لـ «حبة العنب» وجدوا أن القشرة التي تعلوها لها طبيعة «البارد» و«اليابس» ، واللحم لحبة العنب طبيعته مختلفة «حار رطب» ثم البذرة «بارد يابس» ، وهذه ثلاث طبائع في الحبة الواحدة ، وهذا شيء عجيب التكوين . وكذلك «الأترجة» وهي فاكهة كالنارنج نجد القشرة «حارة يابسة» ، واللحم فيها «بارد رطب» ، والسائل الذي في اللحم «بارد يابس» والبذرة «حار يابس» ، طبائع أربعة في الشيء الواحد ، كيف ؟ وبأية قدرة؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسألة ، وتلتفت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها بذرة ، وثمرة ثانية تأكل ما في داخلها كالجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة وتلقيها . والخوخة تأكل لحمها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آلية خلق بل إبداع خالق . وتجد الشيء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة المميزة وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب في أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن ثمار الجنة يأتي بثمار مثلها في الدنيا ؛ لأنه لو أحضر ثماراً ليس لها مثيل في الدنيا لقال الإنسان : هذه طبيعة الثمار ، ولو وجدت في الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن ها هي ذي تتشابه ، وطعومها مختلفة . إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » لحق سبحانه وتعالى لايعطي الإنسان حتى يملأ بطنه فحسب لا ،ولكنه يغذى كل الملكات في النفس الإنسانية حتى ملكات الترف ، وملكات الجمال ، وملكات الحس ، فيوضح لك قبل أن تأكل : انظر للثمر وشكله ؛ لتغذى عينيك بالمنظر الجميل حين ترى الثمرة طالعة وتتبعها حتى تنضج ، إنها مراحل عجيبة تدل على أن الصانع قيوم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم ، وهذا دليل على أن خالقها قيوم عليها . مادامت كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

«انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه»، و «ينعه» أى وصلت إلى النضج وذلك إشاعة للتمتع بنعم الكون لأن النظر إلى الثمر لايعنى أننى أملكه، فقد أراه فى حقل جارى وأنظر له وأتمتع بشكله. إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يشيع الانتفاع بنعم الله حتى عند غير واجدها، لأن أحداً لن يمنعنى من أن أنظر، فأنبسط، ومن ناحية الكمال الإنسانى هناك غذاء الملكات النفس؛ لأن النفس ليست ملكات جوع وعطش فقط بل هى ملكات متعددة، وكل ملكة لها غذاؤها. ولذلك فقبل أن يقول لى: إن الخيل والبغال تحمل الأثقال.. قال سبحانه:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

(سورة النحل)

إذن فهو يعطينى فائدة حمل الأثقال؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها، إنما الذى لايملكها فهو يرى الحصان يسير مختالاً، فيسعد برؤيته فيتمتع بما لا يملك، هذه إشاعة لنعم الله على خلق الله.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله: «إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون».

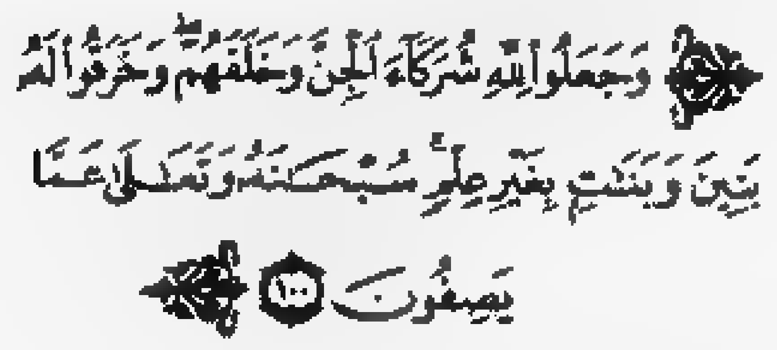
أى يؤمنون بأن الإله الذى آمنوا به يستحق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُؤْمَن به، وكلما رأى الإنسان خلقاً جميلاً قال: الله، إذن أنا إيمانى صحيح والآيات تؤكد صدق إيمانى بالإله الذى خلق كل هذا، وكل يوم تبدو لى حاجة عجيبة تزيدنى إيماناً، وعقلى الذى وهبه الله لى هدانى إلى الإيمان بهذا الإله.

ومن العجيب أن هناك من جعلوا لله شركاء!! إله له كل هذه الصفات من أول فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس، والقمر، حسباناً وحسباناً، والنجوم نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، وأنزل لنا من السماء ماء، وأخرج لنا النبات منه خضراً، كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره، لكن

هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .

وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أي استوجب علينا حمده إذ أنه هدانا إلى الإيمان، فنقول : الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه



ومادة الجن هي « الجيم » و« النون » وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليف ، ومنها الجنون ، لأن العقل فى هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لا نرى الجن ، فهم مستورون ، والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة « الجيم » و« النون » تدل على اللف والتغطية .

« وجعلوا لله شركاء الجن » و« الجن » هو الخفى عن كل شىء ، والجن - كما تعلمون - هم خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لا نعتقد أن خلق الله لمن كائن ، يجب أن يتمثل فى هذا القالب المادى، بل سبحانه يخلق ما شاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها . كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية ؛ لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى لا تدرك ولا ترى ؛ لأننا لا نعلم وجوداً لشيء إلا إذا أحسسناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك

كل ما خلقه الله ، فليس حسك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك لأن حسك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى بقانون ، بحيث إذا بعد المرئى عنك امتداداً فوق امتداد بصرك فلا تراه وكذلك أذنك تسمع ، فإن بعد الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع ، كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا فى وجودنا المادى أمثالاً تقرب لنا ذلك الخلق الخفى من الجن ومن الملائكة .

لقد وجدنا العقل البشرى قد هداه الله الذى قدر فهدى ، إلى أن يكتشف شيئاً اسمه « الميكروب » و« الميكروب » كائن حى دقيق جداً بحيث إن البصر العادى لا يدركه، ولكنه كان موجوداً، وفعل الأفاعيل فى الناس ودخل فى أجسامهم دون أن يشعروا كيف دخل وعمل فيهم وفى صحتهم ما عمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك فالميكروب كان موجوداً ومن جنس وجودنا ، أى هو مادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ فى الهيكل الذى يدرك وهو الإنسان .

وهكذا رأينا أن شيئاً خفياً لا يدرك ويهدد إنساناً ضخماً يدرك ، فهل معنى اكتشاف الميكروب أننا أوجدناه ؟ لا ، إن وجود الميكروب شىء ، وإدراك وجوده شىء آخر ، وإذا حللنا « الميكروب » نجد أنه من مادة الإنسان ولكنه دقيق جداً حتى إن العين المجردة لا تراه ، فلما اكتشف المجهر وكبرناه عرفناه ، وهذا الكائن الحى إن كنت لا تراه ، فعدم رؤيتك له سابقاً لا تعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ولكنك لم تدركه ، ثم اكتشفت ـ أيها الإنسان ـ آلة جعلتك تدركه ، ولنعرف أن وجود شىء لا يعنى أنك من الضرورى أن تدركه ، فإذا قال الله لك : لى ملائكة من خلقى ، ولى جن من خلقى ، ولكنكم لا ترونهم وهم يرونكم ، فقول : صدقت يا ربى ، لأن شيئاً من جنس مادتنا كان موجوداً ولا نراه ثم بعد ذلك رأيناه.

إذن فالأشياء التى نكتشفها الآن هى دليل على صدق البلاغ القرآنى بما

أخبر به من الأمور الغيبية، الجن مستور ، والمادة كلها ـ كما بينا ـ تدل على الستر ، فالمجنون غياب العقل ، وجن الليل ، أي ستر وغطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذي يسير فيه فتكون ساترة لمن يدخلها .

إذن المادة كلها تدل على الستر . وهل الذي نتعجب منه أنهم جعلوا الجن شركاء ، أو أن التعجيب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جناً أم غير جن ، إن التعجيب هنا من المبدأ نفسه ، فنحن لا نعترض فقط على أن الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم المجعول ـ وهو الشريك ـ على المجعول منه ـ وهو الجن ـ مع أن العادة أن يقدم المجعول منه على المجعول ، فتقول جعلت الطين إبريقا أي : أن الطين كان موجوداً ، وأخذت منه الذي لم يكن موجوداً وهو الإبريق .

ثم هل كان الشركاء موجودين وطرأ الجن عليهم ؟ أو كان الجن موجوداً وطرأ الشركاء عليهم ؟ في هذه الحالة كان يجب القول . وجعلوا الجن لله شركاء ، إذن فالعجيبة ليس في أن يكون الجن شركاء ، العجيبة في المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أذهانهم سواء أكان الشركاء من الجن أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : « وجعلوا لله شركاء » وساعة تسمعها تقول: أعوذ بالله « جعلوا لله شركاء » !! ولا يهمك من هم الشركاء ، لأن مطلق مجيء شريك لله هو الأمر العجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجن شركاء ؟ ألم يقل الحق في كتابه إن إبراهيم قال :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة مريم)

وما هي العبادة ؟ العبادة هي أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وما داموا يطيعون الشياطين في وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾
(الآية ٤٠ سورة سبأ)

فقالت الملائكة .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وكيف كانوا يعبدون الجن ؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه ؛ لأن العبادة هي الطاعة ، وأنت أيها العابد لا تقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تتقرب به إلى المعبود ، إذن « افعل ولا تفعل » هي الأصل .

« وجعلوا لله شركاء الجن » ولماذا جاءوا لله بشركاء ؟ لماذا لم يعبدوهم وحدهم ويستبعدوا الله من العبادة ؟ لأن وجود شريك دليل على الاعتراف بالله أيضاً فلماذا جعلوا له شركاء؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا ويكفروا بالله وتنتهي المسألة ؟ لا ، لم يفعلوا ذلك ؛ لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدوها - مثلاً - لم تقل لهم « افعلوا » و « لا تفعلوا » وليس هناك منهج لاتباعه ، لكن أحداثاً فوق أسبابهم ولا يستطيعون لها دفعاً قد حدثت فلمن يجأرون ؟ اللآلهة التي يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لا تنفع ولا تضر ؟ لذلك اضطروا باعترافهم بالله ليلجأوا إليه فيما لا يقدرون على دفعه لا هم ولا من اتخذوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾
(من الآية ١٢ سورة يونس)

كأنه يريد عبادة الله للمصلحة فقط

« وجعلو لله شركاء الجن » . ومن العجيب - إذن - انهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والمعبود ، والتعجيب من امرين اثنين : أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والعجيبة الأخرى أنه «خلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » وما معنى خرقوا له ؟ معناها أنهم اختلقوا ؛ لأن الخرق إيجاد فجوة فى الشىء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال فى السفينة :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

وخرقوا له : أى عملوا خرقاً فى الشىء السليم الذى تأبى الفطرة أن يكون .

﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأنعام)

أما القسم الذى ادعى أن لله البنين فهم أهل الكتاب ؛ إنهم قالوا ذلك :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

أما من جعلوا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾

(سورة الصافات)

وسبحانه القائل :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾

(سورة النجم)

وهناك من العرب من جعل بين الله وبين الجن صلة نسب مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الصافات)

لقد افتروا على الحق وادَّعوا أن اتصالاً تم بين الله وبين الجِنَّة فخلقت وولدت الملائكة

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾

(سورة الأنعام)

ولماذا يقول الحق : « بغير علم » لأن العلم يؤدي إلى اليقين ، فالعلم قضية استقرائية معتقدة واقعة يقام عليها الدليل ، وهذا شيء لا واقع له ، ولا يمكن أن يوجد عليه دليل لذلك فهو قول بغير علم بل هو بجهل . هي إذن جهالة بأن يصدقوا في حاجة وأنها واقعة وهي ليست واقعة ، ولا يقام عليها دليل لأنها غير موجودة ، ولو استقام الدليل عندهم بفطرتهم المستقبلة لأدلة البيان وأدلة الكون لتبرأوا مما اعتقدوا ، ولرفضوا أن يتخذوا لله شركاء .

وقد عرض الحق قضية طرأت على الأفكار المشوشة وقالوا « شركاء » فقال : « سبحانه » ، أي تنزيهاً له عن الشرك في الذات وفي الصفات ، وفي الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات ، وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات ، ولذلك تأتي « سبحانه » في كل أمر يناقض

نواميس الكون الموجودة وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق في إطار « سبحانه »
ولذلك حينما جاء الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس
ثم عرج به في ليلة واحدة وكان ذلك أمراً عجيباً ، أمرنا الحق أن نتقبلها في إطار
قوله الحق :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(الآية ١ سورة الإسراء)

إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سَرَيْت من مكة إلى بيت المقدس ،
إنما قال : «أُسْرِيَ بي » ، وما دام قد أسرى به فالقانون في الإسراء هو قانون الحق
سبحانه فخذها في إطار سبحانه ، وهو القائل .

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ثم يأتي بما هو أوسع من إدراكك فيقول :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زوجية ، وقد أراح الكشف العلمي في
القرن العشرين بعضاً من ذلك ، فعرفنا الموجب والسالب في الكهرباء
والالكترونات ، وقوله : « ومما لا يعلمون » يفسح المجال لقضايا الكون التي تحدث
بنشاطات العقول المكتشفة

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فـ (سبحانه) تنزيها له وتقديسا عن أن يقاس بالكائن الموجود . تعالى اسمه ، وتعالت ذاته ، وتعالت صفاته وأفعاله « عما يصفون » بأوصاف لا تليق بذاته

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قال في آية أخرى :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

فإن كنت ترى في نفسك عجائب كثيرة ، وكل يوم يعطيك العلم التشريحي أو علم وظائف الأعضاء سرا جديدا فلا تتعجب من هذا الأمر ؛ لأن السماء والأرض إيجاد من عدم ، وسبحانه هنا يقول : « بديع » أي أنه - سبحانه - خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على ضوء خبرات أو نماذج سابقة ، لكن الحق سبحانه بديع السموات والأرض ، وقد عرفنا بالعلم أن الأرض التي نعيش عليها وهي كوكب تابع من توابع الشمس ، وقديما كانوا يقولون عن توابع الشمس إنها سبعة ، ولذلك خدع كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السبعة التوابع هي السموات ، فأراد الحق أن يبطل هذه المسألة بعد أن قيل سبعة . فقد اكتشف العلماء تابعا ثامنا للشمس ، ثم اكتشفوا التاسع ، ثم صارت التوابع عشرة ، ثم زاد الأمر إلى توابع لا نعرفها . وأين هذه المجموعة الشمسية من السموات ؟ وكلها مجرد زينة للسماء الدنيا ، وعندما اكتشفت المجرات والأفلاك التي

تقرب البعيد رأينا « الطريق السبني » أو « سكة التبانة » ووجدناها مجرة وفيها مجموعات شمسية لا حصر لها ، وجدنا مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالماً في الفلك يقول . لو امتلكنا آلات جديدة لنكتشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾

(سورة الذاريات)

إذن يجب أن نأخذ خلق السموات والأرض في مرتبة أهم من مسألة خلق الناس .

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾

(سورة الأنعام)

وما دام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية العالية خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فإن أراد ولداً لطرأ عليه هذا الابن بميلاد ، ولا يمكن أن يسمى ولداً إلا إذا وُلد ، وسبحانه منزه عن ذلك ، ثم لماذا يريد ولداً ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصاً قبل ادّعاء البعض أن للحق سبحانه ولداً . إن الكون مخلوق بذات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى ، وسبحانه لا يموت ؛ مصداقاً لقوله

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

والبشر يحتاجون إلى الإعقاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوي الذي خلق وهو حي لا يموت ؛ لذلك فلا معنى لأن يُدّعى عليه ذلك

وماكان يصح أن تناقش هذه المسألة عقلا ، ولكن الله ـ لطفا بخلقه ـ وضح وبين مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : « ولم تكن له صاحبة » . وماذا يريد الحق من الصاحبة ؟ إنه لايريد شيئا ، فلماذا هذه اللجاجة في أمر الألوهية ؟ . فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق ، ولا حكمة ترتب ، ولا علما يدبر، ولأي شيء ، ويجرد هذا اللون من التصور عبث ، فإذا كان الشركاء متعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه في الملك ؛ إله يأخذ ملك السماء، وإله آخر يأخذ ملك الأرض ، وإله للظلمة ، وإله للنور ، مثلما قال الإغريق القدامى حين نصبوا إلهاً للشر ، وإلهاً للخير ، وغير ذلك والحق واحد أحد ليس له شركاء يعاونونه فما المقصود بالولد والصاحبة ؟ أعوذ بالله! ألا يستمع ويرتدع هؤلاء من مثل هذا القول ؟

« وهو بكل شيء عليم » فسبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل مافيه ولايحتاج إلى معاونة من أحد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل « لا إله إلا هو » كلمة « رب » هذه هي حيثية « لا إله إلا هو » ؛ لأن إلهاً تعني معبودا ، ومعبودا يعني مُطاعا، ومطاعا يعني له أوامر ونواهٍ ، ولماذا ولأى سبب ؟ السبب أنه الرب المتولي الإيجاد والتربية ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛ لأنه هو الرب والخالق وهو الذي يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكُفْر في غفلة شهواتهم : من خلق السموات والأرض ؟ تنطق فطرتهم ويقولون .

الله هو الذى خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجها فى مفاجاة مسبقة فأنت تجد المكر والكذب .

وحين تريد أن تنزع منهم قضية صدق وتضع وتبطل قضية كذب فلتأخذهم على غفلة ودون تحضير فيقولون إن الذى خلق هو الله .

ورأينا الآلات التى صمموها ليكتشفوا الكذب ، ولبرز العملية العقلية التى تجهد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجْهد ؛ لأن صاحب الحق يستقرىء واقعاً ينطق به ولايصيبه الجهد ، لكن الذى يكذب يجهد نفسه ويتردد بين أمور ويضطرب ولايدرى بأيها يأخذ ويجيب بإجابات متناقضة فى الشىء الواحد

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وما دام هو خالق لكل شىء وهو الباقى فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة - كما قلنا - معناها طاعة الأمر وطاعة النهى - ومادام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق ليعيد لكل منها صلاحيته ؛ لذلك هو الأولى بالعبادة (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو) .

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شىء ، وقبل أن يخلق الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

إذن فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه « المؤمن » ونحن مؤمنون بالله ، وربنا المؤمن بأنه إله واحد ، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد ،

يحطف كل شيء بيريده وهو يعلم أن أى شيء لا يقدر أن يخالفه ، إنه يخطفه بقوله : « كن فيكون » ولأنه إله واحد يعلم أن أحدا أو شيئاً لم يخالفه ، لذلك يباشر ملكه وهو لعلمه بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته ، أو يقول:« مؤمن » لما خلق ولمن خلق ، أى منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤ ﴾

(سورة قريش)

لقد أوضح الحق سبحانه لنا : أنتم خلقى قبل أخدمكم فهحى أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء)

إذن فالمنطق يفرض علينا عبادته سبحانه ، والأمر المنسجم مع المقدمة ، أن لا رب ، ولا إله إلا هو ، إنه خالق كل شيء ، لذلك تكون عبادته ضرورة ، ويتمثل ذلك أن تطيعه فيما أمر ، وفيما نهى

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ وَكِيلٞ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الأنعام)

وهذه دقة الأداء البيانى فى القرآن ، فحين فى أعرافنا نقول : فلان وكيل لفلان أى يقوم لصالحه بالأمور التى يريدها ، وسبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عليك ؛ لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك، مثل الوصى على القاصر هو وكيل عليه ، ويقول للقاصر : اعمل كذا فيعمل ، وسبحانه وكيل علينا ، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذى يستجيب لدعائنا بالخير ، فلا ينفذ رغباتنا الطائشة ، ونجد الأحمق من يقول : لقد دعوت الله ولم يستجب لى ، ونقول : إنك تفهم الاستجابة أنها تؤدى لك مطلوبك ، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ويعدل من تصرفاتك ، وساعة تطلب حاجة ، إن كان فيها خير يعطيها لك، وإن كنت تظن أنها خير ، لكنها ستأتى بالشر لايعطيها لك .

وعلى من يدعو ألا يتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : قد دعوت فلم يستجب لي »[1] .

« وهو على كل شيء وكيل » أي سواء أكان هذا الشيء مختاراً أم غير مختار ؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عنه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهي مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .

وتأتى الآية التالية لتؤكد دواعي عظمته سبحانه فيقول :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئي إلى الرائي ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدوراً لكم ؛ لأنه دخل في إدراككم؛ فلو أنت أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً أبداً ، إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدعي أنك أدركتها ؟! لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة، وحين يقال «أدركه » أي لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : ﴿ إنا لمدركون ﴾.

أي لا فائدة ؛ لأن البحر أمامنا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أمسكوا وقتلونا . إذن « مُدرك » يعني محاط به . فإذا أحاطت الأبصار بالله لانقلب البصر قادراً ، وصار الله مقدوراً عليه . والقادر بذاته ــ كما قلنا ــ لاينقلب مقدوراً لخلقه أبداً .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

(سورة الأنعام)

وكل ماعدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونته، وكينونته سبحانه ليست عند أحد؛ لذلك «لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» لأنه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته، والباقي مقدور له؛ لأنه مخلوق له، ومادام مخلوقا له يكون مقدورا عليه ولم تطرأ على المخلوقين شيء جديد يجعلهم قادرين بذواتهم (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار).

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا: هل الإنسان يرى ربه أو لايراه سواء في الدنيا أم في الآخرة؟ بعضهم قال: لا أحد يرى الله بنص الآية «لاتدركه الأبصار» ونقول: لكن هناك آيات في القرآن تقول

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

(سورة القيامة)

و «ناظرة» تضمن الرؤية وتفيدها، وأيضا فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه؛ لأنه القائل

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾

(سورة المطففين)

فالكافرون محجوبون عن رؤية الله عقابا لهم. ولو اشتركنا معهم وحجبنا كما حجبوا فما ميزتنا كمؤمنين؟، إذن فالعلماء لم ينتبهوا إلى أن هناك فرقا بين الأداء القرآني وما يقولون؟ وحين يحتج عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى

﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق:

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

إذن فالله يتجلى لبعض خلقه، أما أن يراه الخلق في الدنيا فلا؛ لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق، بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك. فلما اندك الجبل خر موسى صعقا، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه؟! إذن فهو غير معد له.

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية، وتعلّى خلافهم إلى أبعد حد؛ فمنهم مجيز للرؤية، ومنهم منكر لها، وأرى أن خلافهم في غير محل نزاع؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية، والكلام هنا عن نفي الإدراك، والإدراك إحاطة، والرؤية تكون إجمالا، إنما الإحاطة ليست ممكنة، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان في المفهوم نقول: لماذا يكون الخلاف في أمر الآخرة؟ لو أن الخلاف في أمر الرؤية في الدنيا لكان هذا كلاما جميلا، ولكن الخلاف جعلتموه في الآخرة.

إن آيات القرآن صريحة في أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين، وهي زيادة في الحسنى عليهم، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول - أيضا -: لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد في الآخرة بكيفية ليست موجودة في دنيانا؟ لأننا في هذه الدنيا معدُّون إعداد أسباب - وفي الآخرة سنكون معدين إعدادا لغير أسباب.

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب، وحين تريد أن تأكل الشيء الفلاني، تقول لأهل البيت: اصنعوا لي كذا أو تشترى ما تريده، إنما هناك في الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ما تشتهيه تجده أمامك، وهذا قانون جديد لا ارتباط له بقانون الدنيا، فلماذا لا يكون في تكويننا في الآخرة أيضا قانون يمكن به أن نرى الله وفي إطار ليس كمثله شيء؟

إن في الآخرة قضايا يتفق الجميع على أنها تخالف قوانين الدنيا ونواميس العالم المعاصر لنا الآن في الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن في الآخرة سنأكل ونشرب ولكن لن توجد فضلات ؛ لأنك أنت الآن تطهى وتهضم ، وفي الهضم أنت تأخذ بعض الطعام ويبقى منه فضلات لابد أن تخرج ، لكن الطهى والهضم في الآخرة بـ « كن » وليس له فضلات ، إنه طعام بقدرة القادر ، في الجنة كل ماتريده ستناله دون أن يتمد ، وفي الدنيا أي شيء يؤخذ منه ينقص ، أما في الآخرة فلاشيء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

ويعقب الحق سبحانه وتعالى بعد القضيتين : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » فيقول : « وهو اللطيف الخبير » ولطيف تناسب « لاتدركه الأبصار » و « خبير » يناسب « وهو يدرك الأبصار » ولطيف هنا معنى خاص ، فالشيء اللطيف يستعمل في دقيق التكوين – ولله المثل الأعلى – إن الميكروب لم نعرفه إلا مؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لاتدركه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسكوب رأيناه ، وإن دق الميكروب عن ذلك فمن سيراه ، وقد اكتشف « الفيروس » ونحاول معرفة المزيد عن خصائصه ، إذن كلما دق الشيء يلطف ولا يمكن أن نراه ، فالشيء إذا لطف شرف وعلا ونقول – ولله المثل الأعلى – فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف في ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعة ما تسمع « لاطف » فهذا اسم فاعل ، مثله مثل « آكل » ، وحين نقول : « لطيف فهي مبالغة في اللطف ؛ لأنه لاطف بكل إنسان وكل كائن وهذا يحتاج إلى مبالغة ، ولذلك نقول « رحيم » وهي صيغة مبالغة ؛ لأنه يسبغ رحمته على عباده ، وأول مظهر من مظاهر اللطف هو تدبير أمورهم الدقيقة تدبيراً يحقق مصالحهم في وجودهم . إننا حين ندبر كوب ماء لكل إنسان نديرُ الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، والربع يابس ؛ لأنه جل وعلا يريد أن يوسع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتها ، كان البخر منها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبخر يكون على مستوى السطح فقط ، وهنا لايأتي السحاب بما يكفي الخلق من

الماء . لقد وسع الله سبحانه رقعة الماء كي يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب في السماء ، ويصادف منطقة باردة فينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، وتشرب الأنعام ، ونسقي الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف في الخلق نجد أموراً لا توصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعل بزاوية من زوايا لطف الله على خلقه ؛ فواحد قال : هو « سبوغ النعم » وقال الثاني : « دقة التدبير » وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير النعم على خلقه ، فالنعم التي منحها خلقه قليلة لأن خزائنه - سبحانه - ملأى وعطاياه لا تنفد ولا يعتريها نقص ، ولذلك قال سبحانه :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

أي أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفي المقابل يستكثر القليل من الطاعة من خلقه أي يعتبرها - تفضلاً منه - كثيرة ؛ لأنه هو الذي يجزي الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مأتاه وإحسانه ، فهو اللطيف الذي إذا ناديته لباك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذي منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل : « يابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول »[1] وكلها مظاهر لطف . وهو المنادي : « توبوا إلى الله » والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة »[2] وإذا قربت من الله هداك .

---

(١) رواه أحمد عن أنس

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس

ويأتى عالم آخر ممن اشتغلوا بصفات اللطف ، فيقول . الذى يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : من افتخر به أعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول . من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة . أى أنه لو منع عبده شيئا فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : « لاتدركه الأبصار » إن لطفه سبحانه يتغلغل بيا لا تستطيع أن تدركه ، وحين تحلل أنت أى أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لاتقدر أن تؤدى الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : « وهو يدرك الأبصار » مناسب لكلمة « خبير » ، ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أى مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لايستعصى عليه شىء فى ملكه ، وهو الذى يدرك الأبصار ، فقوله : « لاتدركه الأبصار » يناسبها قوله : « لطيف » تماماً كما أن « وهو يدرك الأبصار » يناسبها « خبير » ، وهذا مايسمونه فى اللغة « لف ونشر » وهو أن يأتى بأمرين أو ثلاثة ثم يأتى بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فمن مظاهر رحمته سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال :

﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

لنسكن فى الليل ، ونبتغى فضله فى النهار ، وهذا اسمه ـ كما قلنا ـ «لف ونشر»

ويقول الحق ـ سبحانه ـ بعد ذلك

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التي تأتي في القلوب كالبصر بالنسبة للعين ، و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصي ومنحه النور الذي يجلي به الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول في البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثاني في البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحديد)

وهو نور الهداية في بصائر المعنويات ، فيوضح أنه خلقتكم خلقاً ووضعت لكم قوانين لصيانتكم فقانون الصيانة في ماديات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة في معنويات الحياة خاصة بالمؤمن

وهو القائل :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور)

ونعلم أن البصائر من المعنويات والمجيء للأمر الحسّي ؛ كقولنا « جاء زيد » أو « جاء عمرو » ولكن أن تتصور البصائر وهي تأتي ، قال الحق :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة المائدة)

إنه سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتي إلينا بمشيئته

« قد جاءكم بصائر من ربكم » أي أنها بلغت من تكوينها أنها أصبحت كأنها أشياء محسة تجيء ، ولا يصح أن تقولوا إنها لم تصلكم لأنها تجيء من الرب الذي خلقنا بقدرته وأمدنا في كل شيء بقيوميته ، ومن لوازم الربوبية أن يعطي ما يهدي ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله قد بلغ ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول بلغنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقي أن تؤدوا ولاعذر لكم من المشرع الأعلى الذي خلق وهو الرب ، ولا من المبلغ المعصوم وهو الرسول

ويقول الحق تبارك وتعالى

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولله المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فيجد أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام ؟ فتقول : لاشيء . ويقول الابن : لقد بعث أبي اللحم والأرز والخضار ، فكأنه يقول لها : أين عملك يا أمي ؟

وربنا سبحانه يوضح : أنا خلقتكم ، وعملت لكم قانون صيانة ، وأرسلت لكم رسولاً تعرفون عنه أنه صادق في بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فالباقي من المسألة عندكم أنتم ، وكل واحد عليه أن يؤدي ما عليه من عمل ، إن أبصر فلنفسه ، وإن عمي فعليها . فإياكم أن تفهموا أني كلفتكم بما يعود علىّ في ذاتي ، ولا مايزيد من سلطاني شيئا ؛ لأن خيرها لكم أنتم ، ولا آمن على التشريع ممن لايفيد من التشريع ؛ لأن من يستفيد منه قد يشرّع لمصلحته ، أما الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير منتفع به .

يقول سبحانه :

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولأن الرسول عليه البلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يبلغكم المنهج، وقد خلق الله كل إنسان مختارا وهو بهذا الاختيار يُدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم، وسبحانه لم يبعث الرسول جبارا بل بعثه رحيماً؛ لذلك يقول الله في حق رسوله صلى الله عليه وسلم: «وما أنا عليكم بحفيظ» والحفيظ من أسماء الله، وهو الحفيظ لأنه شرع ليحفظ الخلق ويريد أن يجعلهم على مثال حسن واع. والرسول هو المبلغ والحق يقول:

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم. وقد حارب الرسول ليحمي الاختيار بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام تجد بعضاً من سكانها قد ظلوا على كفرهم ولم يرغمهم أحد على الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥﴾

«كذلك نصرّف» أي أنه يأتي لك بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد، وتأتي الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع، ويرقق قلوبهم، ويأتي بنماذج من الرسل، ومواقف أممهم معهم حتى تصادف في كل حال قلبا مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكانت هناك أناس قلوبهم منصرفة

عندما يكرر الأحداث وينزل فيها من التشريع والمواعظ فقد ترق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية

« وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست » ما معنى « وليقولوا درست » ؟
إنا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد ، لكن إن وجد في الذات الإنسانية نفس لوّامة فهي مَنَعة للنفس ووقاية لها فإن فعل الإنسان ذنباً تلومه نفسه فيرجع ، وإن اختفت النفس اللوّامة وصارت النفس أمّارة بالسوء ، امتنع في المجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قد طمّ . وهنا تتدخل السماء وتأتي ببيان جديد ومعجزة جديدة .

إن الفساد لا يأتي إلا من وجوه طبقات تطحن في طبقات ، والذين يُطحنون بالفساد هم من يستقبلون المنهج بشوق ، لكن الطاحن المستفيد من الفساد هو الذي يعارض المنهج . ولذلك فإن كل جماعة حاربت الرسل هم من الطاحنين للناس ، لكنّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم .

إذن فكل صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين ؛ لأن السماء لم تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقاوم له وهكذا يجعل الله لكل نبي ورسول عدواً من المجرمين ، وهذا العدو يفتن به الناس ، ويميل به ضعاف العقائد . والحق يصرف الآيات حالاً بعد حال حتى لا يثبت مع الداعي الحق إلا المؤمنون الصادقون .

ولذلك نجد أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور ، فمثلاً تأتي حادثة الإسراء فمن كان إيمانه مهتزاً ينكر الإسراء ، وذلك من أجل أن ينسحب الزبد ويبقى من يحمل الدعوة بمنهج الحق . أما من كان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يريده .

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد صرّف الآيات لينصر المطحونين ، وحينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا درست وادعوا أنه كان قاعداً في الجبل ، وتعلم من أعجمي . ولذلك نجد الحق يقول :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

ويأتي الرد من الحق

﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

إن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما كان في الطواف جاء عند الحجر الأسود وقال: « والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لاتضر ولاتنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ماقبلتك»[1]

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلمنا إذا ماجاء بعض الناس وقال: ماسبب هذا تعيين الحجر الأسود؟ فيكون الجواب حاضراً: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا تشريع.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦ ﴾

وساعة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه ومؤد له فلابد أن نفهم حقيقة المراد، مثلما يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

---

(١) رواه مسلم

وبأي شيء نادى الله خلقه المؤمنين هنا ؟ لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » ، فكيف يقول : « آمنوا » ؟ لقد ناداهم لأنهم آمنوا إيمانا استوجب خطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أغيار . فيوضح أن الإيمان الذي استحققتم به التكليف من خطابي داوموا أيضا عليه ، وجاء الأمر هنا بدوامه ، أي كما آمنتم إيمانا جعلكم أهلا للتكليف في مخاطبتكم وقلت لكم يأيها الذين آمنوا : التزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقول الحق : « اتبع ما أوحي إليك » هو قول لرسول متبع ، إذن فهو يحمل الأمر بالمداومة على الاتباع ، ولايحزنك مايقولون يامحمد ؛ لأنك مؤيد من ربك ويتولى الدفاع عنك ويلقنك الحجة

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

ويقول الحق بعد ذلك موجها حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين)

ونعلم أن الوحي هو إعلام بخفاء ، وكل وحي هو إعلام بخفاء وقد أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصور شتى ، ولكن كل مايتصل ويختص بالقرآن كان بواسطة جبريل وقوله الحق (اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين)

أي أنه لايوجد إله إلا هو سبحانه ، ولايمكن أن يغير أحد المنهج النازل إليك منه ، وعليك أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض القطعة والإرشاد والبلاغ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لابد أن نستصحبها في تاريخ الإيمان، والقضية هي: أن أيَّ كافر لم يكفر قهرا عن الله، وإنما كفر لأن الله أرخى له الزمام بالاختيار أي خلقه مختارا، ولذلك فالكافر إنما يفعل كل فعل بما آتاه الله من الاختيار لاعصا عن رضا أو قهرا، بدليل أن الكون الذي تحيا فيه مقهور بالأمر، لايمكن أن يختار إلا مراد الله منه، وكل ما في الكون يسير إلى مراد الله

إذن فمن كفر لم يكفر قهرا عن الله؛ لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله. وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. ولذلك نزل التكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» وسبحانه إن أراد قهرا فقد قهر كل الأجناس في الكون؛ قهرها بطول العمر، وأنها تؤدي مهمتها كما أراد الله منها، إنه قهر الشمس، وقهر القمر، وقهر النجوم، وقهر الماء، وكل حاجة في الكون مقهورة له حتى الملائكة خلقهم:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا. ولكن أيريد الله من خلقه أن يكونوا مقهورين على ما يريد؟ لا، بل يريد سبحانه أن يكونوا طائعين له بحبه، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لا يحبه، كأن خلق القهر في الأجناس كان لإثبات طلاقة القدرة، وأنه لايمكن لمخلوق أن يشذ عن مراد الله منه. ويبقى الاختيار في الإنسان ليدل على أن أناسا من خلقه سبحانه يذهبون إليه جل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه، وهذه تثبت صفة المحبة

وحين يختار المختار الطاعة، وهو قادر ألا يطيع، ويختار الإيمان وهو قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لا قهرا، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يامحمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقا أوقلوبا؟ إنك يامحمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتي بالاختيار . فلوشئت إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم.

ولذلك إذا خُدِشَ الاختيار بفقد أى عنصر من عناصره يزول التكليف. بدليل أنه لاتكليف على فاقد العقل ؛ لأن آلة الاختيار عندنا هي العقل . وكذلك لاتكليف لمن لم يصبح بل يتركه الحق إلى أن ينضج ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوي السليم ويمنع عنه الإكراه بأى قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهنا يأتي التكليف

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة . وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناضج ، فقبل البلوغ لاتكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتي الإجابة من الحق سبحانه .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ

عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجاً ضرورياً من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التي حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعلها سبحانه ختماً لاتصال السماء بالأرض ؛ لذلك كان لابد من أن يستوعب الإسلام كل أقضية تتعلق بالدعوة إلى الله يحملها أميناً عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المحمدية التي شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكل مسلم يعلم حكماً من أحكام الله مطلوب منه أن يبلغه لغيره ؛ فرب مُبلَّغ أوعى من سامع حتى وإن كان الله لم يوفقه للعمل بما جاء فيما بلغ فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالواجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق ، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة ، فيقولون :

وخـذ بعلمي ولا تركن إلى عملي

واجـن الثمـار وخلِّ العـود للنار

إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضروري ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . ويبقى أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير في البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين. ومنهج الدعوة منهج صعب ؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعي بيد الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعا لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دائما للخلق ؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس. واتباع منهج الدين - كما يقولون - يحقق نفعا آجلا. وفي هذا القول ظلم للدين ؛ لأن الدين قبل أن يحقق للناس متعة آجلة ، فهو يحقق - أيضا - المتعة العاجلة ؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله في « افعل ولا تفعل » يعيشون حياة طيبة لاحقد فيها ، ولا استغلال ، ولا ضغن ولاحسد ولاسيطرة ، ولاجبروت ، فيصبح الناس جميعا في أمان.

إذن فلاتقولوا إن الدين ثمرته في الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هي الآخرة فحسب بل مهمة الدين هي الدنيا أيضا ، والآخرة إنما هي ثواب على النجاح في هذه المهمة ؛ لأن الله إنما يجازي في الآخرة من أحسن العمل في الدنيا. ومن اتبع منهج الله كما قال الله « فلنحيينه حياة طيبة » ومن أعرض عن منهج الله فإن له معيشة ضنكا. ويحدث ذلك قبل الآخرة، ثم يأتي يوم القيامة ليتلقى العقاب من الله :

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(سورة طه)

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الهابطة إلى منهج الله العالي ، فتكون مهمة الداعي شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الناصح بالخير يجب أن يكون لبقا ؛ لأنه يريد أن يخلع الناس مما أحبوا وألفوا من الشر ؛ لذلك يجب على الداعي ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا بأسلوب يكرهونه بل لابد أن يثير حنانهم ويرغبهم في اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾ (سورة الأنعام)

لقد قال الحكماء : النصح ثقيل فلا ترسله جبلاً ولا تجعله جدلاً ، والحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خفة البيان . والحقة في النصح تؤلف قلب المنصوح ، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحب إلى ما لم يتعود ، فلا يكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف . ولذلك يعلمنا الحق هذه القضية حين ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتخذون من دون الله أنداداً ؛ أي يعبدون الله ومعه شركاء .

إنهم إذن أرادوا المتعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء ؛ لأنه قد تأتي لهم ظروف عصيبة ، لا تقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر على أن ينجيهم مما هم فيه . فهم لا يكذبون أنفسهم . والحق سبحانه هو القائل في مثل هؤلاء إن أصروا على الشرك :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾

(سورة الأنبياء)

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التي كانوا يعبدونها وستكون وقوداً للنار التي يعذبون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هي غيرة ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن منهج الله في توحيد الله . فتقول الأحجار : لقد كنتم مفتونين بي ولذلك سأكون أنا أداة إحراقكم . إنما نجد المفتونين في الآلهة من البشر أو الآلهة من الأشجار أو الآلهة من الكواكب أو الآلهة من الأحجار يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التي عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعراً :

عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين في الأسحار

واتخذوا صمتنا علينا دليلاً وغدونا لهم وقود النار

للمخالف جزاؤه والمغالى فيه تنجيه رحمة الغفار

ولذلك يأتي الأمر بألا نسب ما يعبده الذين أشركوا بالله ؛ لأن الأصنام لاذنب لها ، والواقع كان يقتضي أن تتلطفوا بالأحجار فهي لاذنب لها في المفتونين بها . والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نظلم المُتَّخَذ إلها؛ لأنه معذور ، والسب هو ذكر القبيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبحت ماعبدوه من دون الله فإن العابد لها بغباوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت إلها باطلا ، وهم سبّوا الإله الحق ، وبذلك لم تكسب شيئا ؛ فانتبهوا .

ويحذرنا القرآن من الوقوع في ذلك في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وهم سيفعلون ذلك عَدْواً وعدوانا وطغيانا بغير علم بقيمة الحق وقدسيته سبحانه وتعالى ؛ لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم حتى لانجرىء الألسنة التي لاتؤمن بالله على سب الله .

إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف في منهج الدعوة ؛ لأنك تريد أن تحنن قلوبهم لتستميلهم إلى الإيمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

صحيح أن المؤمنين معذورون في حماسهم حين يدخلون في مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهي الخير للدعوة . وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين ، ويعلمنا الحق كيف نسير في منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحا عليه السلام الذى لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وظل يدعو ويتحنن في الدعوة ، إلى أن قالوا له في آخر المطاف : أنت تفتري هذا الكلام من عندك ، فعلمه الله سبحانه وتعالى أن يقول :

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة هود)

ويقول الحق سبحانه معلماً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أى من الذى يعطيكم قوام الحياة ؟ وأنت حين تسألهم سؤالاً يناقض ما هم عليه. فيتلجلجون ، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم .

﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

و « إنا » أى رسول الله ومن معه . « أو إياكم » المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقل لهم أنا وحدى على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال منهجنا ومنهجكم لا يتفقان ، ولابد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول مَن هو الذى على هدى ، ومَنْ هو الذى على ضلال ؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فلن يجدوا جواباً إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوه.

ولنتأمل أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

لم يقل الحق إنهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم - إن صح - على المؤمنين ، وجعل العمل - وإن فسد - مع الكافرين وعلى الأقل كانت المساواة تقتضى ولا نسأل عما تجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب

العالى واللطف ، لأن الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يترك الرسول لغرائزهم مكاناً للإباء عليه ، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة . ولهذا يعلمنا هذا الأسلوب فيقول :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وإن كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الأصنام فهى أيضاً مخلوقة لله وهى تعبده ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليها ، ولا لهم أيد يبطشون بها، ولا لهم أعين يبصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها . وفوق ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهل هناك ما هو أقل من الذباب فى عرفكم ؟ نعم ، يقول الحق :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

فإن جاءت ذبابة وحطت على ما تأكل ، أتستطيع أن تسترجع منها شيئاً ؟ لن تستطيع ، وإن كنت جباراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منها الطعام الذى أخذته ، لن تستطيع ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهذا هو الجدل الذي يجعل المجادل يخجل من نفسه ، لكن إذا ثرت في وجهه وتعصبت فأنت تجعل له عذراً في الحفيظة عليك والتعصب منك والهجوم عليك ، وفي الانصراف عن منهج الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناة على الجدل اللطيف .

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وحين يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة ، والدعوة في ذاتها حبيبة ؛ لذلك لابد أن يكون عرضها جميلاً .

والمثال من حياتنا : أنت تذهب إلى التاجر وعنده بضاعة قد تكون متميزة جداً لكنه لا يرتبها ولا يحسن عرضها ؛ لذلك قد تنفر منه وتذهب إلى تاجر آخر قد تكون بضاعته أقل جودة ، لكنه يحسن عرضها ، وهذا هو التزيين أي تجميل الحسن ، ولذلك سُمّي الحُلي وما تتجمل به المرأة زينة والمرأة قد تملك أنوثة جميلة ، ومع ذلك تقوم بتزيين نفسها بالحلي ، وبالجواهر والملبس الراقي . وكان العربي حين يمتدح امرأة بقمة جمالها يقول : هذه غانية ، أي استغنت بجمالها عن أن تتزين ؛ لأن ما سوف تتزين به بالعقد أقل من العقد .

والتزيين إذن تحسين العرض للاستمالة والاجتذاب ، ونحن حين نزين امرأة نعطيها وقاراً وحسناً ونزيدها جمالاً . (كذلك زينا لكل أمة عملهم) والأمة هي الجماعة التي لها أشياء تجمع أفرادها ، مثل أمة العرب أي أن المنتمين إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أي أن المنتمين إليها الإنجليز . أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، والعجم ، والأسود والأبيض ، والأصفر ، وهي أوسع رقعة ، وإن كانت الأمم السابقة زينت لتناسب عصراً محدوداً وزمناً محدوداً ومكاناً محدوداً فنحن نزينكم تزييناً يناسب كل أدوات الدنيا؛ لأنكم ستواجهون كل هذه الأمم ، فلابد أن يكون في دعوتكم أسلحة هذا وهذا وهذا

وفي هذه الدعوة ـ وكانت حينئذ ضعيفة تجد ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشي هو من يؤذن ، ونجده يقول عن ـ سلمان وهو فارسي ـ : سلمان منا آل البيت[1] ونرى سيدنا عمر يقول عن صهيب ـ وهو رومي ـ : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، أي أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله .

فإذا كنا قد زينا لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أمتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، وألواناً ، ولغات ، ولا بد أن نزينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض لمنهج الدعوة ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالتزيين ؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، والانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

أي أننا وضعنا لهم منهج نقل الدعوة إلى الخير ، وما ينال للمحسن والمطيع من ثواب في الآخرة ، والمؤمنون حينما ينعمون بنعيم الآخرة فهذا نعيم بغير حدود ؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتنعمون بكل هذه النعم يستشرفون إلى لقاء المنعم به ، ويتجلى الله عليهم .

وكما زينا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يريح الدعاة إلى منهج الله ، ولو فطن غيركم إلى ما في منهجكم من زينة لبحثوا في هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذي بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن شماله ولوجد أن لكل كائن مهمة ، ولانضم إلى المنهج التعبدي .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك.

و« ليعبدون » نعنى أن يطيعوا فى « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » وإذا قال الحق: « كذلك زينا لكل أمة عملهم » نعنى ذلك أنه سبحانه قد زين العمل بفوائده.

وأنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من تميز عنك بموهبة إنما أراده الحق على هذا التميز لينفعك أنت، ويتجلى هذا الأمر فى كل المهن: فالنجار الحاذق والمتقن تعود صنعته عليك، ومصمم الملابس الذى يتقن عمله سيعود خير صنعته عليك، ومن مصلحة كل إنسان أن يكون غيره متفوقاً، وأن يكون هو أيضاً متفوقاً فى عمله، وأن يحمد ربنا لأن خيره سيعود على غيره أيضاً، وبذلك نحيا فى مجتمع راق يتكون من أمم وطوائف مثالية، إذن فالمتفوق فى شىء يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع؛ لأن خير تفوقه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة أن يصير الكل إلى التفوق

فإذا قال الله: « كذلك زينا لكل أمة عملهم » أى جعل الله لكل منا عملاً فى الحياة، ولا بد أن ينتفع به فى الدنيا، وينتفع به فى الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه، فالذى يأخذ التزيين بقبل على العمل، والذى لا يأخذ التزيين تمليه النفس، وكل واحد إنما يزين عمله على مقدار الطموح الذى يطلبه لنفسه، ونحن نرى أمثلة لذلك فى الحياة، وتلتفت لتجد إنساناً له دخل محدود، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم، ولا يدخر شيئاً ويحقق لنفسه المتعة العاجلة، ونجد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لنجده من بعد ذلك قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق ومتع الحياة. إن الأول زين له عمله الترف العاجل، والثانى زين له عمله الترف المنمى، فإياك أن تنظر إلى شهوة العاجلة، ولكن انظر إلى الجدوى التى تأتى منها.

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وما دام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً فى « افعل » و« لا تفعل » والمرجع لمن وضع التزيين فى العمل لتأخذ المنهج الكريم منه، وعلى مقدار

ما أحدث من منهجه تأخذ من كرامته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾

« وأقسموا بالله » ، هنا قَسَمٌ : ومُقْسَمٌ به ، ومُقْسِمٌ ، ومقسَمٌ عليه . فالمُقْسَمُ به هو الله ، والمقسِم هم الجماعة المخالفون لرسول الله ، ولماذا يقسمون ؟ لقد أقسموا حين أخذهم الجدل بمنطق الحق فعلهم هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادته ، والجهد أيمانهم » تعرف منها الجهد وهو المشقة أى أنهم بالغوا فى القسم مبالغة بجهدهم ليبينوا لمن يقسمون لهم أنهم حريصون على أن يبروا بالقسم ، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم فى القسم ، وهذا معناه أنهم أعلنوا أنهم يقسمون قسما محوطا لهم ، والمحلوف لهم أكثر أن يصدقوا هذا القسم ، وهذا يدل فى ظاهره على إخلاصهم فى القسم

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة الأنعام)

ألم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية وصحبه ؟ لقد جاءهم بمعظم آيه وهى القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم إنى رسول بعد أن أعلن الآية وهى نزول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق فى التبليغ عن الله وكان ذلك هو قمة المماحكة منهم ، وساروا على ذلك حين اقترحوا هم الآيات على الله ، ألم يقولوا

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن

نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وأراد الحق بذلك أن يبين لنا أنّ القسم الذى أقسموه هو قسم مدخول فقد قالوا: « كما زعمت علينا » والزعم ـ كما نعلم ـ مطية الكذب وهذا أول خلل فى القسم .

ويقول الحق :

﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية ٩ سورة سبأ)

هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصيلة وهى القرآن ، فيتحملونه فى أنه ينزل بالوحى ، فيحذرنا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحركم ، فلماذا لم يسحرهم ليؤمنوا بالله ؟

وهكذا نرى أن الحق قد ذكر لنا فى كتابه أن كل ما يقولونه فى هذه

المسألة هو مـزوق وهروب من الاستجابة للدعـوة ، لأنه لا توجد آية أعظم من الآية التى نزلت عليهم وهى القـرآن ، وكل الآيات التى اقـترحـوها لا تسمـو على هذه الآية ؛ لأنهم أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فـجاء لهم بالمعجزة التى تفوقوا فيهـا . وهم لم يتفوقوا فى الأشيـاء التى ذكروها واقترحوها . إنـنا نأتى لهم بمعجزة من جنس ما تفـوقوا فيه ؛ لأن المـعجزات دائماً تأتى على هذا الأسـاس ؛ فكل قوم تفوقـوا فى مجال يأتى الله لهم بشىء يتفوق عليهم فى مجـال تفوقهم ليثبت صدق الرسول فى البلاغ عنه .

ولقد قلنا : إن المعجـزات تأتى خرقاً لنواميس الكون الثـابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأصبحت متواترة أمامهم ؛ فإذا ما جاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم يلفتون متسائلين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذى خلق الناموس هو الذى خرق النامـوس ؛ لكى يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جـاءتكم المعجـزة من جنس ما نبـغتم فيـه ، والذى يدل على ذلك أنهم لا يتكلمـون فـى المـعجـزة بل فى المنهج وفى شـخص من جـاء بـالمنهج ، تجـدهم يقولون :

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة الأنعام)

فـيـوضح القـرآن أن الملك بـطبـيـعـة تكوينه لا يُرى منكم ؛ هـو يراكم وأنتم لا ترونه ، وإذا أرسلنا ملكاً فكيف تعرفونه ؟ إذن سيتطلب إرسال ملك أن نخلع عليه وضع البشر ، وأن ينزله الحق فى صورة بشر ، وإن نزل فى صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشراً ولسنا ملزمين بما جاء به :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الأنعام)

وكـان سـيـدنا جبريل ـ عـلى سبيل المثـال ـ ينزل إلى رسول الله أحـياناً فى صورة رجـل قـادم من السفر ويقـعد ويتكلم مع سـيـدنا رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ، لـم يأت جبـريل عليه السلام ـ إذن ـ بطبـيـعـة تـكوينه بل جـاء

بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن . ونحن لانقدر أن نرى الجن ، ولانستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إن أراد الجن أن يرينا نفسه فهو يتشكل بشكل مادى يرى ؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولوكانت هذه المسألة غير مقيدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين ــ الإنس والجن ــ لتعب الناس ؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفى يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان أكثر مما نخاف نحن منهم ؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنسى أو أى شكل مادى ، وحينئذ يحكمه قانون الإنس وإن التقى بشخص معه مسدس ــ مثلا ــ فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما يظهر كومضة البرق ويختفى ؛ لأنه يخاف كما قلنا ــ من الإنسان . إذن فالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع علىّ الصلاة وإن الله أمكننى منه فَذَعَتُّهُ ، فلقد هممتُ أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخى سليمان : « رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى » فرده الله خاسئا ، وفى رواية : « والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة »[1] .

وهكذا نعلم أن القوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولايؤجل ذلك للآخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

(١) رواه مسلم واللفظ له فى الصلاة فى كتاب المساجد ، ورواه البخارى فى الصلاة ، ورواه أحمد ومعنى (يفتك) : يأخذ فى غفلة وخديعة وفى رواية (تفلّت) ومعنى (فذعته) بذال معجمة وتخفيف العين المهملة أى خنقته وفى رواية أخرى (فدعته) بالدال المهملة أى دفعته دفعاً شديداً ومعنى (سارية) إسطوانة

إذن فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته .

﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لاآتي بالآيات من عندي ولاآتي بها بقانون قدرتي ؛ لأن قانون قدرتي مساوٍ لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحى إليّ وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إنّ الله هو الذي يناولني آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية ؛ لأن ماسبق في الرسالات السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسبحانه يهلكهم ويستأصلهم أو يغرقهم أو يرسل عليهم ريحا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فبعض أهل الرسالات السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتي الآية كما يريدها الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : « قل إنما الآيات عند الله » ثم يأتي خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » فكأنهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنتهم مع رسول الله فقالوا له : يارسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجاجتهم ، فيتجه الله بالرد على من فرط هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون وظنكم حسن ، وفكرتكم طيبة في أنكم تريدون أن تكسروا حدة العنت ، لكن مايشعركم : أي مايعلمكم أن الآية التي اقترحوها إن جئت بها لايؤمنون . فكأن المؤمنين أيدوا قول هؤلاء المشركين في طلب الآية منعا للجاج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر